د. علي فهمي خشيم

بحثاً عن فرعون العربي

ودراسات أخرى



بحثا عن فرعون العربي

ودراسات أخرى



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي. في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

علي عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368

د. علي فهمي خشيم

بحثاً عن فرعون العربي

ودراسات أخرى



الكتاب : بحثًا عن فرعون العربي
وداسات أخرى

الكاتب : د. علي فهمي خشيم

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الثانية : القاهرة 2001

رقم الإيداع : 2001 / 14414
الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-339-9

الغلاف :
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكتروني :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
سيد حرزاوي
تصحيح ومراجعة : زكريا منتصر
كمال عبد الرسول

إهداء

إلى الذين أعطوا دون انتظار جزاء

أساتذتي في مرحلة الطلب الأولى

مختار معافى

سليمان عبد العالي

علي عمر عاشور

رحم الله من ارتحل منهم وبارك في من لا يزال

إلى القارئ

هذه المجموعة من الدراسات والأبحاث قد تبدو لك منوَّعة الموضوع، لكنها بالتأكيد موحَّدة الغاية والهدف. فهي تدور في نطاقين: اللغة والتاريخ.. وتبحث عن الجذور القديمة الجامعة الرابطة، وتحاول تصحيح صور مغلوطة وتصويب مفهومات خاطئة، فهي بهذا تناقش القديم لتحيله جديداً كما يجب أن يكون.

ثم هي تتحرك في دائرتين، دائرة الوطن العربي الكبير - ولها المقالات السبع الأول - ودائرة القطر العربي الليبي وتتدرج من المقالة الثامنة فما بعدها، تربط الدائرتين حلقة لا تنفصم.

وقد نشرت هذه المجموعة على فترة في مجلات "الثقافة العربية" و"الفصول الأربعة" و"تراث الشعب". وأثار ما نشر في "الثقافة العربية" اهتمام الصديق الدكتور عماد حاتم، الأستاذ بكلية التربية بجامعة الفاتح، وهمَّته كذلك، فكتب ما نشره في المجلة ذاتها وآثرت إثباته في المقدمة علَّه يكون مقدَّمة مناسبة لهذه المجموعة التي بين يديك الآن.. شاكراً للدكتور حاتم ما تفضَّل به وشاكراً لك، أيها القارئ، اهتمامك.

والسلام -



نظرة جديدة
إلى الموروث الحضاري اللغوي القديم

أول ما يتَسم به التاريخ العربي العراقة وامتداد الجذور في تراب الزمن. وإذا كانت هذه الظاهرة تثير الشعور بالأصالة والاعتزاز، فإنها كانت في الوقت نفسه واحداً من أبرز الأسباب في اضطراب النظرة وتشعَب الآراء حول الأصول الأولى لهذا التاريخ، حتَى أصبح تاريخنا القديم في لوحته الحاضرة معرضاً عجيباً للتخمينات، والاجتهادات والنظريات المتضاربة، والمتعسفة في كثير من الأحيان،فبينما يتجه بعضها إلى البحث عن الحقيقة الموضوعية نجد الكثير منها يرمي إلى تشويه التاريخ وصرفه عن مساره الصحيح.

وقد كانت دراسات الدكتور علي فهمي خشيم التي نشرت خلال العام الماضي(*) في "الثقافة العربية" واحدة من المحاولات الجادة والرائدة في ميدان إعادة الصورة الصحيحة لتاريخنا القديم، فقد جمعت إلى طرافة الموضوع وجاذبية العرض قوة في الإثبات والحجة جعلتنا نأمل مستقبلاً في قراءة المزيد من هذه الدراسات التي تسهم بقسط وافر في إنارة حجب الماضي الغابر وتلقي الأضواء على مختلف جوانب شخصيتنا القديمة.

نشرت هذه الدراسات في أعداد متفرّقة من المجلة وكانت على التوالي :

1 "العريبيون" (العدد 1، يناير1982).

2 "الباطش" (العدد 5، مايو 1982).

3 "هللوياه" (العدد 7، يوليو 1982).

4 "زيوس عربيًا" (العدد 9، سبتمبر1982).

5 "بحثاً عن فرعون العربي" (العدد11، نوفمبر1982).

(*) 1982.

وهي تستند على مجموعة كبيرة ومتلونة من المصادر والمراجع التي تجمع بين مختلف النقوش القديمة وبين المراجع العربية والأجنبية، التاريخية منها والفلسفية والأدبية واللغوية، كما أنها تعتمد منهج التحليل الفيلولوجي المقارن وتناقش جملة من القضايا لتضع أمام القارئ مجموعة من النتائج الهامة. غير أن أهم ما في هذه الدراسات هو الإيحاءات التي تنطوي عليها وما تثيره في الخاطر من تأملات، وسنتوقف في ملاحظاتنا هذه أمام جانب واحد فقط من هذه الإيحاءات وهو تأكيد الدكتور الباحث على وحدة الأصل "العربي" القديم الذي تنتهي إليه جميع الخيوط اللغوية في الشمال الإفريقي والمشرق العربي.

أما المنطلق الأساسي لهذه الدراسات فهو ما ذكره الباحث في مستهلّ مقاله الأول وهو ضرورة "إعادة كتابة التاريخ"، تلك الضرورة التي طالما أحسّ بها العلماء والباحثون العرب وعقدوا من أجلها الندوات والاجتماعات، وكانت النتيجة - على عادة ما يحدث في أمثال هذه المؤتمرات - أن " جلّ ما فعلناه أننا شمّرنا عن ساعد الجدّ لنسطّر المجلد تلو المجلد، ونعيد كتابة التاريخ على هوانا الذي نبغي، دون الالتفات إلى حقيقة بسيطة هي أن هذه الأمة قد زيف تاريخها وحرف مسارها ومزقت شر ممزق في ماضيها وحاضرها وربما مستقبلها أيضاً، إلا أن يتداركها الله " (1-45).

ونشير بهذه المناسبة إلى بدهية لم تستوقف الدكتور الباحث - ربما لأنها بدهية - وهي أن التجزئة السياسية العربية الحاضرة قد جرَت، إلى جانب الأخطار التي يصعب حصرها، خطراً كبيراً على الموضوعية العلمية، فالملاحظ، وخاصة في الفترة الأخيرة، أن كثيراً من الأقطار العربية الداخلة في الخارطة الموزاييكية البهراجة للواقع السياسي العربي، أخذت تنكمش على حدودها الإقليمية وتصوغ لنفسها شخصية مستقلة منفصلة، ويظهر ذلك خاصة في ميدان التربية بدءاً من تعليم الأبجدية وحتى المناهج الجامعية، كما أن أخطر آثار هذه التجزئة

السياسية تجسده حقيقة جديدة وهي أن الحدود الجغرافية التي رسمتها أيد أجنبية بدأت تغوص "عموديًّا" في التربة التاريخية أيضًا حتى خيّل لبعض الأقطار العربية أنها تمثل أمماً مستقلة متكاملة وأخذت تكتب تاريخها على هذا الأساس.

ولكي يضع الأمور في نصابها ويبدأ بتسجيل الصفحة الأولى في رحلة تصحيح التاريخ الطويلة ينطلق الدكتور خشيم من الوحدة العرقية اللغوية الكيانية لأمَة العرب، ويبين أن وحدة الأمة تزداد وضوحاً وتلاحماً كلما توغلنا في حجب التاريخ القديم. فوحدة الجذور (المفرداتية) بين مختلف مناطق الشمال الإفريقي والمشرق العربي دليل على وحدة هذه الأمة التي انتشرت فوق بقعة من الأرض مترامية الأطراف.

وإذا كنا لا نرمي في دراستنا هذه إلى إعادة سرد ما جاء في مقالات الدكتور الباحث فإننا لا بدّ أن نشير إلى منهجه في التحليل والمحاكمة وإلى طرافة ما ينتهي إليه من نتائج، ففي الحديث عن لفظتي "ليبو - ريبو" و"عريبو" يسوق المؤلف عدداً كبيرا من البراهين على تطابق المصطلحين ووحدتهما. وينتهي من ذلك إلى القول: "إننا نعلم مما سبق أن كلمة العرب أو الأعراب أو العربيون كانت تعني البداوة أو القفر أو الجفاف في جميع النقوش والآثار القديمة في مقابل الحضر وأهل المدن والأمصار، ألم يكن المصريون هم أهل الحضر - أهل المصر - في مواجهة أهل البداوة من جيرانهم الغربيين؟ أليس من الجائز، بل المرجَح، أن تعبيرهم بكلمة (ريبو) مقصود به ما تعني كلمة (عريبو)؟ أليس من المقبول أنهم كانوا على علم بالصلات الوُثقى بين عرب المشرق وعرب المغرب، اجتماعيًا وثقافيًا وعرقيًا كذلك، أو بين أعراب المشرق والمغرب، أهل البداوة.. وهم مطمئنون في حياتهم الرغدة على ضفاف النيل الخصب، فأطلقوا الاسم ذاته، على الفريقين؟ وأخيراً أليس من المعقول أن يكون اللفظ - بصيغ نطقه المختلفة هو المستعمل للدلالة على جناحي الأمة في مشرقها ومغربها؟" (1-16) وتزداد هذه الوحدة بروزاً في كلمة "الباطش" الواردة

لدى هيرودوت والتي اختصها المؤلف ببحث خاص. فـ"باتوس" الواردة في النص الهيرودوتي عن ليبيا يلتقي بباتيس، قائد الجيوش العربية التي تصدت للإسكندر، ومن تحليلات طويلة لهذا الاسم نتوصل إلى "الصلة اللغوية الوثيقة بين اللغتين الليبية والمصرية من جهة ولغات الجزيرة العربية من جهة أخرى" (2-11). ويقطع المؤلف مسيرة طويلة مع هذا الاسم الذي كان يطلق على الملوك أو كبار المتنفذين لينتهي من ذلك إلى القول: "يالها من رحلة طويلة، في الزمان والمكان، قطعها هذا الباطش من الجزيرة العربية إلى مصر، إلى ليبيا، أو العكس" (2-14). وفي تحليله لكلمة "هللوياه" يخوض المؤلف حواراً طويلاً مع الكلمة القديمة ليقدم لها التخريج المنطقي. ومن مقالته هذه ينتهي إلى القول «من العُبَّاد حول الكعبة، إلى الطائفين حول بحيرة ترتونيس في شمال إفريقيا، ومن نيث إلى مناة، ومن هدب جلد العنز المدبوغ إلى الحوف والرهط، إلى أثينا ودرعها الشهير، ومن الإهلال إلى الهللوياه؛ من عشرات التفاصيل المتماثلة في العبادات والشعائر بين عرب الجزيرة وعرب شمال إفريقيا، في جاهليتهم وإسلامهم، نستطيع معرفة الكثير من وحدة هذا الوطن الكبير بتتبع الخيوط الملونة.. في كل مجال» (3- 85). أما تسمية الإله اليوناني الأكبر زيوس (الذي يعني الضوء) والذي أخذه اليونانيون عن أجدادنا القدماء فإنها تعود أيضاً إلى أصل "عروبي" واحد الأرومة فـ"عندما يحدد هيرودوت أن الإغريق (أو قدماء البلاسجيين) أخذوا أسماء أربابهم من مصر، فإن المفهوم أنه يعني أهل ما يسمّى بالدلتا (والكلمة يونانية تعني حرف الدال وأخذها اليونانيون عن الكنعانيين: الدالت: د). وكان أهل الدلتا على مدى التاريخ ليبيين في صبغتهم العامة (كانوا يسمون في المصادر المصرية: التمحو، والكلمة لا تعني شيئاً سوى: بلد الشمال). أو على الأقل كانت الدلتا منطقة امتزاج وتلاق بين الشعوب "العروبية" من الليبيين في الغرب والمصريين في الجنوب وعرب الجزيرة في الشرق" (4-24) "فإذا كنت مغرماً بالتنقيب في المناجم العتيقة، مثل بعض الناس،

ووقع في يدك صدفة معجم بالهيروغليفية فسوف تقرأ حتماً هذه الكلمات : دوءت Dw 3t : صباح، نور الصباح، ضوء الصباح.
دوء Dw 3 : يصلي، يعبد، يدعو (في الصباح خاصة)، يدعو للضياء.
دوت Dwt : يوقد النار يشعل، ينير، يضيء.

وما نستفيده من هذه الكلمات الفاخرة الثلاث أنها ومشتقاتها ليست سوى الكلمة العربية.. ضوء.. بذاتها ومشتقاتها" (3-24).

وإذا كانت بعض الدراسات "الكلاسيكية" قد درجت على تفتيت عالمنا القديم وإعلان نوع من الفصل السميك بين عالم قدماء المصريين وبين العرب وعمقت ذلك بعض الاتجاهات المشبوهة المعاصرة، فإن الحقيقة الموضوعية تثبت أن هؤلاء أشقاء للعرب، وأننا نرتبط معاً بكل الخيوط التي تربط الأشقاء من الأجداد إلى الأحفاد.. وقديماً أدرك شامبليون أن الطريق إلى حل رموز الكتابة الهيروغليفية القديمة يسير عبر العربية فتعلمها وتعلم القبطية وكان في ذلك سر نجاحه الباهر. ومهما يكن فقد حاول الدكتور علي فهمي خشيم في هذا المضمار أيضاً أن يعيد الأمور إلى حقيقتها فسار بنا في رحلة طويلة بدأها بالأسباب التي أوجدت كلمة "فرعون" وكيف جمعت هذه الشخصية بين واجبي الدين والدنيا وهو يحملها معنى يفيض عما تحمله كلمة "ملك" التي استعملتها اللغات العروبية الأخرى ويتوقف طويلاً ليحلل الألقاب الأكثر انتشاراً في المصرية القديمة وهي : (ن ب، ن س و، ب ت، ح ك و، ف ر ع)، ومن تحليل هذه المفردات وإجراء المقارنات الوافية بينها ينتهي بكل منطقية إلى القول : "فإذا عدنا إلى لقب "فرعون" لا نجد صاحبه يخرج عن هذين الأمرين، البسطة في الجسم أو المال أي القوة (فارع) أو العظمة (فرعم)، وهذه هي الصفة المفترضة للملك.. أو الفرعون.

هل نفهم من هذا أن الجذر العربي (فارع) هو أصل لقب فرعون؟؟" (5 -52).

وبأمثال هذه الشواهد وبالمقارنة فيما بينها وتبيان علاقاتها المتداخلة

وبما تنطوي عليه من مدلولات ومعان يتوصل الباحث إلى إقناعنا بعودة اللغات القديمة في الشمال الإفريقي والمشرق العربي إلى أرومة واحدة، إلى أصل واحد يسميه بـ "العروبة" الأولى وهو ما نوافق الدكتور الباحث عليه. والحق أن من المستحيل الآن تلمس الملامح الدقيقة لتلك اللغة الأولى في العصور الغابرة السحيقة، وذلك بسبب انعدام الآثار المدونة (جرّاء انعدام الكتابة) إلاّ أن المؤلف استطاع أن يضع أيدينا على عدد من الحقائق الهامة التي تنطوي عليها المفردات العربية القديمة، مثلما استطاع أن يقنعنا بمشروعية تساؤله المتعلق بالموطن الأصلي للساميين واحتمال أن يكون ذلك الموطن هو الشمال الإفريقي لا الجزيرة العربية. وقدم مجموعة من البراهين على عراقة الاتصال بين الموطنين والهجرات المزدوجة بين المنطقتين وإيغال هذه الهجرات في القدم حتى لتبدو الهجرة الفينيقية في ضوئه حديثة العهد فكيف بالهجرات التي ارتبطت بالفتح العربي ؟ والحق أن هذه البقعة الكبيرة من الأرض تمثل منذ القدم وحدة ترابية تاريخية متكاملة والبحار التي تظهر على خارطتها فاصلة بين الأجزاء لم تكن غير طرق للاتصال الأبدي. كما أن هذه الوحدة التاريخية المصيرية تفسر ظاهرة تاريخية هامة وهي تعرب المنطقة السامية العروبية، والأسباب التي أدت إلى ذلك. فالتلاحم الشديد بين الإسلام وبين اللغة العربية (لغة القرآن الكريم) أمر معروف، ومعروف أيضاً أن الإسلام قد انتشر فوق مساحات شاسعة من العالم واعتنقته شعوب من مختلف العروق والألوان والمشارب والألسنة اللغوية، بل وكان من بين هذه الشعوب من أظهر نحو الإسلام غيرة لا تقل في صدقها عن غيرة العرب فحملت هذه الشعوب رسالة الدين الجديد وسارت بها نحو أرض جديدة واستشهد أبناؤها في سبيل مجده وعزته كما فعل الفرس والغزنويون والترك. لكن هذه الشعوب لم تتعرب رغم حماسها وصدقها الديني ورغم ما تعرضت له لغاتها من تأثير العربية. ومما يذكر أن الانشطار السياسي عن الدولة العباسية

والذي حدث في المشرق سرعان ما تلاه انشطار "لغوي" فكانت الفارسية اللغة شبه الرسمية في الدولة الطاهرية فالسامانية فسواهما .....

أما الشام ومصر ومختلف مناطق الشمال الإفريقي فقد اعتنقت الإسلام والعربية بسرعة كبيرة وبصورة طبيعية وبيسر وسهولة لا يفسرها غير الوحدة العرقية والأصل اللغوي القديم، إذ إن العربية لم تكن في أي يوم غريبة عن هذه الأرض(*)، وتاريخ اللغات الإنسانية يعرف عدداً من حالات مشابهة فلهجات وفروع اللغة الواحدة كثيراً ما تتعايش على مدى فترة طويلة من الزمن ثم يحدث لأسباب سياسية أو دينية أو كليهما معاً أن تتهيأ أسباب الانتشار لواحد من هذه الفروع أو اللهجات الشقيقة فتزحم أخواتها وتحتويها في عملية طبيعية يفرضها منطق التاريخ والاتجاه الطبيعي من حياة التشتت الأسري القبلي إلى حياة الدولة المركزية الموحَدة.

ونحن العرب لا نمثل في ذلك كله طفرة خاصة بين أمم الأرض. فإذا كانت العربية للأسباب التي ذكرناها قد زحمت لهجات الجنوب العربي واللغات السامية الأخوات : السريانية والآرامية والقبطية، ولهجات البربر، فقد حدث أمر مشابه لذلك عندما بسطت لندن المركزية هيمنتها على اللهجات الإنجليزية الأخرى، وحدث مثيل ذلك عندما سيطرت لهجة باريس على مختلف لهجات الفرنسية إثر قيام الدولة المركزية الفرنسية والقضاء على التجزؤ السياسي الإقطاعي،

(*) يخطو الدكتور محمد عمارة خطوة أبعد في تفسير ذلك الأساس المتجانس الموحد الذي مهد لانتشار الإسلام وقيام الدولة العربية الواحدة، فهو يقول : " عندما جاءت الفتوحات العربية .. وقف العرب في العراق والشام، وكذلك المصريون ذوو الأصول السامية - مع العرب المسلمين ،رغم خلافهم الديني مع الفاتحين واتفاقهم في الدين مع الفرس والروم .. " انظر د. محمد عمارة. الإسلام وقضايا العصر. دار الوحدة ببيروت 1980 ص 21.

كما استطاعت لهجة موسكو ، بعد عمليات التوحيد السياسي ، أن تزحم اللهجات الروسية المتفرقة . . أما بالنسبة لألمانيا فإن تجزؤها الإقطاعي ، الذي اتصل فترة زمنية طويلة ، هو الذي يفسر تباعد لهجاتها عن بعضها حتى الوقت الحاضر .

والجدير بالإشارة أن عملية التعرب نفسها اتخذت مساراً متشابهاً بالنسبة للساميات التي بدأت انصهارها وتذاوبها بالعربية . وربما حدث بعض التباين في الفترة الزمنية التي تمت فيها عملية التعرب إلاّ أن العملية نفسها اتخذت مساراً واحداً متشابهاً في جميع الأراضي السامية ذات الأصل الواحد : فالفصحى واحدة لا اختلاف فيها ، أما اللهجات فهي عربية اصطبغت جوانب قليلة منها بالشقيقات السابقات فبقيت بعض آثار البربرية والقبطية والسريانية في أسماء الأماكن والمدن والجبال وفي نطق بعض المفردات وفي إسناد بعض الأفعال إلى الضمائر وبعض صيغ الجمع وما إلى ذلك . كما أن من الظواهر البارزة محافظة هذه اللغات السامية على نفسها في جزر صغيرة جداً في خضم التعرب الذي عاشته المنطقة بأسرها .

وكان سبب بقاء هذه الجزر دينيًا بالنسبة للسريانية والقبطية (فقد كتبت بهما كثير من النصوص الدينية المسيحية وترتبط بهما كثير من الصلوات والتراتيل الكنسية حتى يومنا هذا) كما كان سبب بعض الانعزال عن مراكز التعرب بسبب العوائق الطبيعية كما هو الأمر بالنسبة لبعض لهجات البربر ، إلا أن جميع من يتكلم القبطية والسريانية أو البربرية ودون أي استثناء يعرفون العربية وعلاقاتهم بها هي علاقة الأبناء بلغتهم الأم . أما الاختلاف في معرفة العربية أو الكتابة بها فمرده الاختلاف في المستوى الثقافي وليست له أية علاقة بأسباب عرقية أو لغوية .

وهذا بمجموعه يوصلنا إلى حقيقة معاصرة ربما تبدو خارجة عن إطار بحثنا هذا وهي الموقف الاستعماري من هذه الجزر ومسلكه إزاءها .

فالاستعمار الذي خرج علينا بأساطيله ومدافعه وعرقيته العنصرية، اعتمد أيضاً جيشاً آخر من رجال الدين وعلماء اللغات الذين اتجهوا ليمهّدوا الطريق للاستعمار ويذللوا له الصعاب عن طريق بذور التشتت والفرقة.

وبينما كان "المبشرون" يبحثون عن ضحاياهم كان علماء اللغات يعنون التفكير في السبيل المؤدية إلى تفتيت الجسد الواحد الذي زاد التعريب من تماسكه ووحدته فبدأوا باللهجات وأعلنوها "لغات" مستقلة، ولم يتورع المستعمرون الطليان عن إصدار كتب مستقلة باسم "اللغة الطرابلسية" و "اللغة البنغازية" ! إلاّ أن غاية ما كان يبحث المستعمرون عنه هو تلك الجزر اللغوية الصغيرة فحاولوا إعطاءها صفة الاستقلالية والتميز، والذي حدث في الشمال الإفريقي حدث مثيل له في بلاد الشام. فالمسلك الذي يسلكه الفرنسيون نحو القبائلية في الجزائر كان مسلكهم نحو السريانية والآرامية في الشام إذ أهووا بفؤوسهم على الجذور العميقة لهذه اللغات وحاولوا فصلها عن العربية بل أعلنوا المتكلمين بها شعوباً غير سامية(!)، والغريب أن الاستعمار الذي كان يضن بالتعليم، حتى باللغة الفرنسية على الجزائريين، أبدى "غيرة" علمية على اللهجات القبائلية فاختصّها بفرع خاص في جامعة الجزائر وصار يذيع بها الأخبار ولا يزال الاهتمام متزايداً بها في الجامعات الباريسية ! بيد أن الوعي كان ولا يزال أقوى من هذه المحاولات وفروع الجذع الواحد تزداد تعانقاً لتعبر عن وحدة المصير. ومما يذكر بهذه المناسبة موقف المهاجرين السريان من العربية فأحدث العمليات "التبشيرية" الاستعمارية في تاريخ المشرق العربي كانت استدراج آلاف السريان إلى السويد في هجرة جماعية من سورية قامت على أساس وصفة استعمارية تقوم على "تميز" العرق واللغة إلاّ أن هؤلاء يتكلمون العربية في مهجرهم وبها يصدرون نشرتهم الدورية، ولما سئلوا عن اللغة الأم التي يريدون أن يتعلمها أطفالهم أجابوا بصوت واحد.. العربية !

***

من هذا كله تكتسب مقالات الدكتور علي فهمي خشيم أهميتها وترتدي لبوسها العصري بحيوية القضايا التي تطرحها وبفعاليتها ومساسها بواقعنا وتكويننا الحالي، إنها تضرب بعيداً في أعماق التاريخ لتعود إلينا بالكثير من ملامح شخصيتنا الحاضرة ولتجيب عن الأسئلة التي نعيشها ولتتصدى في الوقت نفسه لعمليات التفتيت والتشويه التي يتعرض لها جسم الأمة الواحدة، وحبذا لو تعتمد هذه النظرية الموضوعية الهامة منطلقاً أساسياً لكتابة "تواريخنا" القديمة في جميع الأقطار العربية. ويحزنني أن أعترف للدكتور علي فهمي خشيم، ولكل الغيورين على الحقيقة العلمية، بأننا إلى أن تتحقق الوحدة العربية وبعدها سنظل بحاجة ماسّة إلى أمثال هذه الدراسات العلمية التي تؤكد لنا حقيقتنا الواحدة وتضاعف من شعورنا بالتلاحم. ومهما حاولنا أن ننتقص من قسوة الحدود الأساسية التي تفرق بين أجزاء الوطن الواحد وأن نستهتر بواقعنا الممزق فإنه أشد خطراً على الحقيقة العلمية مما نتصور، وإن أفجع ما يمكن أن يتمخض عنه هذا الواقع المجزأ هو تفريخ الأوهام بأننا ننتمي إلى "أمم قديمة شتَى" وحتَى تتحقق الوحدة السياسية ستلاقي هذه الأوهام من ينفخ فيها ويضخمها ويحاول إلباسها أثواب الحقيقة. وأذكر جيداً أن ومضة خاطفة سريعة من العودة الصحيحة إلى التاريخ الأصيل قد تألقت أيام الوحدة بين سوريا ومصر، فآنذاك فقط، وبعد أن زالت الحدود وزاد اقتراب الأشقاء من بعضهم توصلنا إلى البدهية الأولى في سفر تاريخنا (والتي كانت محور مقالات الدكتور خشيم)، وانعكست هذه البدهية في برنامجنا التعليمي فانطوت كتب التلاميذ المدرسية على عبارة تقول: إن الفراعنة عرب وإن الفينيقيين عرب.

د. عماد حاتم

بحثا عن فرعون العربي

يحمل تاريخ الحضارات في طياته غرائب وأعاجيب، قد تدخل أحيانًا في باب "اللامعقول" لتناقضها مع الصورة العامة الموروثة ومخالفتها للمألوف مما اتفق عليه، وهذا الذي " اتفق الناس عليه " هو السر الكامن وراء التعجب والاستغراب.

لنأخذ الحضارة المصرية مثلاً، حضارة " السبعة آلاف عام " كما يحلو للبعض أن يشدو ويترنم، وليس من العيب هذا الشدو وذاك الترنم إذا ما اتفق في نمط من التناغم "الهارموني" الحضاري الفاخر للمنطقة العربية بأكملها، في جوقة موسيقية متكاملة تتفاعل ألحانها وتتراكب أنغامها لتكون "سمفونية " ثقافية تاريخية واحدة، بيد أن الخطأ يبدأ حين ينطلق المرء يردد لحنًا منفرداً "ميلوديا" واحداً يحاول أن يطغى به على بقية الألحان، فيفقد رواءه التناغمي ويفسد مسحة الجمال في الأنغام المصاحبة الأخرى.

قامت الحضارة المصرية القديمة، على دعامتين كبيرتين في أساسها الثقافي المدني : **الدّين** باعتباره محور حياة المصريين، في الدنيا والآخرة، ومحرك عواطفهم، والباعث على تسطير أفكارهم ودعواتهم وصلواتهم للأرباب على جدر المعابد وورق البردي، مما كوّن تراث مصر اللغوي والثقافي كله. ثم : **الملك** باعتباره مركز الاهتمام والحركة السياسية والإدارية والاجتماعية، حتى صار هو المعبود، له تبنى الأهرامات وتسجد الرعية ويسبح باسمه صباح مساء.

هكذا قامت حضارة مصر القديمة، ومع هذا، وهنا موطن العجب، تخلو اللغة المصرية تماماً من الكلمتين الأساسيتين المهمتين : " الدين "

و"الملك" والمقصود بتعبير "الدين" هنا ذلك النظام الخاص المركب من معتقدات وطقوس تحدد معالم سلوك الفرد فيما يتعلق بالدنيا والآخرة مما يقابل كلمة Religion مثلما هو الحال بالنسبة لليهودية والنصرانية والإسلام أو حتى البوذية، ذلك لأن مدلول مثل هذا النظام كان بعيداً عن ذهن المصري القديم. صحيح أنه كانت لديه تصورات عن نمط من الشعائر، مثل الصلاة وتقديم القرابين، وأفكار خلقية كالتواضع وفعل الخير، مما نجده في اللغة المصرية وخاصة في المرحلة المتأخرة، كما كانت لديه تصورات معينة عن الآلهة والكون والخلق والبعث وغيرها مما يدخل في صميم الديانة، لكن هذا وحده لا يكون نظاماً دينيًا مركباً شاملا بحال [1].

والملاحظة المهمة هنا أن كل ما يتعلق بحياة المصري القديم الدينية، تجاوزاً، من معتقد وعبادات كان منبثقًا عن موقفه من فرد واحد، وهو الفرعون، فهو ابن الإله، أو الآلهة، بل هو الإله المعبود ذاته، وكلمته هي العليا وهي القانون، وهذا ما يفسر خلو التراث المصري من تشريع ثابت أو قوانين متفق عليها يسير على هديها المجتمع ويطبق نصوصها القضاة، كما هو الحال مثلاً في حضارة بابل، فقد كان الفرعون مركز الوجود ومصدر القوانين والمرجع الأول والأخير في جميع ما يتصل بالسلوك العام والخاص على حد سواء [2].

---

(1) Hall and Simpson .The ancient Near East,p.216-17

ويقول ج شيرني J.Cerney في كتابه Ancient Egyptian Religion (ص57) : " إن أي عمل من أعمال الدين من وجهة نظر المصريين القدماء هو في تصوره شأن من شؤون السحر . وحقيقي أن اللغة المصرية افتقرت إلى كلمة تعبر عن (الدين) ، وأقرب كلمة تعبر عنه هي كلمة (هيكي hike) التي تعني (السحر) " .

(2) Speiser' Oriental and Biblical Studies,p.548

" كان الفرعون ، باعتباره إلها ، هو الدولة.. ومن الضروري لأية دولة أن=

وكان الموقف غريباً حتّى في علاقة الفرد بالآلهة، إذ لم تكن ثمة علاقة مباشرة أبداً بين البشر والأرباب، بل لا بد من وسيط هو الفرعون ذاته الذي تحبه الآلهة، وقد تحب البشر بشكل ما، أما أن يحب البشر الأرباب فهذا ذاته مالا يجوز[3] ومن هنا كان " الدين " شيئاً بعيداً عن ذهن المصري، وكانت عبادته للأرباب، متميزة أو متمثلة في الفرعون، مجرد طقوس تؤدى بطريقة آلية واجبة التطبيق دون إحساس شخصي بوجود الألوهية المباشرة، وهذا ما جعل من حق الفرعون أن يقول "أنا ربَكم الأعلى" [4] بالمعنيين : الربوبية الدينية والربوبية الدنيوية.. أي الحاكم المطلق غير المنازع.

في الفرعون إذن نجد امتزاج الدين والدنيا وتداخل فكرة "الدين" وفكرة "الملك" المطلق، فهو الفرد الممثل لكليهما معًا، وبانتفاء مفهوم الدين كنظام معين انعدم اللفظ المعبّر عنه في اللغة ووجدت ألفاظ تعبر عن الأفكار والشعائر والتصورات الدينية دون النظام ذاته. وبتداخل مفهوم "الملكية" مع الألوهية في شخص الفرعون لم تكن صورة "الملك" كما عرفتها الحضارات القديمة الأخرى، أو كما نفهمها نحن الآن، واضحة في ذهن المصري فانتفت هي الأخرى من قاموس اللغة وحل محلها تعبيرات مختلفة استعملت للإشارة إلى هذا الملك الإله عند الحاجة.

= يكون لها قواعدها وتنظيماتها للإجراءات الإدارية ، ولكن من الواضح أنه لم يكن في مصر تشريعات مقننة متفق عليها وإليها يرجع الإداريون والقضاة دون اعتبار للتاج . وكان العرف أن كلمة الفرعون هي القانون .. وقد منع تركيز الدولة في شخص الفرعون وجود أي قانون عام ، فإن أي تشريع مقنن كان سيصطدم حتماً بسلطة الفرعون الشخصية " . قارن :

The An .N.East 'p217 : وانظر أيضا J.A.Wilson'The Burden of Egypt p. 49-50

(3) Hall and Simpson, The Anc .Near Eest, p.202

(4) قرآن كريم : سورة : النازعات آية : 24 .

هذا القول يؤيده ما سوف نراه من أن اللغة المصرية تحتوي على عدد وفير من الكلمات العربية الدالة على الحكم والولاية لكنها لاتشمل الجذر "م ل ك" الذي استعمله العرب الكنعانيون مثلاً بكثرة وعرب فلسطين قبل الغزو العبري، بل استعملته حتى القبائل العربية الصغيرة في الحجاز[5].

فما هي الألقاب التي استعملها المصريون للإشارة إلى الملك ؟

وماعلاقتها باللغة العربية ؟

أما الألقاب فسوف نتعرض لها، بعد قليل، بالسرد والعرض والتحليل، وأما علاقتها باللغة العربية فهو ما سيبدو بوضوح كامل من خلال هذا العرض والتحليل. وقد أصبح من نافلة القول الآن الحديث عن اللغة المصرية باعتبارها أختاً شقيقة للعربية، تماماً كما هو الحال بالنسبة للبابلية والكنعانية والليبية وغيرها، وكان الباحثون لفترة طويلة من الزمن يقسمون لغات الوطن العربي إلى قسمين : سامية، وتشمل لغات الجزيرة العربية، وحامية وهي اللغات في مصر وشمال إفريقيا، وكتبت آلاف الدراسات والبحوث على هذا الأساس، وكان الباعث على هذا الاتجاه خطأ تاريخي يكمن في الاعتماد على تقسيم التوارة للأمم والشعوب من جهة، ومخطط سياسي ينبع من الرغبة الملحة في تقسيم شعوب الوطن العربي عن طريق تجزئة تراثه الثقافي والحضاري القديم ومقومه الأول اللغة، ولكن الكثيرين الآن يرجعون إلى التسليم بوجود "قاسم مشترك" لا ينكر بين لغات هذا الوطن القديمة، أسماها بعضهم "اللغة الأم"، أو السامية الحامية تحرجاً من تسميتها "اللغة العربية الأولى" باعتبار العروبة في عصرنا الحاضر ذات مدلول

---

(5) شيخ قبيلة بني عبس المشهورة في ملحمة عنترة بن شداد العبسي كان يسمى "الملك" زهير، على الرغم من أن عبساً كانت مجرد قبيلة صغيرة من قبائل العرب ولم تكن "دولة" بالمعنى المفهوم من اللفظ، ويثبت النقش المشهور على قبر امرئ القيس بأنه كان يدعى "ملك".

سـياسي وقـومي قـائم بذاته. ولكـننا نحن، بالطـبع، لا نجد هذا الحـرج، ولذا فإن من الممكن تـسـمـيـة مـجـمـوعـة الـلـغـات المعـروفـة بـاسـم الـسـامـيـة الحامية اللغة "العروبية" تمييزاً لها عن "العربية" ومحاذاة للغة "المصرية" و"الكنعانيـة" و "الليبيـة" و"السبئية" وغيرها من "ثمودية" و آشورية" و"بابليـة" و" آراميـة" إلخ. هي كلها تنبثق من مصـدر واحد وترجع إلى أصل موحـد أول، تفرعت بحكـم التطور الطبـيعي ونمت حتى بـدا أنهـا مختلفة وهي في حقيقتها الأولى واحدة دون ريب (6).

هذا المنطلق هو الذي يقودنا إلى استعراض الألقاب الملكيـة في مصـر القـديمة على ضـوء وحـدة الأصـل اللغوي المشتق منه اللقب، ومـقـارنتـه بالألقـاب التي اسـتـخـدمت في مـخـتلف مـناطق الوطن الـعـربي قـديماً.. اسـتـناداً إلى أقـوال البـاحـثين الغـربيـين أنفـسـهـم وشـرحـهم لمعـاني هذه الألقـاب في دراسـاتهم وبحـوثهم، ومنهـا نـرى أنهـا جمـيـعًا عـربية قـحة، وأن أشهرها فرعون الذي تعزى إلى اسمه "الفرعونية" بمعناها الإقليمي المنغلق الضـيق هو في حـقـيـقـتـه لقـب عربي صـمـيـم، بشـاهد اللغـة ودلـيـل التـاريخ، ويـبـقى أمـامـنا القـول بأن هذه "الفرعـونيـة" المفـهـومـة خطأ في الأذهان لا تخرج عن كونها صورة من صور "العروبية" شاء المخطئون فهما أم أبوا ! فلنعـد الآن إلى هذه الألقاب الملكيـة المصرية القديمة، ولنـنـظـر في

(6) لم أكن، شخصيًا، مقتنعاً بالتعبير عن مجموعة لغات الوطن العربي في شرقه بأنها لغات "سامية" وفي غربة بأنها لغات "حامية" وحتى بعد تسليم الكثير من البـاحثين الغربيين بوحدة هذين (الفرعين) ونشأتهما من لغة أم واحدة لم أجد التعبير عنها بأنها "السامية / الحامية" مرضيا، وتجب الإشارة هنا إلى فضل الأستاذ خليفة التونسي الذي عالج المسألة في مقالة نشرت له بمجلة (العربي) واقترح لفظًا يدل تمامًا على الغرض وهو لفظ "العروبية" بدلا من "السامية" أوحتي "السامية / الحامية"، وبذا تندرج جميع لغات الوطن العربي القديمة وقسم من لغات إفريقيا تحت هذا اللفظ، دون إحساس بالتقسيم الغامض المعروف من قبل، وهنا أحب توجيه الشكر للأستاذ التونسي على تقديمه لهذا المصطلح الموفق الذي نرجو أن ينتشر ويذيع.

أمرها من حيث انطلقنا، ولنحصرها في خمسة هي بالتحديد :

(1) ن ب (2) ن س و (3) ب ت (4) ح ك (5) ف ر ع

ثم لنأخذ القارئ إليها واحدة تلو الأخرى.

(1) ن ب :

تترجم عادة بأنها : مولى، سيد lord,master أو ببساطة : المولى (الملك)[7]، وهذا ما يجعلها تساوي بالضبط كلمة "رب" العربية. ومن المعروف أن حرفي النون والراء يتبادلان في اللغات العروبية الأولى. فنجد في الأكادية والبابلية والسبئية القديمة كلمة «ب ر» بمعنى «بن» أو ابن الصلب، أو الولد من الصلب. وكلمة "نب" أو "نبو" نفسها معروفة جداً في البابلية بمعنى "رب" ونجدها في عدد من الأسماء مثل "نب عقب"، "نب خد نصر" (نبو خد نصر = بختنصر". وتدخل في جمل وأسماء كثيرة باعتبارها "الرب" تماماً كما يدخل اسم "بعل" عند الكنعانيين و"رع" أو "أمون" عند المصريين، فنقرأ : نبو حن (الرب حنون)، نبو رعي (الرب راع)، نبو شمع (الرب سميع)، نبو رف (الرب مرفه = منعم)، نبو شرع (الرب صارع = غالب)[8].

كلمة "نب" المصرية إذن تعني "الرب". ومن هنا نجد تعبيراً مصرياً معروفاً من مثل : ن ب و ي، وهو مثني "ن ب" ومعناه : السيدان، أي الإلهان : حورس وشيث. ومقابله العربي : الربان، ونجد تعبيراً آخر هو : ن ب ت. ب ر. ومعناه الحرفي: ربة البيت mistress of the house (ولاحظ تاء التأنيث "نبت" وهي كالعربية تماماً، وانظر كلمة "ب ر" في تحليل اسم فرعون)(*).

---

(7) Gardiner. Egyptian Grammar, p. 573

(8) Run Zadok. On West Semite in Babylonia' p.7J.B Pritchard' Ancient Near Eastern texts, princeton'1950

(*) يرجع الجذران "ربا" و"نبا" إلى معنى واحد : ارتفع .
قارن : ربوة = نبوة = مرتفع .

(2) ن س و :

استعملت هذه الكلمة للدلالة على "ملك مصر العليا" أو الصعيد، أو ما يعرف أحيانًا باسم "الوجه القبلي" باعتبار مصر مكونة منذ القديم من إقليمين أو قطرين هما الصعيد و "الوجه البحري" أو "الدلتا" تفصل بينهما ممفيس(9) أو القاهرة الآن.

في النقوش البابلية يقابلنا كثيراً اللقب "ناشئ" أي : الحاكم أو ذو المنصب.

وفي النقوش السبئية (محرم بلقيس) نجد " نشأ - كرب (قرب)" باعتباره قائدا عسكريًا أو ملكًا(10)

وفي النقوش المصرية نجده مقطعاً من أسماء عديدة : نب - نش، نش - أمون، نش - صور، نش - فتاح، نش - مت، نش - خنسو.. إلى آخره.. مقرونًا باسم رب من الأرباب في العادة كما هو واضح(11)

فما معنى هذا اللقب وما هو جذره اللغوي؟ في الأكادية تعني كلمة : ن اش و nasu يرفع - يعلي - يقبض على الملك (يصير ملكًا)

(Reimschneider an akk Gram) To Seize hold of Kingship)

في الكنعانية الأولى (نقوش رأس شمرة) نجد "نشأ" بمعنى : يرفع، يعلي(12) وفي نقوش جنوب الجزيرة (محرم بلقيس) معناها : قائد - رفيع المكانة. وفي العبرية : "ناشئ" تعني : المرفع، وفي البابلية كذلك والمقابل الإنجليزي عند الباحثين لا يخرج عن lift, lift up, raise(13).

فإذا التفتنا إلى العربية رأينا الجذر " ن ش أ " = ربا. شب. ارتفع.

---

(9) Eg.Grammar.p.575.

(10) Jamme, Sabaean Inscriptions, p.145.

(11) Kitcher, The Third Intermediate period.

(12) معجم Ugaritic Handbook رقم 1376.

(13) انظر لمزيد من التفاصيل : Speiser; Background and Function of Biblical "Nasi" in"Oriental and BiblicalStudies".pp113:122

ومنها : أنشأ، أي رفع (البناء - أو : أنشأ يقول = رفع صوته يقول) .
ومنها : " الجواري المنشآت في البحر كالأعلام". وفسرت "المنشآت" بأنها "المرفوعة القلوع".

والخلاصة أن الجذر "ن ش أ" عرف في جميع اللغات العروبية بمعني رفع، رفيع، مرفع.. إلى آخر الاشتقاقات، وقد رأينا أن "نشأ" استعمل في شمال الجزيرة (بابل) وجنوبها (سبأ) بمعنى الحاكم أو الأمير أو الملك، وهذا بالضبط هو معناه في المصرية. تطابق لفظاً ومدلولاً.

من هذا الجذر العروبي، وقد تحرف في المصرية إلى "ن س" [14] نجد كلمات في هذه اللغة من مثل : ن س ت. أي : كرسي المنصب Seat of office وهو بالضبط : العرش (ولاحظ أن المعنى الأصلي لكلمة "العرش" العربية هو الرفع، عرش سرير الملك المرتفع عادة عن سواه) البيت : سقفه. عرش الكرم : رفع دواليه . العرش : نب . نسوت . توى : رب (ملك) عروش القطرين.

م ن س : ينشأ. يرفع . يعلو.

ثم نجد : س. ن س و : الأمير، ولي العهد. حرفيًّا : ابن الملك [15].

(س = ذو (العربية : ابن) ن س و = ملك. نشأ. ذو نشأ).

وهذا هو التعبير العربي الجنوبي، يقابل "ذونواس" بالضبط في ممالك اليمن القديمة.

(3) ب ت :

لهذه الكلمة تاريخ طويل للغاية حللناه في مقالة خاصة به، وهي استخدمت لقباً لملوك الدلتا قبل توحيد القطرين على يد "مينا" أواخر

---

(14) هذا هو الرسم المألوف NSW.NS ولكن غاردنر (Eg Grammar .p.446) يرسمه (ن ز وNZW) وأيضا (ن ش وNSW.T) ومن الغني عن القول أن حروف السين والشين والزاي تتبادل في مختلف اللغات ، وخاصة العروبية منها ، وعلى هذا تكون "ن س و" المصرية هي " نشأ" العربية.

(15) Eg Grammar,p.575

الألف الثالثة قبل الميلاد، ويشار بها إلى ملك الوجه البحري، أو مصر السفلى. وحين توحد الوجهان وأدمج التاجان أدمج اللقبان ليعرف بها ملك مصر الموحد هكذا: ن س و ب ت [16]

وقد عرفنا أصل كلمة "نسو" أو "نشو" مما سبق. فما هو أصل كلمة "بت" هذه؟

في الهيروغليفية يرمز لهذه الكلمة بصورة نحلة ثم نصف دائرة وتقرأ "ب ت" ويمكن أن تنطق: بوتو، بوتي، باتي، باتو، بيتا، بوتا.. إلى آخر الحركات التي نريدها نظراً لأن الهيروغليفية مجرد رموز أو حروف تصويرية دون حركات، فلنا مطلق الحرية في وضع الحركات التي نراها مناسبة للمقام [17]. وترجمت إلى اليونانية في حجر رشيد بكلمة باسيليوس basileus (ملك)، ولكن علاقة النحلة بالمسألة ظلت غامضة تماماً [18] بيد أن الأمر لا يخرج عن كون النحلة في هذه الكتابة الهيروغليفية هنا لا يزيد عن رمزه لحرف الباء [19] تليه نصف الدائرة التي ترمز إلى حرف التاء، وهي هكذا قرئت منذ القديم وانتقلت إلى

---

(16) المصدر السابق، ص 564، 575.

(17) المصدر السابق، ص3.

(18) المصدر السابق، ص83.

(19) من الطريف أن تسمى النحلة في الإنجليزية بي Bee (الجذر اللغوي B) فكأن اللفظة انتقلت بصورتها ودلالاتها على حرف B من المصرية إلى الإنجليزية وبمعناها كذلك! هل ثمة صلة لغوية بين Bee الإنجليزية، مأخوذة عن (ب ت) و (ب ط) المصرية، ذات العلاقة بالجذر (ب ط ش) العربية؟

قد يبدو هذا شيئاً بعيداً عن الذهن أو مجرد الاحتمال، ولكن دعنا ننظر في الكلمة العربية "نحلة" أو "نحل" وهي الحشرة المعروفة المنتجة للعسل.

من العجيب فعلاً أن كلمة "ن ح ل" NHL في الكنعانية الأولي (نصوص رأس شمرة Gordon.no.1296) تعني وريث heir (وريث الملك. وولي العهد. نائب الملك) والكلمة ذاتها في نقوش سبأ تعني (قائد) فقد ورد في النص رقم 665 سطر 32: ا ف ص ي . ن ح ل . ر ك ب ن. =

اليونانية كما يقول بدج [20] على شكل بيتيس bites بزيادة حرف السين علامة الجمع.

وليس من الضروري هنا الدخول في تفصيلات وتدقيقات لغوية مقارنة ليس هذا مجالها، وإنما نكتفي بالإشارة إلى أن كلمة "باتوس" بالذات كانت معروفة عند الليبيين، وقد اتخذها أرسطاليس قائد الإغريق منشئ قورينا عام 631 ق.م لقباً له وسرت في عقبه،وهي كلمة ليبية، كما يؤكد هيرودوت، معناها (ملك) [21]، ونحن نعلم، واثقين، أن اللغتين الليبية والمصرية كانتا شقيقتين قريبتين من بعضهما البعض، وهذا ما جعل المعنى ذاته للكلمتين واحداً في البلدين.

ونعلم أيضا أن سكان الوجه البحري (الدلتا) منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى العصر الحاضر كانوا من المهاجرين الليبيين وحين قام مينا في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد من عاصمة ملكه في الصعيد بحملته على الدلتا فإنه كان يقود حملة توحيدية للقطرين. ورغم هذا التوحيد فقد ظلّ الاعتراف بالأمر الواقع، أعني انشطار مصر إلى قطرين، حقيقة ماثلة في التاج الموحد المشتمل على رمزي الجنوب والشمال، وفي اللقب الثنائي :ن س و+ ب ت [22].

لكن السؤال يظل : ما أصل هذه الـ (بت) ؟

وببساطة نقول : إن أصلها من (ب ط ش) العربية، بمعنى "فتك"

= (أفصي قائد الجمال (الركب) Sabaean Inscriptions p. 171 أخيراً :
من المشهور في التراث البريطاني أن الكنعانيين عندما جاءوا إلى الجزر البريطانية أطلقوا عليها اسم "بلاد العسل honey country" لكثرة النحل بها كثرة غير مألوفة .

مجرد خاطر بدون تعليق !

(20) Budge;An Eg .Hier Dictionary.p.39

(21) راجع: تاريخ هيرودوت . الكتاب الثاني، وقارن: "نصوص ليبية" و" قراءات ليبية" للكاتب.

(22) Eg.Grammar'p.575

"أخذ بالعنف" ، وما إليها ، ولنا في هذا شاهدان :

الأول : الاسم العربي "بطشو" الذي تحول عند اليونان إلى "باتيس" أو "بتس" ، وأصله "الباطش" ، وكان اسم ملك ، أو لقبه [23].

الثاني : إن كلمة «باطش» بمختلف التحريفات الداخلة عليها وجدت في مئات أسماء القادة والزعماء الكهنة في مصر القديمة ، مما يدل دونما شك على أنه (لقب) وليس اسم علم [24].

ونضيف إلى هذا أن حرف الطاء والتاء يتبادلان ، فأصل "بت" في الواقع هو "بط" . أما حرف الشين المحذوف في آخر الكلمة فهو ظاهرة معروفة جداً في اللغة المصرية بحذفها الحرف الثالث من الكلمات الثلاثية الجذر ، أو إن شئنا قلب الآية قلنا إن الجذر الثلاثي متطوّر في حقيقته من الجذر الثنائي تطوراً طبيعيًّا معروفًا في عالم اللغة [25] ويؤيد هذا القول أننا لو أخذنا الجذر الثنائي "ب ط" وأضفنا إليه بعض الحروف

---

(23) انظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج : 2 ص8،10 .

(24) Kitcher;The Third Intermediate period in Egypt. p.467

(25) يتبادر إلى الذهن هنا التساؤل عن السرّ في استعمال لفظ "نشأ" في جنوب مصر (الصعيد) ولفظ (باطش) في شمالها (الدلتا) ، ولعل السبب يرجع ، فيما نرى ، إلى قرب الصعيد من اليمن (سبأ وما قبلها) حيث استخدم لقب "نشا" بكثرة ، وقرب الدلتا من العرب الشماليين حيث عرف لقب "باطش" .

وقد أوضحت الدكتورة بربارة واترسون ظاهرة سقوط الحروف ، الضعيفة خاصة ، في أواخر كلمات المصرية القديمة باعتبارها أمراً مألوفاً جداً . . وضربت لهذا ما يحدث في اللغة الإنجليزية ، إذ تحول going إلى goin و getting إلى gettin (Introducing Egyptian Hierroglyphic'p.59)

ونلاحظ في أيامنا هذه أن حرف العطف في الإنجليزية and يكتب ، كما ينطق ، n. فنقرأ في لوحة إعلان مثلاً : Fish'n chips وفي حوار بعض الروايات يتبع الكتاب نطق الشخصيات ، فإذا كانت الشخصية أسكتلندية حذف حرف التاء من الكلمات ، Table إلى able وكلمة ، bottle تكتب bo'lle ونقرأ dus' بدلاً من Dus إلخ . . . ولعلّ اللغة الفرنسية أوضح شاهد في هذا المجال ، إذ تسقط حروف عديدة في أواخر كلمات عند النطق =

لوجدنا الكلمات الناتجة تدور حول المعنى نفسه، القوة. (بطش : فتك وأخذ بالعنف. بطح : طرح أرضاً وضرب. بطر : طغى وتجبر. بطل : شجاع قوي، مقدام).

(4) ح ك.. ح ق :

كلمتان مرتبطتان ببعضهما البعض مبنى ومعنى، تطورتا من مصدر واحد وفكرة واحدة حتّى صار لكل منهما استعمال خاص بها.

تترجم كلمة "ح ك" h .k في العادة بأنها تعني "سحر" mag-ic ومنها الصفة "ح ك ي" Hky (ساحر)[26]، ولكن الساحر في مصر القديمة لم يكن يعني ما نفهمه اليوم من خرق العادة والقيام بالمعجزات وإظهار الأعاجيب، بل كان يعني السيطرة على مظاهر الطبيعة وبالتالي السيطرة على مقدرات البشر، تماماً مثلما كان الحال في فارس القديمة التي عرف فيها الساحر magi (في العربية : المجوس. ومنها الإنجليزية magician) وكان هو "الحاكم" بالمعنى الدقيق للكلمة. ويبرهن على هذا وجود الربة المصرية المعروفة باسم (و ر ت. ح ك و) Great of magic (السحر العظيم أو الساحرة العظمى) وكانت تصور وعلى رأسها تاج ملكي دليلاً على الملك والحكم[27].

وعلى هذا فإن الأصل العروبي للقب هو "ح ك م" ومشتقاتها : حاكم - حكم - حكومة. وينبغي ألا ننسى كلمة "حكمة" التي منها "حكيم" فيلسوف، طبيب، كيميائي، عالم بأسرار الطبيعة وما وراء الطبيعة أيضاً. وكلها تدور في هذا المجال المتصل بالحكم والحكمة.. "ح ك" المصرية.

= وسوف تسقط بمرور الزمن عند كتابتها، تماماً كما حدث للإنجليزية - الأمريكية التي صارت تتبع رسماً يتفق مع النطق وليس مع الرسم المعهود في إنجليزية الجزر البريطانية التي تختلف بدورها في الرسم عن إنجليزية شكسبير وملتون.

(26) Cerney;Anc.Eg.Religion ,p.57 وانظر معجم غاردنر Eg.Grammar مادة Hk3

(27) Eg Grmmar,p.583

أما كلمة "ح ق" بإبدال الكاف قافًا فهي تترجم في العادة إلي rule, ruler, chieftain (يحكم، قائد، حاكم) بل إلى King (ملك) .[28]

ويرى مارسيل كوهن أن هذه الكلمة ترجع إلى الجذر العروبي "حق" أو فكرة الحق. أو الشرعية Iegalité [29] التي تطورت إلى فكرة الحكم بالحق الإلهي، أو هي كانت في الأساس هكذا بحكم الإيمان القديم بالصلة بين الحاكم والآلهة وتمثيل الحاكم للرب على أساس "الخلافة" في الأرض.

وهذا الرأي يمكن تأييده ببعض المفردات من قاموس اللغة المصرية ذات الصلة بالموضوع، ففي هذا القاموس نجد أن كلمة "ح ق ت" [30] تعني "سيف"، ومن الواضح أن السيف، علامة القوة والسلطة قديماً على الأقل، والحاكم متصلان لا يفترقان. ولكن هذه الكلمة ذاتها "ح ق ت"، تعني أيضًا "مقياس" أي الوزن والتقدير. وهذه متصلة بفكرة "الحق" دون شك. ولكن الأوضح من هذا كله أن "حاكم القرية" أو "شيخ البلد" village headman كان يسمى في اللغة المصرية "ح ق.ح و ت".

فلما أردنا مثالاً أكثر وضوحًا أشرنا إلى "الهكسوس" وهي مجموعة القبائل العربية التي غزت مصر في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحكمتها أكثر من مائتي سنة وتركت أثرًا كبيرًا فيها. فإن اسم هذه

---

(28) المصدر السابق .

(29) Cohen;Essai Comparatif p.99 ويترجم كوهن كلمة HK المصرية إلى "حاكم" gouverner'dominer

(30) راجع مادة HK في معجم غاردنر .

ونودّ الإشارة هنا إلى أن عبارة (ح ق . ح و ت) المصرية بمعنى (حاكم القرية) مكونة في واقعها من كلمتين عروبيتين :

(ح ق) : حاكم .

(ح وت) : قرية (والأصل العروبي : حوط، حيط، حائط، بمعنى : بناء. تجمع على حيطان وحيوط). والأصل البعيد : البناء الذي (يحيط) أو (يحوط) السكان .

القبائل مكون من مقطعين "ح ك" أو "ح ق" (يكتب محرفاً في اليونانية واللغات الأجنبية "هك ") +س-س، وتشير جميع المصادر المعتمدة، وأولها المؤرخ المصري المعروف مانيثو[31] ، إلى أن معناه : الحكام الرعاة، أو الرعاة الحكام (حك = حاكم. سوس [شاوس. شواس. شاسو] = الرعاة = أهل الشاه = الشاوية = الحكام الشاوية. الحكسوس. الهكسوس).

(5) ف ر-ع (فرعون) :

هذا أهم الألقاب الملكية المصرية على الإطلاق ولذا فإن حديثنا عنه سيكون مفصلاً أكثر من سواه لأهميته ودلالته في مجالنا الذي نحن فيه،

تعرض هذا اللقب للتطور والتبدل عبر الزمن ومرت به مراحل، أو هو مر بها، كان فيها لقباً، واسم علم، ومقروناً باسم شخص أو مفرداً. وقد تصدّى له بالتحليل عدد كبير من الباحثين الكبار، ولا بأس هنا من ذكر ما أورده بعضهم. ويقول السير ألن غاردنر في مؤلفه القيم" النحو المصري" أن الأصل المصري ف ر-ع PR- a استعمل في الدولة القديمة في أثناء عبارات كثيرة منها : س م ر. ف ر-ع ا SMR PRA) رجل البلاط. نديم القصر. حرفياً : سمير فرعون). ومن الواضح أن الكلمة تشير إلى القصر نفسه أو البلاط وليس لشخص الملك.

وفي نهاية الأسرة الثانية عشرة قرنت فر-عا (أوبر : - عا)بالدعاء للقصر الملكي بـ"الحياة والرغد والعافية" وهي دعوة تقليدية لملوك مصر تماماً كما هو الحال بالنسبة للقب "طويل العمر" أو دعوة "طال عمرك" في بعض البلاد العربية اليوم.. ولكنها ظلت تعني القصر وليس شخص الملك.

في الأسرة التاسعة عشرة بدأنا نقرأ : "بر - ع مضى"، "بر - ع قال".. إلى آخره، ولكن الإشارة ظلت، مع هذا، تعني القصر الملكي

Manetho, Aegyptiaca, p.85 (31)

دون شخص الملك ذاته[32].

هذا الرأي في أصل كلمة فر-ع [33] أو بر : - عا(فرعون) قال به جميع الذين تعرضوا له من علماء المصريات، وهو ما يقول به أيضاً الباحث المشهور سير آرثر إيفانز والعالم ألن شورتر. ومعناه الحرفي : "البيت الكبير" أو "البيت المرتفع" أي "القصر" الملكي [34] وهو تعبير استعمل للإشارة إلى الملك دون ذكر اسمه تماماً كما كان يعبر عن السلطان في تركيا الخلافة بـ" الباب العالي " - ومثلما يحدث اليوم أن نقرأ :" ذكر البيت الأبيض " والمقصود الرئيس الأمريكي، أو : "قال الإليزيه" أي قصر الإليزيه، والمعني الرئيس الفرنسي، وأمثلة أخرى كثيرة من "البيوت " و "القصور" التي تذكر، وتقول، وتدعو، وتستنكر، وتؤيد، وتعارض، و"تنطق" معبرة عن مختلف المواقف كناية عن صاحب السلطة فيها.

---

(32) Eg Grammar. p . 75

(33) يلاحظ القارئ أن حرف الباء الثلاثية النقط پ هو الذي أورده الباحثون في معاجم اللغة المصرية في مقابل الرمز الهيروغليفي ☐ (مربع مغلق). وبمقارنة المفردات التي تبدأ بهذا الحرف باللغات العروبية الأخرى يتضح أنه يتبادل مع حرف الباء الموحدة النقطة والفاء ، فكلمة ب س ق psq مثلا تساوي " بصق. بزق" العربية ، وكلمة ب ت ح PTH تساوي "فتح" - وهكذا في عدد كبير من الألفاظ ، وعلى هذا فكلمة (ب ر) pr تحولت في العبرية إلى " ف ر" وصارت برعون " فرعون " ومنها انتقلت إلى الإنجليزية pharao عن طريق اليونانية التي تجعل حرفي ph في مقابل حرف F واحتفظت بهذا الرسم ، والمفروض أن تكون Faroa أما في اللغات العروبية ، ومنها العربية ، فإننا نجد المقابل كلمة " ب ر" - ولا يمنع هذا من أن تكون "ف ر" أحياناً . ولهذا فإن من الجائز تحويل pr إلى "فر-ع" أو " جر- ع" على حدّ السواء .

(34) انظر Sir Arthur Evans; Scripta Minoa p.269. Allen Shorter; Eve-ryday life in Ancient Egypt,p.5.

وقارن : Cheyne; Encyclopuedia Biblica S. v.pharao petrie; Royal Tombs of the First Dynasty 'part I,p.36.

بيد أن هذا اللقب، وقد عرفنا منشأه، تطور مدلوله مع الزمان فنجد أقدم نص موثوق يشار فيه إلى الملك، دون ذكر اسمه، في عهد أخناتون في أثناء دعوة تقول : "بر - ع. و ع ن خ. و د أ. س ن ب. ن ب : فرعون (له) الحياة والدعة والسلامة. الرب !" [35].

أما أقدم مثل ذكر فيه اللقب "فرعون" مقرونًا باسم الملك الشخص فقد كان في عهد أحد الشناشقة من الأسرة الثانية والعشرين أوائل الألف الأولى قبل الميلاد.

ثم تحول اللقب إلى اسم علم من مصدرين من أهم مصادر التاريخ القديم. فنجده يذكر في التوراة هكذا " فرعون ملك مصر " (سفر الخروج، أصحاح 6 - آية 11 وما بعدها). ويقدمه هيرودوت على هذا النحو : " الملك فيروس (فيرون = فرعون) بن سيروستريس» الكتاب الثاني - فقرة 111) [36].

ويضيف غاردنر : "إن التطور النهائي لهذا اللقب كان عندما أضيف اسم معين إليه، مثلما حدث بالنسبة للفرعون خفرع المذكور في التوراة ونحن نعرف، بالتأكيد، أن خفرع التوراة هو خفرع بن بسماتيك الثاني، تولى الحكم بعد أبيه سنة 587 ق.م. وكان له دور كبير في الصراع بين اليهود والملك البابلي نبوخذ نصر في فلسطين وحول بيت المقدس. وهو من الأسرة السادسة والعشرين الليبية في مصر، كما كانت الأسرة الثانية والعشرين (الشناشقة) ليبية كذلك[37].

والسؤال هنا : أليس مثيرًا للدهشة حقًا أن يرتبط أقدم مثل لارتباط لقب " فرعون " باسم الملك وآخر تطور له بالأسرتين الثانية والعشرين

---

(35) Gardiner ; Eg. Grammar. p.75.

(36) نص هيرودوت: " وحين مات سيزوستريس خلفه ابنه فرعون(الأصل: فيروس= فيرون= فرعون)، وهو أمير لم تكن له مغامرات عسكرية .. وقد خلف (فرعون) أحد مواطني ممفيس " .

(37) انظر للتفصيل Gardiner' Egypt of the pharoahs, pp.352-360.

والسادسة والعشرين، وهما أسرتان ليبيتان "المفروض" أنهما "غريبتان" عن البيت الكبير - بر - ع أو فرعون ؟! أليس عجيباً أن ترتبط "الفرعونية" بفرعونين ليسا فرعونيين ؟!

إن التفسير الوحيد الممكن هنا هو أن هذه الفرعونية وأصلها ومشتقاتها ليست قطعاً خاصة بمصر، بل الأصل تعبير عروبي، سواء جاء من شرق مصر أو غربها أو نبع منها ذاتها، متعلق جذراً واستعمالاً باللغة العربية وأخواتها من اللغات العروبية الأخرى، وهذا ما يجعلنا نعود إلى الجذر (بر-ع) بالتحليل والمقارنة لنرى فيه القول الفصل.

وقد ذكرنا من قبل أن كلمة "بر -ع" تعني : البيت الكبير أو القصر. أي "البيت العالي" أو المرتفع. وواضح أنها مكونة من مقطعين (بر+ع).. فلننظر في كل منهما على حدة تحت ضوء المقارنة اللغوية .

أ - ب ر

في المصرية : ب ر = بيت. وفي معجم غاردنر [38] نجد :

ب ر :بيت

ب ر - ع : بيت كبير .

بر - و ر : المعبد (البيت) العظيم .

ب ر- ن س و : قصر (بيت +نشأ = بيت نشأ = بيت الملك) .

ن ب ت -ب ر : ربة البيت .

في الأكادية : ب ر ت و = قلعة. حصن . قصر كبير .

الآرامية : ب ر = بيت.

وردت في النص الآرامي - الليدي الثنائي اللغة.

ب ر - ب ر ه = غرفة الانتظار (باللهجة الليبية: المربوعة) = البيت البراني.

ب ي ر. ت = قلعة. قصر. حصن [39].

---

(38) Eg. Grammar, p.565

(39) Friderich ; Extinct Languages,p.115

السبئية : ب ر= بناء، مبنى (بيت)

جاء في نصين سبئيين الفعل (بر) بمعني(يبني)، ووردت كلمة (برط) للدلالة على المسكن، المنزل، المحطة.. البيت [40] ونجد هذه الكلمة حتى في **اللغة الحثية**: ب ي ر

(بيت) وفي **الليدية** : ب ي رأ B i r a (بيت) وهما لغتان متأثرتان باللغات العروبية [41].

ونعثر على هذه الكلمة أيضًا في ما اصطلح على تسميته **بالبونيقية الجديدة**.

وهي اللغة **الكنعانية المتأخرة** في شمال إفريقيا. وذلك في نقش من نقوش طرابلس، وردت فيه ب ي ر By R وب ور BuR بمعنى مبنى كبير على القبر - ضريح أو بيت الميت [42].

هذا كله يقطع بأن كلمة "بر" المصرية بمعني "بيت" وردت في اللغات العروبية الأخرى بالمعنى ذاته مع اختلاف يسير في النطق طبيعي. وهو ما يتفق مع ترجمة العلماء للمقطع الأول من اسم فرعون.

ب - ع (2)

يكتبها بعضهم "عو" ويكتبها آخرون "عا"، وتترجم في العادة بأنها تعني : العظيم أو الكبير great. لكن باحثًا ممتازًا، هو الأستاذ مارسيل كوهن، يرجعها إلى العربية "عال" بمعنى "مرتفع" [43] وهو لفظ يتفق تمامًا مع طبيعة قصر الملك المرتفع البناء، ولا يبعد عن معنى العظمة والكبر، فإذا انتبهنا إلى أن أواخر الحروف في عدد وافر من الكلمات كثيرًا ما يهمل أو "يؤكل" في اللغة المصرية القديمة. عرفنا أن كلمة "عال" هي المقصودة في هذا

---

(40) Jamme:Sabaean Insrcitpions. p 314

(41) Ext.Languages,p.115 لاحظ الجذر الأصلي هو BR وحرفا الحركة A.I مضافة.

(42) Krahmakou.a Neo-punic Shaft....- 'e59.

(43) Cohen ; Essai Comparartif... p.88

المقام. وقد تعرضت هذه الكلمة إلى التحريف في عدد من اللغات في المنطقة، وطبيعي أن تتعرض للتحريف ذاته في المصرية[44].

العربية : عال. علو. عليّ. علاء. علية. علياء. عليٍ. علا. عل.. إلخ.

الأكادية : الو. ألو elu , alu

الطارقية : أل. أقلي agli

السوس الأقصى : أون aun

بني سنوس : آني ani

النوبة : عال al

عفار (جيبوتي) : آلي ale

الصومال : عال al .

ولا نريد الإطالة هنا، إذ الأمر في غاية الجلاء، ولكن لا بد من الانتباه إلى ما ورد في القرآن حين تحدّث عن فرعون في أربعة مواطن ووصفه فيها بالعلو :

في سورة يونس - الآية 83 : "وإن فرعون لعال في الأرض"

في سورة القصص - الآية 4 : «إن فرعون علا في الأرض».

في سورة الدخان - الآية 30-31 : " ولقد نجينا بني إسرائيل من

---

(44) المصدر السابق.

وهناك أمثلة عديدة على إسقاط أواخر الحروف في المصرية القديمة :

د ر DR : ذراع.

خ ت HT : خشب. حطب.

ك م K M : كمل. كامل

ن ع NC : نعم. ناعم

ن سNS : لسان.. إلى آخره.

على أن أقرب مثل في هذا المجال هو كلمة "عير" العروبية (ع ر) ومعناها في الأصل : حمار، أتان. نجدها في المصرية مجرد حرف واحد هو(ع)، وقد ينطق (عا) أو (عو) أو (عي). وهذا يوضح الأمر في كلمة (عال) المقطع الثاني في اسم (فرعون).

العذاب المهين، من فرعون إنه كان عاليًا من المسرفين".

في سورة النازعات - الآيات 17 -24:" اذهب إلى فرعون إنه طغى" - "فقال أنا ربكم الأعلى".

ومن المفهوم هنا أن هذا العلو يعني الاستعلاء أي التجبر والطغيان في موضع الذم، وهذا هو الواقع. فقد كان الفراعين مستعلين فعلاً، بل متألهين أو مُؤَلَّهين، يعبدون باعتبارهم أرباباً أو أبناء الرب. ولعل في أصل اللقب هذا المعنى ذاته. ودقة القرآن الكريم وحكمته هي التي أدت إلى وصف الفرعون بالعلوَ، مما ينطبق تماماً مع واقع الحال معنى ومبنى.

ومن هذا العرض الموجز للقب " فرعون" في تطوره التاريخي وتركيبه اللغوي يتبين لنا أنه اسم عروبي صميم. لكن لا يزال أمامنا سؤال مهم: هل اقتصر استعمال هذا اللقب على مصر وحدها ؟ أم عرف عند العرب الآخرين؟ وما هي مشتقاته الأخرى ؟

والجواب أن العرب الآخرين عرفوا هذا اللقب واستعملوه أيضاً، وإذا كانت ندرة النقوش العربية القديمة لا تقدم أمثلة كثيرة فإن لدينا مثلاً ممتازاً من مملكة سبأ القديمة في جنوب اليمن، وهي مملكة معاصرة لاستعمال اللقب ذاته في مصر، وكان " فرعم" مؤسس إحدى أسرها. فنقرأ في أحد نقوش " محرم بلقيس":

"ا ل ش ر ح. ي ح ض ب. و ا خ و. ي ا ز ل. ب ي ن. م ل ك ي. س ب ا. و ذ ر ي د ن. ب ن ى. ف ر ع م. ي ن ه ب م ل ك. س ب ا "

(الشرح يحضب وأخوه يأزل بين ملكي سبأ وذو ريدان ابنا فرعم ينهب ملك سبأ)[45].

هنا نجد " فرعم" لقباً للملك ينهب ملك سبأ ، وهو ما يقابل "فرعون" أو "فرعو" أو "برعو" استعمل مع وجود لقب "ملك" فكأنه لقب مختلف

---

(45) النص رقم 675. (Jammes; Sabaean Inscriptions ,p.67)
وقارن صفحات : 305 ، 308، 312 من المصدر ذاته.

عن لقب "الملك" وهذا بالضبط ما كان بالنسبة لملوك مصر.

من كان السابق يا ترى في استعمال هذا اللقب ؟ هل نقله عرب جنوب اليمن السبئيون عن عرب مصر، أم نقل أهل مصر عن عرب اليمن كما حدث بالنسبة للقب " نشأ" أو "نشو" ؟

لا يمكن، بالطبع، البت في الأمر، ولكن الواضح تماماً أن هناك "تداخلاً" ثقافيًا وحضاريًا ولغويًا وسياسيًا بين أقطار الوطن العربي القديم لا يخفى عن العيان. فلنترك الإجابة عن هذا السؤال لباحثي المستقبل مزودين بنظرة جديدة للتاريخ العربي ومادة أوفر ووقت أكثر.

ولنلتفت إلى مادة "فرع" في قاموس لغة سبأ القديمة ونقارنها بالعربية في تطورها، وقد ورد اللفظ في نصوص سبئية كثيرة (راجع مادة FR في Sabaean Inscriptions نكتفي منها بنصين :

النص رقم 618 - السطر 15 :

"س ع د ه م. ا ل م ق ه. **ف ر ع**. د ث ا. و خ ر ف"

(فليسعدهم (الرب) المقه، بأوفر غلال الربيع والخريف)

فرع هنا تعني : الوفرة، اليمن، الكثرة، النمو، الزيادة، وما إليها... ومن هنا اشتقت كلمة "التفرع" وجاءت صفة "الفارع" - فارع الطول، ويشبه هذا التعبير الشعبي في ليبيا : "فرعن". فرعن النبات : نما نمواً كبيراً واستطال، وهناك نبات "الفرعون" وهو نبت مشهور بنموه السريع في أية تربة.

نلاحظ هنا أن "فرع" هذه جاءت مقرونة بالغلال، فلننظر في الكلمات المثيلة في بعض اللغات العروبية الأولى ولنقارن.

يترجم غاردنر (ص 565) كلمة PRT المصرية بكلمة seed الإنجليزية التي تعني "البذرة" و"الذرية" أو "النسل" أيضاً. وفيها معنى التكاثر.

أما مارسيل كوهن (ص 169 رقم 367) فهو يرجعها إلى : الكنعانية : ف ر. العبرية : ف ر ي - ف ر أ

بمعنى : ثمر، مثمر، خصيب.
الآرامية : ن ب ر = فكرة الذرية
ويذكر كوهن من المصرية : ف ر.ت = ثمر
ف ر ي = مثمر
ن ف ر = حبوب - غلال
ويربط بينها وبين بعض اللغات الإفريقية المحيطة :
البجاة : ف ي ر ي = إنجاب - إزهار.
النيجر : ف ر ي = إثمار
الهاوسا : ف ي ر = ثمر
الأكادية : يذكر رايمشنايدر :
ايبورو EBURU = حصاد Harvest
فرعو (برعو) PERU = نسل - عقب -وفرة الولد.
ويشير كوهن إلى كلمة "بر" العربية التي تعني القمح أو الحنطة (الغلال، الحبوب) وعلاقتها بالأكادية "إيبورو" Fruit des champs (غلال. حرفيًا : ثمر الحقول) - التي تعود إلى السومرية "بورو" BURU بمعنى "ثمر" ويتساءل : أليس العلاقة واضحة بين هذه الكلمات والكلمة اللاتينية المتأخرة كثيراً عنها Frug-والتي منها جاءت الفرنسية والإنجليزية Fruit والإيطالية Frutta والتي تعني في الأساس "الثمر" وليس "الفاكهة" كما يفهم منها الآن ؟!
ما علينا. فلنعد إلى نصوصنا السبئية قبل أن يسرقنا الحديث :
2- في النص رقم 649 - الأسطر : 12، 18، 35 في مجال الحديث عن منجزات ملك سبأ وريدان وانتصاراته العسكرية في نقش على صنم برونزي مقدم للرب المقه :
"و ذ ف ر ع م. ب ق د م. ج ي ش ن."
(وذو شأن عظيم قدام (أمام) الجيش).

فرعم هنا تعني : عظم الشأن، الأهمية البالغة، العظمة. فإذا عدنا إلى لقب : "فرعون" لا نجد صاحبه يخرج عن هذين الأمرين : البسطة في الجسم أو المال أي القوة (فارع) أو العظمة (فرعم)، وهذه هي الصفة المفترضة للملك.. أو الفرعون.

هل نفهم من هذا أن الجذر العربي (فرعن) هو أصل لقب فرعون ؟
هذا ممكن، ويمكن القول بأن أصل (فرعون) هو (فرعن). والنون في آخر الكلمة أصلية في أثناء تطور العربية واستعيض عنها بالتنوين الذي ينطق ولا تكتب نونه وتتحول النون في لغة سبأ إلى ميم(فرعم= فرعن)(فرع). تكلم = تكلن (تكل). نمرم = نمرن (نمر). وقد يؤيد هذا الرأي ورود الاسم في المصرية : ب ر. ع (= فرع) بإبدال ب فاء، ولم تعرف المصرية التنوين.

ولكن هذا يجوز فقط باعتبار الكلمة واحدة غير مجزأة، وماذا نفعل بتحليلنا السابق للقب الكريم وقد قسمناه إلى مقطعين(ب ر+ع) وأرهقنا في متابعة كل مقطع منهما وتحليله؟

لا تنزعج. فلسنا في الواقع ندري أي الكلمتين أسبق في الوجود، "فرع" أو " بر- ع"، ومن الممكن جداً أن تكون "فرع" العربية السبئية مصاغة من "بر - ع" المصرية. قد يكون السبئيون سمعوا المصريين ينطقون هذه الكلمة المركبة من مقطعين والدالة، في مجملها، على العظمة والملك، فنقلوها بصيغة "فرع" باعتبارها كلمة واحدة، ثم استعملوها (فرعم)، لقباً لملوكهم ودليلاً على عظم الشأن (فرعم) وعبر العصور تطورت الكلمة و" تفرعت" حتى صار معناها ما نعرفه الآن. والأمر على كل حال، يظل في نطاق العروبية، سواء نظرنا إليه لفظاً واحداً أو مقطعاً إلى جزئين، ومهما قلبناه على وجوهه نجده عروبيًا، أو عربيًا، هنا وهناك بشاهد اللغة والتاريخ.

المراجـــع

(1) القرآن الكريم
(2) التوراة (العهد القديم) . سفر الخروج

(3) Budge. E.A.Wallis; an Egyptian Hieroglyphic Dictionary.

(4) Cohen, marcel; Essai comparatif sur le Vocabulaire Chamito-Semitique. Paris, 1947

(5) Cerney. J; ancient Egyptian Religion, Greenwood Press, Nestport, U.S.A. 1970.

(6) Evans, Sir Arthur; Scripta minoa the aritlen Documents of Minoan Crete, Oxford 1909.

(7) Friedrich, Johannes; Extinc Languages. (Tr. Frank Gaynor), Philosophical library. New York, 1957.

(8) Gardiner, Sir Allen; Egypt of the Pharaohs. Oxford. 1979.

(9) Gadiner, Sir Allen; Egypt of The Pharaohs. Oxford, 1969.

(10) Hallo, William and W.K. Simpson; The Ancient Near East. a History H.B. Jovanovich, New York, 1971.

(11) Herodo TVS; The Histories (Tr. Avrrey de Selincourt), Penguin Classics, 1981.

(12) دكـتـور جـواد علي: المفـصـل في تاريخ العـرب قـبـل الإسـلام، دار العلم للملايين. بيروت.

(13) Jamme, A.W.F.; Sabaen Inscriptions From Mahram Bilqis (Marib), The John Hopkings Press, Ba Timore, 1962.

(14) Kitchen; The third intermediate Perios in Egypt, Aris and Phillips. Oxford 1973.

(15) Krahmal Kov, Charles R. A Neo-Punic Shaft Tomb Inscription From Roman Tripolitanis, "Michigan Oriental Studies in Honour of George G. Cameron", Ann Arbor, 1976, pp. 57-6.

(16) Manetho; Aegyptiaca. (Tr. W.G. Waddell), Loeb, 1980.

(17) Riemschneider; An Akkadian Grammar (Tr. By: T.A. Coldwell and others) Marquitte University Press. Milwaukee, Wiskonsin. 1978.

(18) Shorter, A.W.; Everyday life in Ancient Egypt.

(19) Speiser, E. A.; Oriental and Biblical Studies, University of Penns, Ivania Press. 1967.

(20) Wilson, J.A; The Burden of Egypt, Chigago, 1951.

(21) Zadok, Ran; On West Semites in Babylonia An Onomastic study. Jerusalem., 1977.

الباطش

وقف أبو التاريخ، هيرودوت، متردّدًا بين قولين وهو يروي قصة إنشاء اليونان من جزيرة ثيرا مستعمرتهم قورينا في الجبل الأخضر أواخر القرن السابع قبل الميلاد، في حديثه عن قائد المهاجرين اليونان إلى ليبيا، وسبب تسمية "باتوس" أما القول الأول فكان حسب رواية القورينيين، وأما القول الثاني فهو ما دلّه عليه استنتاجه الشخصي، الأول عاطفي امتزج بالأسطورة، والثاني موضوعي محدد.. وهو ما نبغي مناقشته الآن.

يقول القورينيون، حسبما يورده هيرودوت، إن الرجل الذي قاد أسلافهم لينشئ قورينا كان في صباه عييَّ اللسان فسمي باتوس Battus وهي تعني (المتلعثم) في اللغة اليونانية، ثم قالوا إنه تخلص من عيّه حين هجم عليه أسد فصاح فيه صيحة مدوية أرعبت الليث وأطلقت لسان الفتى، ونظم شعراؤهم في هذه القصة القصائد الطوال، مثلما فعل بندار في "البوثية الرابعة"، وقالوا في أسطورة إنشاء قورينا إن باتوس مضى إلى معبد دلفي يستكنه الغيب، ويطلب أن تشفيه الآلهة من عيّه فردّت الكاهنة قائلة: "يا باتوس! أنت تطلب لسانًا سويًّا.. لكن أبوللو يرسلك لتنشئ لك وطنًا في ليبيا حيث تكثر الأغنام". وبعد أخذ ورد، ومغامرات لا أول لها ولا آخر، جاء باتوس إلى الجبل الأخضر - إلى ليبيا - "حيث تكثر الأغنام" وأنشأ المستعمرة الشهيرة.. قورينا.

هذا هو القول الأول، أما الرأي الثاني - وعليه العماد - فقد جاء في ملاحظة هيرودوت نفسه بعد أن روى قول القورينيين وأضاف «لكنني أظن أن الصبي أعطى اسمًا آخر غيّره إلى (باتوس) عند مجيئه إلى ليبيا، وأنه اتخذ هذا الاسم الجديد بسبب النبوءة التي أعطيت له في

دلفي ولمنصبه الجليل الذي تبوّأه، فإن الكلمة الليبية التي تعني (ملك) هي (باتوس)». ثم زاد هيرودوت : "هذا في اعتقادي هو السبب الذي من أجله دعته كاهنة معبد دلفي على هذا النحو في نبوءتها مستعملة الاسم الليبي لأنها كانت تعرف أنه سيصبح ملكًا على ليبيا " (الكتاب الرابع - فقرة 155) .

من الواضح أن هيرودوت كان على صواب في ملاحظته الأولي : كان لباتوس هذا اسم آخر يعرف به. اسم يوناني صرف هو أرسطو طاليس Aristotales كما أكد الشاعر بندار في قصيدته " البوثية الخامسة " وتابعه في هذا المؤرخ ديودوروس الصقلي في "المكتبة التاريخية" - الكتاب الثاني، الفقرة 29، وجاء الباحثون المحدثون من أمثال بارك H.W.Parke وويرمل D.F.Wormell في كتابهما "معبد دلفي" The Delphic oracle فأكدا هذا القول، وليس هذا غريبًا، أعني أن يأخذ اليونان المهاجرون عن أهل الوطن الليبين كلمات يدخلونها في لغتهم فتصبح جزءاً منها، وقد لاحظ هيرودوت نفسه كلمات أخرى هي كلمات ليبية نقلت إلى اليونانية ، من مثل كلمة إيجيس Aegis التي تعني (الدرع) - وكلمة أزيجيريس Azigeries التي تعني "التلال"(*) بل إن اسم الربة اليونانية "أثينا" Athena مأخوذ عن الربة الليبية نيث Nieth. . دعنا مما يرويه ويقرّره أبو التاريخ من أن اليونان تعلموا من الليبيين كيف يقودون العربات ذات الخيول الأربعة، كما أخذوا عنهم عبادة بوسيدون، والغناء الطقسي (الهلاليا) وكانت كلمة Ololuge تطلق صياحًا يشبه الزغاريد عبادة أثينا - الربة الليبية.

وأبو التاريخ قد يكون محقًا أيضًا في ملاحظته الثانية في قوله: " إن كاهنة معبد دلفي كانت تعرف أنه سيصبح ملكًا على ليبيا " ولهذا

(*) قارن العربية " أزر" = الجبل ، أو الجبل المنيع ، وفي ظني أن اليونانية azigerie (s) مأخوذة عن الليبية كما قال هيرودوت وهذه عروبية " أزر" محرفة كما هو واضح.

"دعته على هذا النحو (باتوس) في نبوءتها مستعملة الاسم الليبي (ملك). ومن أولى بمعرفة اللغة الليبية القديمة من كاهنة دلفي وهي كانت ذات علاقة بالإله آمون وبمعبده في سيوة، وكانت ذات علاقة بأرباب جزيرة كريت الليبيين في مَنشَئهم ؟

قد يبدو هذا كله مقدمة لا بد منها تمهيداً للقول بأن كلمة (باتوس) هذه التي ثار من حولها هذا الجدل كله كانت بحكم أقوال المؤرخين كلمة ليبية : وهذا أمر ثابت الآن، بل هي كلمة عربية !

من أين جاءت كلمة (ملك) ؟

إنها من الملك والتمليك - بمعنى التحكم والقوة - ومهما قلبت الجذر اللغوي (م ل ك) على وجوهه ففيه معنى القوة : ملك (تحكم) - لكم (ضرب بقبضة يده) - كلم (جرح).. إلخ.

ويسمَى زعيم القوم أو قائدهم : الرئيس (من الرأس وهو أهم أجزاء الجسد) - السلطان (من السلطة والتسلط) - الأمير (من الأمر). وأضف إليها ما شئت.

وكان العرب الأقدمون - العرب البائدة منهم والعاربة - في جنوب الجزيرة العربية يطلقون على ملوكهم أسماء مختلفة فيها معنى القوة على كل حال. هناك (تبع) مثلاً، أي المتبوع أو المتبع، صاحب الأتباع. وهناك (ذو قبض) أي القابض على نواصي الأمور، وهناك (ذو كرب) أي المقرب من الآلهة، وهناك (ذويزن) ولعله (ذو الوزن) والبأس.

***

فما صلة هذا كله بالموضوع ؟

لنعد من حيث بدأنا.

لنعد إلى .. باتوس.. وأرجو أن تلاحظ معي أننا نقلنا الكلمة عن اللسان اليوناني، وهو لسان أعجمي يحرف الكلمات العربية لتتفق معه. ولاحظ أيضاً أننا نتحدث عن فترة قديمة من التاريخ كانت اللغة

العربية ذاتها غير العربية التي نعرفها اليوم، ولاحظ ثالثاً أن كلمة (باتوس) هذه أو هي (باتس) ليست سوى كلمة (باطش) العربية. هل لاحظت، رابعاً، معنى القوة والملك والسلطة فيها؟ هل لاحظت (البطش)؟! اتفقنا إذن، وهنا ائذن لي بأن آخذك إلى أحد المراجع المهمة في تاريخ العرب.. إلى كتاب (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للباحث الأستاذ الدكتور جواد علي. ولن أثقل عليك بقراءة أجزائه العشرة، ولأنقل لك بضع فقرات منه، يقول الدكتور جواد علي: "ولما أراد الإسكندر احتلال غزة في طريقه إلى مصر قاومت المدينة ودافع عنها رجل أسماه أريان (باتس Betis Baetis Batis) مستعيناً بجيوش عربية قاومت مقاومة شديدة اضطرّت الإسكندر إلى نصب آلات القتال، إلاّ أن العرب هاجموها لإحراقها كما هاجموا المقدونيين الذين كانوا متحصنين في مراكز القيادة وراء تلك العُدد.. ويري بعض الباحثين أن باتيس Batis الذي وقف بوجه جيوش الإسكندر وقاومها هذه المقاومة العنيفة في حوالي سنة 332 ق. م كان رجلاً عربيًّا اسمه (باطش) أي الفاتك. ويستدلون على هذا بورود اسم رجل في الكتابات النبطية هو (بطشو) أي (باطش) وقد حرّف هذا الاسم فصار باتس Batis.. فرجحوا لذلك رأي من يقول إن (الباطش) Ba-tis كان من العرب". انتهى النص.

هذا الربط المحق تماماً من الدكتور جواد علي ما بين اسم "باتس" كما ورد عند اليونان والاسم العربي "باطش" ينقلنا إلى بحث ثلاث نقاط.

أولاها: العلاقة ما بين الاسم واللقب، وثانيتها: التحريف الذي تتعرض له الأسماء والألفاظ، وثالثتها: جولة تاريخية قصيرة في المواطن التي ذكر فيها هذا الاسم - اللقب الكريم.

***

من الظواهر الملحوظة في التاريخ أن لقباً ما يطلق على ملك أو زعيم

لشعب من الشعوب يتحول، بالاستعمال أو التسمية به فيما بعد، إلى اسم علم يتكرر حتى ينسى الأصل تماماً، وقد لاحظ الباحث المعروف (آرثر إيفانز) هذه الظاهرة فيما يتعلق باسم ملك كريت وباني قصر (كنوسوس) المشهور (مينوس) Minos والذي عرفت باسمه تلك الفترة الحضارية، وهي ما تسمى بالحضارة المينوية Minoan Culture فمن رأي إيفانز أن اسم مينوس هذا لم يكن اسم شخص بعينه، بل هو استناداً إلى تكرره في تراث جزيرة كريت، لقب ملكي تكرر. وهو يضرب لهذا مثلاً اسم "فرعون" الذي كان لقبًا لملوك مصر - الفراعنة. وأصل التسمية مأخوذ من الكلمتين المصريتين : بر - عو pir-< o ومعناها (البيت الكبير) أو (القصر) فصارت لقبًا للملك الذي كان طبعًا يحتلّ القصر ويعيش في البيت الكبير.. تماماً كما كان يعبر عن السلطان في تركيا الخلافة بـ(الباب العالي) كناية عن الخليفة نفسه الذي يقطن قصراً سامقًا مرتفع الأبواب والمداخل [1].

بيد أن اسم " فرعون " هذا تحول في مصدرين من أشهر مصادر التاريخ القديم من لقب إلى اسم علم . فنجده يذكر في التوراة هكذا "فرعون ملك مصر" (سفر الخروج. أصحاح 6، آية 2 وما بعدها). ونجد هيرودوت يقدمه على هذا النحو أيضا : "الملك فيزون(فيروس = فرعون) بن سيزوستريس " .(الكتاب السادس / فقرة 3).

هذا التحوّل من اللقب إلى اسم العلم، يقول إيفانز، ينطبق تماماً على اسم "باتاس" الذي عرف به مؤسس قورينا اليونانية، وهو في حقيقته لقب ليبي بمعني (ملك).

***

في سنة 1914 م. كتب أوريك بيتس، بعد مراجعة اسم " باتوس" في المصادر المختلفة، يقول : " إن أصل هذه الكلمة التي طال الجدال من

---

(1) A.Evans; Scripta Minoa,vol.p.269

حولها غير معروف "(2) .

وسبب الجهل بأصل هذه الكلمة، فيما نرى، يرجع إلى أمرين :

الأول : عدم الانتباه إلى الصلة اللغوية الوثيقة بين اللغتين الليبية والمصرية من جهة ولغات الجزيرة العربية من جهة أخرى، ممَّا صرف الأذهان عن النظر إلى أصل الاسم على ضوء هذه الصلة الواضحة.

الثاني : القراءات المحرفة لأسماء أو ألقاب شبيهة وردت في النصوص المصرية المتعلقة بالليبيين ، مما أدى إلى رسم الاسم مختلفاً قليلاً بين العلماء حين نقلوه إلى الحرف اللاتيني. وكانت النتيجة عدم الانتباه إلى التطابق التام في الاسم واللقب والظرف الذي سجل فيه.

وهنا علينا تقديم بعض الوثائق التي ذكرت الاسم -اللقب في المصادر المصرية ورؤية موطن الحق في الأمر. لكن علينا أولاً تقديم ملاحظة صغيرة حول تبادل بعض الحروف في اللغة المصرية، كما هو الحال في اللغات الأخرى. وهذا أمر معروف يهمنا منه هنا حرفان :

(1) حرف الباء المثلثة p الذي لا يوجد في العربية. وهو يقوم مقام حرف الباء العربية B فإن كتب الاسم KPR مثلاً فهو يقرأ (ك ب ر) KBR وهكذا في كثير من الكلمات.

(2) يتبادل حرفا التاء T والدال D كذلك في المصرية والليبية. وعلي هذا فإن اسم القبيلة س ب ت SBT (الاسبت - الاسبوتاي) يكتب أحياناً SPD وهذا مثل واضح على تبادل حرفي الباء المثلثة، والتاء مع الدال. (انظر : بيتس، الليبيون الشرقيون، صحفة 47).

ونضيف ملاحظة أخرى تكمن في أن الحركات التي يضعها الباحثون على الحروف الهيروغليفية المصرية هي مجرد اجتهاد شخصي لا يمت للنطق الأصلي بصلة، بل هو مجرد تخمين ليس غير، فلا يلتفت إليه إلاّ بمقدار تسهيل النطق على الكاتب والقارئ. ذلك لأن اللغة المصرية،

---

(2) O.Bates; the Eastern Libyans, p.116

كالعربية والليبية وبقية اللغات العروبية، ساكنة الحرف غير ذات حركة.. أعني غير مشكولة. وهذا ما يجعل نطق حروفها خاضعًا للتحريف.

بعدما تقدم يبدو لنا من المناسب الآن أن نقدم للقارئ مجموعة من النصوص التي ورد فيها اسم " باطش " باعتباره اسمًا أو لقبًا استعمله الليبيون في مختلف الأزمنة والمواقع مما يدل دلالة قاطعة على التوسع في استعماله وانتشاره.

في ثلاثة نقوش من مجموعة "ألواح أبيس" الهيروغليفية اكتشفت في معبد "السيرابيوم" تؤرخ لأواخر الأسرة الثانية والعشرين الليبية (الشناشقة) في مصر، يقول عالم المصريات هنري بروغش إنه رآها رأي العين مع زميله المشهور مريت بك سنة 1850 م، وقدم ترجمة مشتركة لها في كتابه (تاريخ مصر تحت الفراعنة) الصادر سنة 1879م. في هذا النقوش يبرز اسم " باطش " خمس مرات :

" النقش رقم (2).. وقد أدخل (العجل أبيس) مبجلاً إلى معبد فتاح على يد كاهن معبد فتاح الأكبر، أمير المشوش العظيم، باطش PTS ابن كاهن ممفيس الأكبر وأمير المشوش العظيم تكلت.

النقش رقم (3).. وقد كرس هذا اللوح على يد الأمير الوراثي حور سس ابن كاهن ممفيس الأكبر وأمير المشوش باطش.

النقش رقم (4).. فليسبغ [الرب] الصحة والحياة والرغد على الوالي الليبي (الأصل : المشوشي) باطش ابن الوالي الليبي تكلت.. ابن أول وأعظم وراثي ملك صاحب الجلالة شيشنق ابن الملك وسيد الأرض أوسركون الثاني.

ولمبجله ووليه كاهن فتاح الأكبر فف - تت - بست ابن الحاكم باطش.

ولمبجله ووليه كاهن فتاح، تكلت، ابن الوالي باطش وزوجه

حر - سسي"[3].

في هذا النقش المهم للغاية نجد " باطش " كاهنًا وحاكمًا وواليًا، ولكنه فوق هذا وذاك " "أمير المشوش العظيم" والمشوش هم الليبيون الذين ظهر منهم شيشنق وخلفاؤه، وهو يذكر مره بذاته، ومرة باعتباره أبًا للأمير الوراثي " حور - سس"، وأخرى أباً للوالي الليبي "تكلت"، ورابعة أباً لـ" فيف - تت -بست"، ثم خامسة باعتباره أباً لـ" تكلت" وعلى هذا فإن اسم " باطش " قد يكون اسم علم لشخص ما في تسلسل تاريخي يحتاج إلى تتبع وتحقيق كبيرين، وقد يكون لقباً مجرداً يطلق على الكاهن الأكبر، وهي وظيفة معروفة في مصر، وبخاصة في الأسرة الثانية والعشرين، يجمع فيها الدين والدولة، أو الكهنوت والملكوت، في يد شخص واحد وريث شرعي للعرش الفرعوني غالباً، إلى جانب الحاكم الأعلي.. الفرعون ذاته [4].

وليس هنا موطن مناقشة هذه الوظيفة مناقشة تفصيلية واسعة، ولا نظام الحكم عند الليبيين في مصر أو ليبيا ذاتها، ولكن المهم الإشارة إلى أن صورة "باطش" باعتباره "زعيم المشوش العظيم" تظهر، كما يذكر المؤرخ بيتري، معلمة بالريشة الليبية على رأسها[5] مما يدل دلالة لا شك فيها على علو الشأن والزعامة والملك بين المشوش. وهذه إضافة أخرى إلى ما سبق.

***

في سنة 728 ق. م. غزا الملك النوبي بعنخي الأول مصر، وكانت أسرة الشناشقة قد اضمحلّت بعد حكم تواصل أكثر من قرنين وتحوّلت مصر إلى مجموعة ممالك صغيرة يحكمها قادة وكهان ليبيون مختلفون

(3) Henry Brugsch;History of Egypt... p.

(4) Kitchen;Third Intermediate period..p.467

(5) petrie; A History of Egypt...p.250,252.

فيما بينهم. والمثير هنا أن اسم "باطش" يذكر باعتباره " الزعيم الوراثي" في منطقة الدلتا في نقش يعرف باسم (لوح بعنخي) :

"جاء ملوك وولاة الدلتا، وجميع الزعماء واضعين الريش، وكلّ وزير، وجميع الرؤساء، وكل من له صلة بالملك.. وقد رحب الزعيم الوراثي باطش بالملك ووضع خزائنه كلها ومخازنه تحت إمرته. وأقسم باطش على أن ما من أحد من الزعماء سيخفي ماله عن الملك "(6)

من هنا يمكننا استخلاص أن كلمة " باطش " كانت لقباً خاصاً يطلق على الزعيم الوراثي الذي هو في الغالب كاهن أكبر إلى جانب سلطته الدنيوية، وقد يكون ابن الفرعون ذاته، وقد يصبح فرعوناً هو نفسه. فلما اضمحل دور الفرعون في حكم مصر الموحدة وتقسمت البلاد إلى أقاليم شبه مستقلة صار "الباطش" لقباً خاصاً بمن يجوز أن نسميه " شيخ مشائخ الدلتا" . ثم جاء عهد الحكم النوبي وما تبعه من أحداث حتى نشأة الأسرة السادسة والعشرين الليبية أيضاً في سائيس، وفي عهدها جاء اليونان إلى ليبيا لإنشاء قورينا سنة 631 ق.م. ولا ريب في صدق هيرودوت حين ذكر أخذ زعيم اليونان لقب " باطش" عن الليبيين.. فقد كان هذا اللقب معروفا منذ قديم الزمان.

هل عرف هذا اللقب فعلاً منذ قديم الزمان ؟!

الجواب : نعم.

فقد كان وادي النيل بوتقة انصهار بشرية عظيمة، وكان المصريون - كما يقول بيتري - مكونين بقدر كبير جداً من مهاجرين ليبيين. ومن المرجح أن الأفكار الليبية دخلت على نطاق واسع في الديانة والحضارة المصرية. "نيث" - مثلا - كان معترفاً بها باعتبارها ربة ليبية، وكان تاجها هو الذي يصور الجزء الأسفل من التاج المزدوج (تاج القيطرين). وكون هذا هو التاج الليبي في الدلتا ثابت عن طريق القيمة الصوتية له إذ هو

---

(6) petrie; A history of Egypt.. p.257

بالإضافة إلى تمثيله حرف النون N يحمل قيمة كلمة (ب ط BT) متعاقبة مع الشعار الملكي الآخر النحلة أو الدبّور Hornet وبهذا كان يسمّي التاج الملكي والشعار الملكي كلاهما :(ب ط) . هنا إذن ، يقول بيتري، نرى أحد التاجين ونصف الشعار الملكي الفرعوني ليبين في حقيقتهما(7)

وإذا كان ما يقوله هذا الباحث مقبولاً ، وهو مؤيد بتحليل الاسم في الكتابة الهيروغليفية (Gardiner Egyptian Grammar) ويسانده باحثون آخرون (قارن : (Evans, Scripta Minoa) فإن ثلثي الكلمة العربية " باطش" موجودان في التاج الفرعوني الموحّد، وهو اللقب المتفق مع الملك والسلطان، ولا بد هنا من افتراض سقوط حرف الشين أو إسقاطه، وهو ظاهرة معروفة جداً في اللغة المصرية على كل حال، ولها مثيلاتها الكثيرات (8) .

وهنا أيضاً نكرر القول بأن الباحثين، وقد انتبهوا إلى التأثير الليبي في حضارة مصر وثقافتها، ربما غفلوا أو تغافلوا عن أن هذا التأثير عربي الصبغة الواضحة. وسواء جاء مصر من الشرق أو من الغرب أو برز منها ذاتها فإنه يظل عربيًا في جميع الأحوال.

هل نكتفي بهذا القدر من النصوص عن هذا "الباطش" العزيز ؟ لقد

---

(7) petrie; Nagada and Ballas.p.64

(8) في القاموس المصري - العربي المقارن نلاحظ أن ما يقابل الفعل أو الاسم الثلاثي في العربية يكون غالبًا ثنائيًا أو أحاديًا في المصرية . ولعل هذا يرجع إلى ظاهرة الإدغام في اللغة المصرية بحيث يستغنى عن حرف أو أكثر في ما يقابل العربية (أف : أفعي . د : يد. عا : عال . صر : صرة . تي : تيه . دقو : دقيق . فج : فجوة . إلخ ...) أو قد يكون الأصل حرفا أو حرفين في اللغتين كلتيهما أضيف إليه حرف آخر بحكم التطور . ولكن الثابت أن العربية ذاتها في بدايتها الأولى كانت ثنائية الجذر في أصول الأفعال والأسماء، وهذا ما يتفق مع المصرية .

عن هذا الموضوع راجع : .Juana Linguarum,200.p.211

Werner Vycichl; Egyptian and Other Hamito Semitic Languages

رأيناه مسطراً، أعني مرسوماً، على تاج مصر الموحد منذ أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد. ووجدناه مسجلاً على ألواح الأسرة الشيشنقية. ثم قابلناه في عهد حكم النوبيين، حتّى أخذه اليونان محرفًا إلى "باتس" ولكننا لا نمل من الأخذ بتلابيب الاسم الليبي - المصري - اليوناني - العربي أساساً، وبتلابيب القارئ أيضًا مادام وصل معنا إلى هذا الحد في قراءته !

ماذا عن الليبيين الغربيين مثلاً؟ هل نجد هذا الاسم - اللقب في شمال إفريقيا القديمة ؟

ومرة أخرى : نعم، وكيف لا وهذه المنطقة كلها كانت، ولا تزال وحدة واحدة ؟ فلنأخذ القارئ الآن إلى نقش شهير جداً هو " نقش مسنسن".

ومعلومة عابرة : نقش مسنسن هذا حجر عثر عليه في مدينة " دقة " التونسية سنة 1904م. سجلت عليه كتابة باللغتين البونيقية والليبية تذكاراً لبناء معبد يخلد ذكرى مسنسن الملك النوميدي سنة 149 ق. م وكان ملكًا عظيماً وحد الشمال الإفريقي كله في دولة كبري كانت من أشهر الممالك في غابر الزمان.

في هذا النقش البالغ الأهمية نجد اسم "باطش" مخلداً عن طريق ابنه أحد بناة المعبد والمسهمين في تشييده :[9]

بالبونيقية : " أن ك ك ن - ب ن - ب ط ش. ANKKN/BN/ PTS

وبالليبية : " ن ك ك ن - و(لد) - ب ط ش. NKKN/W/ (LD) PTS

ونحن نعرف من دراستنا للنقش أن النص الليبي عربي اللغة وأن كثيراً من الأسماء التي وردت فيه عربية أمكن التعرف عليها ومقارنتها بأسماء عربية أخرى، ونجد اسم "الباطش" هنا يبرز بوضوح عربيًا رغم التحريف البسيط الذي طرأ عليه، وهو تحريف مبرر لا يحتاج إلى نقاش

(9) J.Friedrich; Extinct Languages, p.120

طويل. فكما حدث لاسم " الباطش" أيام الإسكندر الأكبر فكان "بطشو" نجد في نقشنا هذا "باطش" بباء مثلثة - ولعله صار أيضاً "فطش" لتقارب مخارج الحروف. ومن يدري ؟ لعل حرف الشين صار سيناً لسهولة التبادل بين الحرفين. هل يمكن،على هذا الأساس إرجاع اسم "فطيس" المنتشر في غرب ليبيا إلى أصله العربي " باطش " ؟

يمكن جداً !

تبقى كلمة حول الكلمة يسجلها الباحث دانيال برنتون منذ ما يقرب من مائة عام في مقالته عن "الأسماء الإتروسكية والليبية" . فقد لاحظ وجود اسم بيتوس Betus وبيتوا Betua في النقوش اللاتينية القديمة. وهو يعتقد أن هذا الاسم اللاتيني - الملكي في الغالب - هو صورة ملتنة (محولة إلى اللاتينة) من الاسم الإتروسكي Etruscan الأقدم فيتيوس Fetius أو فيثيوس Fethius ويرى أن هذا الاسم الأخير نقله الليبيون، الذين هم أصل الإتروسكيين، معهم إلى إيطاليا في هجرة واسعة النطاق في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد، وكان الاسم "باطش" في الأصل فصار إلى ما هو عليه. (10)

ويالها من رحلة طويلة، في الزمان والمكان، قطعها هذا "الباطش" من الجزيرة العربية إلى مصر، إلى ليبيا، أو العكس. ومن ليبيا إلى شمال إفريقيا كله، إلى إيطاليا - والعودة - متخفياً تحت : بطشو، بتس، بت، بط، فيتيوس، بيتوس، و.. فطيس !

(10) Brinton; On Etruscan and Libyan Names, p.47

المراجـــع

(1) Herodotus; The Histories, Book IV.

(2) N. Parke and D.F. Wormell; The Delphic Oracle.

(3) دكـتـور جـواد علي: المفـصـل في تاريخ العـرب قـبـل الإسـلام. دار العلم للملايين. بيروت.

(4) Arthur Evans; Scripta Minoa, Volume I, The Clarendon Press, Oxford, 1926.

(5) Oric Bates; The Eastern Libyans, London, 1914.

(6) التوراة (العهد القديم) : سفر الخروج.

(7) Henry Brugsch; History of Egypt Under the Pharaons, Vol. 1 ii, London 1879.

(8) K. A. Kitchen; The Thrid Intermediate Period in Egypt, Aris and Philips, London, 1973.

(9) W.M.F. Petrie; History of Egypt, Vol. III, Methuen and Co., London, 1905.

(10) A. Gardiner; Egyptian Grammar, Griffith Ins 3rd Ed., London 1957.

(11) W.M. F. Petrie; Nagada and Ballas, Bernard Quaritch, London, 1896.

(12) Werner Vycichl; Egyptian and Other Hamito-Semitic Languages.
Janua Linguarum. 200, London 1975, p.211.

(13) Johannes Friedrich; Extinct Languages, (Tr. Frank Gaynor), Philosophical Library, New York; 1957.

(14) D. Brinton; On Etruscan and Libyan Names, Proceedings of American Philosophical Society, 1889.

الليبيون أم العربيبون؟

ظللنا نتحدث عن " إعادة كتابة التاريخ " عشرات السنين. عقدت المؤتمرات والندوات وتناقش الأساتذة المتخصصون وغير المتخصصين الأيام والشهور الطوال، وخرجوا من كل اجتماع ولقاء وكلٍ يغني على ليلاه، فلا التاريخ أعيدت كتابته، ولا بلغنا من أمرنا رشداً. وجل ما فعلناه أن شمرنا عن ساعد الجد لنسطر المجلد تلو المجلد، ونعيد كتابة التاريخ على هوانا الذي نبغي، دون الالتفات إلى حقيقة بسيطة هي أن هذه الأمة قد زيف تاريخها وحرف مسارها، ومزقت شر ممزق في ماضيها وحاضرها وربما مستقبلها أيضاً، إلا أن يتداركها الله.

وقد رأينا علماء الأمم الأخرى يلتقطون الكلمة فيصنعون منها تاريخاً، ويأخذون بحرف نقش منذ عشرات القرون ويجعلون منه رابطاً يجمع الشتات، وينقبون عن أثر بعيد، قد يكون حقًّا وقد يكون باطلاً، ليوثقوا صلة أقوامهم ويزيدوها قوة ومتانة، فأحرى بنا أن نتبع هذا السبيل ونهتدي بهذا الهدى عندما نكتب عن تاريخ أمتنا وعلاقة شعوبها، وبعضها ببعض، وأولي بنا أن نكون الأسبق إلى هذا المنحى من "إعادة كتابة التاريخ" ، فذاك هو التاريخ الحقيقي لهذه الأمة العظيمة الضاربة جذورها في عمق هذه التربة الممتدة من المحيط إلى الخليج.

وليسمح لي القارئ أن أناقش هنا كلمة طالما ترددت في مجموعة هذه المقالات التي بين يديه، وفي مجموعات أخرى، واتخذها الكثيرون ذريعة إما لتوجيه التهم الباطلة - عن جهل - أو للتشبث بنزعة إقليمية - عن تجاهل. أعني كلمة (ليبيا) وما يتصل من حديث (الليبيين) حتى بات الأمر - ولا ريب - في حاجة إلى أشد الجلاء والتبيان.

ولنسرع إلى القول بأنه لا حرج من استعمال كلمة (ليبيا) للدلالة على جزء من وطن هذه الأمة التي نسميها (الأمة العربية)، ولا ضير في

الحديث عن (الليبيين) باعتبارهم أحد شعوب هذه الأمة الكبرى، تماما مثلما ينسب إلى العراق والمغرب والسودان أو سورية والحجاز وغيرهما من أقطار العرب. وهذا واضح بحكم الاصطلاح الجغرافي أو الاجتماعي السياسي، ولا يعني مطلقًا الانسلاخ عن الكيان العربي الكبير أو الادعاء بتميز عرقي والانتماء إلى جنس آخر غير الجنس الذي يعرف الآن أهله باسم (العرب) على وجه الجملة

فإذا ما حددنا هذا الإطار الواضح كانت " إعادة كتابة التاريخ " أيسر وأجلى، بل كانت أدعى وأولى، ولنا - من بعد - أن نمضي في الدرب والتنقيب وكشف الأسرار المدفونة تأكيدًا للعراقة وتعميقًا للجذور وترسيخًا للمكونات التاريخية القديمة ،مع النظر إلى ما طرأ على كل قطر من تطورات وما مربه من أحداث ، تعظم وتصغر، هي بحكم المساحة الشاسعة والزمان المتطاول قد تتباين في الشكل والنمط، ولكنها تظل رغم كل شيء عبارة عن رافد من روافد نهر الأمة العظيم. ولا تثريب بعدئذ على من يجرد نفسه لمتابعة حدث ما أو تطور طارئ في قطر ما من أقطار العرب، إذ يظل هذا القطر أو ذاك جزءًا من كل في تيار صراع الحضارات (أو كما يسميه غارودي : حوار الحضارات) وهو تيار حافل متدفق على مدى الزمان والمكان. فهل تحب - بعد هذا - أن نرى رأيا في كلمة (ليبيا) ونبديه؟

كيف نشأت هذه الكلمة؟ ما هو مدلولها؟ كيف تطورت على مدى القرون؟

باختصار شديد أجيبك: تعددت الآراء واختلفت، وتحير العلماء وقلبوا الأمر على وجوهه. قالوا مرة : إنه اسم ملكة كانت تحكم شعبا يقطن إلى الغرب من وادي النيل، فأطلق على الشعب كله نسبة إليها. وقالوا : بل كانت ربة معبودة من ربات القدماء، تعمقت أسطورتها على أيدي الإغريق وربطوا في أساطيرهم بينها وبين الربة يوروبا (أوربا) وبين آلهة الفينيقيين، وصاغوا مغامرات لهذه الربة وغيرها من الأرباب

هي من جملة ما أنتجه خيال الإغريق الشعري العنيف.[1]

ويقول الأستاذ رينوف في مقالٍ له بعنوان (من كان الليبيون؟)[2]

---

(1) تقول الأسطورة اليونانية إن ليبيا كانت ابنة ممفيس Memphis وإيبافوس.
تزوجها الإله بوسيدون posiedon فولدت له ولدين هما : آجينور Agenur وبيلوسBelus وكانا توأمين.
أما آجينور فقد صار ملكاً على فينيقيا، وأما بيلوس (والاسم صيغة مؤغرقة من (بعل) السامية بمعنى "السيد") فقد صار ملكاً على إفريقيا وجزيرة العرب (وليلاحظ القارئ هذا الربط المثيولوجي القديم بين القارة الإفريقية والجزيرة العربية قديماً) وتزوج من أنشنوي Anchinoe ابنة نهر النيل التي أنجبت له الميلاميوديس Mélanipodes (ذوي الأقدام السوداء) يعني مصر، أو وادي النيل، وأطلق عليها اسمه وبه صارت تعرف عند اليونان، حتى وصل الاسم إلى اللغات الأوربية الحديثة كلها كما هو.
فليبيا إذن - حسب الأسطورة - هي أصل جميع أنصاف الأرباب وملوك فينيقيا والجزيرة العربية ومصر وشمال إفريقيا. انظر مثلاً:
M.grant; Who is Who in Classical Mythology. London,1973
P.le page Renouf; "Who were the Libyans)?" proceedings of Society of Billical Archaeology1981,p599ss.

(2) ناقش الضابط ف، بيشي F.W.Beechy أصل هذا الاسم في كتابه :
roceedings of Expedition to explore theNothrn rdn Coast of Africa from Tripoli eastwo الذي نشر في لندن سنة 1828 م، تسجيلاً لرحلته في البلاد سنتي1821-1822م، وجاء بعدة تحليلات. منها :
1- أن الاسم يمكن أن يكون عبرياً أو فينيقياً بمعنى "أرض الأسود أو الأرض المسبعة" Leonum arid nutrix فإن كلمة لوبيا - يقول - تعني اللبؤة أو أنثى الأسد. ولا ريب عنده في انطباق الوصف بأرض السباع على هذه البلاد.
2- قد يكون الاسم عربي النشأة فكلمة (لوب) تعني العطش، أو الجفاف، أو الحر، وهو وصف ينطلق أيضاً على هذه البلاد. كما يقال.
وعندما عدت إلى (لسان العرب) لابن منظور وجدته يقول :
"اللُوب واللّوب واللؤوب واللواب : العطش.
اللابة واللوبة : الحرة. والجمع : لاب ولوب ولابات - وهي الحرار.
وقالوا : أسود لوبي ونوبي- منسوب إلى اللوبة والنوبة، وهما : الحرة.
وفي الحديث : لم تتقياه لوب ولا مجته نوب"، انتهى نص ابن منظور

إن الإغريق فهموا من المصطلح (ليبيا) القدر الذي عرفوه من قارة إفريقيا، أو إفريقيا باستثناء مصر، وطبقاً لهيرودوت (الكتاب الثاني . الفقرة 16) يقول الإغريق والأيونيون إن الأرض تتكون من ثلاثة أقسام: أوربا وآسيا وليبيا، وفي ظن هيرودوت أنه "ينبغي عليهم أن يضيفوا قسمًا رابعًا وهو بالتحديد دلتا النيل إن لم تكن جزءاً من آسيا أو ليبيا"، وكأن الإغريق ـ وخاصة على عهد شاعرهم الأكبر هوميروس ـ لم يعرفوا من العالم القديم شيئاً يبعد عن إيطاليا، وربما إسبانيا، شمال البحر الأبيض المتوسط، كما لم يعرفوا شيئًا غرب مصر أبعد مما يسمى(ليبيا) الآن.

وعلى هذا الأساس كانت الكلمة في مدلولها الجغرافي تعني المنطقة المحصورة ما بين وادي النيل شرقاً وتونس حاليًا في الغرب. ثم مر الزمان وتعرف القوم - ومن بعدهم الرومان بالطبع - على الجزء الشمالي مما نسميه اليوم (قارة إفريقيا) وأطلقوا عليه اسم (ليبيا) ودعوا جميع سكان هذه المنطقة (الليبيين) وبهذا سلكوا في عداد الليبيين ـ على مختلف القبائل والشعوب ـ أهل تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا. وكانوا عددًا هائلاً من القبائل والبطون بأسمائها المندثرة والباقي بعضها حتى يومنا هذا، وهم مختلفون طباعاً ولباسًا وعادات وتقاليد ولكنهم رغم كل شيء (ليبيون) تجمعهم صفات مشتركة، لعل أهمها اللغة، وهي إحدى الروابط العظيمة بين الأمم، بل لعلها أهم الروابط في بعض الأحيان. وحين جاء الرومان وعرفوا بعض مناطق القارة الإفريقية الداخلية أطلقوا على القارة اسم (ليبيا). وكان الليبيون لديهم جميع سكان القارة مهما تباعدت أجناسهم، تمامًا كما نقول نحن اليوم عن أهل القارة إنهم (إفريقيون) وفيهم الأبيض والأسمر والأسود الشديد السواد، متباينو اللغة والجنس والدّين، مختلفو البيئة والتكوين ـ ومع هذا فالجميع (إفريقيون) أو (أفارقة) مهما كان الأمر.

ومن الطريف أن الاختلاف الذي حدث حول منشأ كلمة (ليبيا)[3] اشتجر حول أصل كلمة (إفريقيا) هذه فلا أحد يعرف بالدقة متى ولا كيف نشأت الكلمة وسرت وانتشرت وما أظن في الإمكان الوصول إلى اتفاق شامل، أو إجماع كامل ينهي المعركة المحتدمة ويحسم الجدل بطريقة قاطعة.

وفي أيام الفتح الإسلامي كانت (مصر) تعرف عند العرب بهذا الاسم وكانت (ليبيا) تقسم إلى قسمين : برقة (وتدعى أحياناً) "بنطابلس" وهي تعريب لكلمة بنتابوليس Pentapolis (أي : المدن الخمسة) وطرابلس (وتكتب قديما أطرابلس وهذا تعريب لكلمة Tripolis أي : المدن الثلاث). أما (تونس) فكانت تسمى (إفريقية) ومشهورة كلمة عمر بن الخطاب حين بعث إليه عمرو بن العاص يخبره بفتح طرابلس وصبراته ويستشيره في التقدم غرباً، فأمره بالعودة وعدم الدخول إلى إفريقية (تونس) لأنها "مفرقة". وهذا اشتقاق جرت عادة العرب على الأخذ به في كثير من المواقف، وبه فسر كتاب الأخبار ومؤرخو الفتوحات أسماء عدد كبير من المواقع التي يتحدثون عنها، وبه أيضاً فسر الخيال الشعبي نشأة جملة من المدن والدساكر في بلادنا. [غدامس = غدا أمس. مصراته = من مصرأتى. ظليتن = ظل التين، تاورغا = تاو الرغاء (أوان رغاء الإبل)].

وهكذا إلى ما لا نهاية، وهو تفسير لا يستند إلى أساس تاريخي بالطبع، وإن استعمل فيه الحس اللغوي وتقسيم الكلمة إلى قسمين في

---

(3) على أن الصلة اللفظية بين (لوب) و (نوب) كما أوردها ابن منظور تشدنا إلى الإشارة الثالثة التي ذكرها بيشي في تقريره أن هناك أغنية نوبية (شمال السودان وجنوب مصر) تقول كلماتها :

أو - سي ، أو - إيه ، تو - لو باتو ! Osi.Oeh, to Lubato وهو يقرر أننا لن نجد ترجمة لها أفضل من أنها غناء للوطن ، وقد تنطق Lubato نوباتو Nubato أحيانا ، بل من المستحيل في بعض الأحيان التمييز بين النطقين .

الغالب ليتيسر تركيب جملة مفهومة منها تنسج من حولها أسطورة من الأساطير وتثبت بعد ذلك في الأذهان.

هل كانت كلمة (ليبيا) في نشأتها الأولى من جملة هذه الأساطير كما نقرأ في كتابات اليونان والرومان؟

لا أظن. وإنما يغلب على ظني أن هذه الكلمة ذات أصل تاريخي ومدلول لغوي معروف، وإن وصل إلينا محرفاً وتداولته الألسنة وثبت في الأذهان. بل إني لأذهب إلى أن هذه الكلمة ذات أصل عربي، أو هي ترتبط بمعنى العروبة بأوثق الصلات، ولكن هذا الظن في حاجة إلى مقدمة ليتحول إلى رأي، أما أن يكون يقيناً فهذا أمر آخر ما أحسب أن البحث الموضوعي يسمح به على كل حال.

أحد مصائب العلم الكبرى - في قديمه وحديثه - تقسيمه البشر، عند دراسة السلالات، إلى ثلاث مجموعات بشرية كبرى: ساميين وحاميين، وآريين. الأولون نسبوا إلى سام بن نوح، ومن بعدهم أبناء حام بن نوح أيضاً، والأخيرون أبناء يافث وهو الأخ الثالث. وهذا تقسيم توراتي قديم جاء به اليهود، ونسبوا إليه الأجناس البشرية بعد الطوفان، وأخذ به من بعدهم المؤرخون القدامى، وأخذ به - للأسف الشديد - العلماء النصارى في عصر النهضة متأثرين بالتيار الديني العنيف إبانها.

وقد نشأت عن هذا الأخذ أخطاء تاريخية رهيبة بالنسبة لبقية الأجناس، وخاصة في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حين اكتشفت القارة الأمريكية واحتار العلماء في وضع من أسموهم (الهنود الحمر) فلا هم ساميون ولا حاميون ولن يسمح لهم بالطبع أن يرتقوا إلى رتبة أبناء يافث (الآريين) فقالوا عنهم إنهم "أبناء الشيطان"!

هذا المنهج لا يثبت للنقد التاريخي، وهو مبني على أهواء خاصة تمليها الطبيعة البشرية، وقع فيها واضعو هذا التقسيم أنفسهم في

التوارة ذاتها. فهم مثلاً يضعون الكنعانيين من جملة الحاميين، وهم بحسب المنهج ذاته - أقرب الناس إلى السامية -. وسبب هذا " الحرمان" الذي فرضه العبرانيون على الكنعانيين من أن يكونوا ساميين هو العداء التاريخي المستحكم بين الشعبين، رغم كونهما ينتميان إلى نفس العرق ويتحدثان اللغة نفسها التي ظلت - رغم تطورها عند الفريقين - متصلة بعضها ببعض.

لكن لا مفر لنا - رغم إنكار هذا التقسيم - من النظر إلى موضوع الليبيين والعرب بحسبه، تقريبًا للأمر وتسهيلاً على القارئ ولنرى كيف تمضي المسألة.

إن التوراة - وهي مشحونة بأخطاء فاحشة - تقدم لنا هذا التقسيم لنشأة الأمم والشعوب بعد الطوفان :

"وهذه مواليد بني نوح : سام وحام ويافث، وولد لهم بنون بعد الطوفان، فبنو يافث : جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتيراس.. وبنو حام: كوش ومصرايم وفوط وكنعان..

وسام أبو كل بني عابر، أخو يافث الكبير، ولد له أيضًا بنون. بنو سام : عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وآرام " (4) .

ثم تأتي من بعد ذلك تفريعات أخرى، فنجد من الحاميين : مصرايم «الذي ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم».

ونلاحظ أن لهابيم (أو لهوبيم Lehubim هو في الغالب جد الليبيين (اللوبيم) وسوف نناقش هذه العلاقة في مقالة أخرى إن شاء الله. كما نلاحظ الأسماء المذكورة في هذه الفقرة " خرج منهم فلشتيم وكفتوريم" - أي الفلسطينيين وأهل كريت. " وكنعان ولد صيدون بكره وحثا (الحثيين).. وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني، وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار إلى غزّة وحينما تجيء

(4) انظر سفر التكوين ، الأصحاح العاشر الآيات 1 - 22.

سدوم وعمورة وأدمة وصبويم إلى لاشع" .

أما بالنسبة لأبناء سام - حسب التوراة - فينقسمون إلى فرعين رئيسين : بنو آرام (الآراميون) بن سام - وبنو عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام.

ولعابر (جد العبريين) ولد ابنان، فالح وأخوه يقطان، أما فالح فيتصل نسله حتى يصل إلى إبراهيم (عليه السلام)، وأما يقطان فقد ولد ألموداد وشالف وحضرموت ويارح وهدروام وأوزال ودقلة وأبيمايل وشبا وأوفير وحويله ويوباب، ثم تمضي التوراة في تتبع قصة إبراهيم وهجرته من أرض الكلدانيين إلى فلسطين وما جرى له في مصر.. إلى آخره.

وهنا تبدو لنا ملاحظة تكمن في عدم ذكر التوراة للعرب بهذا الاسم الذي عرفوا به أو نسبتهم إلى أحد أعقاب نوح أو سام، ولكنها تذكر قبائل عربية كانت في جنوب الجزيرة، من أعرقها حضرموت وشبا (سبأ) ويدخل بقية أبناء يقطان (وهم اليقطانيون الذين كانوا في جنوب الجزيرة كذلك) ضمن نسله مقابل أبناء أخيه فالح جد إبراهيم. فكأن أهل الجزيرة في الجنوب (وهم عرب) يشتركون في النسبة إلى عابر (أو عبيروا - أو عبرو) مع أبناء فالح إلى سام بن نوح (وهم العبريون أو العبرانيون).

واضح أن هذا التقسيم التوراتي للسلالات البشرية لا يقوم على سند موضوعي علمي، ولكنه توزيع عبري - يهودي يرتكز إلى القول بأبوة نوح أبي البشر الثاني - للجماعات الإنسانية بعد الطوفان وهو توزيع يخضع للهوى أكثر من خضوعه للحقيقة التاريخية المجردة. ولا يمكن للتوراة أن تبرر إخراجها الكنعانيين من جملة الساميين، وإدخالهم - والحثيين كذلك! - في جملة الحاميين. كما لا تستطيع توضيح حسبانها الفلسطينيين (فلشتيم) من جملة الحاميين أيضاً إلى جانب المصريين والليبيين وأهل كريت. دعك من بقية التفريعات الأخرى التي تختلط

فيها الأنساب والأنسال اختلاطاً عجيباً لا يمكن التفريق معه بين الحامي والسامي، ناهيك باليافثي (الآري).

ولا نتعرض لأهل الصين واليابان وسكان أمريكا الأولين " الهنود" والأزتك والمايا وعشرات الأجناس التي لم يكن كتبة التوراة يدرون من أمرها شيئاً.

نحن إذن في حل من قبول تقسيم التوراة للأجناس البشرية، ولنا أن نرفض تصورها - إذا شئنا - لتوزع المجموعات الإنسانية وانتشارها، فإن هذا التصور محصور في فترة تاريخية معينة، بعد الطوفان، وفي رقعة محددة من الأرض لم تخرج التوراة عنها. ولا أحد يعلم - إلاّ الله - بداية الحياة البشرية بالمعنى المفهوم من الكلمة، ولا أحد يدري كيف دبّ الإنسان أول مرة على الأرض ولا أين، ولكن المسألة في أعماقها تخمينات قد تدعو إليها النصوص الدينية تارة وقد تغري بها البحوث والدراسات العلمية تارة أخرى، لكن من المقبول القول بأن جماعة بشرية ما اشتركت في بعض الخصائص والمميزات يمكن بها تمييزها عن جماعة أخرى ذات خصائص أخرى قد تختلف، قليلاً أو كثيراً، عن غيرها من الجماعات، ويمكن بعدها إطلاق اسم نتفق عليه تعرف به هذه الجماعة تيسيراً لدراسة تطورها ونموها وانتشارها في الآفاق. فلنتفق على تسمية جماعة من البشر باسم (الساميين) مثلاً، ولنر كيف سارت بها الأمور.

يقول أوبري مينون Aubrey Menon: في كتابه المعنون :(مدن من الرمل Cities in the Sand).

" الساميون ليسوا جنساً، ولا يمكن تمييزهم بأنهم، مثلاً، ذوو أنف معقوف.. إنهم قوم ارتبطوا معاً بلسان موحد في الأساس، وبنظرة إلى الوجود، أو بتعبير أدقّ بنظره إلى ما وراء الوجود، إنهم قوم عميقو التدين. وقد يأخذ الدين أشكالاً كثيرة من "التلمود" إلى " القرآن"، إلى "العظة على الجبل" وحرق الأطفال أحياء ووضع عظامهم في الآنية

بتبجيل. ولكن مهما كان ما اعتقدوه فقد آمنوا به بعمق."[5]

ففكرة (الجنس) أو العرق المميز إذن فكرة غير صائبة، وهي - كما يقول مينون - طالما جرت على البشرية بلاء بعد بلاء، وهذا حقيقي، فإن الإنسان منذ درج على هذه الأرض، وفي أزمنته التاريخية وما قبل التاريخ، كانت الأرض له يسيح فيها ويسوح، ويهاجر من موطن إلى آخر يطلب سبل الحياة ويسعى في سبيل الرزق، قبل اختراع الحدود والقيود وجوازات السفر وتأشيرات الدخول والخروج. وهو اختلط - في نطاق الظروف الجغرافية والبيئية - وامتزج. بيد أن هذه الظروف المناخية والطبوغرافية ذاتها هي التي (حددت) ملامح بعض الجماعات و(حدّت) من حركتها في كثير من الأحيان.

كان الإنسان (يهاجر) كالحيوان تماماً أثناء همجية العصر الحجري القديم، وينتقل من مكان إلى مكان بحثاً عن الطعام، فلما تطور - بحدوث الانقلاب البشري الهائل في العصر الحجري الجديد - وصار (ينتج) طعامه عن طريق الزراعة صار أكثر استقراراً وأهدأ حركة من ذي قبل، وإن ظلت الهجرات الجماعية تتوالى تبعاً لتغير الظروف المناخية المحيطة. فماذا عن ليبيا وشمال إفريقيا بصفة عامة؟

لقد قام الأستاذ ماكبيرني Mc Burney بمهمة جليلة في هذا الباب، ونشر بحثه القيم (العصر الحجري في شمال إفريقيا)[6] الذي أصبح المرجع الرئيسي في هذا الموضوع، وفيه تتبع الهجرات المتوالية بين ليبيا والشرق الأدنى، حتى فلسطين، وهي هجرات مزدوجة من الشمال الإفريقي وإليه، ويرى الدكتور طه باقر في دراسته الممتازة عن (عصور ما قبل التاريخ في ليبيا وعلاقتها بأصول الحضارات القديمة)[7]

---

(5) المصدر المذكور، ص13 .

(6) The Stone age of Northern Africa; pelican. 1960

(7) ليبيا في التاريخ: مجلد يضم بحوثاً ودراسات ألقيت في مؤتمر كلية الآداب - بنغازي عن هذا الموضوع سنة 1968م.

أن ما يضفي على البحث في شمال إفريقيا -ومنه ليبيا - أهمية خاصة في تاريخ الحضارة وأصول الأقوام " هو موقع هذه المنطقة الجغرافي المميز بكونها جسراً يربط بين أوربا الغربية وبين إفريقيا الاستوائية وآسيا الغربية. وتكون أهمية هذه الميزة أكبر في الأطوار الأولى من عصور ماقبل التاريخ حيث العوارض والحواجز الطبيعية الموجودة الآن، كالصحاري والمضائق المائية، إما لأنها لم تكن موجودة أو أنها تختلف عما هي عليه الآن"[8].

ثم يقدم استنتاجًا جيداً يدعو إلى " أن ننوه بما أسفرت عنه حديثاً تحريات الباحثين في علم اللغة المقارن في حقل اللغات السامية والحامية. فالذي عليه جمهرة هؤلاء العلماء هو تأكيدهم للصلات الوثقى بين اللغات السامية واللغات الحامية.. " وأن هذه الصلات القوية في أوجه الشبه الكثيرة في المفردات والتراكيب اللغوية الأساسية جعلت الباحثين المختصين يرجعون اللغات السامية واللغات الحامية إلى أصل بعيد واحد أي إلى عائلة لغوية كبرى، وأن المتكلمين بتلك العائلة اللغوية قد تفرقوا أو تفرعوا إلى أقوام كثيرة كبرى متعاقبة "[9] .

ليس هذا فحسب، بل إن الدكتور طه باقر يمضي إلى أبعد من هذا عند حديثه عن نشأة الساميين، وهو مع اعترافه بأن نظرية إرجاع مهد الساميين ولغاتهم إلى الجزيرة العربية لا تزال النظرية المعول عليها إلا أنه من الممكن - في ما يرى - تحويرها قليلاً برأي لا يتعارض معها وذلك بإرجاع المهد الأصلي البعيد لجميع الأقوام السامية والحامية "[10] إلى الرقعة الجغرافية الواسعة الممتدة من الجزيرة العربية إلى شمال إفريقيا " . ويختم ملاحظته بالتنويه بأن " من النظريات المشهورة لمهد

---

(8) المصدر السابق، ص4 .

(9) المصدر نفسه .

(10) المصدر السابق .

الساميين النظرية التي تجعل هذا المهد في الشمال الإفريقي "[11].

بيد أن الأستاذ الباحث طه الباقر لم يعين " هذه النظرية المشهورة " ولم يحدد صاحبها. ثم يذهب إلى أن الهجرات بين الجزيرة العربية كانت متوالية ثم انقطع الاتصال بين الكتلتين اللغويتين الكبيرتين، السامية والحامية، قبل 15000–10000 عام خلت.

ولست أدري ما أسباب هذا الانقطاع؟

هل لتغير الظروف المناخية دخل في الأمر؟

هل تحسن الأحوال المعيشية واستقرار السكان دعا كل فريق إلى البقاء حيث هو؟

لا أحد يمكنه أن يجيب. ولكن الواضح أن الاتصال بين ليبيا – وشمال إفريقيا عموماً – والجزيرة العربية لم يكن انقطاعًا كاملاً على كل حال. وقد جاءت هجرات معروفة في الأعصر التاريخية، من أهمها هجرة الفينيقيين الذين أسسوا قرطاجنة ومن بعدها أويا ولبدة وصبراته ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، ثم الفتح الإسلامي والهجرة الجماعية لقبائل بني سليم وبني هلال..

وليس من المهم هنا إثبات أي الموطنين كان مهد الجنس السامي – أهو الجزيرة العربية أم شمال إفريقيا. بل ليس من المهم التسمية ذاتها (الساميون). ولكن المهم القول بأن صلة وثيقة كانت بين شمال إفريقيا والجزيرة العربية، وأن هذه الصلة قديمة قدم التاريخ وأنها استمرت على مدى العصور، وأنها تتبدى في اللغة القديمة أكثر ما تكون وضوحًا.

من هذا المنطلق يمكن الحديث عن " ليبيا" وعن " العرب". ومن هذه "الكتلة اللغوية الكبرى" يمكن الحديث عن وحدة المنطقة – من المحيط إلى الخليج – وحدة راسخة منذ عصور ما قبل التاريخ، منذ الأعصر

---

(11) المصدر السابق، ص5.

الحجرية الجديدة والقديمة على حد سواء.

لينتبه القارئ أولاً إلى جملة حقائق جلية، أولها أن "الهوى" القديم الذي ظهر في توراة اليهود بدا واضحًا في دراسات المستشرقين وعلماء الأجناس الغربيين، فكانت أغلب أبحاثهم تصب في تيار واحد - في الأغلب - هدفه قطع الصلات بين المشرق والمغرب، وتمزيق كل جناح من جناحي الأمة العربية على حدة. فجعلوا أهل الجزيرة ساميين، وجعلوا أهل مصر حاميين، وجعلوا أهل المغرب بربرًا هم من أصل أوربي مرة وهم دون أصل يعرف مرة أخرى.

وثانيها أن دراسة لغوية مقارنة تستنفر لها الهمم تبحث عن الجذور المشتركة بين لغات الأمة القديمة أصبحت واجباً يحتمه الحرص على الوجود الموحد. وسوف يدهش الكثيرون حين يجرون هذه الدراسة المقارنة بين لغة حمير مثلاً ونقوش ليبية قديمة، فإنها هي هي.

وثالثها وجوب سعة الأفق والصدر معًا في أثناء الدرس والبحث، وعدم الالتفات إلى غوغائية ضارة تبرز من هنا أو هناك، دون سند من علم ولا مؤيد من هدى ولا كتاب مبين.

ونسأل : ما هي اللغة؟

والجواب : إنها أداة الإفهام وإيصال الأفكار عن طريق الصوت بحسب اصطلاح معين بين القوم.

وهي "كائن حي" يتطور وينمو ويزيد وينقص ويموت أيضًا.

ولذا فهي - مثل أي كائن حي - ذات وجود مستقل في تطوره وإن كانت نشأته الأولى ترجع إلى سواه. ومن هنا كان اختلاف اللغات بعد أن كانت مجرد لهجات، نموها نموًا ذاتيًا يتميز بتركيب معين خاص.

وفي حديثه عن اللغة العربية أثار الأستاذ جواد علي سؤالاً : رب سائل يقول: لقد كان للعرب قبل الإسلام لغات، مثل المعينية والحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية وأمثالها اختلفت عن عربية القرآن

اختلافاً كبيراً، حتَى إن أحدنا إذا قرأ نصًّا مدونًا بلغة من تلك اللغات عجز عن فهمه وظن إذا لم يكن له علم بلغات الجاهليين أنه لغة من لغات البرابرة أو الأعاجم، فماذا سيكون موقفنا من أصحاب هذه اللغات؟.

وهو يجيب : إن هؤلاء وإن اختلفت لغتهم عن لغتنا وباينت ألسنتهم ألسنتنا فإنهم عرب لحمًا ودمًا، ولدوا ونشأوا في بلاد العرب، لم يردوا إليها من الخارج ولم يكونوا طارئين عليها من أمة غريبة، فهم إذن عرب مثل غيرهم، وكلَ لغات العرب هي لغات عربية وإن اختلفت وتباينت. وما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم إلاّ لغة واحدة من هذه اللغات.[12]

الأمر واضح إذن. إذا كانت هذه (اللغات العربية) من معينية وحميرية وثمودية وغيرها قد اختلفت هذا الاختلاف كله حتَى بات من المستحيل على غير العالم فهمها، وهي عربية (نسبة إلى الجزيرة العربية) في نشأتها ونموها متصلة التطور، على قرب المكان وجوار القبائل والبطون.. فكيف الأمر إذن بالنسبة للغة عربية أخرى بعد مكانها ونأى زمانها؟

هل يجوز أن تنمو لغة عربية في جيزان أو حضر موت نموًّا مستقلاً عن لغة جرهم وثمود وهي على بعد مرمى حجر منها، ثم نطلب من اللغة المصرية أو الليبية أن تكون أقرب إلى لغة القرآن من لغة لحيان وحمير؟! فإذا عدنا إلى ما ذكر من أصل واحد للغتين السامية والحامية (وهذا للتذكير مجرد اصطلاح أكاديمي ليس غير) أفليس من المقبول القول بأن فروع هذا الأصل - على بعد الدار - تطورت ونمت بحكم البيئة حتى اختلفت عن اللغة الأم وعن اللغات الأخوات وحتى عجز غير أهلها عن فهمها وحسبوها من لغة الأعجام؟

---

(12) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الأول ، ص33.

ثم نسأل : ما هي اللغة العربية؟

اتفاقاً هي ما نعرفه باسم (اللغة الفصحى) أو (لغة القرآن الكريم) وهي قد شرفت بأن نزل بها كتاب الله العزيز (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) (وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً) (بلسان عربي مبين).

وكانت إحدى اللغات العربية الكثيرة - هي لغة قريش - لغة إحدى قبائل العرب، فصارت بالقرآن لغة العرب أجمعين، لكنها تظلّ عند الفحص العلمي المجرد لغة من مجموعة كبيرة من اللغات.

سؤال آخر : من هم العرب؟

هنا لا بد من وقفة طويلة أمام هذا المصطلح وتحليل لهذه الكلمة وتحديد لمدلولها في قديم الزمان وحديثه. وليس ثمة من قدم تحليلاً شاملاً وتتبعاً دقيقاً لهذا اللفظ أفضل مما فعل الدكتور جواد علي، وإليه نستند في تقديم خلاصة ما كتب [13].

يقول الأستاذ : لم تكن كلمة (عرب) تؤدي ما نفهمه اليوم من معنى الجنس أو القومية، خاصة في الكتابات العربية الجنوبية، ولم يبرز الحس بهذا المعنى عند القبائل العربية إلا قبيل ظهور الإسلام بفترة قصيرة. وهو حس لعله برز في شمال الجزيرة أولا بحكم الاحتكاك، ثم الصدام بين هذه القبائل والإمبراطورية الفارسية من جهة والروم من جهة أخرى. وبفضل الإسلام وحده وسيطرة لغة واحدة صارت كلمة (العرب) ذات مدلول جنسي وقومي معروف. أما قبل الإسلام فقد كانت الكلمة تؤدي معنى البدواة والقفر والجفاف، أو ما يسمى (الأعراب) في مقابل الحضر. وكان أهل الحضر - أو المدن - يسمون أنفسهم باسم قبائلهم : فهم سبأ، وهمذان، وحمير، ومعين، وحضرموت، وما إليها. فلما جاء الإسلام نما الحس القومي لدى سكان الجزيرة وشعروا بأن لهم كياناً واحداً هو الكيان العربي، وصاروا

---

(13) المفصل - ص16-25.

يبحثون عن شيء يجمعهم ويوحّد أصولهم، وظهرت فكرة أن (يعرب) هو أبو العرب وأنه أول من تكلم العربية وإليه ينسب القوم. وهذه فكرة قحطانية تبلورت في أثناء صراع القحطانيين (الجنوبيين) والعدنانيين (الشماليين) لا تصمد للنقد التاريخي.

بمعنى البدواة والأعرابية إذن وردت لفظة (العرب) في اللغة العبرية ولغات سامية أخرى، مثلما هو الحال في سفر أشعياء وفي سفر أرميا من (العهد القديم). وقد وجد الباحثون أن أول نص ذكر فيه العرب هو نص أشوري من أيام شلمنصر الثالث، أو الثاني، ملك آشور، والمقصود باللفظة إمارة أو مشيخة، يتزعمها رجل بلقب ملك اسمه جنديبو (جندب)، وكانت تتاخم الحدود الأشورية، واختلف العلماء في قراءتها على هذه الصورة:

Aribi, Arubu, Arbi, Urbi, Arabi, Arabu, Aribu, Matu, - a - Rabi

وردت في الكتابات البابلية جملة " ماتو أربي " أي (أرض العرب) بمعنى (بلاد الأعراب).

وفي نقش بهستون لدارا الأكبر باللغة الأخمينية جاءت لفظة أربابة (عربية) Arbaya. وباللغة العيلامية: جاءت أربابة Arpaya (M-ar-Payah)

وفي النصوص العربية الجنوبية كانت كلمة (أعرب) بمعنى (أعراب): وأعرب ملك حضر موت = وأعراب ملك حضر موت. وأعرب ملك سبأ = وأعراب ملك سبأ.

وعند الآراميين: بيت عربابة betharbaya بمعني (أرض العرب) أو الأعراب- البدو الرحل، أهل القفر.

وأول مرة ورد فيها ذكر (العرب) لدى الكتاب اليونان كانت عند أسخيلوس (525 ـ 456 ق.م) ثم تلاه هيرودوت (484ـ425 ق.م) ولم ترد عند أي من الكتاب اليونانيين قبل هذا. ويبدو أن معرفة اليونان

بالجزيرة قد ازدادت، ولكن معنى البدواة هو المقصود عند الحديث عن العرب، أما ممالكهم فكانت تسمى بأسمائها المعروفة .

ويذكر سترابون أن كلمة أرمبي Erembi تعني عند البعض (العرب) ولعلها تحريف لكلمة عربي Arabi .

من هذا الموجز يمكننا استخلاص النتائج التالية :

1- أن كلمة (العرب) باعتبارها مدلولاً قوميًا وجنسيًا لم تعرف إلا في وقت متأخر وبفضل ظهور الإسلام خاصة.

2- أنها لفظة تعرضت للتحريف، بالإضافة والحذف وإبدال الحروف بحسب اختلاف الشعوب وعند تباين الأمم.

3- أنها تعني البداوة والقفر والارتباط بالصحراء في الغالب الأعم.

فماذا عن كلمة (ليبيا) وما يتصل بها هنا؟

يقول الباحثون إن كلمة ليبيا مشتقة من كلمة (ليبو) وإن المرة الأولى التي سمع فيها بهذه الكلمة كانت في عهد الفرعون مرنبتاح Merneptah (حوالي عام 1220 ق. م) حيث وردت في نقش هيروغليفي يمجد انتصار ذلك الفرعون على (الليبو) الذين رأسوا غزاة لمصر جاءوا من الغرب [14].

من غير المهم هنا الدخول في مناقشة الصواب والخطأ في كتابة الكلمة، هل هي ليبيا Libya أو لوبيا Lybia فذلك خاضع لاختلاف نطق الحرف Y الذي قد يقابل حرف (الياء) العربي وقد ينطق باعتباره (واواً). ولكن المهمَ إثبات ما يذكره العالم المعروف (سير) ألن غاردنر Sir A.Gardiner من أننا صرنا نعرف الشعب الذي كان يعيش على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط غرب مصر باسم (الليبيين) متبعين في ذلك الإغريق [15]

(14) Gardiner; Egypt of the pharaohs, p35

(15) المصدر السابق .

ثم يضيف ما نصّه :

"وهذا الاسم هو ، على وجه الدقة ، اسم مغلوط فيه وخطأ في تسلسل الحوادات التاريخية معا [16] This name is , striclty speaking , botha misnomer and an anachronism .

انتبه غاردنر إلى الغلط الواقع في الاسم (ليبو) غير أنه لم يمض ليوضح لنا هذا الغلط . ويمكن لنا أن نتبينه بشيء من الانتباه ، فإن الاسم المنقوش لم يكن ليبو Lebu كما درجنا على قراءته ، بل كان (ريبو) بحرف الراء بدلاً من حرف اللام .

أما أوريك بيتس في مؤلفه (الليبيون الشرقيون) فيتحدث عن هذه المجموعة من الأقوام القاطنة في شمال غرب مصر باعتبارها ، حسب القراءة الصحيحة ، الريبو . R'bw=Rebu

وكان الريبو شعباً كبير العدد حتّى أن أهميتهم قادت اليونان إلى أن يسبغوا التعبير السلالي (الليبيين) على مواطني شمال إفريقيا في جملتهم[17] .هكذا في عدد كبير آخر من المصادر . ومن العجيب فعلاً أن نرى وفرة من الباحثين تبذل جهداً في تبرير أن يتحول (الريبو) إلى (الليبو) فيقولون بأن علامة الراء في اللغة المصرية القديمة هي نفسها علامة اللام ، وأنه من الجائز إبدال الحرفين . وقد يكون هذا ، لكن السؤال : لماذا يحول الراء لاماً في هذا الاسم بالذات ولا يتحول في اسم رمسيس (أو رعمسيس) مثلاً فيظل رمسيس ولا يتحول إلى (لمسيس) ، كما لا يتحول (رع) الإله المصري الأكبر إلى (لع) ؟ والرأي عندي أن الاسم الذي أطلقه المصريون القدماء على جيرانهم الغربيون هو (ريبو) كما نقش وحفظ لنا - ولعل اليونانيين هم الذين أبدلوا في لغتهم وحرفوا - وهو أمر غالب الحدوث بالنسبة للأسماء الأجنبية - ثم قرنوا

---

(16) المصدر نفسه .

(17) Oric Bates; The Eastern Libyans, p.46,51

بين تحريفهم وبين أساطيرهم، أو هم أضفوا هذه الأساطير على (ليبيا) بعد ذاك، والدليل على هذا الرأي أن (الريبو) لم يكونوا شعباً قائماً بذاته، أو قبيلة بعينها، بل هم مجموعة من القبائل كانت معروفة بأسمائها، منها ما حفظه الزمن وظل يسري حتّى وقتنا الحاضر ومنها ما اندثر وامّحَي. من هذه القبائل مثلاً: الأموهيكك Imuhekek والقيهق Kehek والأسبت Esbet والقيقش Kekesh والشاي Shai والهس Hes

ولعل أعرفهم قبائل التحنو Tehenu والتمحو Temehu والمشوش Meshwesh، تجمعهم جميعًا ـ وقبائل أخرى كثيرة لا تعدّ ولا تحصى ـ كلمة (الريبو). وهذا بالضبط، ما كان يحدث في الجزيرة العربية، قبائل وشعوب ذات أسماء تنسب إليها، لكنها تظل جميعها ـ بالنسبة للأجانب خاصة ـ تنضوي تحت اسم موحد هو (العرب) أو (الأعراب). هنا تواجهنا مشكلة تكمن في سؤال ذكي: إذا قبلنا تحليلك لكلمة (الليبو) باعتبارها (الريبو) وقولك إن اليونان حرفوا الكلمة الأصلية (الريبو) فكيف تفسر أن التوراة استخدمت كلمتي اللهابيم و(اللوبيم) هي الأخرى بينما تورد كلمة (الأعراب) و(العريبو)؟

وقد جرى البحث في هذا السؤال من قبل - ولم يبق شك في أن كلمة لهابيم (الواردة في سفر التكوين أصحاح 10، آية 13) هي بعينها لوبيم (الواردة في سفر دانيال، أصحاح 11، آية 43). فهما شيء واحد والمقصود بهما أهل منطقة بذاتها، هم أهل الشمال الإفريقي، ولكن نعرف بالتأكيد أن كلمة Rebu (التي حرفها اليونان إلى Lebu) أقدم مما ورد في التوراة، ويرD ب. رينوف أن أقدم ذكر للوبيم Lubim لا يستبعد إمكانية أن الاسم وصل إلى العبريين (عن طريق الفينيقيين) من الإغريق " (18).

---

(18) P.Renouf; Who Were the Libyans p.599

ولعل أخذ العبريين الاسم عن الإغريق يفسر لنا بوضوح كيف أثبتوه بصيغته التي أخذوا بها دون أن يدركوا بالطبع تحريف اليونان لجذر الكلمة الأصلي عند المصريين.

لعل القارئ لاحظ، بشيء من إمعان النظر، العلاقة اللغوية بين لفظي (ريبو) و(عرب)، ونضيف أن العرب كانوا يعرفون أيضًا باسم (عريبو).

فهل يمكن القول بتطابق اللفظين؟ إننا نعلم مما سبق أن كلمة العرب (أو الأعراب - أو العريبو) كانت تعني البداوة والقفر والجفاف في جميع النقوش والآثار القديمة في مقابل الحضر وأهل المدن والأمصار. ألم يكن المصريون هم أهل الحضر - أهل مصر - في مواجهة أهل البداوة من جيرانهم الغربيين؟ أليس من الجائز، بل المرجح، أن تعبيرهم بكلمة (ريبو) مقصود به ما تعني كلمة (عريبو)؟ أليس من المقبول أنهم كانوا على علم بالصلات الوثقى بين عرب المشرق وعرب المغرب، اجتماعيًا وثقافيًا وعرقيًا كذلك، أو بين (أعراب) المشرق والمغرب، أهل البداوة، وهم مطمئنون في حياتهم الرغدة على ضفاف النيل فأطلقوا الاسم ذاته على الفريقين؟ وأخيرًا، أليس من المعقول أن يكون اللفظ - بصيغ نطقه المختلفة - هو المستعمل للدلالة على جناحي الأمة في مشرقها ومغربها؟

يقول الأستاذ ميكل هوفمان، في كتابه (مصر قبل الفراعنة) إن اللغة التي كان يتكلمها الفراعنة الأول هي اللغة المصرية تمامًا مثلما نتحدث عن اللغة الحميرية أو المعينية أو السبئية، ويضيف ما نصه:

"ويصنف اليوم العلماء هذه اللغة باعتبارها فردًا من الأسرة الإفريقية - الآسيوية، أو الحامية - السامية التي تشمل: السامية والبربرية (الليبية) والكوشية ولغة الهاوسا، وحقيقة أن هذه اللغات، بقدر يزيد أو ينقص، متصلة جغرافيًا توحي إلى بعض العلماء أنها، منذ عهد

سحيق، لابد انبثقت من مركز واحد في الشرق الأدنى أو شمال إفريقيا" [19].

إن كان الأمر كذلك، وهو فعلاً كذلك، فما الذي يمنع أن تكون كلمة (ريبو) أو (عريبو) هي اللفظ الموحد بين هذه المجموعة البشرية - التي كانت ولا تزال تحتل ما نسميه اليوم (الوطن العربي) من المحيط إلى الخليج، وهي كلمة استعملت في جميع اللغات، وعند جميع الشعوب، بالمعنى المقصود منها؟ ولماذا لا يكون (الليبيون) هم (الريبيون) أو (العريبيون) أو (الأعراب) أو (العرب) بالمعنى الشامل الكامل؟

ليس هناك ما يمنع، وكل ما نحتاجه شيء قليل من البحث، ومنهج واضح في الدرس ورغبة حقيقية في "إعادة كتابة التاريخ" !

(19) Egypt Before the pharaohs.p.290

بربركوس!

سامح الله ابن خلدون ! فإنه رغم علمه وعلوّ مرتبته، بل وعبقريته في كثير مما كتب في "تاريخه" و"مقدّمته"، لم يكن بمستطيع الخلاص من بعض مؤثرات الأفكار العامية واتباع منهج في تفسير أصول الأسماء والمسميات يعتمد التلاعب بالألفاظ ويستند إلى اللعب بالكلمات.

وحين رام أن يوضّح الاسم الذي كان يطلق على أهل الشمال الإفريقي دارجًا على الألسنة اخترع، أو هو ردّد، حكاية مختلقة عن إفريقش، فذكر أنه سمع القوم يتحدثون ولم يفهم من حديثهم فقال : " ما أكثر بربرتكم !" وبذا سمّوا " البربر" !

وابن خلدون هنا إنما يعيد حكاية أخرى من حكايات التوراة حين تذكر نشأة مدينة بابل، فعندها أن بني نوح جاءوا أرض شنعار وقالوا : هلّم نبنِ لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه في السماء، وكانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولغة واحدة، وقال الربّ : هو ذا شعب واحد، ولسان واحد لجميعهم، هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. لذلك دعي اسمها بابل، لأن الربّ هناك بلبل لسان كل الأرض. (تكوين : 11).

والحقيقة المعروفة أنه لم يكن لإفريقش هذا صلة من بعيد ولا قريب بهذه التسمية التي عرف بها عرب شمال إفريقيا، وليس هو - ولا العرب المسلمون - بمسؤول عنها. لكن المسؤول الأول هم الإغريق ثمّ الرومان من بعد، وإليهم يجب أن يوجّه اللوم في استعمال هذه الكلمة التي جاء الأوربيون بعد ذلك ليؤكدوها وليجعلوها علماً على قسم كبير من أبناء الأمة العربية ينسبونهم إليها، وينسبون لغتهم، ويخترعون النظريات ويختلقون الآراء عن أصولهم وجذورهم العرقية واللغوية إبعاداً لهم عن أهلهم وذويهم من بقية العرب الآخرين، أما ابن

خلدون، وإن كان التوفيق حالفه في إرجاع بعض هؤلاء (البربر) إلى أصولهم العربية الأولى في جنوب الجزيرة، فهو قد جانبه في إطلاق التسمية السارية منذ عهد المستعمرين الأوربيين الأوائل - ولعلنا نلتمس العذر له في عدم إحاطته باللغات اليونانية واللاتينية وبالتالي عدم إدراكه للدلالة اللغوية المقصودة بالكلمة المعنية.

ترجع كلمة بربر Berber إلى اللفظ اليوناني القديم بـرباري Barbari ومشتقاتها برباركوس Barbarikos وبرباروس Barbaros، ومنها جاءت جميع الكلمات الدّالة على متعلقاتها في اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة (بالإنجليزية) barbarian-barbaric-barbarism-barbarity-barbarise-barbarous (بالفرنسية) barbarique - barbare -barbarien إلى آخره، وهي في الأصل تعني: الأجنبي، الغريب، المختلف لغة وعادات، غير اليوناني، ثم صارت عند الرومان: (كل ما ليس رومانيًّا) ثم تحولت إلى: (كل ما لم يكن نصرانيًّا) عند انتشار النصرانية.

وبعد أن كانت الكلمة تعني في الجملة (عدم الإبانة في الكلام) تطورت ـ أو انحدرت ـ لتعني: الفظ، غير المهذّب، المتوحش، الهمجي. الجاهل أو الجاهلي. باختصار: البرابرة، وبهذا صارت سبة ولفظاً قبيحا يرمى به إلى إهانة الشخص ـ أو الأمة بإطلاق هذا الاسم عليها.

ومن غريب أمر الشعوب والأمم أن كلَّ شعب كان يحسب نفسه أعلى من غيره من الشعوب، وأكثر تقدماً وتهذيباً، ويعتبر سواه همجاً متخلفين. حدث هذا عند المصريين القدماء، إذ كان سواهم من البشر (برابرة) متوحشين، وكان اليونان يدعون غيرهم بهذه الصفة - ومن جملتهم الفرس - وكان الفرس يلقبون من عداهم به - ومن ضمنهم اليونان.

وكان هؤلاء يعنون بالكلمة الرومان المتوحشين، فلما تغلب الرومان وقامت حضارتهم اللاتينية على أنقاض حضارة الإغريق دعوا كل

شعوب الأرض، بما فيهم الإغريق أنفسهم، باسم البرابرة.. وسبحان مغير الأحوال وإليه المرجع والمآل!

فلما جاء عرب الجزيرة لم يسلموا هم أيضاً من العدوى السارية واستعملوا (العجم) و(الأعاجم) في مقابل العروبة. والعجمة هي عدم استواء النطق، أو هي عدم القدرة على الكلام المعبَر الواضح. فكأنهم أعادوا ما قصده الإغريق في بداية الأمر من عجز الأجنبي عن التعبير باللغة اليونانية الفصيحة، وكأن (الأعجمي) لا يستطيع الإفصاح عمّا بنفسه باللغة الغالبة، ومع هذا يظل تعبير (العجمة) أخف وأكثر تهذيباً من تعبير (البربرية) الذي يعني الهمجية والتوحش.

وقد خصص العرب طوائف العجم بأسمائها التي عرفوها بها، بعد الاشتراك في صفة العجمة. فأسموا الرومان (البيزنطيين خاصة) باسم (الروم)، ودعوا اللاتين الغربيين باسم (الفرنجة) - وأصل الكلمة متصل بالفرنسيين أو الفرنسيس France وأهلها الفرنكيين Francs (*) كما دعوا الإفريقيين جنوب الصحراء باسم (السودان)، واحتفظوا بما وجدوه ساريًا في شمال إفريقيا فقالوا عن أهله إنهم (البربر). والأمر لله من قبل ومن بعد!

نعود إلى اليونان، مبتدعي الكلمة وناشريها والمسؤولين عنها والذين بسببهم وسبب إخلافهم الرومان ظلت عالقة بأهل الشمال الإفريقي وحدهم دون غيرهم من الأمم. ومن العجيب أن رجلاً يونانيًّا ليبيًّا كان أول من انتبه إلى الخطأ الفاحش الذي ارتكبه اليونان في هذا المجال ورفع صوته بالاحتجاج على التقسيم الظالم الذي اتبعوه في

(*) من أطرف الملاحظات اللغوية هنا أن السكسونيين كانوا يعتبرون الفرنسيين قومًا لا يتمتعون بالقدر الواجب من الكياسة واللطف والرقة، أو ما يعرف عامة باسم "الإتيكيت". كان الفرنسيون في نظرهم بسطاء صرحاء، أشبه بالبدو أو الأعراب في وضوح منطقهم وبعده عن المجاملة، ومن هنا جاءت الكلمة الإنجليزية frank بمعنى: صريح - واضح - لا لبس فيه. تمامًا كما نعبر في ليبيا بكلمة (فلاَقي)!

نظرتهم إلى بني الإنسان، كان ذلك هو العالم الجغرافي الرياضي الشاعر إيراتو سثنيس القوريني (ولد في قورينا حوالي 276 ق. م وتوفّي بالإسكندرية حوالي 194 ق.م) ولعل نشأته بقورينا، في الجبل الأخضر شرقي ليبيا ومعيشته بعد ذلك في الإسكندرية حتى صار أميناً لمكتبتها الشهيرة، ثمّ ثقافته العالية ودراساته الممتازة لعلوم ومعارف عصره، لعلها كانت السبب في احتجاجه الذي يسجله لنا الجغرافي سترابون في كتابه (الجغرافيا) ناقلاً عن مؤلَف لإيراتو سثنيس هذا فُقد أصْله وبقي لنا ما سطره سترابون منه، فيقول :

"وفي نهاية بحثه (يعني إيراتوسثنيس) بعد أن أمسك عن مديح أولئك الذين يقسمون جمهرة بني الإنسان إلى جماعتين، أعني اليونان والبرابرة، وعن أولئك الذين نصحوا الإسكندر أن يعامل اليونان باعتبارهم أصدقاء والبرابرة باعتبارهم أعداء يمضي إيراتو شنيس ليقول إنه من الأفضل أن نجعل مثل هذا التقسيم طبقاً للصفات الطيبة والصفات السيئة. ليس لأن كثيراً من اليونانيين سيئون فحسب، بل لأن كثيرين من (البرابرة) متحضرون [1]. وهو يضرب لهذا مثلاً، الهنود والآريين (الفرس) والرومان والقرطاجنيين، وكلهم كانوا في نظر اليونان برابرة، ثم يثني على الإسكندر الأكبر الذي لم يلتفت لنصيحة مستشاريه واحتفى بمن جاءه من ذوي السمعة الطيبة وأسبغ عليهم النعم، دون النظر إلى يونانيتهم أو بربريتهم.

جاء هذا الاحتجاج من إيراتوسثنيس القوريني والحضارة اليونانية الهلنستية في قمّة ازدهارها، في عصر البطالمة بمصر. وبعد نحو أربعمائة عام كاملة، وقد غربت شمس الإغريق وبرزت روما قوة عظمى مسيطرة جاء مؤلف يوناني آخر هو ديوجين اللائرتي Diogenes Laertius في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد وكتب مؤلفه الشهير(حيوات وآراء

---

(1) The geography of strabo, vol.I book i, part.9

مشاهير الفلاسفة)[2] مؤرّخاً للحكمة وأهلها ليقرر في أول مفتتح كتابه، ما نصه :

" هناك البعض ممن يقول إن دراسة الفلسفة لها بداياتها بين (البرابرة)، ويحتجون بأنّه كان للفرس مجوسهم [3]، وكان للبابليين أو الأشوريين كلدانيوهم [4] وللهنود نساكهم [5]، وإن هناك بين الكلتيين [6] والغاليين أناسا يسمون الدرويديين أو المقدسين [7] ".

ليس هذا فحسب، بل يمضي ديوجين فيقول : " وهم يقولون كذلك إن موخوس Mochus كان فينيقيًّا، وإنَ زامولكسيس Zamolxis كان تراقيًّا، وإن أطلس Atlas كان ليبيًّا" .

ومن المؤسف فعلاً أن نرى النزعة العرقية الشرسة تتبدى لدى رجل في مثل علم ومعرفة أديوجين اللائرتي، وهو الذي مكّن من الاطلاع على محتويات مكتبة الإسكندرية، والاستفادة منها، وقد كان إيراتوسثنيس القوريني أمينًا لها وأحد من أثرى كنوزها بمؤلّفاته. إذ لا يكتفي بهذا بل يرفض ما يقوله هذا (البعض) الذي لا يسميه، من نشأة الفلسفة أول مرة لدى (البرابرة) - وليلاحظ القارئ قائمة الأمم والشعوب التي ينعتها ديوجين بهذا النعت - ثمّ تتجلّى نزعته العرقية الإغريقية فيقرر باستعلاء : "إن هؤلاء الكتاب ينسون أن هذه المنجزات التي ينسبونها إلى (البرابرة) ترجع إلى الإغريق الذين لم تبدأ بهم الفلسفة فحسب بل الجنس البشري نفسه (كذا !) " [8]

---

(2) Lives and opinions of Eminent philosophers

(3) magi ومنها اشتقت كلمة magicien (ساحر) و magic (سحر) الإنجليزية.

(4) Chaldeans

(5) gymmosophists = الحكماء العراة .

(6) Celts في بريطانيا وGauks في فرنسا .

(7) حيوات وآراء مشاهير الفلاسفة، الكتاب الأول - الفقرة الأولى .

(8) المصدر السابق - الكتاب الأول - فقرة 3 .

وهو يعرض بداية الإنسانية مع الإغريق في أسلوب أسطوري كان الغالب على العقلية اليونانية والمسيطر على تفكيرهم منذ بداية فكرهم المسجل في (الأعمال والأيام) لهزيود حتى أديوجين هذا على مرّ العصور ويخصص مؤلَّفه كله للفلاسفة من بني جلدته متتبعا أعمالهم وآراءهم، صارفًا النظر - بطبيعة الحال - عن أي جهد فكري فلسفي (بربري) مهما كان مصدره ومن أية أمة جاء. وما أديوجين اللائرتي إلا مثل لبقية المفكرين الإغريق ونموذج لتيار غالب عليهم يرى في ما عداهم برابرة همجاً لا يرقون إلى مستواهم الذهني والثقافي والحضاري بحال.

***

تعبير (البربر) إذن تعبير مسيء، وقد آن الأوان للانتباه إلى خطورة مدلوله بعد أن عرفنا نشأته ومصدره. فما هو الاسم الواجب إطلاقه على عرب شمال إفريقيا الأقدمين، وعلى أعقابهم الذين امتزجوا بالعرب القادمين الجدد بعد ظهور الإسلام؟

الليبيون : هذا هو الاسم الذي يمكن تسمية أهل الشمال الإفريقي عامة به، من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي، وهذا اسم جامع تدخل تحته قبائل وطوائف كثيرة بحسب أسمائها القديمة والحديثة.. تماماً كما نقول (الشوام) أو (الشاميون) مثلاً، وهذا ما يعرف به أهل الشام عموماً، يشمل السوريين واللبنانيين والأردنيين والفلسطينيين، أو كما نقول (أهل الجزيرة) التي تضم الحجازيين والنجديين، أو كما نقول (أهل الخليج) وهم عرب الكويت والإمارات، وعمان.. إلى آخره.

لكننا نرى كلمة البربر تطلق في الغالب على أهل الجبل من الليبيين جبل نفوسة وسلسلة جبال الأطلس الممتدّة من تونس حتى مشارف المحيط. وهنا يبرز تعبير آخر هو الأصوب والأسلم والأصح، أعني (أهل الجبل) أو (الجبليين) أو (الجبالية). وهذا تمييز طبوغرافي أكثر منه تمييزاً عرقيًا، وقد كان مستخدماً منذ مدّة طويلة وإلي عهد قريب للدلالة على سكان

المرتفعات الشمال - إفريقية في مقابل (أهل الساحل) أو (السواحلية) القريبين من شاطئ البحر. وقد عرف هذا التعبير من قديم عند الرومان، فكانوا يستعملون Gabalaen أي (الجبليين) للغرض ذاته [9].

وهذه الكلمة الأخيرة بالذات تجرنا إلى لفظ آخر كثيراً ما نسمعه محرفًا وقد صار ذا مدلول معين مستكره للأسف أعني (القبائل) و(القبائلي) وقد ركَز الاستعمار الفرنسي جهده في تثبيت هذا اللفظ برسمه الذي تراه وشرع ينسب إليه اللغة (القبائلية) - فكأنه ينسب إلى القبائل (جمع قبيلة) [10] باعتبارها منفصلة ذات كيان مستقل خاص. وهذا خطأ فاحش كثيراً ما يقع فيه عدد كبير من المثقفين والأساتذة الباحثين. وصوابه أن يرسم هكذا : (الجبايلي) وأصله (الجبالي) نسبة إلى الجبال. أبدلت الجيم جيماً مصرية (أو قاهرية على وجه التحديد) - وهذه لهجة عرب جنوب الجزيرة العربية في عدن وما جاورها - ثم حرفت فصارت قافاً قرآنية، وبهذا انحرف المعنى وتبدل اللفظ وتغير المدلول.

الخلاصة :

كلمة (البربر) ومشتقاتها صفة غير حميدة، وهي خطأ فظيع ورثناها عن المستعمرين الأوربيين في القديم والحديث.

وأهل شمال إفريقيا عرب ليبيون، فإذا أردنا التحديد الجغرافي قلنا : السواحلية والجبالية. هل هناك ألطف من هذا التعبير الصادق المحبب وأقرب إلى الحقيقة التاريخية ؟!

---

(9) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جزء 1 ، ص650 نقلاً عن smith فيA† Dictionary of the Bible وتكتب الكلمة بالحروف اللاتينية : Gabalene Gabelene

(10) وقد وقع (قاموس أكسفورد) في هذا الخطأ فكتب : Kabyle:aBerber of Algeria or Tunis-Berber dialect spoken by The Kabyles (Arab Qabail = Tribes)

وبهذا جعل كلمة " الجبايلي " تعني " القبائلي " (جمع قبيلة) ، وهذا غير صحيح كما رأينا .

هللوياه !

تبدو بعض العبارات والتعبيرات الدينية في حياة الشعوب لصيقةً بها حتى لتشير إليها دون حاجة إلى تسميتها، وهي قد تتبدل نطقاً ومدلولاً وتتغير شكلاً ومعنى، حتى ليوشك أن ينسى الناس أصلها ومنشأها، بل ما تعنيه في ظهورها الأول.. ومن هذه العبارات المعروفة الصيحة الشهيرة "هللوياه" ! اللصيقة بالديانتين النصرانية واليهودية ولا أظن أحداً ممن له أدنى إلمام بالموضوع يجهلها أو تخفى عنه دلالتها.

وتقول (الموسوعة البريطانية) التي أوردت تحليلها في مادة (هـ ل ل) HELLEL إنها تعبير قداسي يهودي يشير إلى مجموعة مزامير كانت تقرأ في بيع اليهود في مناسبات الاحتفال، ومعناها : الإيمان بالعناية الربانية والحمد لها، وكانت الترانيم والمزامير، كما تقول الموسوعة، يتلوها اللاويون LEVITES قداسات هيكل بيت المقدس ربما بترديد منغم لكلمة "هللوياه" أي : المجد للرب. ثم عنى التعبير بعدئذ مزماراً معيناً يتلى في قداس الصباح اليومي. وتضيف أن (الهليل) يتلى حديثاً في الكنيسة الإنجليزية مرتلاً ترتيلاً.

أما (قاموس أكسفورد) فيقدم الكلمة بخمس صور مختلفة الرسم قليلاً :

(بالإنجليزية) HALLELUJAH, 'HALLELUIAH

(بالعبرية) HALLELUYAH

(باليونانية) ALLELUIA, ALLELOUIA

وتختصر في الرسم بالعربية إلى ثلاث : هللوياه، هللويا، أللوياه.

وهي عنده : أغنية تمجيد للرب، وقد يكون معناها " المجد ليهوه- رب اليهود.

هذا الاضطراب في تقديم المعنى الدقيق للكلمة وفي ضبط رسمها يلفت النظر حقاً. وهو يشير، دون ريب، إلى أن التعبير في نشأته لم يكن عبريًا ولا يونانيًا، وإنما أخذه العبرانيون والإغريق من مصدر آخر ثم نسي الأصل تمامًا. فما مصدر الكلمة يا تري، ومن أين جاءت؟

في كتابه (دين الساميين) يقول الباحث و. ر. سميث، أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة كمبردج، وهو يحلل طقوس التضحية القديمة: "في ظني أنه من المحتمل أن ضربًا من الندب على الضحية كان جزءًا من أقدم طقوس القربنة، وأن هذا هو تفسير مثل هذه الشعائر، كالعويل (ألولويا) الذي كان يرافق القرابين الإغريقية والذي كان فيه للنساء، مثلما هو الحال عند النواح على الميت، النصيب الأوفى" [1].

يقول الباحث هذا ثم يشير إلى ما ذكره هيرودوت حول هذا الموضوع. أما ما يرويه هيرودوت فهو عبارة جاءت في سياق حديثه عن عادات الليبيين وسلوكهم الديني إذ قرر: "إن غناء النسوة الطقسي (الديني) كذلك ظهر أول ما ظهر في ليبيا. ذلك لأن النسوة الليبيات عاكفات على هذا الأمر جدًا، وهن يؤدينه أجمل الأداء" [2].

الواقع إذن أن هذا الغناء الطقسي المصاحب لعملية القربنة ظهر أول مرة في ليبيا، كما يقول أبو التاريخ ومن الليبيين أخذه الإغريق، ويعلق الأستاذ (روبرتسون سميث) بأن تقديس الحيوانات الداجنة تميز لدي الليبيين تميزًا كبيراً وكانوا - كما يذكر هيرودوت أيضًا - يقتلون قرابينهم دون سفك دمائها وذلك بليّ أعناقها دون ذبحها. وحين يجتنب سفك دم الضحية عند القربنة يمكننا الوثوق من أن حياة الضحية في هذه الحالة تعتبر حياة "إنسانية"، أو على الأقل هي ذات

(1) W.R SMITH.Religion of the Semites, p.432

(2) هيرودوت: الكتاب الثاني، فقرة 188 .

طبيعتين، إنسانية وحيوانية. ولا يكون الندب (الغناء الطقسي) سوى جزء من التعبير عن الحزن بالنواح على الفقيد العزيز !

لم يكن تقديم القرابين عند الليبيين يتم كيفما اتفق، بل كانت له طقوسه وشعائره المرتبة المعروفة وهم كانوا يضحون للشمس والقمر، المعبودين الرئيسيين في الديانات القديمة عموماً. بيد أن القبائل الليبية حول بحيرة (تريتونيس)، وبالذات قبيلتي الآوسيس والمخلويس (مغراوة فيما بعد) كانتا تقربان للربة نيث (التي تحولت عند اليونان إلى أثينا) في احتفال سنوي يقام تكريمًا لها. وكانت الفتيات، في هذا الاحتفال الكبير، يقسمن أنفسهن إلى فريقين ويبدأن في التقاتل بالحجارة والعصي، ويروي هيرودوت على لسان الليبيين أنهم توارثوا هذه الشعيرة منذ أزمنة موغلة في القدم، وأنهم بأدائها يكرمون معبودتهم القومية " التي هي مثل ربتنا الإغريقية : أثينا "، ولو أن فتاة ما جرحت في أثناء المعركة جرحاً بليغاً وماتت لكان هذا دليلاً على فقدانها عذريتها. وقبل بدء المعركة كانوا ينتقون أجمل الفتيات وجهًا ويلبسونها ثياباً حربية (عدة القتال) على ملأ منهم، ثمَ يضعونها في عربة يقودونها دائرين بها حول البحيرة. وهم يعتقدون أن أثينا (أو نيث) كانت ابنة بوسيدون ولدت له من البحيرة، فلما تشاجرت مع أبيها وضعت نفسها تحت إمرة زيوس الذي تبناها[3] .

ويضيف أبو التاريخ : " ومن الواضح، حسب ظني، أن الإغريق نقلوا الدرع Aegis الذي يزينون به تماثيل أثينا عن لباس الليبيات، إذ ليس ثمة من فرق فيما عدا كون الأخير من الجلد وله هدب من سيور جلدية بدلاً من الأفاعي. وفضلاً عن هذا فإن كلمة " أيجيس " ذاتها تبين

---

(3) لاحظ أن بوسيدون كان إلها ليبيًا صرفًا وأن زيوس هو شيخ أرباب اليونان وتخلي أثينا عن أبيها بوسيدون إلى متبنيها زيوس يرمز إلى انتقال عبادة نيث من ليبيا إلى اليونان تحت اسم أثينا .

أن اللباس الممثل في تماثيل أثينا مأخوذ من ليبيا "[4].

لدينا إذن ثلاثة عناصر: 1 ـ الكلمة "هللوياه" 2 ـ طريقة التضحية 3 ـ الثوب. فلننظر في كل منها على حدة، ثم ننظر في الأمر كله بعد ذلك.

أولاً: يقول الأستاذ أ. د. غودلي في تعليق على ترجمته لتاريخ هيرودوت إن هذه الكلمة وهو يرسمها OLOLUGE (أولولوج) يونانية كانت عبادة لأثينا. وهي صيحة انتصار وبهجة " ولعلها ذات أصل شرقي وصلت بالتهليل السامي (هللوياه) أو هي ضرب من الزغاريد" .[5] ومن رأي الأستاذ روبرتسون سميث أن " الصياح الذي كان يرافق التضحية عند الساميين (هلل- تهليل) في نمطه القديم هو عبارة عن نواح على موت الضحية، رغم أنه أخذ في النهاية صورة غناء حمد (هللوياه) ثم صار عند العرب إلى ترديد لكلمة (لبيك). وإنه لمن الصعوبة بمكان إقرار الفصل ما بين الكلمة السامية (أ ل ل) والكلمة اليونانية - الليبية OLOUJA والواقع أن الجذر العبري (أ ل ل) و (هـ ل ل) والعربي (و ل و ل) و

---

(4) انظر: هيرودوت، الكتاب الثاني، فقرة 189، ونلفت الانتباه هنا إلى ما ورد في معجم روبرت غريفز من كلمات اشتقت من هذا اللفظ اليوناني الأصل Aegis كما يلي: AEGAEUS (عنزي) AEGESTA (العنز المسرة) AEGESTES pleasing Goat (التيس المسر) AEGEUS (عنزي) AE-GINA(قوة العنز) AEGESTUS قوة الماعز)، ومن المحتمل جداً أن أصل AE- GIS = AEGI بحذف حرف (السين الزائدة) يعود إلى (العنز) المقدسة التي اتخذ من جلدها المدبوغ " ثوب " الليبيات ثم صار "درع" أثينا. ألا نشتم هنا قرباً لغوياً بين كلمتي "إيجي" و"عنز" العربية، يغمض في البداية بسبب التحريف؟ هذا مرجع للغاية خاصة على ضوء الدراسات الحديثة للغة الليبية القديمة وجذورها العربية، وهو ما يحتاج إلى بحث آخر إن شاء الله.

(5) A.D .Godley, Herodotus the History, loeb.

(ع و ل) قريبة الصلة بعضها ببعض"(6).

هذان إذن رأيان يقول أحدهما إن الكلمة صيحة انتصار وبهجة ويقول الآخر إنها صرخة حزن وهلع. لكنهما يتفقان في أن أصلها غير يوناني، بل هو سامي - ليبي، وهذا أمر مثير للاهتمام حقًا، إذ إن نتيجته إما القول بأن الليبيين كانوا يتكلمون العربية (أو السامية على الأقل) يبرز في شأن من أخص الشؤون الدينية وهو قمة التعبد للمعبود بالقربنة، أو القول بأن العرب أخذوا هم أيضًا عن الليبيين. ذلك لأن نص هيرودوت عن الأصل الليبي للكلمة واضح كل الوضوح، غير أن أبا التاريخ لم يبرز، أو لم يعرف، أن الكلمة عربية في أساسها، فأية كلمة أقرب إلى ما نحن فيه من الكلمة العربية "التهليل" المعروفة ومشتقاتها؟

لنعد إلى القرآن الكريم لنرى كيف أشار إلى هذا الأمر. في أربع آيات كريمات جاءت كلمة "أهل" في موطن تحريم قاطع:

"إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله" (البقرة-173).

"حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به" (المائدة-3).

---

(6) W.R.Smith, Religion of the semites . p.433

ويذهب سميث إلى أن "التهليل" مرتبط أساسًا بذبح القربان (ما أهل لغير الله به) في الجاهلية، ويتضمن التهليل: 1- ذكر اسم الإله على القربان 2 - صياح الجمع المصاحب لهذا العمل 3- وبتوسيع طبيعي كل صياح ديني آخر. وهو يستنبط من كون التهليل يعني "الفزع والفرق" أن ذكر اسم الإله صيغة يبرز بها المضحي عمله الجريء، وأن الصياح لم يكن أساسًا صياح فرح بل كان تعبيرا عن الخوف والرهبة.

أما بالنسبة للتلبية (لبيك) فلعل الأستاذ لم ينتبه إلى أنها جاءت بعد الإسلام ولم تكن في الجاهلية

"إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقًا أهل لغير اللّه به" (الأنعام - 145).

" إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به" (النحل-115).

فما معنى (الإهلال) هنا؟

لنرجع إلى مادة (هـ ل ل) في " لسان العرب "

استهلّ الصبي بالبكاء : رفع صوته وصاح عند الولادة.

كل شيء ارتفع صوته : فقد استهلّ.

والإهلال بالحج : رفع الصوت بالتلبية.

أهلّ الرجل واستهلّ : إذا رفع صوته.

قيل للإحرام إهلال لرفع المحرم صوته بالتلبية.

أصل الإهلال : رفع الصوت.

كل رافع صوته : فهو مُهِلّ.

أهلّ المعتمر :إذا رفع صوته بالتلبية.

أهلّ المحرم بالحج، يهل إهلالاً : إذا لبّى ورفع صوته.

المعنى العام من الجذر (هـ ل ل) إذن هو (رفع الصوت). وهو في الغالب رفع للصوت في محل العبادة - كالحج والعمرة - فإذا كان رفعا للصوت في حالة البهجة والفرح كان (إهلالاً)، يقول ابن الأعرابي : هل، يهل، إذا فرح. وأهل، يهل، إذا صاح فرحًا.

الهلال : غرة القمر حين يهله (أي يصيح به) الناس في غرة الشهر نقول: أُهلَّ (مبنيًا للمجهول) القمر، وليس: أَهَلَّ (مبنيًا للمعلوم) القمر. قال أبو العباس : سمي الهلال هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه.

هذا هو الإهلال، وهو يأتي في موطن الفرحة والسرور. أما التهليل فإنه يكون، رغم وحدة الجذر اللغوي، في محل الروع والفزع.

" الهلل : الفزع والفرق. قال :

ومت مني هللاً إنما .. موتك لو واردت وردابة.

التهليل : الفرار والنكوص.. قال كعب بن زهير :

لا يقع الطعن إلا في نحـورهمُ   ومالهمْ عن حياض الموت تهليل

أي : نكوص وتأخر.

يقال : هلل عن الأمر.. إذا ولى عنه ونكص.

وهلل عن الشيء: نكل.

والمهلل : الذي يحمل على قرنه (خصمه) ثم يجبن فيثني ويرجع.

ويقال : حمل ثم هلل.

تفسير "ما أهل لغير الله به"، كما يقول اللسان، وهو ما ذبح للآلهة. وذلك لأن الذابح كان يسميها عند الذبح، فذلك هو الإهلال.

ونضيف : وتلك هي الهللوياه الليبية القديمة !

ولنا، بعد ذلك، أن نقبل أحد الرأيين من أنها صيحة فرح وبهجة، أو صرخة حزن وهلع، أو هما معاً. فالواقع أن هذا محتمل وخاصة في أثناء أداء الشعائر الدينية قديمًا وحديثاً، فلا يخلو الأمر من خوف ورجاء، أو رهبة ورغبة، على كل حال، ولكن المهم هو إثبات الصلة اللغوية بين التعبير العربي والكلمة الليبية القديمة، باعتبارها (إهلالاً) أو (تهليلاً) أو حتى (ولولة) وزغردة بحسب التفسير الثالث لها.[7]

***

ثانيا : ورد في القرآن الكريم وهو ينعى على مشركي الجاهلية أعمالهم: "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية" (الأنفال35).

---

(7) يتبادر إلى الذهن هنا الربط بين التهليل وقول " لا إله إلا الله " كما يعبر : وارتفع التهليل والتكبير (أي : الله أكبر). وجاء في (لسان العرب) : قال الليث : التهليل قول لا إله إلا الله. قال الأزهري : ولا أراه مأخوذا إلا من رفع قائله به صوته.

رفع الصوت إذن هو الأساس في التهليل، بأي شيء كان.

"والمكاء : هو الصفير. والتصدية : ضربك يداً بيد لتسمع إنساناً.
قال ابن السكيت : المكاء والتصدية : النداء والغناء. قال الليث : كانوا يطوفون بالبيت عراة يصفرون بأفواههم ويصفقون بأيديهم." هنا تبدو صورتان متقاربتان في أداء الشعائر الدينية عند العرب في الجزيرة العربية والليبيين في وثنيتهم القديمة، ذلك (المكاء) أو الصفير والنداء والغناء عند البيت هو ما عرفناه باسم الهللوياه الليبية، ثم ذلك الطواف حول الكعبة - باعتبارها قدساً وحرماً منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قواعدها - يقابله طواف الليبيين حول بحيرة تريتونيس في عيد الربة نيث (ألسيت هي : مناة الثالثة الأخري؟) وهذا التماثل لم يكن صدفة محضا، وما يؤيد قولنا هو النظر في العنصر الثالث.

***

ثالثاً : يقرر هيرودوت، كما سبقت الإشارة، أن الإغريق نقلوا الدرع[8] التي يزينون بها تماثيل الربة أثينا عن لباس الليبيات. وهو يصف هذا اللباس بأنه من جلد ذي هدب من السيور، وقد كانت الليبيات يرتدين جلود الماعز بعد نزع الشعر منها وصبغها باللون الأحمر وقدها من أطرافها. ومن هذه الجلود، يقول هيرودوت، أخذت كلمة "إيجيس" الليبية بمعني "الدرع".

ويفسر " معجم أكسفورد " كلمة AEGIS التي دخلت اللغة الإنجليزية عن اليونانية، بأنها تعني : الحماية، حصن لا يمكن اختراقه. وهي في الميثولوجيا اليونانية : درع زيوس أو أثينا ويستعمل تعبير

---

(8) يستعمل هيرودوت والترجمات له كلمة Aegis وليس Shield مثلا .
واستعملنا تعبير " الدرع " هنا بمعنى " الحصن " أو "الحامي" اتفاقًا مع المعنى العام وليس المعنى اللفظي المحدد والمقصود هو الثوب ذاته وليس أداة الدفاع الحربية (الترس) .

impregnable defense بمعنى التحصن المطلق [9]، الذي لا يُغلب، أو بمعنى أدق " الحصن الحصين" !

ويلاحظ الأستاذ سميث أن الثياب في الأمم البدائية لم تكن لمجرد الراحة الجسدية فحسب، بل كانت جزءاً ثابتاً من الدين الاجتماعي يحمله المرء باستمرار إشارة ديانته، كما كان الثوب رقية ووسيلة حماية إلهية [10] وهو يشير إلى تقرير هيرودوت السابق أن ثوب الربة أثينا هو نفسه ثوب النسوة الليبيات، مما يعني لديه أنه كان ثوباً مقدساً ثم يشير إلى تطابق سيور الجلد الليبية مع صورة من أقدم صور الثوب ذي الهدب، وهو عبارة عن مئزر أو زنار ذي سيور كانت الفتيات العربيات يرتدينه، كما كانت ترتديه العربيات عند الحيض ويلبسه العباد حول الكعبة [11].

وما يشير إليه الأستاذ سميث يندرج تحت اسمين اثنين، ثم تطور بعد ذلك إلى اسمين آخرين :

هناك أولاً : الحوف. وهو جلد يشق كهيئة الإزار تلبسه الحائض، والصبيان، وجمعه أحواف.

" قال ابن الأعرابي : هو جلد يقد سيوراً عرض السير أربعة أصابع أو شبر، تلبسه الجارية صغيرة قبل أن تدرك، وتلبسه أيضاً وهي حائض. وقال مرة : هي كالنقبة إلا أنها تقد قدداً عرض القدة أربعة أصابع إن كانت من أدم (جلد) أو خرق.

---

(9) رغم أن المفهوم من كلمة impregnable هنا عدم قابلية الاختراق، فإن لها معنى آخر هو قابلية التلقيح والإخصاب، فهي من أوصاف الأضداد (منيع، فوق مستوى الشك أو الطعن) قابل للحمل والتلقيح والإخصاب impregnate.
وليلاحظ القارئ هنا ارتباط الكلمة بالمعنى الجنسي وما يتبعه من الحمل والولادة - مما هو وثيق الصلة بالموضوع الذي نعالجه .

(10) Religion of the the semites p.437

(11) المصدر نفسه .

قال الشاعر :

جـوار يحلين اللطــاط تزينها   شرائح أحواف من الأدم الصرف

وفي حديث عائشة : «تزوجني رسوله الله (ﷺ) وعليّ حوف».

وهناك ثانيـاً : الرهط، وهي في نجد مـقابل الحوف في الحـجاز. وهو أديم يقطع بـقدر ما بـين الحجزة إلى الـركبـة، ثـم يشـقق كـأمثـال الـشـرك تلبسه الجارية بنت السبعة.

"ويقول ابن الأعرابي : الرهط مئزر الحائض، يجعل سيوراً مشققة.

قال أبو طالب الـنحوي : الرهط يكون من جلد ومن صـوف والحوف لا يكون إلا من جلد".

كان هذا في الجاهلية وبداية ظهور الإسلام، فلما رسـخ الإسـلام وتـطورت الحضـارة العربيـة تطورهـا المعروف تحول الحـوف أو الرهط إلي: 3 ـ البـريم. أو : 4 ـ المرصـعـة. "وهو حـبل ذو ألوان، مـزيـن بجـوهر تـشــده المرأة عـلى عضدها أو وسطها أو حقويها، وقد يعلق على الصبي تدفع به العين"[12].

***

مع هذا التـشـابه الكامل في الشـكل والمادة بين " الايجـيـس " الليـبي القـديم، ثـوب أثينا أو نـيث، والحـوف أو الرهـط العـربي، الذي لا يمـكن إغفاله، تتـضح لنا جملة حقائق يمكن استخلاصـها بـسهولة :

1- أن هذا الثوب الليبي للمرأة كان ثوبا مقدسا ذا إشارة خاصة.

2- وأن معنى اسمـه متصـل بالتحـصين ضـد التقـليح والإخصـاب، أو المشـير إلى عدم قابليـة الحمل، ويرمـز إلى معنى جنسـي واضـح يشـبـه ما نعرفه في ليبيا حتى عهد قريب باسم (التصفيح)[13].

---

(12) راجع مواد : حوف . رهط . برم . رصع . في(لسان العرب) .

(13) كان من عادة الأمهات الليبيات ، حتى وقت قريب ، أن يصـفحن (يحصن) بناتهن ضـد فقدان عذريتهن بطريقة طقسـية معروفة ، إذ كان يؤتى بالفتاة الصـغيرة إلى آلة نسيج العباءات (المسـدة) وتوضع أمامها بضعة خيوط ملونة من الصـوف (لاحظ الشبـه في الخيـوط الملونة هنا وعند العرب) تتـخطاها =

3- ويؤيد هذا الرأي كـون أثينا (نيث) ولدت بدون أم، حسب الأسطورة، بل حملت بها بحيرة تريتونيس من الرب بوسيدون، وبرزت من زبد البحر، وأنها كانت تعرف باسم "العذراء المحاربة".

4- أن ترتدي الفتاة العربية الحوف عندما تبلغ السابعة إلى أن تدرك يعني، بدون جدال، أنه لا يجوز الاقتراب منها أو الاتصال بها جنسيًا، إذ هي دون البلوغ.

5- وكذلك أن تلبسه النسوة العربيات عندما يأتيهن الطمث، يعني أن المرأة غير مستعدة للاتصال بحكم الطبيعة وأنها محرمة، أو هي "تابو" لا تجوز معاشرتها حتى يزول المانع وتتخلى عن حوفها أو رهطها علامة الاستعداد والخلوّ من المانع.

6- وحتي ارتداء الصبيان له، ثم شد البريم من حول أجسادهم "لتدفع به العين" كما ذكر، يشير بوضوح إلى طقوس سحرية أو دينية قديمة خوفاً من الحسد والشياطين، وقد تطور هذا البريم إلى ما يعرف باسم الأحجبة والرقى المعلقة في أعناق الصبية، وهنا نجد العلاقة الدينية القديمة واضحة بجلاء.

7- هذه العلاقة الدينية تبرز للعيان بملاحظة ذلك التشابه البين في اسم الربة المعبودة في ليبيا (نيث Neith أو نيت Neit) والتي عرفت عند اليونان باسم (أثينا)، وبين الربة العربية في سوريا أناث Anath. ثم بين هذه وتلك من جهة والربة المعبودة في الكعبة ذاتها في الجاهلية(منات) أو (مناة)

***

من العباد حول الكعبة، إلى الطائفين حول بحيرة تريتونيس في

=الفتاة سبع مرات مع ترديد بعض العبارات المحفوظة فتصبح بهذا (مصفحة) تمامًا ضد أي عدوان - كما يعتقدون ، ولا يمكن فك هذا (التصفيح) السحري حتى ليلة الزفاف إلا بعملية عكسية تقوم بها النسوة المتخصصات في هذا الباب .

شمال إفريقيا، ومن نيث إلى مناة، ومن هدب جلد العنز المدبوغ إلى الحوف والرهط، إلى أثينا ودرعها الشهير، ومن الإهلال إلى الهللوياه.

من عشرات التفاصيل المتماثلة في العبادات والشعائر بين عرب الجزيرة وعرب شمال إفريقيا، في جاهليتهم وإسلامهم، نستطيع معرفة الكثير من وحدة هذا الوطن الكبير منذ فجر التاريخ، تتبع "الخيوط الملوّنة" في كل مجال.

وحين تعلو مئات ملايين حناجر المصلين داعية : " هللوياه" ! لا بد لها أن تعرف أنها تردد كلمة ليبية - عربية مضى عليها آلاف السنين..

المراجع

(1) القرآن الكريم

(2) «لسان العرب» لابن منظور. مواد: هلل - حوف - برم - رهط - رصع.

(3) W.R. Smith; Religion of the Semites. adam and Charles Black, London, 1894.

(4) A. D. Goldry; Herodotus, the History, Loeb.

(5) Encyelopedia Britannica. art. "Hellel"

(6) Oxford Dictionary, art. Helelujah.

(7) Robert Graves; the Greek Myths, Vol. II, Penguin, 1980.

زيوس عربيًا

في تاريخ الميثولوجيا والديانات القديمة ليس لدى الباحثين شك في أنّ اليونان أخذوا أغلب، إن لم نقل كلّ، معبوداتهم الأسطورية عن مصادر أخرى، في ما يسمى الشرق الأدنى وشمال إفريقيا، وما نسمّيه نحن "الوطن العربي" في جملته وبمختلف شعوبه وقبائله بتركيبها القديم المعروف، وليس هذا ما تبينه الدراسات المقارنة الحديثة فحسب، بل باعتراف أصولها ونشأتها الأولى، وهذا أمر لا اختلاف فيه، فإنّ الوطن العربي بالطبع أقدم حضارة وأسبق في مسار التقدم الإنساني من بلاد اليونان، وطبيعي أن يأخذ اللاحق عن السابق وأن يتبع المحدث من تقدمه.

لكن الأخذ هنا ينبغي أن يفهم باعتباره أخذ الأصول الأولى ونقل الفكرة السابقة عن منشئها، ثم لا بدّ أن تصطبغ بالصبغة المحلية وتلبس لبوس الدار الجديدة، حتى تكاد تختفي معالمها فلا تبين للناظر أول وهلة وتغمض على المتبصر حقيقتها وطبيعة نشأتها ومنبعها الأصلي. ويجب عليه حينئذ أن يعود إلى الدراسة المقارنة، صورة ولغة، ويرجع إلى تتبع حركات الشعوب واتصال الحضارات وانتقال الأفكار، تعينه المراجع القديمة والدراسات الحديثة ليتضح له ما غمض عليه وتبين له الجذور الأولى لما يبحث عنه.

ونحن إذا نظرنا في الديانات الأسطورية، أو الأساطير الدينية، اليونانية وجدنا مجموعة هائلة من الأرباب، وأنصاف الأرباب والحوريات، والعرائس، من "الخالدين" إلى جانب أعداد لا تحصي من الجبابرة، والأبطال، والمقاتلين، والحيوانات الخرافية الهيئة، والغولات والغيلان، من "الفانين" وهي أكداس مكدّسة بعضها فوق بعض

تراكمت على مدى الأزمنة وبحسب التصور العام لتكون تراثاً ضخماً ارتكزت عليه حياة الإغريق الدينية والثقافية والأدبية، والعلمية، واختلف الاعتقاد فيها ما بين القوة والضعف بحسب العقلية والزمان، وقد استقرّت الأرباب الكبرى في النهاية فوق قمة جبل الأولمب، وصارت تنسب إليه في نظام طبقي مميز على رأسه ربّ الأرباب زيوس العظيم الذي عرف عند الرومان بعد ذلك باسم جوبتر. يقول هيرودوت إنه أدرك من التحريات التي قام بها أنّ أسماء الآلهة اليونانية جاءت كلّها تقريبًا من خارج اليونان، إما من مصر أو من ليبيا أو من بلاد الشام، عدا قلّة قليلة ورثها الإغريق من أهل البلاد السابقين لهم، البلاسجيين. ويقرر بصورة قاطعة أن اليونان لم يعرفوا أصول وصور الآلهة المختلفة سوى "أمس الأول" - أي منذ عهد قريب جدًا - أيام هومر وهزيود فقط، اللذين سبقاه بأربعة قرون ليس غير. أي القرن التاسع ق. م وينسب باوسنياس البلاء الذي حلّ بالإغريق إلى هذه الآلهة (البربرية) كما يسميها ويتبعه في هذا المذهب كثير من الكتاب اليونانيين المعروفين.

إنَ أثينا، مثلاً، ربة الحكمة والحرب،هي بعينها الربة الليبية نيث. وبوسيدون، ربَ البحر، كان الليبيون وحدهم هم الذين يعظمونه،كما يقول أبو التاريخ، وأفروديت هي نفسها عشتار الفينيقية - البابلية، وهكذا عشرات غير هؤلاء من كبار الأرباب.

فماذا عن زيوس؟

تصوّر الأساطير الإغريقية ربَ الأرباب هذا، أو شيخها، بكلّ صور القَوة والجبروت والقدرة الخارقة المسيطرة، وهو المسير لشؤون الكون في مظاهره الطبيعية الكبرى كما أنه الموجه لحياة البشر اليومية عن طريق الآلهة الأصغر منه مقاماً،كل إله مختص بشأن من شؤون الحياة والحرب والحبَ، والغنى والفقر، والزراعة والصناعة، والولادة والموت،

وكل كبيرة وصغيرة في هذه الحياة الدنيا وفي عالم الأموات، في العالم السفلي، في أعماق الأرض حيث تهبط الأرواح، وفي السموات العلى حيث يعيش الخالدون من الأرباب والمخلدون من البشر. وهو استحق هذه المكانة الرفيعة بعد صراع طويل ومرير من عمالقة التيتان الذين كانوا من قبله يسيطرون على الأرض ويفعلون فيها ما يشاؤون، فلما بارزهم وأفناهم عن بكرة أبيهم هيمن بجبروته المطلق على مقدرات الأمور وصار شيخ الأرباب دون منازع.

هذه الفكرة الأسطورية العامة عن زيوس، لكن خاصة الباحثين، قديماً وحديثاً، يرون أن زيوس هذا باعتباره معبوداً يونانيًّا رئيساً جاء من مكان آخر وقد تكون فكرة قهره للتيتان تصويراً لانتصار عبادته على معبودات أخرى سابقة له في بلاد الإغريق، بمجرد معركة وهمية ابتدعها الخيال الشعبي الجمعي لتبرير حدوث هذا التغير في عبادات الإغريق.

ويروي هيرودوت قصة لطيفة عن انتقال عبادة زيوس إلى اليونان بروايتين مختلفتين، حدثه بالأولى كهنة معبد آمون طيبة (الذي يدعوه زيوس طيبة) عن امرأتين كانتا في خدمة المعبد حمل الكنعانيون إحديهما إلى مدينة دودونا في شمال غرب اليونان والأخرى إلى ليبيا وباعوهما هناك، فأنشاتا هيكلي زيوس (آمون) في كلّ من دودونا وواحة سيوة، أما كهنة دودونا فيقولون إن حمامتين طارتا من طيبة بمصر، حطت إحداهما في اليونان والأخرى في ليبيا، وطفقتا تهدلان بلغة بشرية فصيحة تدعوان القوم إلى إنشاء هيكل للرب، فاستجاب الفريقان باعتبار نطق الحمامتين بلغة البشر أمراً إلهيًّا ومعجزة بينة، فأنشئ هيكل زيوس في دودونا وأسس هيكل آمون في سيوة. ولا يرفض هيرودوت إمكانية مجيء السيدة التي حملها الكنعانيون إلى اليونان ولكنه لا يقبل أن تكون حمامة تتحدث لغة الإغريق، ويفسّر

قصة الحمامة بأن السيدة كانت تتحدث لغة غير مفهومة لأهل البلاد، فهي كالحمامة لا تُفهم، ثم لما تعلمت لغة اليونان شرعت تدعو لبناء الهيكل وتبين للإغريق فرائض الدين الجديد.

ومن الجائز أن تكون هذه الحكاية، على لطفها، رمزاً للهجرات، أو الغزوات القادمة من ليبيي الدلتا وشرق ليبيا إلى كريت وأرخبيل اليونان، وخاصة تلك الحركة الكبرى في أواسط القرن الثالث عشر ق.م وأواخره. المهمَ أن كلَ الدلائل الأسطورية والتاريخية تشير إلى أن زيوس لم يكن معبوداً يونانيًا أصيلاً بل كان دخيلاً جاء غازيا قاهراً لجملة المعبودات السابقة ليتسنم ذروة الأولمب ويجعل عرشه السماوي فوق القمة الشهيرة ويدير شؤون العالم، مستمتعاً بالنسمات الباردة، ومتكئاً على أريكته المريحة يطعم من رحيق الحياة الأبدية، تقوم بخدمته الآلهة الأخرى وتذعن لإشارته الأرباب.

هنا أودَ أن أقدّم للقارئ العزيز بعض المعلومات العامة التي قد يكون فاته الاطلاع عليها، بحكم ضيق الوقت وانشغال البال طبعًا، أو طالعها ووجب التذكير بها الآن. ولا بأس في الرجوع إلى بعض باحثي الفرنجة فيما أرى، للاستفادة والاستعانة والاسترشاد.

من المعروف أن بلاد الإغريق مرت بثلاث مراحل حضارية أساسية في قديم الزمان وسالف العصر والأوان: أوسطها تسمى "المرحلة الهلينية" - العصر الفلسفي والأدبي والعلمي الجيد، وآخرها تدعى "المرحلة الهلنستية" - وهي ما بعد الإسكندر الأكبر أواخر القرن الرابع ق. م. أما أولاها فتسمى "المرحلة البلاسجية" في بلاد (الإغريق العتيقة) Gracia Attica

وهذه المرحلة الأولى لا تدخل في التاريخ اليوناني بمعناه الذي نعرفه والذي يبدأ فعلياً ببدء استعمال اللغة والكتابة اليونانية في أواسط القرن الثامن ق. م فقط وليس قبله. ما قبله كان البلاسجيون

Pelasgians [أو لنسمّهم (البالين).. أعني : البائدين تماماً كما نقول : العرب البائدة، قبل العرب العاربة والعرب المستعربة] كانوا هم سكان البلاد، وهم جاءوا في الأغلب من شمال إفريقيا أو من ليبيا بالتحديد، ضمن هجرات واسعة سنتعرض لها في موطن آخر.

يقول الباحث المعروف ج. سيرجي G Sergi في كتابه " سلالة البحر الأبيض المتوسط" The Medirettenean Race إن البلاسجيين لم يكونوا همجاً أو عاجزين كما يبدو من الوهلة الأولى، وخاصة من الناحية الدينية، فإن هومر يدعوهم "المقدّسين Dio tepelasgpi" في الإلياذة والأوديسة، وكثير من عناصر عبادة اليونان جاءت منهم مباشرة أو بطريق غير مباشر. وهكذا فإن زيوس الدودني نسبة إلى (دودونا dodona) كان بلاسجيًا. ومن رواية هيرودوت عن هذا المعبود يبدو أنه ينبغي البحث عن أصله في ليبيا من حيث جيء به إلى بلاد اليونان على يد البلاسجيين.. وقد قبل الإغريق الهلينيون عبادة زيوس كما قبلوا عبادة معبودات دخيلة أخرى محتفظين بالاسم الأصلي كما سجّله هومر وهيرودوت. (أرجو أن ينتبه القارئ إلى العبارة الأخيرة باهتمام).

هنا يقول الأستاذ سيرجي، يشرع هيرودوت في رواية العلاقات الأهمّ بين بلاسجيا (اليونان القديمة) ومصر وليبيا والشام. وهكذا نملك الكشف الأوّل عن أصل البلاسجيين، فمثلاً يجد أبو التاريخ عبادة هرقل Hercules في مصر بالغة القدم ولا يمكن أن تكون ذات أصل يوناني بل على العكس يجب أن يكون هرقل اليوناني ذا أصل مصري ثم يمضي ويبين أنه في مدينة صور الكنعانية هناك معبد مكرّس لهرقل الذي ترتبط عبادته بنشأة صور نفسها. وهو زار معبد ثاسوس Thasus حيث وجد هرقل الثاسوسي، وعلى هذا فإن عبادة هرقل ليست ذات أصل هليني بل هي قبل الهلينيين، ويواصل سيرجي : ".. وقد جاء

بوسيدون، الذي لم تعرف عبادته في مصر، إلى اليونان من ليبيا، ومن العبث البحث عن جذور عبادته خارج ليبيا حيث كان يكرم من الجميع. كما أنّ أبا التاريخ لا يتردد في تأكيد أن أثينا، ربة الحكمة والحرب، ليبية النشأة".

ويخلص الأستاذ سيرجي إلى القول: إنّ عنصر الحقيقة في العلاقات بين الديانات الهلينية والكنعانية والمصرية والليبية هو أننا لا نحتاج إلى البحث عن أصول الدين الإغريقي في الهند، في المعتقدات البدائية لمن يدعون Indo-Europeans وإنما في البحر المتوسط نفسه، وجزئيًّا في وادي دجلة والفرات عن طريق الوسائط الآسيوية والمصرية. (ص 669-672)

حسن، أسمعك تقول: فما صلة هذا كلّه بالعنوان؟

فليكن زيوسك معبوداً إغريقيًّا، أو متأغرقاً، أو ما شئت، أو ما كان، فإنه يظل بعيداً عنا وعن عنوانك الذي اخترت، إذ أية صلة بين زيوس هذا وبين العرب؟ وأية علاقة له بالعروبة؟ أما غريبة !!

ليست غريبة، أجيبك، فلتطق معي صبرا.

لقد اتفقنا أولاً، منذ مدة، على وحدة هذه الكتلة البشرية من المحيط إلى الخليج منذ قديم الزمان. واتفقنا ثانياً على الصلات اللغوية المتينة جدًّا بين مختلف شعوبها. كما اتفقنا ثالثًا على وحدة انتمائها السلالي منذ فجر التاريخ، أو لنقل قبل فجر التاريخ - فهذا أدقّ. ثم اتفقنا رابعًا على حدوث تحركات سكانية ضخمة على فترات تتقارب أو تتباعد بين شمال إفريقيا، بما فيه وادي النيل، وغربي آسيا من جهة، وبين هذه المنطقة وشمال البحر المتوسط من جهة أخرى. واتفقنا، أخيراً، على أن التعبير بكلمة (العرب) أو (العربي) اصطلاح أردنا به مجموعة الشعوب المعروفة باسم (الساميين) أو حتى (الحاميين- الساميين) التي سكنت ما يعرف باسم (الوطن العربي) اليوم، بغية تقريب المسألة

للأذهان.. بعد تقديم الأدلة بالطبع، والبرهان.

اتفقنا.. وهذا كله جيّد، ويظلّ السؤال معلّقًا: ماذا عن زيوس؟

في الديانات كلها، قديمها وحديثها، احتلت فكرة (النور) المركز الأول في كل دين، وكانت مدار التفكير والتأمّل والتمثيل والتصوّر. فعند المصريين،مثلاً، كان "رع" هو إله الشمس، وكانت الشمس والقمر والكواكب مدار عبادة السومريين والبابليين والأشوريين، كما كان الأمر عند الليبيين القدماء، وذلك باعتبار هذه الكواكب والنجوم مصدراً للنور، وفي اليهودية كانت النار واسطة الاتصال بين موسى الكليم والرب، وكانت النار معبودة المجوس في فارس. وفي النصرانية نرى صور المسيح والقديسين تعلو رؤوسهم هالات النور رمزاً للإشراق الإلهي. وفي الإسلام نجد أحد الأسماء الحسنى، بل الوصف الشامل لله عز وجل بأنه النور «الله نور السموات والأرض» في الآية الشهيرة، وحتى في الفلسفات نجد الفلسفة الإشراقية وممثليها في الإسلام، وقد سبقتهم الإشراقية أو (الفيضية) الأفلوطينية ومن قبلها الأفلاطونية في الفلسفة اليونانية القديمة.

ولا تزال الشموع حتى الآن توقد في الكنائس ومعابد الهنادكة والبوذيين كما توقد في أضرحة الأولياء سواء بسواء.

وإذا كان رمز اليابان هو الشمس، ويسميها أهلها "بلاد الشمس المشرقة" وإمبراطورها هو "ابن الشمس المقدّس" فإنّ رمز البلاد الإسلامية هو الهلال، وهما المصدران الرئيسان للنور الطبيعي، ورمز البيع اليهودية القنديل المسبع الشموع إشارة إلى "أعمدة الحكمة السبعة".

كان "النور" إذن – ولا يزال – رمزاً للقدسية أو للألوهية إن شئت.

اسم زيوس، ويا للعجب، في اللغة اليونانية يعني بالضبط: الساطع، أو المشعّ، كما يعني "نور السماء" أو "النور السماوي"

وبهذا تتحدد هوية شيخ الأرباب، ليس باعتباره ذلك الجبار القاهر فحسب ولكن باعتباره "نوراً" هو ذاته أو مصدراً للنور أو منبثقاً عن النور الأصلي. ولا يغيب عن بالنا أن زيوس يعتبر أيضاً إله الرعد والبرق والصواعق، ورمز القوّة ورمز النور في الوقت ذاته. فالأساس إذن في شيخ الأرباب اليوناني فكرة نورية، أو نورانية بالتعبير المتفق عليه فلسفياً، وهذه فكرة شرقية أو شرق - أدنية، أو عربية حسبما اتفقنا. ولا عليك بعد ذلك من صوره الأخرى الممعنة في بشريتها، فإنَ هذه طبيعة التفكير الجمعي اليوناني الوثني المرتبط بالحس ارتباطاً مباشراً، رغم ما يسمى "مثالية" أفلاطون الذي لا ينجو هو ذاته من الحسية المسيطرة على تفكيره "المجرد"!

في نص لطيف يذكر مؤرخ الأديان المعروف محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل" وهو يتحدث عن ديانة اليونان أن "هرقل الحكيم" من فلاسفة الأقاديميا كان يقول: "إن أول الأوائل النور الحق لا يدرك من جهة عقولنا لأنها أبدعت من ذلك النور الأوّل الحق وهو الله حقًا، وهو اسم الله باليونانية، إنما يدل على أنه مبدع الكل وهذا الاسم عندهم شريف جدًا".

هذا ما يقوله الشهرستاني، ومن الجلي أن ما نقله عن "هرقل الحكيم" ويجمع بين معنى "النور" و"اسم اللّه باليونانية"، كما جاء في النص، في كلمة واحدة في "اسم شريف جداً عندهم" - لا يمكن أن يكون سوى كلمة "ديوس" أو "ثيوس" أو "زيوس" - بأيَ شكل من الأشكال أردت. وهو أمر يمكن قبوله بحكم القرينة واستخلاص الدليل.

تحدَد معنى الاسم إذن وتبينت هويته، فهل لك في جولة صغيرة حول ما يتعلّق به؟ فليكن.

زيوس يكتب بالحرف اللاتيني هكذا: zeus. وكلمة "الرب" أو "الإله" تكتب هكذا: ديوس deus, déus, dios كما تكتب هكذا:

ثيوس theos وقد اختلط الحابل بالنابل في هذه الكلمات القريبة بعضها من بعض في النطق والمعنى، فصار (زيوس) هو (ديوس) والعكس، كما أصبح (ثيوس) كليهما والعكس. أنظر ما يلي :

dioscuri (ديوسكوري) = أبناء زيوس.

diocles (ديوكليس) = مجد زيوس

diodorus (ديودوروس) = عطية زيوس.

هكذا نجد أن (ديوس) هو (زيوس). وانظر dia (ديا) = سماوي.

dias (دياس) = مشع - ساطع - لامع - مشرق - نوراني.

وانظر أخيراً :

dione (ديوني) = الملكة المقدسة / الإلهية (مؤنث dia بمعنى زيوس)

thea-theia (ثيا) = مقدس / إلهي.

ومن هذه الكلمة الأخيرة (ثيا أو ثيو) يمكنك أن تحشر كلّ الكلمات اليونانية، وفي اللغات الأوربية الحديثة، المتعلّقة بدراسات ما وراء الطبيعة أوما يسمى (الإلهيات) مثل theosophy (ثيوصوفيا) theologiy (الثيولوجيا) أو حتى تعبيراً شهيراً مثل theocracy (ثيوكراسي = الحكم المرتكز على الفكر الديني) وغيرها مما شئت من كلمات، ويمكنك العودة إلى أي معجم أجنبي لتتبعها والحصول على مزيد من.. الفائدة ! واضح إذن أن هذه (الثيو) تأتي في مجال العلوم أو المعارف أو البحوث في الإلهيات أي ما وراء الطبيعة، أو لنسمِّها "النورانيات" في مقابل "الظلمانيات" الحسية المادية - حسب التعبير الصوفي، وهذه كلها متصلة بـ "الضياء" كما سبق القول.

لكن الأمر لم يقتصر على اليونان، فإن اللاتين فعلوا الشيء نفسه، أو هم أخذوه عنهم ونقلوه. فكلمة ديوس dios اللاتينية التي تعني "الآلهة" مشتقة من كلمة deva التي تعني بالضبط : السطوع

والإشعاع.. النور. ولن نفعل شيئًا سوى قلب حرف v اللاتيني، غير الموجود في العربية إلى حرف الواو البديل له وسنجد كلمة «دوا deiva» التي ليست غير "ضياء" أو "ضو" أو "ضوء" بالنطق العربي الفصيح.

هل لاحظت، وأنت دقيق الملاحظة كما ألاحظ، أن كلمة "زيوس" و"ديوس" تتبدلان وتقدمان المعنى نفسه.. معنى النور والنورانية؟

هل لاحظت أن حرف السين S في ذيل كل منهما حرف زائد في اللغة اليونانية يقوم مقام الضمة في آخر الفاعل في اللغة العربية؟

جيّد.

الواقع أن الشكل المتداول لرسم كلمة زيوس zeus هو الرسم اللاتيني لها. أما في اليونانية فيكتب زيوس كما يكتب "ديوس" dios و"ديا" Dia ومن هذا الاسم Dia جاء اسم زوجة رب الأرباب "ديوني Dione" وهو تأنيث يوناني لاسم بعلها، كما يرى. ح. غوين غريفت J.G Griffich في كتابه the origion of osiris and his cult (ص 202).. باعتبار المجتمع الإغريقي مجتمعًا أبويًا تنسب الزوجة فيه إلى زوجها، كما هو الحال في أوربا الآن.. إذ تسمى الزوجة "مسز فلان" أو "مدام فلان" وينسى اسمها الأصلي واسم أهلها، فإذا قلنا إن اسم زيوس في الأصل هو "ديو Dio" كما ثبت، ولندعه "الضاوي" من باب التسهيل، فلابد أن ينسى اسم زوجته الأول (وهو للعلم كان Hera) حين تدعى وتعرف باسم "مدام ضاوي" أو - بالطريقة الليبية المبسطة - "الضاوية" ! التي يترجمها غريفز إلى: الملكة المضيئة The Bright Oueen

أصل الكلمة إذن هو "ديو" - واشتهرت ب "زيو" بإسقاط حرف السين النحوية في آخرها، فهلا لاحظت أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة في العالم التي تحتوي على حرف الضاد، ولذا سميت "لغة الضاد"؟ فما الذي يحدث حين يحاول الأعجمي أن ينطق كلمة "الضوء"

أو الضيـاء" وهو لا يمكنه النطق بحرف الضاد الجيد؟ إنه يحوّله بلكنته الأعجمية، إلى حرف آخر.. إما إلى دال أو إلى زاء. (هل أذكرك بأن "ضياء الحق" تتحول على ألسنة إخوتنا الباكستانيين إلى " زياء الحقَ و"فضل الرحمن" تنطق "فزل الرحمن"؟ ولماذا نبعد وبين أهلنا في مصراته من يقلب كلّ ضاد زاء أو ظاء والعكس؟!)

وعلى هذا فإنّ "زيوس" أو "زيو" أو "ديوس" أو"ديو" كانت في الأصل العروبي البعيد: "ضيو"، "ضو"، "ضوء"، "ضياء". على أن تقلبات الأحوال بالنسبة لاسم زيوس العظيم - كالتقلبات الجوية - لم تستقر ولا عجب ! أليس هو رب الزوابع والأعاصير والبروق والرعود كما هو رب الضياء؟!

ويحدثنا الأستاذ إيفان بودش Ivan Éudié في بحث له بعنوان (الميثولوجيا الهند - أوربية في العصر البرونزي) عن صيغ اسم زيوس عند الأمم القديمة فيقول :

"إن أكبر آلهة هذه الأمم كان إله النور god of light عرف عند الإغريق باسم زيوس zeus وعند الأليريين (قدماء يوغسلافيا) باسم diepatyros وعند المقدونيين ziu وعند الرومان diespater وعند الجرمان tyr ولدى الهنود Dyaux وسمّاه الأثروسكيون (قدماء إيطاليا قبل اللاتين) باسم tin".

ونستطيع أن نستخلص من هذه المعلومة نتيجتين :

أولاهما : التأكيد على أن زيوس هو "رب الضياء" و"الضياء" هو معنى اسمه.

ثانيتهما : اقتران اسمه بكلمة " أب" عند الأليريين die patyros (دي - باتوروس)، وعند الرومان dies-pater = أبو الضياء

(للتسهيل على القارئ : قارن pater patyros بكلمة father بالإنجليزية أو padre الإيطالية = أب)، ويعلل الأستاذ بودش هذا الأمر

بقوله : "لقد ربط ما بين مفهوم زيوس وبين الضياء، وهذا المفهوم عن الضياء السماوي المقدس وصل بفكرة السلطان، وهذا هو السبب في إلحاق كلمة (أب) ater باسمه، فزيوس هو (رب الأسرة) أو (أبو العائلة) father of the family الذي يرعى البيت وله على أهله السلطة، وهذا الدور خاصية من خواص المجتمع الأبوي patriarchal society الذي عمّ جميع الشعوب الهندية الأوربية. وقد رفع زيوس باعتباره pater familias في المعتقد إلى منزلة أبي القبيلة الأول، ليس بالنسبة للآلهة فقط بل بالنسبة لبني البشر كذلك وهو ما يعبّر عنه في اليونانية بجملة Pater andron te theon te إذ ليس لدى شعوب الهند - أوربية آلهة أمّ، أو أمّ للآلهة mother- goddess على البشر والمعبودات الأخرى" . (ص259) .

هل نكتفي بهذا القدر أم ترانا نحتاج إلى مزيد من التفصيل؟

فلأحك لك طرفة حدثت للأستاذ العالم عبد العزيز بنعبد الله - وأرجو أن لا تناقشي لماذا يصر الأستاذ على كتابة لقبه (بنعبد الله) بدلاً من (بن عبد الله) !! - لقد روى في بحث له عن "وحدة اللغات" بمجلة "اللسان العربي" وهو يؤثل ويرسس (أي يرجع إلى الأصول الأولى) كلمة "نور" العربية التي تقابلها في الفرنسية كلمة Lueur بالتعاقب بين النون في العربية واللام في الفرنسية، ثم كلمة Lumiere أي (ينير) أو (النور) ذاته.. قال :

" وبهذه المناسبة لاحظ عليها أحد المستشرقين الروس أن القاعدة لا تنطبق هنا على المقابل الروسي وهو "زِفْت" svet (تنطق sviet مع تخفيف حرف (V) ، فعقبنا على ذلك بأن لكلمة (نور)مرادفاً، وهو (ضياء) لقول الله تعالي : "هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُوراً" . وإن كانا يختلفان من حيث القوة، ولهذا صار :

ضياء = صياء = صيات = Sviet svet (صي= sie)" .

ويضيف الأستاذ بنعبد الله :

" وقد عاقب (أبدل) العرب الضاد والصاد في مثل : مض الرمانة ومصها، ومناض ومناص، ودحض المذبوح برجله ودحصه إذ حركه، وتضافّ الناس وتصافّوا.. إلخ.. وما زال كثير من الأقطار الإسلامية في آسيا الوسطى تسمى الحوض حوصًا." (اللّسان العربي - 7/1 ص8).

فأنت ترى كيف "نوّر" الله على الأستاذ بنعبد الله و"أضاء" فكره بهذه الملحوظة البالغة الدقة، وتري أيضاً كيف أن الروس يسمون الضوء Svet وترى ثالثاً أن التعبير بالضياء - حسب القرآن الكريم - أقوى من التعبير بالنور. فالأوّل هو ما شعّ من جسم بذاته، والثاني انعكاس له فيما يبدو فليس غريباً إذن أن يكون زيوس ضوءاً بدلاً من أن يكون نوراً. !

في ظنّي أن الأمر بيّن الآن. لكن لا بأس من أن نزيده توضيحًا، إذا أردت، وعليّ في هذه الحالة أن أعود بك إلى أبي التاريخ مرة أخرى ونرى كيف يعالج المسألة العويصة. إنه يقول بجلاء لا يحتمل الجدل وهو يتحدّث عن آلهة الإغريق (المستوردة) إن ديونيسوس (ومعنى اسمه : الرب الأعرج.. هكذا !) مثلاً جاء به الكنعانيون من صور وإن «أسماء الآلهة كلها تقريبًا جاءت إلى اليونان من مصر، وأعلم من بحوثي التي قمت بها أن هذه الآلهة جاءت من الخارج، ويبدو أنها كانت من مصر، فإنّ جميع أسماء الأرباب عرفت في مصر منذ بداية الزمان - باستثناء بوسيدون.. الذي عرفه البلاسجيون من الليبيين».

ويمضي هيرودوت قائلاً "إن البلاسجيين كانوا يعبدون الأرباب ويتقربون إليها دون أن يعرفوا أسماءها التي يدعونها بها.. وبعد زمن جيء بأسماء الأرباب إلى بلاد اليونان من مصر وعرفها البلاسجيون.. وبمضي الزمان أوفدوا إلى هيكل دودونا - أقدم الهياكل ووحيدها آنذاك في اليونان - يستنصحونه عن مدى ملاءمة تبني الأسماء التي جاءت

إلى اليونان من الخارج. فرد الهيكل بأنه من الصواب استعمالها.. وعليه استعمل البلاسجيون من يومها أسماء الآلهة في قرابينهم، ومن البلاسجيون انتقلت الأسماء إلى اليونان."

واضح؟ !

نحن نعلم مما سبق إذن أن هناك ثلاثة مصادر رئيسية أخذ اليونان عنها معبوداتهم وأسماءها وحافظوا على هذه الأسماء، مع التحريف في النطق والكتابة بالطبع، من الكنعانيين في الشام، ومن مصر، ومن ليبيا. وهذه كما تعرف، كانت ولا تزال، كتلة بشرية واحدة بثقافتها وديانتها ولغتها، وهي كانت ولا تزال، مجموعة بشرية عربية بالمعنى الذي اتفقنا عليه.

وعندما يحدد هيرودوت أن الإغريق (أو قدماءهم البلاسجيين) أخذوا أسماء أربابهم من مصر، فإنّ المفهوم أنه يعني أهل ما يسمى الدلتا (والكلمة يونانية تعني حرف الدال Δ وأخذها اليونان عن الكنعانيين : الدالت = د). وكان أهل الدلتا على مدى التاريخ ليبيين في صبغتهم العامّة (كانوا يسمون في المصادر المصرية : التمحو Tmhw والكلمة لا تعني شيئاً سوى : بلد الشمال) أو على الأقل كانت الدلتا منطقة امتزاج وتلاقٍ بين الشعوب "العروبية" من الليبيين في الغرب والمصريين في الجنوب وعرب الجزيرة في الشرق. فهي - على مَر الأزمنة - بوتقة انصهار كبرى تمازجت فيها الشعوب العروبية قديمًا وحديثًا، فكانت بهذا خير ممَثل لامتزاج الحضارات الفرعية في حضارة واحدة كبرى.

وما دمنا وصلنا إلى هذا الحد وبلغنا أرض مصر فما رأيك في إلقاء نظرة على بعض مفردات لغتها القديمة؟ فإذا كنت مغرمًا بالتنقيب في المعاجم العتيقة، مثل بعض الناس، ووقع في يدك صدفة معجم بالهيروغليفية فسوف تقرأ حتمًا هذه الكلمات : دوءت Dwt : صباح،

نور الصباح، ضوء الصباح

دوء DW يصلي، يعبد، يدعو (في الصباح خاصة)، يدعو للضياء.

دوت Dwt: يوقد النار، يشعل، ينير، يضيء.

وما نستفيده من هذه الكلمات الفاخرة الثلاث أنها ومشتقاتها ليست سوى الكلمة العربية "ضوء" بذاتها ومشتقاتها، وأنت تلاحظ أنها جاءت في موطنين، عند انبلاج الصباح وعند إيقاد النار. وقدماء المصريين - حتماً - معذورون في تخصيص الإضاءة والضياء والضوء بهاتين المناسبتين اللتين كانتا مصدر النور الوحيد في تلك العهود المتقادمة، إذ لم تكن الكهرباء ونضائد الإنارة قد اخترعت، أو اكتشفت، يومذاك ! ولا شكّ في أن الصباح وشروق الشمس البهيجة كان المناسبة الدينية الجليلة للعبادة وترتيل الأناشيد في ديانة مركزها الشمس، أصل الحياة وباعثة النور. لعلّ كلمة (ضوء) كانت وحدها كافية للدلالة على الصباح الجديد.

عند اليونان كان اسم زيوس، كما علمت منذ قليل، يعني : المشع - الساطع. (هل نسيت أن أضع "المضيء" !) وبهذا الاسم كان يدعى، وبهذه الصفة كان يعرف، وهو اسم "نقلوه" بنصه ومعناه عن المصريين، أو الكنعانيين، أو الليبيين.. لا فرق.. أعني عن.. العرب.

وما أظنّك، بعد هذا، وأنت الأريب، تحتاج إلى مزيد من الشرح والتفصيل، فلتختصر الخاتمة التي تأتي دائماً، كما يقول أبوليوس في (أزاهيره) مختصرة على هذا النحو :

"زيوس" يعني النور، و"النور" مرداف للضوء أو للضياء . وقد صار كبير أرباب اليونان بعد أن جاءها من مصر أو من شمال إفريقيا أو من الشام. اسمه عربي، وجاء بلاد اليونان من الوطن العربي.

السؤال الأخير :

هل يا تري طابق المقال عنوانه؟!

المراجع

(1) الشهرستاني، محمد عبدالكريم. الملل والنحل - على هامش «الفصل» لابن حزم، طبعة قاسم الرجب، بغداد دون تاريخ.

(2) بنعبد الله، عبدالعزيز؛ الوحدة الأصلية بين اللغات مجلة (اللسان العربي) - المجلد السابع، الجزء الأول - الرباط - يناير 1970م.

3) Graves. Robert; The Greek Myth, Pelican Books, 1980.

4) Griffith. J.; The Origion of Osiris and His Cult, Brill, Lieden, 1980.

5) Herodtus; The Histories. (Tr. A. Burn), Penguin Classics, 1981.

6) Pausanias; Guide to Greece, (Tr. Peter Levi), Penguin Classics. 1979.

7) Pudié, Ivan; Indo-European Muthology, in: Bronze Age Migration in the Aegean, Duckworth, London, 1974.

8) Sergi, G.; The Mediterraen Race. Walter Scott. London, 1901.

عن الديمقراطية.. لفظاً !

ما أظن كلمة أعرف الآن من هذه الكلمة : الديمقراطية، والمعروف - عادةً - لا يعرّف. وقد يجوز التعريف في حال التحليل والتعليل، والمتابعة والاستقصاء، والفحص والتحري، والتأثيل والترسيس.. أعني في حالنا هذه التي ندرسها.

الديمقراطية تعني، وهذا صحيح، الحكم الشعبي، أو إن شئت : حكم الشعب. وتحمل في طياتها مفهومات المساواة والعدالة وانعدام التمييز بين الأفراد بحكم المال أو النسب أوالجاه أو أي حكم من الأحكام التي تفرق الناس طبقات وتشتتهم جماعات مختلفة متناحرة متعارضة المصالح والأهواء. فإذا سألت : من أين جاءت هذه الديمقراطية في أصلها اللغوي البعيد؟ كان الجواب جاهزاً على الشفاه : هي كلمة مستعملة في اللغات الأوربية الحديثة انحدرت إليها من اليونانية.. ديموس = شعب + كراتيا = حكم. فهي إذن "حكم الشعب".

هل هذا صحيح؟ أعني : هل فعلاً انحدرت الديمقراطية - لفظاً لا معنىً - من اليونانية إلى اللغات الأوربية المعاصرة بما هي عليه، كما هي عليه؟ أم أن الأمر بعيد الغور يرجع إلى الزمان السحيق في قدمه.. ويعود إلى العربية وأخواتها من اللغات العروبية الأخرى؟ هل ثمة جذور - ولو لغوية - للديمقراطية في عالم خلا من الديمقراطية؟

أقول لك : نعم. الديمقراطية في أساسها عروبية لاشك. ولا حرج عليك مطلقاً في استعمالها عربيًا.. والفخر بها.. إن أمكن.

والدليل؟ فلننظر إلى الأمر من بدائيته حتى نصل إلى اليقين.. بإذن الله.

هي في الإنجليـزية democracy وفي الفـرنسـيـة democratie ولا تخرج بقية اللغات الأوربية عن هاتين الكلمتين مهما تقلب بها اللسان والزمان. بل هي صارت كلمة عالمية لها صيغة الشمولية في الاستعمال بين أمم الأرض. الأصل - كما هو معروف - مكون من مقطعين : -De mos= الشعب ، الناس. وحرف السين زائد في اليونانية. فالأصل هو : ديمو demo. وهذا المقطع يدخل في تعبيرات متداولة معروفة.. منها مثلاً : الديموغرافيا (ديموغرافي) demography وهو علم قائم بذاته يُعنى بالإحصائيات الحيوية الخاصة بالولادة والموت والزواج لمعرفة أصول المجتمعات، وعرف في العربية باسم (علم السكان) . والأصل الحرفي : ديمو = ناس، شعب، قوم + غرافي graphy (*) = رسم، كتابة، خط . فكأن المقصود هو : رسم خريطة بالإحصائيات عن المجتمع (السكان) = رسم السكان = علم (رسم) السكان = علم السكان.

(*) ليعذرني القارئ حين آخذه إلى هامش عن graphy هذه . إذ نحن نعرفها في كلمة (زخرف) زخرف ، يزخرف ، زخرفة . وقد قرأت مرة إنها تتركب من "زو" Zoo = حيوان (قارن : Zoology = علم الحيوان zoo = حديقة الحيوان) + غرافي graphy = رسم ، نقش . فالزخرفة إذن تعني : "رسم الحيوانات" . والزركشة تعني : الرسم المجرد ، ولكن هذا التحليل غير لازم . فأصل "زخرف" الرباعي جذر ثلاثي هو "زخر" ومعناه الوفرة : زخر الوادي إذا كثر ماؤه وارتفع موجه . ونبت زخور وزخوري وزخاري : نام ريان، و: أخذ النبات زخاريه، أي حقه من النضارة والحسن . وأرض زاخرة : أخذت زخاريها . وفي كل هذا معنى التلون والجمال و(الزخرفة)، ومنه : الزخرف = الزينة . والقرآن الكريم : "حتى إذا أخذت الأرض زخرفها" . وكل ما زوق وزين فهو زخرف ، قال تعالى : "زخرف القول غروراً" - أي : حسن القول بترقيش الكذب . والزخرف : زينة النبات ، والتزخرف : التزين . فإذا رمت أن تعرف أصل graphy اليونانية - اللاتينية فإن جذرها البعيد يعني النقش في الحجر أساساً وهو ما يقابل العربية "جرف" . وقريب من ذلك glyph وتعطي المدلول نفسه الذي يقابل العربية "جلف" أي كشط ونقش - كما يحدث في الكتابة على الحجر أو الخشب ونحوهما.

ومنها : الديموغورغون Demogorgon ، وهو كائن خرافي غامض مخيف عرف في اللاتينية المتأخرة، كما يقول معجم أكسفورد، مكون اسمه من: ديمو+غورغون gorgon. ويقول المعجم نفسه إن هذا المقطع الأخير ربما جاء من أصل شرقي. فإن كان الأمر كذلك فهو لا شك "الغول" وتجمع على : غيلان، أغوال - ونؤنثها : الغولة، فهذه أقرب الكلمات العربية لفظاً ومعنى إلى "الغرغون" - أو "الغرغونة".

ومنها : الديماغوجيا demagogyوالصفة demagogue وتؤدي معنى الزعيم الشعبي والمحرض السياسي الداعي إلى طموح ومصلحة الجماهير masses. والمذهب هو demagogism ويرجع المعجم الأصل إلى اليونانية : ديمو + agogos= زعيم(*).

ودخلت هذه " الديمو" في ألفاظ شائعة أخرى، غير علمية ولا سياسية، فكلمة epidemic التي تعني (الوباء) - أبعد الله عنكم كل

(*) وليعذرني القارئ ثانية في الانتقال إلى هامش آخر عن agagos هذه المرة. إذ ليس من السهل إغفال الصلة القريبة بين agog اليونانية (زعيم) وكلمات عروبية كثيرة تؤدي المعنى نفسه وتدور حول : ملك ، رئيس ، رفيع الشأن . زعيم . ولنضرب أمثلة :

المصرية Gai ، العبرية Ga'a البابلية Gay ، الآرامية Gaiaa التدمرية : 'Ga ، الليبية القديمة : Gyy

وفي اللهجات الحديثة :

النوبية: Gui،الجبالية: Agg ، الهوسا :gu

وهي تدور في فلك (أوج) العربية = القمة ، الرأس = الرئيس = الزعيم . وكذلك (جوّ) = مرتفع ، ارتفاع-رفيع (الشأن) -رئيس = زعيم . ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا اللقب التركي الشهير أغا = agha = Aga (أقا - أغا - Aga) ومعناه : رئيس = زعيم .

هذه المفردات في اللغات واللهجات العروبية قريبة جداً فيما يبدو من agog اليونانية. وبعد إتمامك قراءة هذا المقال - إن فعلت - يمكنك أن تستخلص أن الديماغوجيا demagogy (الأصل اليوناني demos-agagos) عروبية الأصل والفصل. هل نقول : عربية ؟!

سوء - تعني في الأساس : عام، شائع. أي : مرض عام = الوباء. وكلمة endemic وتفسر بأنها : مرض بشري (لا يصيب الحيوان) وطني، مستوطن، أي : ساكن، أو بمعنى آخر : مرض يصيب بعض الناس دون بعض آخر، في موطن ما دون موطن غيره. في الكلمة الأولى ترجع إلى اليونانية : epi = كل، جمع + demos= الناس. (وباء) . وفي الثانية تحلل هكذا : enخاص + demos= الناس = خاصة الناس، بعض الناس [en حرفيًا تعني "قبل" - قبل (بقية) الناس].

مهما يكن الأمر فقد اتّضح أمر " ديمو" فوق وضوحه. إذ هو يعني : الشعب، الناس، البشر، فما هي الكلمة الأخرى المقابلة، أو المساندة، لهذه الكلمات؟

إنها بالطبع : الأوادم ، بنو آدم.. "البنأدمين" كما نقول في لهجتنا الليبية. فما أصلها، وما فصلها، يا تري؟ هل كانت كلمة " ديمو" اليونانية يونانية فعلاً؟ أم أنها استعيرت من غير بلاد اليونان؟

لاحظ أولاً أنه لا عبرة بالحركات في البحث عن جذور الكلمات، وأن حروفاً قد تسقط أو تزاد، خاصة إذا كانت حروفاً ضعيفة كالألف مثلاً . وعلى هذا الأساس فكلمة demo الشهيرة يكون جذرها اللغوي "دم" DM (لاحظ أنها تتحول إلى deme, dema أحيانا كثيرة). وليس هناك ما يمنع مطلقًا من أن يكون الجذر الصحيح هو " أدم " - بفتح الهمزة أو كسرها أو ضمها - ثم سقطت هذه الهمزة وبقي الجذر ثنائيًا وهو في الأصل ثلاثي.

قد يقال إن هذا مجرد تخمين، ولكن التخمين يكون حين يستعصي الدليل القاطع. ونحن نملكه.. بحمد الله ! فلنلق نظرة معاً على ما تقوله بعض معاجم اللغات العروبية في الأمر ثم نناقشه.. إن شئت :

1 - يقارن الأستاذ مارسيل كوهن بين الألفاظ الدالة على الناس، والبشر، ويشير إلى الصلات بينها وبين مرادفات كلمة "الجلد" بمدلوله

المعروف.. فنقرأ:

رقم (15) العربية : أدم = جلد = أنم (الأنام = المخلوقات= الخلق).

المصرية : ي ن م YnM= جلد.

اللهجة الجبالية : إ ل م ilem, elemجلد

اللهجة الصومالية والكوشية : إدم idm= جلد المعز المدبوغ

ثم يضيف : العربية والعبرية : أدم = أحمر (اللون).

2- في معجم غوردون عن نقوش رأس الشمرة الكنعانية :

رقم (61) أدم adm = الناس، الجنس البشري mankind,people .

ويدعى الإله (إل) : أبو البشر Father of mankind- ab. adm

رقم (60) ء دم 'dm يحمّر نفسه، الفعل : "ي دم" yadm.

3- في النقوش السبئية يترجم " جام " الجذر : ءدم 'dm إلى : خدم servants وعبّاد worshippers (ص426).

4- في معجم فريحة (ص 596) :

أدم : (فعل) حمّر. صبغ بالحناء. (صفة) : أحمر. الناس، البشر.

5- في (لسان العرب) لابن منظور :

"الأديم : الجلد ما كان. وقيل : الأحمر. وقيل : المدبوغ.

أديم كل شيء : ظاهر جلده

أدمة الأرض : وجهها، وربما سمي أديماً

رجل مؤدم مبشر : حاذق مجرب وقد جمع لينا وشدة مع المعرفة بالأمور، وأصله من " أديمة الجلد وبشرته ".

الأدمة : السمرة.

الآدم من الناس : الأسمر " .

ويضيف ابن منظور :

"واختلف في اشتقاق اسم آدم، فقال بعضهم : سمي آدم لأنه خُلق من أدمة الأرض. وقال بعضهم : لأدمة جعلها الله تعالى فيه.

وقال الجوهري : آدم أصله بهمزتين لأنه أفعل، إلا أنهم لينوا الثانية ، فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واواً وقلت (أوادم) في الجمع . .

وقال الزجاج : يقول أهل اللغة إن اشتقاق آدم لأنه خلق من تراب وكذا الأدمة إنما هي مشبهة بلون التراب ، وقوله :

سادوا الملوك فأصبحوا في آدم بلغوا بها غر الوجوه نحولا

جعل آدم اسماً للقبيلة لأنه قال (بلغوا بها) . . وقوله :

الناس أضياف وشتّي في الشيم وكلهمْ يجمعهمْ بيت الأدم

قيل : أراد آدم، وقيل : أراد الأرض" إلى آخره، وقد فصل (اللسان) وبيَن في هذا الباب فلينظر.

والذي يهمنا هنا أمران : الأدم بمعنى (الجلد) والأدم في (اللون) .

ونود أن نتتبع كلا منهما بإيجاز.

أدم (1) :

العربية : أديم = جلد - آدم - أوادم، خلق.

المصرية : أ ن م = جلد - العربية : أنام = مخلوقات / خلق.

الأنمة : الجلد المدبوغ

والصومالية والكوشية : إدم = جلد (/ خلق؟)

الكنعانية : أدم = (جلد ؟) - الجنس البشري / خلق.

السبئية : ء دم = عباد = خدّام -(خدم / أدم) / خلق.

تقابلنا هنا كلمتا elem و ilem التي يذكرها كوهن في اللهجة الجبالية ولهجة السوس الأقصى ومعناها ، كما يقول، جلد. نحن نرجعها إلى الجذر (ع ل م) - عالَم - عالَمون = مخلوقات / خلق (الحمد لله رب العالمين) .

ويؤيد قولنا هذا ورود كلمة " ليم" lim في نصوص رأس الشمرة الكنعانية بمعنى "البشر - الناس" كما أوردها غوردون (رقم 61) ومن الواضح سقوط العين في الكلمة الكنعانية، تماماً كما تحولت في الجبالية

إلى همزة e– و i والأصل " عالم " العربية.

هل لاحظت أن جذر "آدم" يعني "الجلد" كما يؤدي في ذات الوقت إلى معنى "الخلق"؟

إن لم تكف هذه فما القول في "بشرة" الجلد؟ إنها تؤدي إلى "البشر" ويجمع الاثنين، المثل : رجل "مؤدم مبشر" أي مجرب فيه لين وشدة، فكأن "الأديم" هو خشن الجلدة و"البشرة" رقيقها.

ويضيف ابن منظور : إن في الرجل : "مسكة" من "قوة" ونحب أن ننبه القارئ إلى أن "المسك" (*) بفتح الميم يعني بالضبط : "الجلد" - أعني جلد الحيوان خاصة، ومهما قلبت "م س ك" على وجوهه التي لا تكاد تحصى وجدت فيه معنى الصلابة والقوة والشدة، فما الرأي في كلمة "الجلد" بفتح الجيم؟ إن معناها : القوة ومنها : الجليد، والجلاد، والمجالدة– أي المقاتلة والمصارعة. ومنها نرى ارتباط الألفاظ بعضها ببعض يجر كل منها الآخر ويتشعب ويتفرع حتى يكاد يفقد أصله الأصيل.

أدم (2) :

في اللغات العروبية يؤدي الجذر "أدم" إلى معنى الحمرة في اللون عموماً، ومن هنا جاءت كلمة "الدم"ـ السائل المعروف في جسم الكائنات الحية ـ كما جاءت "الدمام" وهو الطلاء بأي لون كان، وخصص للمرأة المتزوقة المتزينة. ويحدث أحياناً كثيرة ألا يؤدي "الدمام" إلى الحسن والبهاء - كما هو المطلوب - بل ينقلب إلى "دمامة" وهي القبح.. والعياذ بالله !

من الجذر "أدم" برزت كلمات مثل : الإدام - وهو الطبيخ أو المرق أو

(*) قال الشاعر :

فاقني لعلك أن تحظي وتحتبلي   في سحبل من مسوك الضأن منجوب

وقال آخر :

فيوما ترانا في مسوك جيادنا   ويوما ترانا في مسوك الثعالب

ويجمع المسك على : " مسوك " و" مسك" - بضم الميم.

ما يصاحب الخبز مما "يؤتدم" به. وربما يسمّي كذلك للونه الأحمر أو الأسمر أو حتى الأسود، فإن من معاني "أدم" في العربية إلى جانب الحمرة نجد : السمرة، والسواد.. بل والبياض ! ولكن معنى الحمرة والسمرة هو الغالب على كل حال. (راجع لمزيد من التفصيلات : لسان العرب - مادة : أدم)، وهذا ما يوافق الكنعانية (أدم : صبغ بالحناء - حمر) في القديم، ويتفق مع الصومالية والكوشية (الهاوسا) في الحديث (إدم: جلد الماعز المدبوغ). ومن العجيب فعلاً أن تجمع الصومالية والكوشية بين اسم الجلد (أدم) والصباغة (أدم) في كلمة واحدة.. وبذا قرنت المعنيين ولم تفرق.

ولو تتبعنا دقائق الموضوع ما انتهينا إلى غاية. وليس المهم تحديد نشأة اسم "آدم" ومرجعه. فقد يكون أي رأي ذكره ابن منظور في اشتقاقه قابلاً للقبول أو الرفض. لعله من الأديم (التراب) أو الأدمة (السمرة) أو من الدم - بميم غير مشددة تمييزاً له عن الدم - بميم مشدّدة بمعنى الطّلاء - أعني سائل الحياة المعروف في الجسد. وقد يكون العكس، أي أن هذه كلّها - وتوابعها - جاءت من "آدم" أو "أدم" نسبة إليه.

ولا يمكن ، بالطبع ، أن ندع آدم وشأنه دون الإشارة إلى كلمتين مهمتين ، أولاهما في اللغة الكنعانية وهي "أُدم" udm التي يقول غوردون (رقم 63) إن معناها : مكان - موقع place والثانية في اللغة الأكادية وهي "دَدْمُو" dadmu ويترجمها رايمشنايدر : مسكن dwell-ing (لاحظ أن : مسكن "مشتقة من "سكن" ، وانظر : ساكن / سكان) وعلي هذا فإن من المرجح أن تعني udm الكنعانية " مسكن" هي الأخرى كما هو الحال في dadmu الأكادية .

يؤيد هذا القول ما نجده في المصرية ، والتي لا يمكن أن يدعي اليونان أنها أخذت عن لغتهم لقدمها السحيق وهي اللغة الثابتة عروبيتها . في المصرية نجد :

د م ي dmi : مدينة ، بلدة ، حي سكاني ، مسكن ، جوار .

د م ي و dmiw : مواطنون fellow-citizens

(Fanlkner,a Concise Dict. of Middle Egyptian, p .313)

وهذا دليل قاطع لا يقبل النقض على أصالة الجذر "دم" بمعنى "أناس، شعب ، مواطنين" في العربية وأخواتها الكنعانية والأكادية والمصرية ، وهو ما يعيدنا إلى "علم السكان" (ديموغرافيا Demography) من جديد ،ويثبت يقيننا بعربية المصطلح في الأصل من حيث اللغة في جذورها الأصلية.

خلاصة :

يتضح من كل ما سبق أن كلمة ديمو demo (أو ديموس demos) اليونانية عروبية الأصل بمعنى : البشر ، الناس ، الشعب ، (بني)آدم ، الآدميين ، الأوادم ، وأنت تعرف أن الحضارة اليونانية برزت بعد الحضارات العروبية، من مصرية وكنعانية وأكادية ، بمئات السنين ، ومن المعقول - بل المحقق - أن يأخذ المتأخر عن المتقدم ، فإذا أضفت إلى هذا أن هذه اللفظة - في صورها المختلفة -ظلت سارية في عربيتنا الحديثة واللغات اللصيقة بها، من صومالية ، وكوشية ، وجبالية وغيرها ، ثبت بالدليل القاطع أن المقطع الأول من كلمة (ديموقراطية) عروبي لا جدال فيه .

فماذا عن المقطع الثاني (كراتيا) وهل يذهب مذهب أخيه ؟

دعنا ننظر في أمره هو الآخر ونتبين السبيل

من النقوش المعروفة جداً في ميدان الدراسات اللغوية القديمة ما يسمّى نقوش "رأس الشمرة" وهو موقع في سوريا - ويعرف أيضاً باسم أوغاريت(*) وتنسب إليها الألواح الأوغاريتية المكتشفة فيها مكتوبة

(*) Ugarit : وهذا ما اشتهرت به : أما الأصل فهو : قرية / القرية ! قارن في هذا المجال اسم (المدينة) المنورة، و(مصر) و(أم القرى) . ويمكنك بالطبع أن تضيف (قرته) cirta في الجزائر وكذلك (قرطاجة) في تونس . وحتى (القريات) في ليبيا ، كلها تعود إلى (القرية) - (المدينة) -(المصر) .

بالخط المسماري ولكن لغتها كنعانية (الفينيقية الأولى إن شئت) ترجع إلى أواسط الألف الثانية قبل الميلاد . من هذه النقوش جمعت ملحمة شهيرة تسمى "أسطورة كرت" . ولست أدري كيف نطقت الكلمة الأخيرة (كرت) - إذ إن الأصل مجرد حروف ساكنة دون حركات تبين عن طريقة نطقها هكذا : (ك ر ت) KRT. وهي تدور حول بطل - حاكم مدينة صيدا - كان هذا اسمه وتتحدث عن مغامراته، إلى جانب عرض عبادات الكنعانيين وطقوسهم وملامح من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية السياسية في ذلك العهد البعيد .

ما يهمنا هنا هو اسم بطل الأسطورة "ك ر ت" . وقد قضى الباحثون زمناً يكتبونه بحروفه الساكنة دون حركات . وكان أول من حرك الكلمة ، وهو العالم الفرنسي فيرولو بأن كتبها " كرت" kert- تخميناً فيما يبدو ودون دليل على صحة النطق ، بل من باب التسهيل والتيسير. وجاء الدكتور أنيس فريحة (ملامح وأساطير - ص 74) فآثر أن يلفظ الاسم "كارت" بصيغة اسم الفاعل ، وإن جوّز أن يكون "كاروت" بصيغة اسم المفعول . ويرى الدكتور فريحة أن الفعل "كَرَتَ" يعني "قَطَعَ" فتكون "كاروت" بمعنى المقطوع .. من النسل . وهذا بعيد، ففضل "كارت" أي : قاطع .. أي "السيف" - والله أعلم - كما قال .

للأستاذ غوردون (رقم 36 . 1) رأي آخر في معنى اسم kRT "كرت" وهو بطل الأسطورة "ومن الممكن استنتاج معنى(سيد - مولى lord) منه. فقد وردت كلمة (ك ر ت ن)=كرتنا(كرت + نا) أي : سيدنا our lord" .

نحن هنا إذن بين رأيين ، على الأقل في ما هو متوفر لدينا من مراجع فقد تكون هناك آراء أخرى ، يقول أحدهما بأن معناه : القاطع = السيف . ويقول الآخر : معناه : السيد . فإذا نظرنا في المعاجم العربية المعتمدة إلى مادة " كرت" وجدنا ما يلي :

الفيروزاباذي (القاموس المحيط) : سنة كريت : تامة . وتكريت - بفتح أوله : سميت بتكريت بنت وائل . انتهى .

في (لسان العرب) لابن منظور لا يرد الجذر الثلاثي " كرت" . ولكن المدهش أن يأتي رباعيًا جملة مرات ، أعني كرت + حرف .. هكذا :

كرتب : تكرتب فلان علينا : تغلّب

كرتح : كرتحه : صرعه .

كرتع : كرتعه : صرعه .

كرتم : الكرتيم : الفأس العظيمة لها رأس واحد(*) .

فإذا كان الجذر الثلاثي "كرت" غائباً باعتباره متميزاً فهو حاضر داخل في ألفاظ أخرى . فكلمة "كريت" التي تفيد عند الفيروزاباذي : التام (بالتحديد : السنة التامة) تأتي على وزن " فعيل" ، وهذا ما يجوّز للدكتور فريحة تحريك اسم البطل إلى "كارت" بصيغة "فاعل" . ويدل في نفس الوقت على معنى التمام والكمال - صفة الأبطال والفرسان والحكام في الزمان القديم .

عند ابن منظور نجد في " كرت" بعد إضافة بعض الحروف إليها معنى : الغلبة والتغلب . وهذه صفة البطل أيضاً . وتأتي الكلمة الرابعة في قائمته "كرتيم" لتحدد معنى آخر قريباً في الذهن من معنى الصراع والغلبة ، بل أداتهما القوية : الفأس العظيمة . وقد تطلق على السيف ، أو أية آلة من آلات القتال . وهذا ما يجعلها لا تبعد عن صويحباتها من "الكرتيات" الأخرى على كل حال .(يحسن التنبيه هنا إلى اشتقاق الفعل من الاسم والعكس ، فمن كلمة "سيف" مثلاً جاءت : سيّف =

(*) في المصرية (ويا للعجب !) : ك ر د ن KRDN= فأس axe (معجم فولكنر ، ص 281) ولا تنس أن الجذر " قرد" في العربية يعني" قطع" . (راجع مقالة "أماله وما إليها" في هذه المجموعة لمزيد من التفصيل) .

قطَع بالسيف، والمسايفة = المجالدة، وريح مسيافة = تقطع كالسيف = ريح قاطعة) .

إن نحن عدنا إلى الأستاذ غوردون واستنتاجه أن "ك ر ت" تفيد معنى lord في الإنجليزية فإن المعنى العربي للكلمة الإنجليزية قد يفيدنا.

هي في الواقع معانٍ وليست معنى واحداً : سيد، مولى، رب، ملك. وفي الفعل : تجبّر، تعظم، تسلّط. وتأتي بمعنى : إقطاعي، مُقْطَع (لاحظ الجذر : قطع) . وقد تنصرف إلى معنى : مستبد، طاغية - هذا في المجتمعات غير الديمقراطية .. بالطبع ! ألا يحسن أن نضيف كلمة "حاكم" هنا حتى تتضح الصورة أكثر مما هي واضحة ؟

ما الذي نفهمه مما عرِض ؟

نفهم أن "كرت" تفيد في الجملة : التمام، الغلبة، القطع، الحكم. (ملاحظة مهمة : لا تنس أن ألقاب الحكام مشتقة من أفعال تفيد الغلبة : يقبض (سبأ) = قَبَضَ، نشأ (حمير) = رفيع، باتوس (ليبيا القديمة) = بَطَشَ. أمير = أَمَرَ. سلطان = سَلَطَ (تسلّط). وهكذا إلى آخره)، وبهذا تعني " كرت" : حكم. كارت = حاكم. والكرت = الحكم، وهذا ما يجعلنا نعود إلى الأستاذين فريحة وغوردون، فنقرأ الكلمة التي أوردها الأخير ك ر ت ن = KRTn = our lord على أساس :

كارِتُنا = حاكِمُنا .

بذا تكون "كراتيا" اليونانية هي "الكرت" العروبية أي : الحكم.

بعد هذا كله لا بد أن نشير، إشارة عابرة، إلى بعض مفردات أخرى قريبة الصلة بموضوعنا تثير الاهتمام في بعض اللغات العروبية القديمة. ولعلها ذات علاقة باسم "كرت" هذا وبمعناه .

في الأكادية (معجم رايمشنايدر - ص14) نجد كلمة : كَرُّو (م) Karru-m بمعنى : حملة - تجريدة campaign . وهي ذاتها (الكرة) العربية : الكر والفر / مكر مفر مقبل مدبر معاً . الكر = الهجوم .

الفر = العودة / الفرار .

في السبئية (جام - ص426) هناك : ق ر ن / ك ر ن QRn بمعنى يهاجم - هجوم attack

في العربية : "القرن" هو السيد . قرن القوم = سيدهم .

في الأكادية (رايمشنايدر - ص24) : قرّادم / كرّادم Qarradu (m) (الأصل : كرِدو = كرد) تعني : بطل hero، وليس بعيداً صلة "كرد" الأكادية بـ "كرت" الكنعانية . (لاحظ أن اللفظة الإنجليزية hero وترجمت "بطل" ليست شيئاً سوى herr الألمانية = سيد ، وهي ذاتها ur الهنغارية = سيد . وهي ذاتها ور wr المصرية / العروبية = الورى ، الورش ، الورشان ، الواري = سيد عظيم . hero إذن تعني : سيد - حاكم) . وهذه الكلمة الأكادية قد تقابل : "الكارّ" أو "الكرّار" العربية = المقدام ، المهاجم .

في الكنعانية (فريحة - ص655) : ق ر ت (لعل الكاف في "كرت" قلبت قافاً) الشرف والمجد ، الوقار ، الأصل البعيد : ي ق ر= ثقل (قارن : وقر - العربية. YQR المصرية = الحمل الثقيل ، ذو الوزن, الوقور . الموقر . عظيم القوم . سيدهم) .

وليست الغاية تتبع الألفاظ ومشتقاتها فهذا بحث طويل جداً وإنما هي إشارة مختصرة تبين عن صلة من الصلات بالأمر الذي نعالجه الآن .

خاتمــــة :

خلاصة الحديث أن " الديمقراطية " demokratia مكونة لفظاً من مقطعين : ديمو + كراتيا [الشعب أو الناس + حكم = الأوادم + الكرت DM+KRT (A)] . وهما كلمتان عروبيتان كما اتضح .

ولسنا نزعم أن هذا التعبير المركب ذاته استعمل بالمعنى المعروف لدينا الآن ، ولكن لا يمتنع أنه في مقطعيه غير يوناني النشأة والأصل ، بحكم أسبقية الشعوب العروبية في الحضارة والوجود المدني على

اليونان . أولم يأخذ هؤلاء عن العروبيين ، وبني كنعان بصفة خاصة ، الكثير من مكونات الحضارة .. كالمعبودات والصناعات والحرف بل والحَرف بمعنى الكتابة ؟ وهل قصة قدموس الكنعاني بعيدة عن الأذهان ؟ هل أرباب اليونان وأساطيرهم سوى صدى لآلهة العروبيين وقصص بطولاتهم ؟ كما ذهب قدموس الكنعاني إلى بلاد اليونان لينشئ مدينة طيبة (في اليونانية) Thebes ويعلم أهلها فنّ الكتابة ، أليس من الجائز أن يكون "كرت" بطل نقوش أوغاريت قد أطلق اسمه على جزيرة "كريت" ؟ إن لنا مثلاً عربيًا في مدينة " تكريت" العراقية التي يقول الفيروزابادي إنها سميت باسم السادة والسيدات على المدن والمواقع ، بنغازي مثلا كان اسمها برنيكي (برنيق) وهو اسم زوجة بطليموس الثالث - ولهذا قصة طويلة عجيبة . وطلميثة سميت باسم بطليموس Ptolemais وجزيرة ساردينيا سميت باسم فاتحها الليبي (ساردوس) كما يقول الجغرافي اليوناني (باوسانياس) ، وهناك الإسكندرية - نسبة إلى الإسكندر المقدوني ..و آلاف المدن والأماكن لا تحصى ، لكن هذا حديث يجرنا بعيداً عمَا نحن فيه فلنعد إلى .. الديمقراطية ثانية .

مشكلة قد تثار في تركيب Demokratia اليوناني ومقابلها العربي "حكم الشعب" ، نلاحظ أن الترجمة الحرفية هي "الشعب demo حكم Kratia" وهذه طبيعة تركيب المضاف والمضاف إليه في اللغات الهند - أوربية إذ يسبق المضاف إليه المضاف (قارن الإنجليزية : door- key مفتاح الباب / Sunflower زهرة الشمس / عباد الشمس / Tea cup كوب شاي .. إلخ) فالترجمة الحرفية لـ demokratia هي : الشعب حُكم (= الشعب يحكم؟) إذ يسبق المضاف في العربية المضاف إليه دائماً - وهذا الأخير يجب أن يكون مجروراً أبداً ، بالكسرة الظاهرة في آخره أو تقديراً أو بناء على الكسر .

حالة واحدة صادفتني يشبه فيها حال المضاف والمضاف إليه في

العربية حالهما في الهند - أوربية ، ولا بأس من إيرادها لارتباطها بالموضوع .. وللفائدة .

قال الهمذاني في كتابه (الإكليل) عند حديثه عن أفريقس (أفريقش) فاتح إفريقيا في قديم الزمان وباسمه سميت القارة عند بعض المؤرخين العرب ، إن هذا الاسم ليس مفرداً ، بل هو مكون من مقطعين . ذلك - يقول الهمذاني - لأنه لا يوجد عند العرب اسم سداسي قط . وعلى هذا ، يقول أيضاً ، فأصل أفريقس من كلمتين : أفري + قيس. ولا يضيف الهمذاني شيئًا آخر ويمكننا أن نضيف : "أفري" هي عينها قبائل Afri المعروفة عند مؤرخي اللاتين وكانت تسكن شمال القارة وعندهم أن اسم القارة مشتق منها ، و" قيس" اسم عربي صريح تحول بالدمج إلى "قس" أو "قش" حسب مختلف الروايات . فإذا كان المفهوم هو "قيس (قبيلة) أفري" = "قيس - أفري " = "قس - أفري " فإن من الغريب أن يسبق المضاف إليه المضاف فتصبح "أفري - قيس" أو "أفريقس" اللهم إلاّ إذا قلنا إن التركيب أخذ عن اللاتين ، فكان بهذا الشكل ، أو إن القبيلة " أفري " هي المضافة إلى "قيس" فكانت "أفري - قيس" . وهذا مجرد تخريج لا دليل لديّ عليه سوى النظر ، والله أدرى بما كان !

هل رأيت إلى أين مضينا؟ ولنرجع ثالثة إلى .. الديمقراطية فنقول : "الديمقراطية " تعبير عروبي لفظاً كما هو ثابت بالدليل . أما غير ذلك فأمر آخر مختلف تمام الاختلاف !!

المراجع

(1) ابن منظور؛ «لسان العرب».

(2) فريحة، أنيس؛ ملامح وأساطير من أوغاريت. الجامعة الأمريكية - بيروت 1966.

(3) الفيروزاباذي؛ القاموس المحيط.

4) Cohen, M. Essai Comparatif.. Paris, 1947.

5) Faulkner, R.a Concise Dictionary of Middle Egyptian, Griffith Institue. Oxford, 1980.

6) Jamme, A.Sabaean Inscriptions, Baltimore, 1962. Oxford Dictionary, 5th. edition.

7) Gordon, C.H.; Ugaritic Handbook, Rome, 1978.

8) Riemschneider; Akkadian Grammar, Wiscounsin, 1978.

ديدش .. حب الرمّان
لغة الطفولة في ليبيا - دراسة مقارنة

" ولما أن كبرتُ بحمـد ربّي   وصار لمنتهى عقلي ابتداءُ
بقيتُ أقول: ننّو توتو، تاتا   ودحّو، كخّ، وامبو، ممّ، آءُ!"

ابن سودون (نزهة النفوس)

من المؤكد أنك مررت بها.. تلك المرحلة المبكرة من طفولتك السعيدة، يوم كانت لك لغتك الخاصة، يخاطبك بها أهلك ويضحكون منك - أو عليك - حين تردد مقاطعها القصيرة على شفتيك الطريتين وأنت لا تزال تحبو أو تتعثر خطواتك في بداية المشوار الطويل من عمرك المديد.. إن شاء الله!

في تلك الأيام الحلوة كانت لك لغتك إذن. لغة متكاملة تقوم بمطالبك وتلبّي حاجاتك. لغة سهلة النطق، واضحة الدلالة، رغم كونها محدودة معجم الألفاظ قد لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة بضع مرات. فإن كنت ذا ولد الآن (بارك الله لك فيهم) أو تعامل أطفالاً من أهلك أو جيرانك أو أحبابك، فلا ريب في أنك تستعمل هذه اللغة اليوم لكي تتمكن من الاتصال بهذه المخلوقات الصغيرة الملائكية (الشيطانية أحيانًا) التي نسميها "الأطفال".. أكبادنا التي تمشي على الأرض.

"لغة الطفولة" - ولنتفق على هذه التسمية تمييزاً لها عن "طفولة اللغة" - على سهولة نطقها ووضوح رمزها في حقيقتها معقدة التركيب، متعددة العناصر، تاريخيًا ولفظيًا وصوتيًا، ولكل مقطع منها دلالته اللغوية والسلالية أيضًا. وهي ظاهرة لا تختص بزمان ولا مكان، في الصين كما في جزر الرأس الأخضر، وفي النرويج كما في ليبيا،

وفي كل ركن من أركان المعمورة على مر العصور ومختلف الأجناس والبيئات. وقد خضعت لدراسات لا تحصى من علماء الصوتيات واللغويات وعلم النفس والسلالات البشرية وعلم البيئة، ورسمت لها آلاف الجداول المقارنة، وأدخلت مقاطعها باطن الأدمغة الآلية برموز وإشارات، بغية تحديد العلاقة بينها ومعرفة الصلة القريبة أو البعيدة في مخارج ألفاظها ونطق حروفها. ذلك لأنّ الإحاطة بلغة الطفولة هذه مفتاح مهم جداً من مفاتيح إدراك العلاقات البشرية من جهة ومعرفة سر هذا "السر الرباني" الذي تميز به الإنسان.. أعني "النطق" في مجمل مدلوله الحسي والمعنوي - الكلام والعقل.[1]

في هذه الدراسة، إذا سمحت، نود التعرض للغة الطفولة في ليبيا ومقارنتها بغيرها من لغات الطفولة في المنطقة المحيطة أولاً، ثم مع "لغة الكبار"، ثانياً، واللغات القديمة ثالثًا، بعدها يمكننا أن نستخلص النتائج التي نصل إليها.

لكن قبل البدء لابد من التفرقة بين "لغتين" للطفولة وليست لغة واحدة، وهي تفرقة ضرورية لمعرفة القصد من هذه الدراسة :

1- هناك ما يمكن تسميته "لغة الطفولة المشتركة". وهي الألفاظ والكلمات، أو المقاطع، التي نستعملها تلقائيًا في مخاطبتنا للطفل

---

(1) نشرت في الغرب مئات المقالات والبحوث والكتب وعقدت عشرات المؤتمرات لمناقشة هذا الموضوع، وخصص كبار علماء اللغويات أعوامًا طويلة لمتابعته، وكان من أشهرهم رومان جاكوبسون في الولايات المتحدة ومارسيل كوهن في فرنسا. ويمكن للقارئ الحصول على مزيد من التفصيلات بالرجوع إلى مقالة : Werner F.Leopold

بعنوان: Roman jakobson and the study of child Language

في مجلد : For Roman jakobson

نشر: Mouton and co. The Hague,1956

الصفحات: 288-285

حتّى قبل أن يشرع هو في محاولة التقليد ونطق الكلمات التي يسمعها من الكبار. هذه هي "لغة طفولة الأم" - تتردد مفرداتها تقليداً، دون اختراع، من جيل إلى جيل على مدى الأزمنة بشكل محافظ يدعو إلى الاهتمام والمتابعة، وهي - كما يرى الباحث تشارلز فرغسون - لغة اصطلاحية ثابتة نسبيًّا تكون جزءاً من أية لغة في العالم وتنتقل مفرداتها من لغة إلى أخرى بوسائط طبيعية كأي جزء آخر من اللغة ذاتها، دون أن يكون لها جذر أصلي في اللغة الناقلة مما يعني استعارة لغوية اجتماعية تاريخية نتيجة ظروف معينة معروفة[2]. لكن أهم خصائص "لغة الطفولة" هذه أنها لغة تاريخية، أي أن من الثابت استعمال ألفاظها بالدليل القاطع بصورة ثابتة مستمرة. وفي العربية، مثلاً، نجد أن المفردات الطفولية التي نستعملها اليوم هي نفسها التي سجلت في بداية القرن التاسع عشر[3]. ويذكر اللغوي الروماني المعروف فارو varro (116-72 ق.م) بعض كلمات "لغة الطفولة" عند اللاتين، وبعضها هي الألفاظ نفسها المستعملة اليوم[4].

2- هناك ما يمكن تسميته " لغة الطفولة الخاصة " أو " لغة الأطفال " - وهي تأتي في مرحلة تالية بعد اجتياز المرحلة السابقة، وتكون في أغلبها تحريفاً متعمداً للغة الكبار، بل وقلبًا وإبدالاً مقصوداً للحروف،

---

(2) Ferguson ; baby talk,p.104

(3) سجل ميخائيل صباغ أربع كلمات مستعملة في الشام سنة 1812 م. هي : بح (لا يوجد) / دح (لطيف) / أح (حار) / نكغ (لملاعبة الطفل)، وقد نشرها K.J.Trubner† سنة 1884 م.
Grammatic der arabischen umgangss. prache im syrien und Aegypten.

(4) من هذه الكلمات : بوا bua (يشرب) / بابا papa (طعام) / نااينيا naenia (نوم) Ferguson. baby Talk, p.140 وانظر للمقارنة : W.Heraeus' Die Sprache der romishen; Kinderstube,Heidelberg,1937pp.158-180

يقلدها الطفل ذاته حين تأتي منّا نحن المفروض أننا كبار - في السن على الأقل - حتى يستقيم لسان الطفل وتنمو قدراته اللغوية فيترك استعمال هذه اللغة المحرفة ويبدأ في دخول عالم الكبار الرهيب.

في اللغة الأولى نستعمل كلمات مثل : مبو / بحة / همه / ششي.. إلخ..

وفي اللغة الثانية نسمع عبارات مثل :

هاتي جله هي = هات الجرة هيا

حملاه = الحمد لله.

سملك = (اللّه) يسلمك.

تيني كوله = أعطني الكرة.

تعا حمّد = تعال يا محمد.

نمشو نعّبو = نمشي نلعب

وتصبح أسماء فاطمة (فافه) / حليمة (ميمه) / مصطفى (فُفا) / محمود (مود) / سليمان (سمان) - وهكذا. وهي مرحلة لغة كبار محرفة عمداً، تعود التحريفات فيها إلى عدم نضج قدرات الطفل اللغوية، من حيث الأداة الخاصة في الحلق واللسان، وفي عدم استقرار التركيبات اللغوية في الدماغ بعد.

وهذه اللغة الثانية لها أيضاً ظواهرها المتمثلة في تحريف الكلمة لتسهيل النطق على الطفل في جميع اللغات. ولنأخذ الإنجليزية مثلاً، إذ تتحول فيها كلمة Stomach (بطن) إلى Tummy وRabbit (أرنب) إلى Wabit، وdrink (يشرب) إلى dink إلخ.. .Baby Talk) P. 195,197) وهو الشيء نفسه الذي لاحظناه في العربية، وفي العامية الليبية.

ومن الملاحظ هنا أن الكبار غالباً ما يقلبون الأوضاع بالنسبة للتذكير والتأنيث في خطابهم للأطفال في هذه المرحلة، المذكر يصبح مؤنثاً

والعكس. نسمعهم مثلاً يخاطبون الطفل الذكر: "إنت يا حلوة!" "إلبسي - إبسي" - "إنتِ سكر" ويخاطبون الطفلة الأنثي: "إنتَ جيعان؟" - "تعال يا سمح"! وقد لاحظ فرغسون هذه الظاهرة في بلاد الشام أيضاً (Baby Talk p.109).

فلنعد إلى اللغة الأولى.. "لغة الطفولة المشتركة" وهي كما سبق القول لغة تقليدية متوارثة استعملها- بالتأكيد - جد جدك الأكبر كما سوف يستعملها إن شاء الله حفيد حفيدك الأصغر. والسؤال المهم هنا:

لماذا "نتوارث" ألفاظ هذه اللغة على مر الأجيال وما هي دلالاتها اللغوية والسلالية؟ وما هي أصولها الأولى؟ والسؤال الأهم: هل "لغة الطفولة" هذه هي فعلاً لغة طفولة؟ فإذا أخذنا السؤال من آخره كان الجواب: لغة الطفولة في الواقع لغة كبار طُفِّلت. بل هي في مجملها لغة قديمة جداً ترجع إلى آلاف السنين استعملت في هذه المنطقة من الخليج إلى المحيط - كما يقال - فهي في الحق لغة واحدة، أو لغة موحَّدة أولعلها لغة موحِّدة، بل إنها "اللغة العربية الأولى".. أعني بالتحديد "طفولة اللغة" العربية الأولى. ونحن نتوارث هذه اللغة لأنها - ببساطة - هي لغتنا الأولى، أم اللغة، أو لغة الأم، وأصولها ترجع إلى أعماق التاريخ. ولها دلالاتها السلالية المشيرة، بكل جلاء، إلى وحدة الوطن العربي منذ آلاف السنين. لكن هذه التقديرات كلها تحتاج إلى دليل، وهذا ما ننوي عمله الآن.

في دراسة مقارنة لطيفة للدكتور ج. باينون أحد أساتذة جامعة لندن تعرض الباحث لهذا الموضوع من الناحية الصوتية Phonetic بصفة خاصة وعقد مقارنات لألفاظ لغة الطفولة في بعض قبائل المغرب وجبال الأطلس بالجزائر. وقد استفاد مما أورده سابقوه من مفردات هذه اللغة من الفرنسيين خاصة، لاهتمامهم ببحث لغات شعوب وقبائل الشمال

الإفريقي، وعمد إلى بعض المقارنات ومحاولة تتبع جذور الكلمات. وعلى أساس انتشارها الواسع في شمال إفريقيا وبقية أرجاء الوطن العربي، وعدم خضوع عدد وفير منها للاشتقاق من لغة الكبار، قرر أن لا بد من الاعتراف بأن هذه المفردات قديمة عاشت (ص 137) وهي بقايا لغة، أو لغات، عتيقة جداً (ص141). لكنه أخفق في إعادتها إلى اللغة العربية، سوى بعض الكلمات أوعزها إلى التأثير العربي بعد الفتح(!)، وهو - مثل كثير من المستشرقين - يصرف النظر عادة عن الصلة المتينة بين العربية والليبية (يسمونها البربرية) بل يحاول العودة بالليبية إلى اللغات الحامية، أو حتّى اللاتينية، منفصلة عن العربية أو غيرها من اللغات "السامية". بيد أن هذا لا يمنع من الإشادة بجهده في هذا الباب وخاصة من حيث تزويدنا بقائمة من المفردات يمكننا مقارنة لغة الطفولة في ليبيا بها. وهي قائمة موسعة أكثر مما يجب أورد بها مفردات لا يمكن اعتبارها من ضمن هذه اللغة لدلالتها على مسميات حديثة أو أدوات في البيت غير معروفة في قديم الزمان[5].

واهتم الأستاذ ج. أكويلينا من علماء مالطة ورئيس جامعتها الأسبق في دراسة له بعقد مقارنة بين لغة الطفولة في مالطة وشمال إفريقيا، لكنه وقع في الخطأ نفسه باعتباره اللغة "البربرية" لغة قائمة بذاتها منفصلة عن العربية، وذهب بهذا إلى تحليلات وتفسيرات لغوية كان في غني عنها لو أنه انتبه إلى هذا الأمر وإلى الأثر العربي الواضح في مالطة ذاتها[6].

في المشرق العربي نجد أكثر من اهتم بالأمر الأستاذ تشارلز فرغسون

---

(5) J.BynonM Berber Nursery Language, philological society . London,1969.J.Aquilina; The Berber Element in Maltese . in Hamito-semitic Mouton

(6) The Hague, 1975 p.p 297-313

الذي كتب مقالتين ممتازتين عنه[7]، أولاهما خصصها للمقارنة بين لغة الطفولة في سوريا ولبنان وفلسطين، وهي لا تبعد عن لغة الطفولة في شمال إفريقيا عموماً، وقارن في الثانية[8] بين العربية ولغات أخرى، أوربية وأمريكية. وما يعيب الدراسة الأخيرة، على أهميتها، أنها لم تكن شاملة وأن بها كلمات لا يمكن حسبانها ضمن مفردات لغة الطفولة مثل (حمّام أذن بارد حلوى) إلخ.. مثلما فعل الأستاذ باينون.

أما بالنسبة لليبيا فمبلغ علمي أن دراسة ما لم تجر حتى الآن حول هذا الموضوع. وقد اهتممت اهتماماً خاصاً بجميع مفردات لغة الطفولة مما وعته الذاكرة، مستعيناً بعدد من الأصدقاء[9]، ورتبتها أبجديًّا، ثم أتبعته بدراسة لغوية مختصرة. ثم عقدت دراسة مقارنة لقاموس لغة الطفولة هذا مع أمثاله في المنطقة المحيطة بشمال إفريقيا، المغرب والجزائر خاصة، وسيوة ومالطة وبلاد الشام، مع تأصيل الألفاظ العروبية[10] القديمة : الكنعانية (نقوش رأس شمرة في سوريا) والمصرية، والأكادية، والسبئية.. بقدر ما تيسر.. وبإعادتها جميعاً إلى اللغة العربية.

وفيما يلي يجد القارئ جدولاً يحوي قائمة بعدد ست وثلاثين كلمة من مفردات "لغة الطفولة" ومعانيها في لغة الكبار.

---

(7) C.A.Ferguson: Arabic baby talk,in For Roman jakobson.pp.121-128

(8) baby talk in Six Languages; American Anthropology, Special Publication. 1964, p.p.103-114.

(9) تجب الإشارة إلى أن رسم النطق المعتمد هنا في مصراتة وما حولها - وقد يكون النطق مختلفاً قليلاً في مناطق أخرى.

(10) "العروبية" هنا تعني المصطلح التقليدي الخاطئ (السامية).

لغة الطفولة	لغة الكبار	لغة الطفولة	لغة الكبار
أبَّه / أبْ	فوق. أعلى. ركوب	ديْدش	مشى
إبِّي	أريد	زَعْ	جمل
أحّهْ	امتنع. احذر. ساخن	شِشّي	لحم
إشّهْ	استحسان. تشجيع	صَص	حصان
أعيَّهْ	سيئ. كريه	عوّاوه	مخيف. "غولة"
أُفَّه	أطفئ	فُفَه	نار
بَبّه	ضرب. عقاب	كاكَه	عفن
بَحَّه	غير موجود، غائب	كُخَّه	امتنع
بشّه	قطة	كوكو	طائر. دجاج
بَعَّه / بَعيّه	خروف	مبُّو	شراب. ماء
تَاتَه	خبز	منّه	حلو. لذيذ
ترِّي	حمار	مو	بقرة
تُفْ / تُفّه	نعجه	ميو	قطة
تيتْ	حصان	ننَّه	نوم
حَبَا	لاحتضان الطفل	نْكعْ؟ نْقغْ	لملاعبة الطفل
خُخَّه	ذبح	همَّه / هَم	أكل
خوْيْخوَه	قملة. حشرة	هَوْ / هَبَهْ	كلب
ددّي	ألم	هُوهَهْ	لتنويم الطفل

هذه القائمة يمكن تفريغها في ثلاثة عناصر رئيسية :

(1) الحاجات الأساسية :

الطعام : همّه – تاته – شِشّي

الشراب : مْبو

النوم : ننَه

قضاء الحاجة : كاكه

اللعب : أبَه - أنَه

(2) البيئة المحيطة :

وتتمثل في الحيوان الذي يراه الطفل - ويلفت نظره بحركته - وفي النار:

بعَه / بِشَه / تيتْ / تِرْي / صَصْ / كُوكُو / مُو / مِيو / هَوْ - فُفَه.

(3) الموقف

(أ) تحذير :

أخَه / أعيَه / ببَه / خُخَه / ددِّي / عوّاوه / كاكه / كُخّه.

(ب) تشجيع :

أبَه / إِشَهْ / أُفَّه / أنَه / دِيْدِشْ / حبا / كَاكَه / مْبو / مْنَه / نْكِغْ / همَه.

(ج) رغبة :

إبِّي / مبُّو / هَمَه.

(د) نفي:

بَحّه.

تمثل هذه العناصر ، أو الدوائر ، الثلاثة المجال الحيوي الذي يتحرك فيه الطفل. ومن المدهش فعلاً أن قاموساً صغيراً من الألفاظ قادر على تأدية مهمته كاملة في الوفاء بجميع ما يحتاجه الطفل ، ماديًا معنويًا ، وفي اتصاله بالآخرين والتعامل على قدم المساواة. وهذا ما يقودنا إلى التساؤل عن مدى ضرورة تلك الأكداس المهولة من الألفاظ التي تمتلئ بها المعاجم والقواميس ، ويجبرنا على وجوب إعادة النظر في أسلوب التعليم للغة القومية واللغات الأجنبية أيضًا. ومن المدهش كذلك أن الكبار يجدون أنفسهم في موقف مطمئن تماماً وهم يديرون الكلمات القليلة في أفواههم وهم يخاطبون الأطفال ، بل ويجدون متعة وراحة في

اكتفائهم بهذا العدد الكافي جداً لتحقيق عملية الاتصال اللغوي والذهني مع الصغار.

فيما يلي نعرض موقفاً يدور فيه حوار بين أم وابنها وأبيه، استعملت فيها نماذج من هذه الألفاظ مصحوبة، طبعاً، بعبارات وألفاظ "مساعدة" ولنلاحظ أن الطفل لا تهمه الألفاظ المساعدة بقدر ما يركز على مفردات بعينها تشد انتباهه بذاتها مهما كان القالب اللغوي المحيط بها، سواء كان بالعربية الفصحى أو بلغة أجنبية أو بالعاميّة الليبية التي اخترنا أن يدور بها الحوار.

(الأم في المطبخ منهمكة في إعداد الطعام وطفلها - الوحيد فرضاً - يدور من حولها ويتشبث بردائها وقد فاحت رائحة الطعام في منخريه الصغيرين).

الطفل : (متوسلاً) : همَه.. ماما [11] همّه.

الأم : جيعان يا وليدي؟ إبّي هَمَّه؟

الطفل : هَمَّه!

الأم (تكسر قطعة خبز وتقدمها له) : هاك تَاتَه.. هَمَه

الطفل (رافضاً قطعة الخبز ومشيراً إلى القدر) : إبي شَشّي.

الأم (ساخطة) : بَحّه شَشّي، بوك ما جابش لحم اليوم، هذا طباهج مش لحم. كول التّاته.. وإلاّ يابسة عليك؟!

الطفل (لا يزال مصراً رغم توضيح الموقف) : إبّي شَشّي

الأم : قلت لك هَمْ التّاته.. مْنَه.. التّاتا حلوة.

(ينطلق الطفل باكياً)

الأم : خود مُبو.. بالك عطشان.

الطفل : هَمَه شَشّي!

الأم (وقد ضاقت به ذرعاً) : اسكت.. وإلاّ نجيبلك عوّاوة تْهَمَّك؟!

---

(11) هذا طفل حديث، في أيامنا كانت الأم تدعى "أمه" والأب يدعى "به".

الطفل (مستنجداً) : بابا.. بابا (يصرخ الشيطان العنيد داعياً أباه المتكئ خارج المطبخ يمص سيجارته مستمتعاً كأغلب الليبيين).

(يدخل الوالد ويأخذ ابنه في حضنه يلاعبه)

الأب : هيا تعال هي.. نْكِغْ.. نْكِغْ!!

الأم (بغيظ) : شنو نْكِغْ هذي؟ تحسابه صغيّر؟ راهو قريب يغلبك بالدوة.

الأب : أماله شنو تبي نديرله؟ نحوّل له خْوِيْخْوَه من رأسه؟

الأم : خْوَيْخوَه؟ شنو قالولك مقمّل؟! تره بلاش دوة فارغة.

الأب : (محاولاً استرضاء ابنه فيشعل له عود ثقاب ليطفئه) : آهي الفُفّه. أُفّه ياللا.. أُفّه!

(ينفخ الصبي عود الثقاب ويعود للصراخ)

الطفل : إِبي بَعيّه! (يقول هذا رغبة في الخروج والفسحة قليلاً في العالم الخارجي بعيداً عن الأم الغاضبة).

الأم (متدخلة) : آهي البِشّه.. آهي الميْو العب معاها. وقتها البَعيّه توه؟

الطفل : إِبَي كُوكُو (باعتبار القطة اللعينة قامت بواجبها كاملاً في خربشته ذاك الصباح حين شدها من ذيلها).

الأم (وقد فاض بها الكيل) : تبي تسكت وإلاّ تو نْخُخَكْ؟!

الأب : تْخُخَيه مرة وحدة؟ قولي نْبَكْ وإلاّ ندير لك الدّدِّي ياسر عليه. (يخاف الطفل، أو المفروض أنه يخاف، بعد سماع التهديد المفزع وإدراك معناه فيزداد صراخه).

الأم : إنت كاكه وأعيَه ومش باهي (مخاطبة الأب) تره بالله عليك طلع ها الولد درق وجهه عليّ خليني نطيب العشى.

(يأخذ الأب ابنه على ذراعه ويخرج)

الأب : اشبح، اشبح التّيت (قد يستعمل الصَّصْ هنا).

الطفل : أبَه تِيتْ!

الأب : إِبّي (لاحظ أنه استعمل لغة الطفل) تركب على الحصان؟
لكنه مش لينا ياوليدي. هيا ندير لك أبّه (يحمله على كتفيه).
(يقبض الطفل على أذن أبيه ويشدّها بقوة فيحس هذا بالألم ويصيح)
الأب : أحّه.. ددِي. قطعت لي ودني اللّه يقطعك! اشبح ترِّي..
وهَوْ.. ومُو. شنو تبّي أكثر من هذا؟
(يقولها بغيظ فقد قدّم لابنه العزيز حديقة حيوان كاملة ولم يرضه شيء!)
الطفل (فجأة) : كَاكه!
الأب (مستفسرا بانزعاج) : كاكَه وإلا كُوكُو؟
الطفل (موضحًا بشكل قاطع) : كَاكَه!
الأب: كاكه؟ هذا ما مزَال؟ تديرها فوق كتوفي؟ إنزل نازله إن شا اللّه!
(ينزله عن كتفيه ويسرع به إلى أمه. طلباً للنجدة).
الأب : تعالي.. يبي يدير الكَاكَه بسلامته!
(تقوم الأم بالواجب وتنظف الصبي وتعيده إلى أبيه تبدو عليه علامات السعادة)
الأم : امشي لبابا أنَه!
الأب : أنَه وإلاَ ننَه (واضح أن الأب ضعيف لغويًّا!).
الأم (مؤكدة) : أنَه.. أنَّه، خليه ينتش ودنك وإلاّ صبعك شويه..
سنونه ياكلوا فيه، يطلَع بسلامته.
الأب : واللّه واعر عليه زوز. يطلّع في السنون ويتعلم في المشي.
أني نقول خيره يعيط؟
(مشجعًا ولده على الاقتراب منه ليأخذ بيده ويماشيه) :
هيا نْديْدشكْ. ديْدشْ حب الرمان.. ديْدشْ خبزة ودهان إشه عليك!
الطفل (وقد قرن بين لفظي "خبزة" و"تاته" واستعمل الأسهل) :
تَاته.. تاته!

الأم : رضيت بالتاته توه؟ امبكري تبي الشّشّي.
الأب: عطيه ها التّاته الحرفة وخليه يرقد، مطراح مايكرش في ودني!
(تقدم الأم قطعة الخبز للولد، يقبض عليها بكلتا يديه ويستلقي على ظهره يمقمقها في استرخاء).
الأم (متنهدة) : آهو يبّي يرقد.. هُوْهي عليه شويه.
الأب : هُوْهَاه.. هُوْهاه. ننّي ننّي جاك النوم!
(يغمض الصبي عينيه ويروح في سبات عميق، وهو لا يزال ممسكًا بالتاتا.. أعني قطعة الخبز. يتنهّد الأب مرتاحًا ويشعل سيجارته من جديد باستمتاع).

من هذا الحوار القصير يمكننا أن ننظر في التركيب الداخلي للغة الطفولة، ونلاحظ أنها تتكوّن من مجموعتين نحويتين أساسيتين : الفعل والاسم. ثم يضاف إليهما مجموعة مفردة ثالثة هي ما بين الاسم والفعل، أو هي اسم وفعل في الوقت ذاته. ونلاحظ أيضًا أن "الفعل" يشتق من المصدر أو الاسم في جميع الحالات، ولكن هناك أسماء لا يمكن اشتقاق أفعال منها، فهي على هذا الأساس أسماء مصمتة أو مجردة، والملاحظة الثالثة أن الاسم نفسه قد يستعمل فعلاً، دون تصريف، وهو في هذه الحالة " فعل أمر" فقط. وهذا واضح في المجموعة الثالثة (ج).

(أ) أسماء يمكن تفعليها :
1- أبه (فوق) : أبي (اركب).
2- أفه (إطفاء) : أُفّي (أطفئ)
3- ببه (ضرب) : ببّي (اضرَب) نْبَبّي (أضْربُ) ببَيتْ (ضربت)
4- خخه (ذبح) : نخخك (أذبحك). خخيناه (ذبحناه)
5- كاكه (الحاجة) : ككّي (اقض الحاجة)
6- مبو (شراب) : مبّوا (اشرب)

7- ننه (نوم) : ننّي (نم). ننيت (نمت). نيني (نيام)

8- همّه (طعام) : همّي (كل) نهمّوا (نأكل). هميته (أكلته).

نرى هنا أن خمسة أفعال من ثمانية تأتي في صيغة الأمر وفي حالة الطلب، وأن أربعة (3، 4، 7، 8) أمكن تصريفها في الماضي والمضارع والأمر. وهذا طبيعي، فالطفل في هذه المرحلة مجرد متلق للأوامر منفذ لها وليس هناك ضرورة - من وجهة نظر الكبار - لإخباره بما يحدث أو حدث (المضارع / الماضي) إلا من باب المجاملة أو التخلص من صراخه، أو تهديده بما سيحدث له اعتباراً بما حدث من قبل!

(ب) أسماء مصمتة :

بشه / بعه / تاته / تري / تيت / خويخوه / ددي / ديدش / ششي / صص / عواوه / ففه / كاكه / كوكو / مو / ميو / هو.

وهذه القائمة تحتوي على ثلاث مجموعات :

1- محسوسات مادية : تاته / ششي / ففه / كاكه

2- تعبير عن موقف : ددي / ديدش.

3- البقية كلها أسماء حيوانات + عواوة (مخيف / غولة)

(ج) أفعال / أسماء :

إبي / أحه / إشه / أعيه / أنه / بحه / كخه / نكغ.

الملاحظ أن هذه المفردات لا تصرف مطلقاً، بل هي دائماً في صيغة واحدة لا تتبدل، سواء استعملت في موقع الفعل أو الاسم. والغريب أن نجد المفردة الأولى منها (إبي) في هذه القائمة تظل ثابتة لا تترحزح رغم كونها في الأصل فعلاً وليست اسماً.

نظرة واحدة إلى مفردات لغة الطفولة هذه تُظهر لنا أنها تتوزع إلى ثلاث مجموعات :

1- إما أن تكون تقليداً للأصوات :

(أ) صوت الحيوان : بعه / زع / كوكو / مو / ميو / هو = نعجة /

جمل / طائر / بقرة / قطة / كلب.

(ب) صوت الموقف :

أحه : (الصوت الصادر عند الألم - أ ح ح)

أفه : (الصوت الصادر عن النفخ - أف ف)

خخة : (الصوت الصادر عن الحيوان المذبوح - خ خ)

نكغ : (الصوت الصادر عن الطفل عند المناغاة - ضحك)

2- أو تكون تبسيطاً لمفردات لغة الكبار :

أبه = اركب

أعبه = عاف

بب = ضرب

بح = بارح

ددي = أذي

نني = نوم

هم = التهم. إلخ..

3- مفردات متوارثة بعيدة صوتيًا عن الجذر اللغوي للكلمة المقصودة في استعمالنا الآن، وهي ما يمكن تسميتها " الألفاظ الأثرية " - أي الموروثة دون معرفة أصولها الأولى إلاَّ عن طريق المعاجم والدراسة المقارنة للغات المنطقة القديمة. وهي ألفاظ استعملت منذ عشرات القرون ثم انقرضت أو استبدل بها ألفاظ أخرى وبطل استعمالها، ولكنها ظلت حية في لغة الطفولة، ويمكن تقسيمها إلى قسمين :

(أ) الأثري الحي : بحه / بشه / بعه / كاكه

(ب) الأثري الممات : تاته / ششي / صص / ففه / مبو.

وبتتبع هذه الألفاظ يمكن إعادتها إلى أصولها في اللغات المنقرضة (الكنعانية والمصرية بصفة خاصة) وهما أختا اللغة العربية التي أمكن لها - بصورة عجيبة للغاية - أن تستمر في الوجود منذ القدم وحتى

يومنا هذا وإلى ما شاء الله. ويمكن، بالطبع، إرجاع جميع الألفاظ - حيها ومماتها - إلى جذورها العربية الثابت أنها " اللغة الشاملة" دون أدني شك.

إذا التفتنا إلى معجم الطفولة من الناحية الصوتية وجدناه يحتوي على:

1- حرف + حرف مضعفاً (مشدداً) :

أبه (أ+ب ب) - أحه (أ + ح ح) - بعه (ب+ع ع) - بشه (ب + ش ش) كخه (ك+خ خ).. إلى آخره.

2- حرف + الحرف نفسه مضاعفاً :

ددي (د+دد) ششي (ش+ش ش) - ببه (ب+ب ب)- صص (ص+ص ص) - ففه (ف +ف ف) إلخ

3- حرف ممدود مكرر :

تاته (ت ا + ت) - كاكه (ك ا + ك) - تيت (ت ي + ت) كوكو (ك و+ك).

4- حرف واحد ممدود :

مو (بقرة) - م + و:

5- حرف ممدود + حرف :

ميو (قطة) - م ي+و:

نستخلص من هذا أن الظاهرة الغالبة من الناحية الصوتية هي التكرار (مضاعفة الحرف) والمدّ في بعض الكلمات. وحتي في بعض المفردات التي سجلناها بصورة لا تطابق هذه الظاهرة فإنما فعلنا ذلك اتباعاً لنطق الكبار. (مبو مثلاً ينطقها الطفل : بو : ب + وو)، وبعض المفردات الأخرى لا يستعملها الطفل نفسه بل يستخدمها الكبار في مخاطبتهم له. (حبا - خويخوه - ديدش - عواوة - منه - نكغ). ومع هذا فإن التكرار ظاهر في ثلاثة منها بوضوح (خويخوه - ديدش - عواوه)، والمد في (حبا). وتبقى كلمتان (منه - نكغ) وتنطق الأولى

بشكل يشبه صوت التلمظ، في حين تنطق الثانية بتركيز على الحرف الأخير منها في صوت ما بين حرفي الغين والخاء

نلاحظ غياب بعض الحروف الحلقية / اللهاتية (ج-ذ-ز-ض-ظ-ق-ل) في المفردات التي يستعملها الأطفال أنفسهم. ولكن هذا لا يمنع من وجود حروف حلقية / لهاتية أخرى (مثل : ح -خ-ت-ش-ك). ولكنها في الغالب حروف إبدال، فتقوم التاء مقام الطاء والشين مقام الجيم والسين مقام الصاد.. إلخ. كما نلاحظ أن حرف الألف (ا) والحروف الشفوية (ب-م-و) تنال نصيباً وافراً في تركيب المفردات، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للطفل.

من النماذج التي عرضناها نرى أن " لغة الطفولة" في الحقيقة لغة مركبة لها هيكلها النحوي الخاص بها كما أن لها أسساً للتصريف. هناك الفعل والاسم، كما أن هناك المنصرف وغير المنصرف، بل هناك الحرف أيضاً، وهي لغة مستعملة كأداة اتصال بين الصغار من جانب والكبار من جانب آخر، الفرق الوحيد في الاستعمال أن الأطفال يكتفون بلفظ واحد، أو لفظين على الأكثر، للتعبير عما في نفوسهم فيلتقط الكبار هذه "الإشارة" الموجزة ويترجمونها في أثناء حديثهم، مستعينين بما تراكم لديهم من مفردات إلى جمل " ناضجة" مستخدمين الألفاظ ذاتها مع زيادة " توضيحية " - ربما لفهمهم هم وليس لفهم الصغار!

يقول الطفل مثلاً : حمه.. ببه

فيردد الكبير : محمد ضربك؟ تو نوريه.

الطفل : حمه ببه!

الكبير : تبي تضرب محمد؟ ليش؟ شنو دارلك؟

الطفل : ببه.. حمه!

الكبير : حاضر يا سيدي.. توه نبي محمد.

وقد يضرب محمد المسكين أو لا يضرب، ولكن المهم أن الحديث دار

بطلاقة وتمت عملية الاتصال اللغوي بسهولة ويسر، واستعمل الكبير نفسه لغة الطفل لكي يوضح له أنه سوف "يببي" محمداً!

ليس هذا فحسب بل إن الكبار يستخدمون "لغة الطفولة" في أثناء حياتهم اليومية دون حرج وخاصة فيما يتعلق بمخاطبة الحيوان :

ترّي : لحثّ الحمار على سرعة السير، وتكرر : ترّي.. ترّي!

تف : لدفع الغنم إلى الأمام - يستعملها الرعاة في الغالب.

دي : لحث الحصان على السير - وخاصة خيول العربات.

زع : لإنهاض الجمل أو حثه.

صص : لتهدئة الحصان وإيقافه.

ويستعمل الكبار أيضاً ألفاظاً مثل " أعيه " للدلالة على الاشمئزاز كما يستعملون لفظ "يدادي" بمعني المسايرة والمماشاة (قارن : ديدش) و"يدادي" بمعني معاناة الألم (قارن : ددي) وفي بعض المناطق يستخدم الكبار لفظ "كي" للإشارة إلى السوء أو الاستقباح (قارن: كاكه - كخه). وبعض أبناء المدن المحظوظين يسمون البغاء " أكو " - وقد يكون لهذه التسمية أصل آخر (قارن : كوكو).

ولكن من المستحيل تقريباً أن يستخدم الكبار ألفاظاً أخرى من "لغة الطفولة" غير ما ذكرت، فيما أعلم، اللهم إلا في ساعات المداعبة وأوقات الصفاء بين الأصدقاء.

السؤال الآن : هل هذه اللغة " تعليمية" ؟ أعني هل المقصود من استعمالها أن يتعلمها الطفل مثلما يتعلم أي شيء آخر في العملية التربوية؟

الجواب : نعم وكلا

نعم من حيث إن الأهل - الأم غالباً - يريدون أن يعلموا أطفالهم خبرة في أي شأن من شؤون حياتهم الطبيعية الأولى، فيلجأون إلى هذه اللغة للدلالة على هذا الشأن. هم يريدون من الطفل أن يفهم الإشارة

الصوتية المرسلة للقيام بشيء ما، أو الامتناع عنه، كما يريدون منه أن يكتسب القدرة على استعمالها هو نفسه للتعبير عن حاجاته. ولكنهم في الوقت ذاته يريدون من الطفل أن "ينسى" هذه اللغة تماماً بمجرد نموه بدرجة تمكنه من استعمال لغة الكبار. محرفة في البداية حتى يستقيم لسانه ويدخل في عالم الكبار الرهيب.

بهذا قد تكون "لغة الطفولة" هذه تمثل ظاهرة فريدة حقًّا.. إذ هي المعرفة الوحيدة التي يطلب تعلمها -وبإصرار- ثم يطلب نسيانها تماما والتخلي عنها، باعتبارها "عيباً"! فأنت لو سمعت طفلك في الثانية يقول: "ششي" مثلاً لسعدت واعتززت بذكائه الخارق، فإن قالها وهو في الخامسة لانعقد حاجباك غضباً وقمت إليه تؤدبه بما يلزم من نعوت الغباء والبله وأنت تصرخ: "خمس سنين وتقول (ششي)؟ قول (لحم).. عنت الله عليك!"

عملية قاسية.. أليس كذلك؟ أن تعلم إنساناً شيئًا وتصر على تعلمه، ثم ترغمه على أن ينساه!

لكن.. هل يمكن فعلا أن ننسى هذه اللغة؟

كلا.. على الإطلاق. والدليل أنك أنت نفسك - وأنا أيضاً.. لكيلا "تحرج" - نستعملها مع أبنائنا.. نتذكرها، أو نستعيد استعمالها، ربما رغبة في العودة إلى تلك الأيام الخوالي وهرباً من واقع الحياة الجحيمية، ولا نجد غضاضة ولا ضيراً في استعمالها بسعادة بالغة.

ليس هذا فحسب، بل إن الأطفال - وقد تجاوزوا مرحلة لغة الطفولة ببلوغهم العاشرة مثلاً - ويشاركهم الكبار، يستخدمون مفردات طفولية في الأغاني والأهازيج التي يرددونها. فلنستعرض بعض هذه الأغاني ونستخرج منها مفردات "لغة الطفولة" معاً:

(1) حين ينزل الغيث ويتداعى "حوش القبي" تحت الوابل الغزير يصيح الأطفال:

يا مطر صبّي
طيحي حوش القبّي
والقبّي ما عنده شي
غير الخبزة والشّشي
وغير قطيطيس تعوي !

(2) وأنت سعيد بخطوات طفلك العزيز الأولى تغني له :

ديدش.. حب الرمّان
ديدش.. خبزة ودهان !

(3) أو تحمله بين يديك وتطوح به عاليًا في الهواء، أو هو يتطاول ليناولك شيئاً :

أبه فوق
ومعاك الزروق

(4) وترقصه الأم بين ذراعيها وهي تخفضه وترفعه مزهوة، حالمة بمستقبله الزاهر الموعد، وتغني له :

دي جبر ودي جبر
وانشا اللّه تمشي للبر
وتجيب الحمل اللي يكرَ

(5) وتهدهده لكي ينام ويعم البيت الهدوء :

ننَي ننَي جاك النوم
أمك قمرة وبوك نجوم

(6) أو قد تكون قمت بالحج المبرور وعدت بذنب مغفور وجئت بالواجب من "بر الحجاز" - ويقوم أولادك (رعاهم الله) بواجب الدعاية الضرورية عن وفرة الخير والكرم، وينشدون :

دج دج دج
بونا عدى للحج

وجــــــــــابـلــنــا لــوبــان
فـــــرقـنـا ع الجـــــيـــــران
شـــــوي شـــــوي شـــــوي
مـــــا خلّـي حـــــتّـى شـي!

ترى أن هذه الأهازيج، وغيرها مما غاب عن الذاكرة، تحتوي في باطنها على مفردات طفولية مفهومة،وهذا أمر طبيعي باعتبارها أهازيج صبيان مركبة من لغة الكبار ومطعمة بألفاظ لغة الطفولة. ولو نزعت عنها هذه الألفاظ لفقدت رواءها وذهبت عنها طلاوتها وطرواتها وحلاوتها الطفولية العذبة!

لعلنا بلغنا الآن مرحلة في حديثنا توجب الوفاء بالوعد في بداية هذه الدراسة القصيرة بتتبع الجذور اللغوية التاريخية للغة الأطفال في ليبيا وهذا ما نجده فيمايلي - مشيراً إلى أن المراجع المذكورة اختصاراً هنا مفصلة في ثبت المراجع لمن شاء الاستزادة من القارئين.

1- أبه (*) : فوق. أعلي. ارفع. أركب

وسط المغرب : ببي (احملني فوق ظهرك) (باينون رقم 66)

العربية : اركب. ركب، يركب، ركوباً.

هبَ : نهض. قام. هبّ واقفاً.

2- إبي : أريد. أرغب.

المصرية القديمة : إبّي (معجم غاردنر ص 549)

العربية : أبغي.

3- أحّه : ألم. مؤلم. لا تفعل. مؤذ.

سوريا : أح (نار. مادة ساخنة / فرغسون ص123)

المصرية القديمة : ي ح : لا تفعل. امتنع. تحذير (معجم غاردنر ص 556)

(*) تخطر على البال هنا اللفظة الإنجليزية up- وهي ذات صلة لفظية بينة بـ"هب" العربية و" أبه" الطفولية.. فتأمل!

إح و IHW ألم، وجع (غاردنر ص 550).
أح AH: وجع. ألم. حزن (معجم بدج).
العربية: أحرق. حارٌ - وَحْوَحَ، وحوحة. أحْ.
4- إشّه: يا سلام! لطيف. إعجاب وتشجيع.
سوريا: أوش (زهور عطرة). (فرغسون ص122).
أش (تعجب). (فرغسون ص123).
مصر: (إسّح / السحّ)
مالطة: ششي XIXI (أكولينا ص 308):
العربية: الإشاشة = الهشاشة (الارتياح والبشر)
أشَ، يَؤُشَ = هش، يهش (يفرح، يستبشر).
5- أعيه: مكروه. سيئ. قبيح.
سوريا وفلسطين: إع (فرغسون ص122).
المصرية القديمة: أح AH (شر. مكروه). (قاموس بدج).
العربية: عاف. يعاف. معوف.
أعْ أع: حكاية صوت المتقيّئ. أصلها: هع هع - فأبدلت الهاء همزة.
6- أفه: يطفئ. ينفخ. يطفئ بالنفخ.
المصرية القديمة: ن ف NF (نفخ). (كوهن، رقم 457).
العربية: أنفخ. أطفئ.
7- أنه - أني: سن. عض.
الكنعانية (رأس شمرة): أن = ضحك (غوردون، رقم 195).
المصرية القديمة: ن ج ح.ت NGH.T
ن ح ج. ت NHG. T سن.
(كوهن، رقم 449)
العربية: ناجذ. سن. ناب

8- ببّه ببّي : ضرب .يضرب. اضرب.

بني مزاب (الجزائر) : بو. (باينون، رقم 226)

العربية : ضرب.

9- بحه : ذهب. غير موجود. مختف.

سوريا وفلسطين : بَحً. (فرغسون، ص123).

وسط المغرب : حبت. (باينون، رقم 96).

المصرية القديمة : ب ح BH (ذهب، هرب، انتهى) (غاردنر، ص464)

الكنعانية : ب ر ح (هرب). (غوردون، رقم 422)

العربية : برح، بارح (المكان)، الليلة البارحة.

10- بشّه - بشيشه - بشيش : قطة.

بني مزاب (الجزائر) : بشه - بشيبشي. (باينون، رقم 224).

سوريا وفلسطين : بيس - بيسه. (فرغسون، ص124).

المصرية القديمة : ب س BS، بش BS المؤنث ب س. ت.BS .T، ب ش. ت BS.T المعبودة الرئيسية في تانيس، ربة الفرح والسرور (البسط / الانبساط) (معجم غاردنر، ص564).

العربية : بُس. المؤنث : بُسة.

11- بعه بعية : نعجة. خروف.

وسط المغرب : بعّه.(باينون، رقم 19).

الجزائر : بعبع. (باينون، رقم 174، 219).

سيوة : بعه. (باينون، رقم 245).

لبنان : معَ : خروف. عنز. بقرة.(لحود، ص54).

سوريا وفلسطين : معَ - ما. (فرغسون، ص 124).

المصرية القديمة : ب ا = ب ع / Bc(غاردنر، ص 563).

العربية : (ب ع + عير).

ملاحظة : رغم أن هذه الكلمة صوتية (تقليد لصوت) فإننا نجدها في عدد أقل من اللغات تحوّلت إلى مدلولات أخرى، متّصلة بصوت الحيوان على كل حال.

في المصرية كانت "با" أو "بع" تدل على الكبش، ثم دلت على الكبش - الإله المعبود، ثم تحوّلت إلى معنى "الروح" - أو الجزء الإلهي في الإنسان.

في الأكادية تعني الكلمة : صاح (ماري بعبع = الرب "مرء" صرخ). (زادوك، ص65).

في العربية : بعير= جمل - بع + عير (حمار) = الحمار الذي يبعبع = جمل. سبع (وحش) : س+بع. ضبع: ض +بع.

12- تاته : خبز.

وسط المغرب : توتو (باينون، رقم 26).

الجزائر : تاتا (كسكسي). (باينون، رقم 178).

المصرية القديمة : ت ا / TA (خبز). (غاردنر، ص 598. واترسون، ص141).

الأكادية : أُتيتو - أتاتو (حبوب - شعير). (معجم رايمشنايدر).

ملاحظة : يرجع باينون (ص140) أصل الكلمة إلى "طعام" العربية. وقد يكون هذا مقبولاً عن طريق اختصار "طعام" إلى "ط" ثم تحويلها إلى "ت" ثم تكرارها (ت+ت = تاتا). ولكن الكلمات المصرية (ت ا) والكنعانية (ت ي ت) والأكادية (أتيتو - أتاتو) أقرب في الاشتقاق. وأقرب كلمة عربية هي : قوت. اقتات / يقتات / قوتا.

13- تِرِّي : حمار

وسط المغرب : رَارَا (باينون، رقم 23).

ملاحظة : من رأي باينون أنها من اللفظ "رَارَا" المستعمل في المغرب لحث الحمار على السير. وهذا ما ينطبق على استعمال الكلمة في ليبيا،

فإن كلمة "ترّي" تستخدم في الموقف ذاته. ومن المحتمل أن حرف التاء في بداية الكلمة سابقة معروفة في اللهجة الليبية [12]، وقد تستعمل "إرّي" أو "هرّي" أحيانًا بدلاً من "ترّي" [13]

فإذا كان الأصل هو "إر" فإن الجذر العربي الأول هو "ع ر" - (عير) القديمة.

14- تف : نعجة. خروف.

الجبالية : تفونست (بقرة). (باينون، رقم 74، 75، 76).

العربية : دف. دفع / ساق أمامه.

ملاحظة : في العامية الليبية تستعمل "تفّونه" و"تفونية" بمعنى سمينة، بدينة. وواضح أنها من "تفونست" الجبالية بمعنى "بقرة". ولكن الأغلب أن لفظة "تف" هنا هي من "دفع" (رفَ) الراعي أغنامه.

15- تيت : حصان

قبيلة زمور (المغرب) : تعي. (باينون، رقم 118).

مالطة : تيتو. (أكلويلينا، ص 308-309).

في النقوش الآرامية في معبد فيلة بمصر وجدت كلمة " ت أ ت"T' T' بمعني "نعجة". ومن الواضح صلتها القوية بكلمة " ط ا ت "TAT الكنعانية بالمعنى نفسه، وهي ذات صلة بالكلمة الآرامية القديمة " ش أه "S'H (شاة - العربية) (غرينفيلد، ص155).

ويسمى الحصان في المصرية القديمة " س س، ش س " كما يسمى

---

(12) في العامية الليبية يقال : تهيا = هيا. تكول = كول (كل). تسمع = اسمع. تشنوهادا = شنوهادا (ماهذا؟) تيالأ = يالأ. تماقلنالك = ما قلنا لك = (لقد قلنا لك).. إلخ، وهكذا في أغلب بدايات الجمل والكلمات، وخاصة في حالة التأكيد.

(13) وهناك المثل المشهور : (تفقهتم يا أهل مصر حتى قلتم للحمارين "ترّين") وفي رواية أخرى : " هرين " وفي رواية ثالثة " تران" - على الرفع! أي " ترّي" خاصة لكل حمار منهما!

بهذا بقر الوحش "التيتل" (كوهن، رقم 291) .

ولعل الأمر كذلك بالنسبة للعربية الأولى : تيتل = بقر الوحش، وتعني : حصان. واختصرت إلى " تيت" بإسقاط اللام من " تيتل" .

16- حبا : لاحتضان الطفل ومعانقته.

المصرية القديمة : ح ب ت HPT (يعانق) (غاردنر ، ص 581) .

الكنعانية : ح ب أ (يعانق) (غوردون ، رقم 648) .

العربية : مرحبا. حُبٌّ (قارن لهجة شرق ليبيا : حَبّ = قبّل. حَبّة = قُبلة. في مصراته وما حولها أبدلت الحاء كافاً : كَبّ = قبّل. كَبّة = قُبلة. والعناق والتقبيل متلازمان كما تعلم)

17- خخه : ذبح. قتل.

المصرية القديمة: خ ي ت HYT (يذبح. يقتل)(غاردنر ، ص583) .

خ خ HH (حلقوم. بلعوم) (غاردنر ، ص585) .

ملاحظة : مأخوذة من صوت الحيوان الذبيح.

وفي العربية : الخرخرة : صوت غطيط النائم، وصوت المذبوح.

(قارن مادة "خوخ" في (لسان العرب) : الخواخة مخترق ما بين كلّ شيئين = الحلق، مابين الفم والمعدة).

18- خويخوه : حشرة. قملة. برغوت

وسط المغرب : أخَو (باينون، رقم 43) .

(لغة الكبار) : أبخّو .

العربية : بق (؟) / أَبَقُّو أبَخُّوا أَخُو خويخوة.

19- ددّي : جرح. ألم. وجع.

وسط المغرب : ددَي. (باينون، رقم 14) .

الجزائر : ددَي. (باينون، رقم 184) .

بني مزاب : ديدي. (باينون، رقم 228)

لبنان : ددي (ضرب) . (لحود، ص54)

سوريا وفلسطين: ددّي (يضرب، يوجع) دِدّ (فرغسون، ص 123).

ملحوظة : [يُرجع باينون (ص 144) هذه اللفظة إلى الكلمة الجبالية " أعطيب" العربية عطب].والأصواب أنها ترجع إلى العربية "أذى".

20- ديدش : مشى. مماشاة.

وسط المغرب : ددّوش. (باينون، رقم 44).

قبيلة زمور : ددّوش. (باينون، رقم 121).

الجزائر : دَدّش. (باينون، رقم 192، 214).

بني مزاب : دش - دش. (باينون، رقم 229).

لبنان : دادي / تش - تش. (لحود، ص 54).

سوريا وفلسطين : دادي. (فرغسون، ص123).

تش.(فرغسون، ص124).

المصرية القديمة : دج أ 'DG = يخطو (كوهن، رقم 333).

العربية : دج. درج. داس. دأدأ.. إلخ.

ملاحظة : يورد باينون أن هذه الكلمة ليبية (جبالية) قديمة، ولم ينبه أو ينتبه، إلى الأصل العربي الواضح. ونلاحظ أن حرف الدال في بداية عدد كبير من الكلمات العربية يدل على السير أو المشي والحركة بمختلف صورها ودرجاتها.

دأدأ (مشى مشية الشيوخ).

دب، يدبّ، دبيباً. دابة.

درج. دراج. دراجة.

درك. دحرج. دبى (مشى وئيداً).دج. دعق (وطأ) داس. دع (مشى مثقلاً بحمل). دلف (تقدم). دمك (أسرع في السير).

هذا التنوع في اللغة المصرية القديمة كذلك.

ت ي ت ي TYTY : يدوس. يطأ.

د ج أ 'DG : يخطو faire un pas

د ج س DGS : يمشي marcher
د ج د ج DGDG : يطأ. يدوس Fauler
(كوهن، رقم 333، 334. ولاحظ قرب الكلمة الأخيرة "دج دج" = "دجدج" من "ديدش").

21- زع : جمل.

الكنعانية : زغ = صوت الحيوان. (غوردون، رقم 643).
العربية : زعق.
ملاحظة : ينطق حرف الزاء بصورة أقرب إلى الظاء، ولا يستعمل إلاّ مع الإبل.

22- ششي : لحم.

قبيلة سغروشن (المغرب) : ششي (باينون، رقم 137).
قبيلة زيان (المغرب) : شوشو. شيشي (باينون، رقم 143).
قبيلة زمور : ششي. (باينون، رقم 106).
الجزائر : شيشو. (باينون، رقم 159).
بني مزاب : ساسا (باينون، رقم 231).
في بعض مناطق المغرب : سسّو. جوجو (باينون، رقم 149، 105).
مالطة : زيزي ZIZI (أكويلينا، ص 309).
سيوة : ششه. (باينون، رقم 253).
ملاحظة : يذهب باينون إلى أن وجود هذه الكلمة في مختلف مناطق شمال إفريقيا بمعنى واحد (لحم) يجعلنا نعتقد بأنها لفظة قديمة جدًا بهذا المعنى - إذ يبعد الاشتقاق ما بين "لحم" و"ششي" (ص 142).
وحين نبحث في اللغات العروبية القديمة نجد في :
الأكادية : ش ي ر و ŠIRU= لحم. (رايمشنايدر).
الكنعانية : ش إ ر ŠIR = لحم. (غوردون).
المصرية القديمة : س ي و SYW= شياه. غنم (كوهن، رقم 279).

الكنعانية : ش ء = خروف أو عنز (غوردون، رقم 1896).
العربية : شاة.شياه.
وعلى هذا يمكن اعتبار "ششي" منحوته من"ش ر ŠR" (لحم) أو من ش Š" (مصدر اللحم) في حرف الشين المكرر (قارن : تاته).

23- صص : حصان.

وسط المغرب : صاصا (باينون، رقم 24)
زمور : ششا.(باينون، رقم 105)
الجزائر :شتاشتا. (باينون، رقم 175).
سوريا : شوشو. (فرغسون، ص123).
المصرية القديمة : س س SS (غاردنر، ص 592).
الكنعانية : س س و SSW (غوردون، رقم 1420).
الأكادية : س ي س و SISW (رايمشنايدر).

24- عواوة : مخيف. غولة.

لبنان : واوة (ألم مؤلم) (لحود، ص54).
سوريا وفلسطين : واوه (مريض. شيء يؤذي) (فرغسون، ص 125) أيضًا : عوعو.
العربية : عوىٍ. يعوي. العاوية. العواء (كالذئب مثلاً). أعول يعول (ألماً).

25- فُفَه : نار.

وسط المغرب : فَفو (باينون، رقم 9)
الجزائر : ففَو. فوفو (باينون، رقم 218، 216).
سيوة : فُفَو (باينون، رقم 244).
ملاحظة : انعدام الصلة اللفظية ما بين "نار" و "ففه" يؤدي بنا إلى القول بأن هذه اللفظة قديمة جدًا بمعنى " نار ". وهي - على كل حال - توجد في لغة الكبار بوسط المغرب "آفا AFa" وبني مزاب بالجزائر

"تاوفت Tawft" (ت + أوف +ت) وتنطق أحـيـانًا " وافـا Wafa" .
(باينون ص 131، 143).

في ليبيا. وحتى عهد قريب، كانت النار تدعي " عافية " ولنا هنا في مصدر هذه الكلمات قولان :

(أ) العافية : باعتبار النار أداة للبرء من الأمراض أو الباعثة على الصحة والعافية.

(ب) الدفء: والنار، بالطبع، مصدر للحرارة

في المصرية القديمة : أ ف ت Afit= نار - لهب (قاموس بدج) ومنها الفعل " أ ف ر Afer = يحرق - يسخن».

الكنعانية الأولى (رأس شمرة) إ ف ي و = يشوي.

ي ف.ل ح م = يشوي اللحم. (غوردون، رقم 214). ويجعل كوهن (رقم 330) كلمة ف د ت FDT المصرية القديمة (يعرق. يحس بالحرارة) في مقابل كلمة "دفء" العربية. وهما كلمتان على علاقة بالنار على كل حال. ويمكننا أن ننبه هنا إلى أن كلمة "نار" بالفرنسية هي "فو feu" وبالإنجليزية "فاير fire" .

26- كاكه. ككي. ككّة : غائط. بول. عفن.

وسط المغرب : خخه. (باينون. رقم 100).

الجزائر : خخّي. كاكه (باينون، رقم 189).

مالطة : ككّه. (أكويلينا، ص 309)

سوريا وفلسطين : كع. كاكه (فرغسون، ص 123، 124).

المصرية القديمة : ق ء ع، Kả (قيء، قيح) (كوهن، رقم 247).

ك ح KH (قيء / قيح) (غاردنر)

السبئية : أ ك = نكد. هم. بلاء (جام، ص 427- نقش رقم 720).

العربية : قيء. قيح.

ملاحظة : تدخل حروف (الخاء والحاء والكاف والقاف) في جميع

الكلمات التي تحمل الفكرة العامة عن القذر والعفن والتقزز. وحتي في الإنجليزية نجد "اللفظة " المعبرة عن هذا تكتب عادة: ! ugh وتنطق بإصدار صوت بعد حرف إ هو مزيج من حروف : : ق. ك.ع.غ.خ - تستحيل كتابته إلاّ اصطلاحاً.

27- كخّه : امتنع . لا تفعل. قذارة

وسط المغرب : إخَي. (باينون، رقم 100).

قبيلة زمور : يخَي.

الجزائر : خخي. (باينون، رقم 185).

سيوة : خي. إخاي. (باينون، رقم 263 ، 264).

لبنان : كخ (لحود. ص 54).

سوريا وفلسطين : كخ (فرغسون، ص 124).

كعَ (فرغسون، ص123).

المصرية القديمة : ي ح YH= تحذير. امتنع. (غاردنر ص 556).

كء ح K'H= قذر. (كوهن، رقم 247).

العربية : كخ. كخ كخ = إخ (قذر. نهي للصبي عن شيء. تقزز).

28 - كوكو : دجاج. طير.

وسط المغرب : كلّو (باينون، رقم 51)

سوريا وفلسطين : كوكو. (فرغسون، ص124).

ملاحظة : واضح أن هذا تقليد لصوت الطائر - وهو تعبير عام.

29- مبو. مبوه. بو. بوا : ماء. شراب.

وسط المغرب : بوا. (باينون، رقم 37).

الجزائر : نبوا. (باينون، رقم 146).

تونس : مبوا. (باينون، رقم 146).

سيوة : مبوا. (باينون، رقم 257).

مالطة : بمبو (أكويلينا، ص 308).

مبوا (باينون، هامش صفحة 149).

لبنان : نبو (لحود، ص54)

المصرية القديمة : ي ب ي (ص 124).

سوريا وفلسطين : مبو. (فرغسون، ص 124).

المصرية القديمة : ي ب ي yby = عطشان (كوهن، رقم 44).

إ ب ي = IbI عطشان (واترسون، (ص 137).

العربية : اللوب، العطش. لاب، يلوب.

اللوبة والنوبة، الأرض الجافة المعطشة الشديدة الحرارة.

الأباب (بالفتح)، الماء والسراب.

الأباب (بالضم)، معظم السيل والموج (تاج العروس).

ملاحظة: في مالطة تستعمل "بُمبو" و"بمبي" بمعنى : يشرب / شراب. وفي صقلية : مْبو Mbu= ماء الشراب aqua de bere ويقارن أكويلينا بين هذه الكلمة في المالطية وكلمة "بوبو" الجبالية بمعنى "ثدي" وكلمة "أمبو" في سيوة بمعنى "فم". (أكويلينا، ص 229). ومن الواضح صلة الثدي بالشراب (الحليب هنا أو اللبن) وكذلك صلة الفم أيضاً.

وقد دخلت هذه الكلمة في اللاتينية وسجلها الكاتب اللاتيني فارو varro في القرن الأول ق.م بصيغة "بوا.. BUA" على أساس أنها تعني الشراب أو الماء في لغة طفولة اللاتين. انظر :(Ferguson,Baby Talk in Six Languages,p104) ويرى باينون (ص 146) أن انتشار هذه الكلمة في شمال إفريقيا يدل على أنها بالغة القدم جداً.

30 - منه. مَنَحْ : حلو. طيب. لذيذ.

سوريا : مْنَح (فرغسون، ص113).

المصرية القديمة: م ن خ MNH = ممتاز. طيب. حلو (كوهن رقم 482).

العربية : مليح. ملح، يملح، ملاحة.

(اللهجة اللبنانية : منيح).

ملاحظة : تنطق هذه الكلمة بصوت مبهم فيه تلمظ.

31 – مو : بقرة

وسط المغرب : مهرو. (باينون، رقم 74).

قبيلة زمور : مهَو. (باينون، رقم 112)

سيوة : حمومو (باينون، رقم 256).

ملاحظة : هذه اللفظة تقليد واضح لصوت البقر.

32– مِيو : قطة.

وسط المغرب : عَوَ (باينون، رقم 68).

الجزائر : ماو. (باينون رقم 251).

مالطة : ميشو (أكويلينا، ص 308).

لبنان : نو (لحود، ص54).

سوريا وفلسطين : نوْنوْ (فرغسون، ص124)

المصرية القديمة : م ي و MIW (قطة) (غاردنر، ص568).

ملاحظة : كسابقتها، محاكاة لصوت الحيوان – عامة.

33– نكغ. نقغ : لملاعبة الطفل وإضحاكه.

سوريا : كغ. نكغ. نقغ. (فرغسون، ص124).

سيوة : نانو. (باينون، رقم 49).

العربية : ناغى، يناغي، مناغاة

34– نَنّه، نني : نوم. نم

بني مزاب : إنو (باينون، رقم 240).

مالطة : ننّي (أكويلينا، ص309).

سوريا وفلسطين : نِنّي (فرغسون، ص124).

المصرية القديمة: ن ن ي NNI (متعب، راقد) (غاردنر، ص 574).

ن ن NN (ليل) (كوهن، رقم 440).

ن م ي NMY (نوم. نيام) (كوهن، رقم 75).

ملاحظة . يورد فرغسون (ص124) أن هذه الكلمة واسعة الانتشار في لغة الطفولة في البلاد العربية (المغرب : نني، مصر : نِنّي، تونس : نانَي) . كما أنها مستعملة في بعض البلاد غير العربية : (اليابان : نني Nenne . إيطاليا : ننا - نانَا Ninna, Nanna) .

العربية : نوم، ليل .

35- همّه /همّي.ممّه / ممّي.أمه /أمي : أكل. كل

وسط المغرب : ميمي (باينون، رقم 39) .

مت . ممت (باينون، رقم 91، 92) .

السوس : منْا - منّا (باينون، رقم 152) .

سوريا (حلب) : ممَ (فرغسون، ص125) .

المصرية القديمة : ع ^{c}M= يأكل . (غاردنر، ص557) .

أم AM= يبلع (قاموس بدج) .

النوبية : أم am= يأكل . يبتلع .

الصومالية : عن un-on= يأكل .

العربية : التهام. التهم، يلتهم / الجذر : لَهَم .

36- - هَوْ / هَبّه : كلب.

وسط المغرب : هابو . (باينون، رقم 61) .

قبيلة زمور : هابا (باينون، رقم 108) .

لبنان : هبهب . (لحود، ص54) .

سوريا وفلسطين : عوعو . (فرغسون، ص125) .

العربية : هبهب، صاح. الهبهاب، الصَيّاح .

ملاحظة : محاكاة واضحة لصوت الكلب في أثناء نباحه .

37- هُو هَه : لتنويم الطفل.

لا يستعملها الطفل بالطبع، ولكن تستخدمها الأم حين تضعه على ركبتيها وتردد بصوت منغم رتيب يبعث على الاسترخاء والنوم :

" هُو هَه.. هُو هَه.. هُو هَه!"

الفعل : يهوهي.

الاسم : مهوهاة.

أقرب أصل عربي : هدهدة.

***

والآن...

هذه لمحة عابرة عن " لغة الطفولة" في ليبيا. وهي - كما اتّضح - أم اللغة لقدمها في أعماق التاريخ، كما أنها لغة الأم المتوارثة على مدى العصور، لا تنفصل عنا ولا نحن عنها ننفصل، تعيش في أعماقنا لتخرج في المناسبة إلى السطح، فنذكرها ونستعملها ونخاطب بها أولادنا. فلنختم ببضعة أبيات للشاعر الفكه ابن سودون في ديوانه (نزهة النفوس ومضحك العبوس) وهو يرثي أمه.. يقول :

"لموت أمي أرى الأحزان تحنيني — فطالما لحّستني لحس تحسين

وطالما دلّعتني حال تربيتي — خوفا على خاطري كيلا تبكيني

أقول "مَمْ مَمْ" تجي بالأكل تطعمني — أقول "إمْبُو" تجي بالماء تسقيني

إن صحتُ في ليلة "وَاوَا" لأسهدها — تقول " هُوهُو "بهزْ كي تنسّيني"

ألسنا جميعاً ابن سودون؟!!

المراجع

(1) Aquilina J.; The Berber Element in Maltese, in "Hamitosemitica", Mouton, The Hague 1975 pp. 297 - 313

(2) Budge E.A. Wallis, An Egyptian Hieroglyphic Dictionary, Frederick Unger Publishing Co, New York 1926.

(3) Bynon, J. Berber Nursery Language, Philological Society, London 1969.

(4) Cohen M. Essai comparatif sur le vocabulaire et la Phonétique du Chamito - Sémitique, Paris 1947.

(5) Ferguson, Arabic Baby-Talk, in :"For Roman Jakobson", Mouton & Co. The Hague, 1956, pp. 121-128.

(6) Ferguson C. A. Baby talk in Six Languages, in "The Ethonography of Communication" (American Anthrop. Special Publication), 1964, pp. 103-114.

(7) Gardiner, Sir Alan, Egyptian Grammar, Oxford 1979.

(8) Gorden C. H.Ugaritic Handbook, Pantificium Institutum Biblicum Rome 1947.

(9) Greefield, J. C. Some Reflections on the vocabulary of Aramaic in Relationship to the other Semitic Languages, Quaderni di Semitica (5), Rome, 1978, pp. 151 - 156.

(10) Jamme, A. Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore, The John Hopkins Press, 1962.

(11) Riemschneider, An Akkadian Grammer, Marquette University Press. Wiscounsin, 1978.

(12) Watterson, B. introducing Eyptian Hieroglyphic, Edinburgh, 1981.

"أمّـالـه"
وما إليها في اللهجة الليبية

مقدمة قصيرة

قد تكون طرقت سـمعك - أيها القارئ العزيز - كلمة تتردد كلما جاء حديث اللغات وأصولها وفروعها وصلاتها بعضها ببعض، أو اشتجر الجدل حول لفظ من الألفاظ ومفرد من المفردات... أعني "الفيلولوجيا". وهي ما يقابل في العربية تعبير "فقه اللغة". وإذا كان التعبير العربي معبراً عن العلم المقصود فإنّ المعنى الحرفي لـ "الفيلولوجيا" هو "وله اللغة" إذ هي كلمة يونانية مركبة من مقطعين: فيلو philo: محبة، عشق، وله + لوجيا = لوغوس، كلمة، لوغا loga= لغة.

وله اللغة (أو الأصحّ الوله باللّغة) إذن هو مبعث البحث عن جذور الألفاظ في أي لسان كانت، وعن نشأتها الأولى وتطورها وعلاقاتها وتداخلها. تماماً كالعاشق الولهان يتأمّل حبيبه ويتفحصه ويدقق في تفاصيل تفاصيله. وقد يستغرق عمره في هذا التأمل والنظر.. ولا يشبع، ويظل مع هذا منبهراً كلما ازداد تمعناً في تفصيل من التفاصيل.

في اللهجة الليبية كلمات وألفاظ كثيرة لا تستعمل في عربية أخرى، أو قد تستعمل بشكل مختلف أو معنى مغاير. وهي ظاهرة لفتت نظري منذ مدة طويلة (انظر: "مجلة الثقافة العربية" - عدد فبراير 1977 مقال: في اللهجة العامية الليبية) بعض هذه الكلمات حديث دخيل، وبعضها قديم قدماً يبعث على الدهشة والاستغراب، بعضها من أثر الأتراك أو الإسبان أو الطليان، وبعضها الآخر يمعن في أعماق التاريخ إلى آلاف السنين.

وقد خطر لي أن أقدّم إليك شيئًا مما جمعت من مفردات نستعملها جميعا في حياتنا اليومية، باحثاً عن أصولها وجذورها ومقارنًا بينها وبين لغات أخرى قريبة في المكان بعيدة في الزمان. ولك أن تستخلص ما شئت لتستنتج وحدة هذه الأمة العربية من وحدة لغتها، أو لتقرّر خصب التراث الشعبي الليبي وثراءه واتصال جذوره بغيره من الأقطار العربية، أو لترى إلى أي مدى يمكن تتبع مسألة من المسائل وملاحقة جزئياتها الدقيقة، ولن أطيل عليك..

فهذه بعض من مفردات اللهجة الليبية - في مختلف المجالات - بغير ترتيب ولا تبويب سوى ترتيب أبجدي تسهيلاً للمتابعة والاستقصاء، قد يجد فيها المهتمون مادة جديرة بالاهتمام.. فهاكها.

أمّـــالـــه

في اللهجة الليبية تعني في الغالب (إذن) يقول الليبي: " آه.. أمّاله كيف؟ "

أو: " أماله ديرها إنت " . أو تهدد الأم ابنها إثر فعلة من فعاله: "أماله تو نقول لبوك! " وهي بالمعنى نفسه في لهجة عرب مصر، وتنطق " أمّال " ولعل هناك من سمع في المغناة الشعبية اللطيفة (الليلة الكبيرة) قول المغني: "ما تيا لله امّال" .

في تونس لها معنى التعجّب والاستغراب في الأغنية المعروفة: "أماله لا؟!"

وقد أطنب ابن منظور في تحليل هذه (الأمالة) وأفاض وأورد أحاديث منسوبة للنبي صلي الله عليه وسلم باعتبارها في الأصل (إمّالا). ولا بأس هنا من نقل بعض هذا التحليل.. فإنّ فيه فوائد جمّة، يقول ابن منظور:

" إمّالا: في حديث بيع الثمر: إمّا لا فلا تبايعوا حتى يبدو صلاح

الثمر. قال ابن الأثير: هذه كلمة ترد في المحاورات كثيراً، وقد جاءت في غير موضع من الحديث، وأصلها (إن) و(ما) و(لا) فأدغمت النون في الميم و(ما) زائدة في اللفظ لا حكم لها. قال الجوهري: إمالا فافعل كذا بالإمالة. قال: أصله (إن لا) و (ما) صلة. قال: ومعناه: إلا يكن ذلك الأمر فافعل كذا. قال: وقد أمالت العرب (لا) إمالة خفيفة، والعوام يشبعون إمالتها فتصير ألفها ياء وهو خطأ، ومعناها: إن لم تفعل هذا فليكن هذا. قال الليث: قولهم (إمالا فافعل كذا) إنما هي على معنى (إن لا تفعل ذلك فافعل ذا)، ولكنهم لما جمعوا هؤلاء الأحرف فصرن في مجرى اللفظ مثقلة فصار (لا) في آخرها كأنه عجز كلمة فيها ضمير ما ذكرت لك في كلام طلبت فيه شيئاً فردَّ عليك أمرك فقلت: إمالا فافعل ذا... وروي أبو الزبير عن جابر أن النبي ﷺ رأي جملاً نادًّا فقال: لمن هذا الجمل؟ فإذا فتية من الأنصار قالوا: استقينا عليه عشرين سنة وبه سخيمة فأردنا أن ننحره فانفلت منا، فقال: أتبيعونه؟ قالوا: لا.. بل هو لك.. قال: إمالا فأحسنوا إليه حتى يأتي أجله. قال أبو منصور: أراد: إلاّ تبيعوه فأحسنوا إليه، و(ما) صلة والمعنى (إن لا) فوكدت بما. وإن حرف جزاء هاهنا. قال أبو هاشم: العامة ربما قالوا في موضع (افعل ذلك): (إمالا افعل ذلك)... " فليلحظ القارئ العزيز أن النقط التي ختمت هذا النص ليست من عندي ولكنها في الأصل المحقق من (لسان العرب) ويبدو أنه لم يعثر على الجملة المفقودة. لكن للعبارة التالية مدلولها، إذ تقول: " وهو فارسي مردود" . ثم يضيف ابن منظور:

" والعامّة تقول أيضاً: أمّالي، فيضمون الألف - وهذا خطأ أيضاً قال: والصواب: (إمالا) غير ممال، لأن الأدوات لا تمال. ويقال: خذ هذا إمالا، والمعنى: إن لم تأخذ ذلك فخذ هذا - وهو مثل المثل " .

نستطيع الآن أن نستخلص جملة نتائج:

1- اختلف ابن الأثير والجوهري والليثي في تفسير منشأ (إمالا) وتفسير معناها.

2- أمالت العرب (لا) إمالة خفيفة، وأشبع العوام إمالتها حتى صارت ألفها ياء والعامة تقول: أمالي - بضم الألف - وتحويل (لا) إلى (لي).

3- هذا الاختلاف في التفسير واللحن في النطق تدعمه جملة (وهو فارسي مردود) فكأن التعبير في أساسه جاء من مكان غير جزيرة العرب. لقد داخ ابن منظور ودوخنا معه، ولكيلا يدوخ القارئ نبادر إلى القول: إن هذا التعبير العجيب في أساسه أكّادي عمره يزيد عن ثلاثة آلاف عام في بلاد الرافدين وأصله: مالا mala وترجم إلى الإنجليزية:-according to as much as وتعني بالعربية: بموجب، بحسب، طبقا لـ، بناء على.. بمقدار. وهذه جملة المعاني المقصودة في التعبير الليبي: " أماله ".

بقيت ملاحظة أخيرة عن الألف في بداية الكلمة، وهي غير موجودة في الأصل الأكادي البعيد. إذ تنطق بشكل لا يمكنك أن تدرك معه هل هي مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة بل تدغم أحياناً فتسمعها هكذا: "مّاله" بميم مشدّدة دون حرف يسبقها فكأنها عادت إلى أصلها mala.

بردقوشة:

وينطق أحياناً (مردقوشة): نبت يستطب به ويدخل في تركيب عدد كبير من الوصفات الطبية الشعبية. في (القاموس المحيط) للفيروزاباذي:

" المردقوش: معرب مرزنكوش. وعربيته: السمق. نافع لعسر البول والمغص ولسعة العقرب والأوجاع العارضة من البرد، والماليخوليا والنفخ واللقوة وسيلان اللعاب من الفم، مدرّ جداً، مجفف رطوبات المعدة والأمعاء "

وجاء في (لسان العرب): " المردقوش: المرزنجوش. غيره:

المردقوش.. الزعفران، وأنشد ابن السكيت قوله:

يعلون بالمردقوش الورد ضاحية   على سعابيب ماء الضالة اللجن

وقال أبو الهيثم: المردقوش معرب. معناه: اللين الأذن».

وإذا كان من الجلي أن المردقوش معرب - وقال ابن منظور إنه هو المرزنجوش! - فإنّ تفسيره بأنه الزعفران مثير للاهتمام. فقد اختلف في هذا المردقوش البردقوش العلماء اختلافاً كبيراً. إذ نجد مثلاً أحد الباحثين (J. Allegros. The Sacred Murhroom and the Cross p211) يذهب إلى أن المرقدوش هو ما يدعي في الأكادية: الشومر. ويرى أليقرو أن الكلمة ذات أصل سومري قديم تعود إلى المعبود "مردوخ Marduk" < MAR-DUG باعتبار هذا النبت مقدساً إلهيًّا. ونحب أن نفيد القارئ هنا بأن اسم مردوخ أو (مردوك) مكون من المقطعين:

مر = السيد / الربّ / المرء

دوك = الكبير (قارن duke الإنجليزية! = الدوق!)

ويرجع الباحث أصل السومريين - الحضارة الأولى في بلاد الرافدين- إلى هذه المردقوش! فهم عنده أبناء الربَ مردوخ (مردقوش) وبما أن الأكاديين الذين جاءوا بعدهم يسمون هذا النبت (شومر) فقد صاروا أبناء الربّ شومر = بني شومر = بني شمر = الشومريين - السومريين، بإبدال الشين سيناً، والحقّ أن قبائل (شمر) لا تزال توجد في بادية العراق والشام حتى الآن.. فتأمّل! إذا نظرنا إلى البردقوشة رأيناها مردقوش تارة ومرزنجوش تارة أخرى فما الذي يمنع أن تكون هي المندرقورة Mandragora بحكم التحريف؟ أم تراك تقول لي: إن هذه هي "الشندقورة" في اللهجة الليبية - وهي نبت آخر مختلف؟ فإن كان ذلك كذلك فقد ذكرت الأخيرة -أعني المندقورة = الشندقورة - في عدّة مصادر كما ذكرت البردقوشة - المردقوش في مصادر.

من ذلك أن أبوليوس المدوري تحدّث عنها في كتابة البديع "تحوّلات

الجحش الذهبي " كما ذكرها بالخير المرحوم وليم شكسبير في مسرحيته الذائعة الصيت " عطيل " وبالتحديد في الفصل الثالث، المشهد الثالث - البيت 33 - إن أردت الاستيثاق ! ويفسر معجم أكسفورد الـ mandragora بأنها نبت ذو خاصة منومة narcotic وعنده أن أصلها من اليونانية Mandragoras ومن هنا جاءت الكلمة الإنجليزية Mandrake التي تعني عشباً ذا خواص منومة ومقيئة في الوقت نفسه، وقيل إن له جذورا تشبه شكل الإنسان تنقبض إذا ما قطف - أو اقتلع - النبت. وفي الإنجليزية الوسطى (وهي مرحلة من مراحل تطوّر هذه اللغة) كانت الكلمة تكتب Mandragge حذف المقطع الأوّل منها وبقي الثاني drake- dragge وتحوّل - ربما لشبه جذور النبات بالإنسان أو الحيوان - إلى dragon وهي ما نعرفه نحن باسم " التنين " والعهدة على معجم أكسفورد بالطبع ! ونضيف : من يدري؟ لعل كلمة man الإنجليزية التي تعني الانسان جاءت من هذا الأصل البعيد جداً Mandragora ولا تعجب. ألم تر كيف قيل إن السومريين هم " بنو شومر " أو " بنو مردوخ " أعني: بني مردقوشة؟!

فإذا عدنا إلى Mandrake وبحثنا عن معناها في القواميس العربية وجدنا إلياس أنطون إلياس في (القاموس العصري) يقول إنها " لفَاح. يبروح. تفاح الجن. نبات شديد التخدير " انتهى. وعند منير البعلبكي في (المورد) أنها : "اليبروح. اللفاح. نبات عشبي من الفصيلة الباذنجانية" انتهى.

وجميل هذا التخريج من " اليبروح " إلى " أبو روح " أو بالأصح "أبي روح " حتى لا يستاء الإعرابيون! ومعنى هذا أن ثمة " روحا " في هذا النبات العجيب. ويؤيد قولنا هذا تسميته بـ" تفاح الجن " والروح والجن واحد تقريباً كما تعرف. المشكلة أننا خرجنا من " الشومر " إلى " الفصيلة الباذنجانية " حسب تحديد منير البعلبكي. ولكن هذه ليست

مشكلة، إذ إن الشومر نفسه نبات جذري يسمى في اللاتينية Ferula ويدعى في الإنجليزية Fennel وهو يترجم إلى العربية بـ: الشمر، الشمار، والشمرة. ونعرف نحن في ليبيا الحلو منه باسم: الفينوكيا، أو الفينوكيو. الغريب في الأمر أن (لسان العرب) لم يورد شيئاً عن نبات بهذا الاسم. وقد يعني هذا أنه معرب، وقد يؤيد رأي أليقرو السابق الذكر في أصل السومريين.. فراجعه!

قال ابن منظور: "والشمر ملك من ملوك اليمن يقال: إنه غزا مدينة الصغد فهدمها فسميت (شمركند) وعربت بـ(سمرقند)، وقال بعضهم: بل هو بناها فسميت (شمركنت) وعربت (سمرقند)" انتهى! ولك أن تختار!

فماذا عن الفصيلة الباذنجانية؟

للشومر جذور تشبه ثمر الباذنجان، وهذا يشبه الرؤوس الآدمية (هل لاحظت أن بعض الرؤوس الآدمية تشبه الباذنجان، وبعضها يشبه اللفت، وبعضها يشبه القرع الأحمر الذي نسميه "البكيوة" في بعض المناطق و "البكوة" في مناطق أخرى؟!! وهو بالعربية: اليقطين. ويعبر في الإنجليزية، بالمناسبة، عن البلادة بأن فلانا Pumkinhead أي: رأس قرعة، أو رأس من قرع، لاحظ الصلة اللغوية بين بكوة وبكيوة وكلمة pumkin الإنجليزية!!)

فإذا جمعنا وجود الروح (أبو الروح) - ولعل الأصل في التسمية خاصية التنويم في النبات - وشبه جذوره بالرؤوس انتفى عجبنا من أن تتحوّل الـMandragora إلى Dragon (تنين) وأن تكون المردقوشة هي أصل السومريين!

هل رأيت كيف استطاعت " البردقوشة " الليبية أن " تدوخنا " ؟

ولا عجب.. أليست نبتًا مخدراً؟!

لا نزال في ميدان النبات. و "التابلكة" هي ما يعرف باسم "الفقاع" ويدعى في المشرق العربي "الفقع" وهو فعلاً نبات (يفقع) الأرض فجأة إذا هطل المطر ويظهر شيطانيًّا في الصحراء أو كثيراً عند مجامع القمامة، فالأمر عنده سيان فيما يبدو! ويسمي في الإنجليزية Mush-room وأبناء سكسون يجمعونه ويبيعونه ويأكلون غير السام منه بنهم ولذة. أما في العربية فيعرف باسم "الفطر"، "الكمأ" وفي مصر يكنى عنه بـ "عش الغراب" وقد بلغ الاهتمام بهذا الفطر أو ما شئت من الأسماء بأحد العلماء المعروفين حد تأليف كتاب مشهور بعنوان (الفطر المقدس والصليب) The Sacred Mushroom and the Cross وهو ليس بالطبع كتاباً في علم النبات، فإن هناك مئات من الكتب وآلاف المقالات حوله ولكنه كتاب في الديانات! وخلاصته أن جميع الديانات القديمة تعود في أساسها إلى هذا الفطر باعتباره شكلاً واضحاً لعضو الخصوبة phallus الذي انبنت عليه الأديان البشرية.. ولا حاجة للتفصيل هنا في الأمر.

سؤالنا: لماذا سمي الفطر في بعض أنحاء ليبيا باسم "التابلكة"؟ وهذا على الأقل ما سمعت قومي يسمونه به في مسقط الرأس مصراتة من باب الأمانة العلمية!

وعلى كثرة ما نبشت في القواميس والمعاجم بحثاً واستقصاء فإنني لم أجد سوى كلمة واحدة تعود إلى اللغة الأكادية هي الأخرى يوردها مؤلف الكتاب المذكور ترد في نص سحري وهي كلمة Tigilla حين يقول النص:

Go, my son,to the Tigilla which springs of its accord in the desert when the sun enters its dwelling

" امض يا بني إلى " التابلكة " ، التي تنبثق من تلقاء نفسها في الصحراء، حين تلج الشمس مأواها.. " (ص77)

هذه الـ Tigilla في الأكادية انتقلت إلى الآرامية فصارت تِكْلاء Ti-gla (ص36) ومن المحتمل جداً أن أضيفت الباء مع قلب بين اللام والكاف فصارت في الليبية تابلكا Tabilkaهذا ممكن وله نظائر. لكن ما هو الأصل البعيد لهذه التابلكة / التكلاء / التقلا؟

يقول الكاتب ذاته إنه من السومرية، خمسة آلاف سنة قبل عصرنا هذا.. فقط! وهو هكذا يكتب: Ukush-ti- gil-la (أكوش - تي- قيل - لا)ومعناه: الفطر - الكمأ - إلخ. وعن هذا اللفظ السومري أخذت اليونانية كلمة Glukuside اكتفاء بالمقطع الأخير ومعناها: اللذيذ - أو بالتحديد: الحلو، السكري المذاق. ومن اليونانية جاء المقطع glyco في بداية عدد كبير من الكلمات الإنجليزية لتعني (سكر) وخاصة فيما يتصل بالسكريات الكيميائية والطبية والدوائية.. فليراجع! ومن المعروف أن كلمة (سكر) نفسها لم تكن معروفة في اللغات القديمة - ما عدا السنسكريتية - لعدم معرفة القوم بالسكر ذاته كما نعرفه اليوم، وعن السنسكريتية، والهنود هم مكتشفو صناعة السكر، أخذت بقية اللغات هذه الكلمة. ولعل اليونان أرادوا التعبير عن الحلاوة فلم يجدوا أمامهم أحلى من الغلوكوسيد - بلغتهم - المنقولة عن السومرية والتي تعني: الفطر. عفواً: التابلكة!

ترفاس:

ليس أقرب إلى "التابلكة" شيء في مملكة النبات من "الترفاس" وهو ما يمكن تعريبه بـ "الكمأ" في مقابل Fungus اللاتينية التي أخذت عنها بقية اللغات الأوربية، وهو ما قد يقابل " فنقل " في اللهجة الليبية، فإن ثمة شبهاً كبيراً بين الفنقل - وهو بثور كبيرة تنبت على الجسم..

عافاكم الله - وهذا الفونقوس، وبين الترفاس.

يقول أثيناوس في كتابه (مأدبه الفلاسفة): إن في ليبيا - وبخاصة حول خليج سرت وصحراء برقة - يظهر كمأ لذيذ عجيب الطعم، يشبه مذاقه مذاق اللحم (الوطني) الفاخر (لاحظ أن هذا الحديث في كتاب "مأدبة الفلاسفة" !) وقد صدق أثيناوس فما ألذ الترفاس فوق الكسكسي أو مطبوخاً مع إدام طيب وما أحلى طعمه!

نقول "ترفاس" ونسأل كالعادة: ما الأصل في الكلمة يا ترى؟ يقول السيد أدي شير في كتابه (معجم الألفاظ الفارسية المعربة): إن "الترفاس" ضرب من الكمأ فارسيته: تُرفاسْ. ويضيف أن ما يرادفها: في الألمانية Truffel وفي الإنجليزية Truffle وفي اللاتينية Tuber ونضيف أنها بالفرنسية Truffel وكذلك Truffe وأيضاً Trufe.

لكن جون أليقرو يرجع هذا الترفاس - وقد يكون الحق معه - إلى الجذر العربي (ت ر ف) أي نعم وكان هشًا.

ورد في (لسان العرب) تحت مادة (ترف):

"الترف: التنعم، والترفة: النعمة، والتتريف: حسن الغذاء، وصبي مترف: إذا كان منعم البدن مدللاً. وفي الحديث: أوه لفراخ محمد من خليفة يستخلف عتريف مترف.. وترف النبات: تروّى، والترفة بالضم: الهنة الناتئة في وسط الشفة العليا خلقة، وصاحبها أترف" .

من الجذر (ت ر ف) إذن يمكن أن نفهم معاني: النعومة، والارتواء، والنتوء. وكلها تنطبق على الترفاس. فهو ناعم، مرتو، ناتئ. وإضافة الألف والسين لها أمثلة في إضافة الواو أو الياء والسين إلى كلمات مثل:

عتر = عتريس = الرجل القوي.

كرم = كرموس = ثمر التين الذي يسمى "كرمًا".

قط = قطوس = الهر أو السنَور. إلى آخره.

ويقرن أليقرو بين " الترف" العربية والكلمة اليونانية " تروفي" Truphé التي تعني بالضبط النعومة softness، كما تعني: هش -del icate ومترف Luxurious.

فمن أخذ عمن.. يا ترى؟

تَفُّونة:

لفظ يستعمل في المنطقة الغربية من ليبيا أكثر من سواه، وربما في طرابلس بالذات، تعبيراً عن السمنة والبدانة: "اشبح ها التفونة!" انظر هذه (السيدة) السمينة! " أو: "يا شينك تفونية! = يالها من بدينة " - على وجه النسبة.

ونحن نجد هذه الكلمة في اللهجة الجبالية: "تفونست" بمعنى "بقرة". ولا جدال في أن تشبيه المرأة السمينة بالبقرة هو أقرب التشبيهات. والتاء في أول الكلمة الجبالية وآخرها علامة التأنيث والسين زائدة لغوية. الجذر إذن هو (ف ن) - وفي التصريف يضاف إليه المناسب من الحروف.

وقد تذكَّر (تفونة) إلى (تَفُّون) في اللهجة الليبية - تقال عادة للصبي السمين البدين البطين.

فإذا لجأنا إلى (لسان العرب) لينجدنا وجدناه يقول:

" من أسماء البقرة: اليفنة - كما يذكر ابن الأعرابي. وعند ابن بري: اليُفْنُ: الثيران الجلة (الضخمة) واحدها: يَفْنُ"

وفي الكنعانية (نصوص رأس الشمرة) كما يذكر فريحة في كتابه (ملاحم وأساطير من أوغاريت): ي ف ت - بقرة.

ولك أن تختار ما شئت: " يفت " الكنعانية، أو "تفونست" الجبالية، أو "اليفنة" العربية. فكلها تؤدي إلى " تفونة " في اللهجة الليبية المعاصرة. حفظنا الله من التفونات التفونيات!!

رتّـــح:

يقول الليبيون: " فلاح مرتّح " أي ساكن لا يتحرك. ويقال في مجال النهي في صيغة الأمر: " رتّح! " أي: اسكن واهدأ، أو هدئ الأمر ولا تثره.

ولعله من العربية: "ارتح" من الفعل الماضي "ارتاح" ولكن المقصود أحيانًا الإراحة وليس الراحة أو الارتياح، والصواب هنا (أرح) أو (اجعله مرتاحًا). إذ إن الفعل (ارتاح) لازم وليس متعديًا.

وقد يستعمل البعض لفظ (اركح) بمعنى: اهدأ، وهذا عجيب، إذ تقلب (الحركة) لفظاً من (تحرّك) إلى (اركح) فينقلب معناها إلى الضدّ: اسكن!

هل الصدفة وحدها هي التي جعلت الفعل ر ت ح RTH في اللغة المصرية القديمة يعني: هَدِّئ restrain؟ أي اكبح جماح الشيء. تحكم فيه. امنع من كذا.. "رتّح" ؟

ساساي:

معناها: الشحاذ، السائل. ويعبر عنه أيضاً في اللهجة الليبية بـ"الوهّاب" وهذا من أسماء الأضداد الجميلة، كما يقال للكفيف "البصير" وللفحم الأسود "البياض".

وفي المثل الشعبي: "فلان ليه خمسين عام يساسي ما يعرفش يقول: يا كريم متاع الله!" أي ظل خمسين عامًا يتسول ولا يعرف التعبير المتداول في الطلب: "يا كريم! (أعطني) متاع (حق) اللّه!" كناية عن العماء والبلادة وجهل الصنعة المفروض أنه يتقنها.

الفاعل (المتسول): ساساي. المؤنث: ساسية.

الفعل (يتسول): يساسي. الماضي ساسَى.

المصدر (التسول): مساساة.

ومن المدهش فعلاً أن نجد اسم "ساسي" بالغ الانتشار، واسم الأنثى

"ساسية" أيضاً وهو أمر يبعث على مزيد من التأمل في البواعث النفسية والاجتماعية لاتخاذ هذا الاسم الذي قد يكون هذا مصدره، وقد يكون له مصدر آخر. وظاهرة الأسماء الغريبة تحتاج إلى بحث آخر ليس هنا موقعه.

(ملحوظة: قارن اسم "شحاتة" في مصر وأصله "شحاذة" أو "شحاذ" بتعاقب الذال والتاء. والشحاذ هو المتسول الطالب. فكأنه من الأصل العربي: شحذ أي حدّد وسنّ كما تشحذ السكين تعبيراً عن الإلحاح في الطلب. ويقال: شحذ الجوع معدته أي ضرمها وقواها على الطعام وأحدّها. والشحذان - بالتحريك -الجائع، وهو من ذلك).

ما علينا. ولننبش عن منشأ هذا " الساساي " . ويبدو لنا أنه جاء من الكلمة المصرية القديمة (س س و) أو كما تكتب لغويًا بالحرف اللاتيني: SSW ومعناها: يفقر - يصير فقيراً impoverish والاسم (س وا) SWA أي: فقير، مسكين، شحاذ poorman (انظر: معجم غاردنر ص 588، 594) فإذا بغينا البحث عن صلة عربية هرعنا إلى الكلمة المصرية الأخرى (س ء ر) SAR ومعناها: الحاجة need, requirement وهذه تقابل اللفظة العربية (سؤل) بابدال اللام راء كما يحدث في كثير من الحالات لا تعد. ولا ننسى أن (التسول) في أساسه جاء من " السؤل " أو " السؤال " وبذا يقابل هذا ذاك.

سقّد:

" سقد " فلان فلانًا أي ودّعه.

فلان " اسقّد " - سافر، غادر، ارتحل، ذهب.

والاسم: المسقَادْ والتسقيد

في المعجم المصري القديم (غاردنر ص 592) نجد (س ق د ي) SKDI بمعنى "يرحل بحراً أو نهراً" Travel by water, fore upon river or sea ومعناها أيضاً: مسافر، ملاح Traveller, Sailor.

وبهذا يمكن تفسير اللفظة " العامية " الليبية بإرجاعها إلى الأصل المصري الذي كان يعني في الأصل (السفر بحراً)، فتحول مع الأيام إلى معنى السفر عموماً بانتقاله من الخاص إلى العام. ولكن ماذا عن العربية.. ونحن لم نجد في القواميس التي بين أيدينا ما يفسر لنا لغز هذا اللفظ حتى " نسقّد " عنه إلى سواه؟!

أغلب الظن أن أصل الفعل في المصرية هو (ق د ى) وأن السين في أوله علامة التعدية للفعل (ق د ى) - يسافر. فإذا دخلت عليه السين (وهذا هو حال المصرية مثلما يعمل الألف في العربية) تَعَدَّي وصار معناه (أسفر) - س ق د ى (تماماً مثل: ذهب / أذهب. خرج / أخرج. فهم / أفهم. وأرجو أن تكون فهمت!).

دليلنا على أن هذه كلمة " سقّد " في اللهجة الليبية تعني: ودّع - وقد يكون أصله: جعله يسافر - أسفر (خاصة بالنسبة لضيف ثقيل تنصح صاحبك قائلاً: سقّده بالله! أو تطلب شيئاً فتلح: سقّدنا باللّه! أي أسرع في ترحيلنا بقضاء حاجتنا)

فلننظر في مادة " قدا " في (لسان العرب) الذي يقول: " تقدت به دابته: لزمت سنن الطريق، وتقدى هو عليها، ومن جعله من الياء (قدي) أخذه من القديان، ويجوز في الشعر: جاء تقدو به دابته، وقدى الفرس يُقدي قديانا: أسرع.. يقال: أتتنا قادية من الناس وجمعها قوادٍ.. والقدو.. القدوم من السفر.. وأقدى إذا قدم من السفر.. "

نفهم من هذا النص أن " القدي " متصل بالسفر، وبالإسراع فيه - على ظهر الدواب بدلاً من (ظهر المالح) وأن " القدو " متعلق بالسفر أيضاً وصولاً ومجيئاً وليس ذهابا فقط - فكأنه من أسماء الأضداد تماماً كما نقول (القافلة) ونعني (الراحلة) بينما معناها الحرفي (الآيبة الراجعة) من: قفل - رجع وعاد (*).

(*) في اللهجة الليبية: «جا يقدي» و«يقطي» = جاء مسرعا. بإبدال بين الدال والطاء.

هل أنت معي أيها القارئ أو تراك سرحت ورحلت بعيداً.. و اسقّدت؟!

شبشب:

لم نكن - في أيامي الأولى على الأقل - نعرف " الشبشب " وهو خُفُ البيت الذي يلبس في أثناء الراحة، يصنع من مطاط أو جلد، فهده كلمة حديثة كنا نعرف القبقاب المصنوع من خشب، وقد جاء اسمه من صوت وقعه على الأرض " قب.. قب " إذ هو " يقبقب " مزعجاً النائمين، ولكن هذا الإزعاج يتحول إلى نغمات موسيقية حلوة إذا كان في قدمين بضتين شابتين! ومبلغ شهرة القبقاب أن أحد الخلفاء العباسيين (لعله المقتدر الذي لم يكن مقتدراً على الإطلاق) قتل به.. فقد قيل إنه مات ضرباً بقباقيب جواريه.. ويالها من ميتة عجيبة!

" الشبشب " جاءتنا حديثاً من مصر، ومن أغنية شهيرة في أحد الأشرطة لمطرب منها كان يغني قائلاً - إن لم تخني الذاكرة:

يا شبشب الهنا يا ريتني كنت أنا!!!

فتأمل!

هل يعنيك أن تعرف أصل هذا الشبشب لغوياً؟

لقد جاء من اللغة الحثية. وهي لغة قوم يدعون الحثيين - وفي التوراة يسمون "بني حث" كانوا يعيشون في الأناضول وعلى أطراف سوريا وكانت لهم علاقة بمصر وطيدة - في الألف الثانية قبل الميلاد. ففي نص أورده فريدريش في كتابه اللغات المنقرضة، ص 78 تأتي كلمة ŠPŠP بمعنى حذاء Shoes - أو بتعبير أدق نعلان أو خفان - إذ لا يجوز الإفراد ولا الجمع في هذا الموطن باعتبار أن للإنسان قدمين! وهي في الأكادية ŠUPU(Šp) بدون مضاعفة أو تكرار تعني (قدم) فلما صارت قدمين (فردتي حذاء) صارت في الحثية " شب- شب " !

شوشان :

كثيراً ما حيرتني هذه الكلمة : شوشان ، ومؤنثها : شوشانة . والجمع : شواشن ، وشوشانات ، وشواشنة ، ومن المعروف أنها كانت تطلق على ذوي السمرة الزائدة ، ولكنها تستعمل استعمالات أخرى ، فقد كنت أسمع أيام الصبا من يهنئ رجلاً رزق بولد في بلدنا فيقول له : " مبروك الشويشين ! " . و " الشوشانة " أيضًا " وصيفة " العروس ، واشتق من الاسم فعل " تشوشن " - فلانة " شوشنت " بنت فلان .

فإذا كانت اللفظة تطلق على شريحة من المجتمع - فيما مضى - فلا شك أن لها منشأ وأصلاً ترجع إليه . فما هو ؟

أغلب ظني أنها محرفة من " سوسن " و " سوسنة " - الزهرة المعروفة بهذا الاسم . فأنت تعرف ، لا ريب ، أن ثمة موجات من الأسماء تنتشر في عصور مختلفة . فقد غلبت مرة أسماء الأحجار الكريمة : زمردة ، ياقوتة ، لؤلؤة ، وحتى ذهبية وفضة .. إلخ ، ومرة أخرى غلبت أسماء التفاؤل : أم الخير ، أم السعد ، هنية ، وما إليها ، وفي عهد ، أو عهود ، انتشرت أسماء الزهور ، ريحان ، ورد ، بنفسج ، ياسمين .. وهلم جرا .. حتى نصل إلى "سوسن" و "سوسنة" .

ويقول ابن منظور إن " السوسن " أعجمي معرب وهو معروف وقد جرى في كلام العرب . قال الأعشي :

وآس وخيرىٍّ ومروٌ وسوسنٌ إذا كان هيزمنٌ ورحت مخشما

قال : " وأجناسه كثيرة وأطيبه الأبيض " .

وفي (القاموس المحيط) للفيروزابادي : السوسن هو المشموم ومنه بري وبستاني .. الواحدة سوسنة .

وإذا كان هذا السوسن معرباً فإن أصله " شوشن " أو " شوشان " كما ينطقه أهل بلادنا ، وكما قرأت مرة في مجلة (العربي) الكويتية ولا

أذكر العدد.. لطول العهد!

ولكن مهلاً. لقد أخطأ ابن منظور في قوله إن "سوسن" معرّبة. إنها في المصرية "س ش ن " SŠN وترجمت على أساس أنها زهرة اللوتس (معجم فولكنر- ص248). وتكتب أيضا (ZŠSN) وهي في الأكادية "شُشنو" Šašinu وهاتان لغتان عروبيتان. فهل يصح من ابن منظور القول بأن "سوسن" معربة عن الفارسية.. سامحه الله؟!

فإن أهمك أن تعرف المزيد عن "الشوشن" فاعلم أنه ترجم إلى الإنجليزية باعتباره Lily (ويعربه المحدثون من العرب: الليلك!) أو بالتحديد كما نقله ج. م كوان عن الألماني هانز وهر: Lily of the val-ley (ليلك الوادي). وحين ننظر في القواميس العربية تحت مادة Lily نجد أن معناها: سوسن، زنبق، نقي، ناصع البياض. وهناك:

ذو أيد ناصعة البياض Lily- handed

السوسن الأزرق Blue Lily

الزنبق - زنبق الفصح Easter Lily

النرجس Narcissus Lily

النوفر. النيلوفر Water-Lily

فأنت ترى أن هذه الـ Lily ترجمت: سوسن، زنبق، نرجس.. بل عربت باسم النوفر.. ولا اتفاق!

لكن أهم ما يهمنا هنا أن السوسن (الشوشن) ألوان، وأشهر ألوانه الأبيض الناصع البياض، وهو أطيبه. فهو من أسماء الأضداد إذن وهو اسم جميل أعجب أهل الغرب فنقلوه، وأصبح اسم " سوسنة " (بالفرنسية Susanne وبالإنجليزية Susan) ذائع الاستعمال بين بنات باريس ولندن، ويتحول كثيراً من باب التدليل إلى " سوزي " Suzy. وهو في أصله الأصيل " شوشانة " .. وياعجباه!

شيباني:

الرجل العجوز، ولا يقال للمرأة العجوز " شيبانية " بل هي " عزوز " اللهم إلا إذا أريد التعبير عن الوالدين معاً فيقال: " الشيابين " وقد تتحول الصفة إلى اسم علم، إذ توجد أسر كثيرة تحمل اسم (الشيباني) وليس الدكتور عمر التومي الشيباني عنا ببعيد.. ولا علاقة للشيباني هنا ببني شيبان - القبيلة العربية المعروفة - كما أنه لا علاقة له بالأهزوجة الشعبية المعروفة: " شيشباني ياباني " .

الأولى، ومنها يزيد بن مزيد الشيباني الشهير، نسبة إلى (شيبان) على وزن (فعلان) ولا يورد (لسان العرب) كلمة " شيباني " بمعنى شيخ، وإن أورد جميع الصيغ المتصلة بالشيب. والثانية - فيما أحسب - ترجع إلى الإيطالية، إذ كان الأطفال يهزجون وهم يطوفون المنازل في عيد المولد، أو لعله عاشوراء، يغنون: " شي شي بانيcé cé bane (هل ثمة خبز؟) ياباني "

وأعترف بأنني لا أعرف علاقة (الياباني) بنا هنا في ليبيا. أو لعله حرف نداء (يا) + باني bane؟

ولم يكتف الليبيون بالاسم - شيباني - بل نحتوا منه أفعالاً ومصادر، فقالوا: شيبن. يشيبن. تشيبين.

ومبلغ علمي أنه لا يوجد التعبير بكلمة " شيباني " عن الشيخ في قطر عربي آخر غير ليبيا، وربما جنوب تونس. أما في المشرق فهو بالقطع لا يوجد فمن أين جاءنا إذن!؟

المرجح عندي أنه ورد مع الكنعانيين (الفينيقيين) الذين أنشأوا أويا ولبدة وصبراتة. أو لعله كان موجوداً قبلهم بحكم عروبة المنطقة منذ فجر التاريخ. فقد جاء لفظ (ش ي ب ن) بمعنى " الشيخ المتقدم في السن " في (أسطورة كرت) من نقوش رأس الشمرة الكنعانية حسبما

يورده أنيس فريحة في كتابه (ملاحم وأساطير من أوغاريت).

الليبيون، والكنعانيون اشتركوا في "الشيباني" - فهل عرف كل شيباني ليبي إلى أين يرجع نسبه؟!

صَبّي:

ما دمنا في مجال الحديث عن بني كنعان فليأخذنا إلى لفظة أخرى في اللهجة الليبية هي: صَبَّي / يصبِّي. والمصدر "تصْبا" والمعنى: قام ووقف. وهي لفظة فريدة خاصة بلهجتنا - فيما أحسب.

في (أسطورة كرت) ترد كلمة (ي ص ب) بالمعنى ذاته: القيام والوقوف. ويقرنها أنيس فريحة بكلمة (وضب) العربية ولكني لم أجد (وضب) في مابين يدي من معاجم بمعنى الوقوف والقيام. فإذا كانت اللفظة الليبية كنعانية الأصل،فإن أقرب مصدر عربي إليها هو (نصب / انتصب) والعجيب أن المصدر العربي (صبأ، صبا) يعني الضدّ من (التصبا) إذ يفيد الميل والانحناء - وليس القيام.

فونشة

إذا كان فهمي صحيحاً فإن "الفونشة" تعني مقدمة الوجه، أو كما يعبر في مصر: المناخير، وهي قريبة من لفظ "الفنوسة"، وتستعمل في موطن التشبيه المستقبح هزؤاً وسخرية. وقد كنت أحسب أنها جاءت من لغة أوربية - كالإيطالية مثلاً التي يلحظ أثرها في اللهجة الليبية بوضوح - لكنني وجدت الأمر بعيداً، وإن كانت بعض اللغات الأوربية تشترك في وجود النون والسين. مثلاً نجد معنى الأنف في:

الإنجليزية: Nose

الهولندية: Neus

الإسبانية: Nariz

السويدية: Nàsa

الألمانية : Nase

البرتغالية : Nariz

الدنمركية : Naese

الفرنسية : Nez

الإيطالية : Naso

فماذا لو قارنا «الفونشة» هذه باللغات العربية القديمة؟

ليكن. فلنقرأ :

المصرية القديمة : ف ن ج FNG

الكوشية : ج ن و ف GENUF

الجبالية : أ ف ن ف ا ن AFUNFAN

الأمهرية : أ ف ن ش ا AFENCA

أنت ترى أن جميع هذه الكلمات تدور حول معنى واحد ومن جذر عربي واحد هو (أ ن ف) - وتختلف الصيغ بعد ذاك. وترى أن أقربها إلى "الفونشة" المصرية (فنج / فنش) والأمهرية (أفنشا) ولك أن تضيف ما شئت من "فنوسة" و"فنطيرة" وغيرها مما هو معروف في اللهجة الليبية بمعنى الكلمة الفرنسية NUSEAU أي "فرطيسة" بالعربية الفصحى كما جاء في (لسان العرب) وهي ذاتها "الفنطيسة" ويجاز أن يقال "الفرطوسة" و"الفرطوس" وهي - أو هو - خطم الخنزير وأنفه. وأنف فرطاس : عريض. ويقال : إنه لمنيع الفرطيسة والفنطيسة والأرنبة. أي : منيع الحوزة حمي الأنف!

ولله في خلقه شؤون!

قرداش:

هذه كلمة لا يعرفها الجيل الجديد، من أهل المدن خاصة. و"القرداش" آلة مكونة من قسمين لتسليك الصوف وتنقيته مما تعلق به من

الشوائب، وتنعيمه وترتيبه في أجزاء صغيرة تسمى كل منها "عميتة" - وهي عربية فصحى - لتغزل بعد ذلك فتتحول إلى " جدّاد " وهي الخيوط الرفيعة وإلى "ردين" وهي الغليظة الكثة، فتنسج منها الأردية والعباءات والجرود.

والفعل: " يقردش " .

والمصدر: تقرديش. والجمع: قراديش. ولا مثنّى - رغم أن الآلة مكونة من جزءين اثنين!

ما أصل "القرداش؟"

فيه قولان:

1- في الكنعانية (أنيس فريحة - ملاحم وأساطير):

ج ردش = قطع. وانتقلت إلى السريانية: قردش Gardesh- بالمعنى نفسه، ولعل الأصل: تقطيع الصوف قطعاً صغيرة (عميتة) كما هو واقع الحال في عملية التقرديش - أو العكس، أي أن القرداش سمي كذلك لأنه (يقطّع) الصوف ويجزئه ويقسمه.

فلنرجع إلى العربية:

" القَرَد - بالتحريك: ما تمعط من الوبر والصوف وتلبد. وقيل: هو نفاية الصوف خاصة.. قال الفرزدق:

أسَيْد خُرَيْطةٍ نهارا ..... من المتلقطي قرد القمام

يعني بالأسيد هنا سويداء، وقال " من المتلقطي قرد القمام " ليثبت أنها امرأة، لأنه لا يتتبع قرد القمام إلا النساء.. و: قرد الشعرُ والصوفُ يقرد قَرَدا فهو قَرِدٌ.. وتقرَد الشعر: تجمع.. والقرد من السحاب: المنعقد المتلبد بعضه على بعض شبه بالوبر القرد "

هذا ما يقوله ابن منظور ومنه نفهم أن القرد (بفتح القَاف والراء - حتى لا يختلط الأمر!) يعني نفاية الصوف، أو تجمعه وتلبده. وهذا واقع في حال القرداش.. فانظرا!

فلمنض لنرى معنى (قَ رَ دَ) وصواحبها، فنجد أن من معانيها (التقطيع) - تمامًا كما هو الحال في الكنعانية والسريانية (*):

قَرَدَ. قَرَمَ. قَرَطَ، قَرش، قَرَمَ.. إلخ

وبذا نجدنا غير بعيدين عن لغة بني كنعان والسريان.. وعن مهمة القرداش.

2- إذا رغبنا في القول بأن الكلمة دخيلة من لغة أخرى - كما هو الحال في كثير من الكلمات - فإن التركية أقربها، للصلة الوثيقة ولوفرة المفردات التركية في اللهجة الليبية.

في التركية نجد كلمة " أرقدش " ذات معانٍ عديدة قريب بعضها من بعض. فهي تعني: الأخ، الصديق، الصاحب، المحبوب، العشيق... إلخ.

فما علاقة هذا بالقرداش؟ تسألني فأجيبك:

ألا ترى أن القرداش مكون من جزءين، في كل منهما صفوف مرصوصة من المسامير الدقيقة تضرب المرأة أحدهما بالآخر فوق ركبتها وبينهما قطعة من الصوف؟ إنها عملية (تعشيق) متواصلة، وتداخل متوال، وبعد وقرب، بين قسمي القرداش فهما أخوان، أو عشيقان، أو رفيقا درب لا ينفصلان، ولا ينفع أحدهما بدون صاحبه في شيء فهما متلازمان كتلازم " الأرقدش " التركي على كل حال. فأي القولين تختار؟!

فيراقيرا:

هذا تعبير يستحق وقفة طويلة.. فهل تستطيع معي صبراً؟!

وهو تعبير حديث جاء في الستينيات بعد ظهور النفط وورود عدد

(*) قارن الفرنسية cardage (تقطيع الصوف). carder de la laine,du coton والفاعل (المقردش) cardeur وبالإنجليزية card: مشق، مشط، سلك، ندف، سرّح (الصوف) = قرد (ش).

كبير من الإخوة الأفارقة في تشاد والنيجر وغيرهما للعمل في البلاد، استعمله الليبيون للدلالة على هؤلاء الإخوة. وكان بعضهم يغضب أشد الغضب حين يسمعه، ولقد سألت إخوة من تشاد: ما معناه؟ هل تستعملونه؟ في بلادكم للدلالة على شيء؟ فأجابوا: لا نعرف معناه، ولا ندري لم يستعمل في ليبيا

المرحوم الأستاذ الشيخ أنتا ديوب، أحد دعاة الزنجية المتعصبة جداً في السنغال، ألف كتاباً عنوانه " أصل الحضارة الإفريقي" The Africain Origion of Civilization. كتبه بالفرنسية، ثم ترجم إلى الإنجليزية. في هذا الكتاب (ص182- 183) يورد ذكراً لقبائل " كارا - كاري" Kara-Kare ويقول: إنها تعيش في شمال شرق نيجيريا، اسم هذه القبائل الأصلي هو كاري Kare ضُعف فصار كاري - كاري، وهذه عادة إفريقية، إذ تسمع: قا- قان - قانق Ga-gan-gang وكذلك: كبسيجي - كبسيجي Kipsigi -Kipsigi من أسماء القبائل. الأعجب من هذا أن " كاري" عند الشيخ ديوب ترجع إلى المصرية القديمة " كا - رع " Ka-Re ومعناها: " روح رع " ! وله نظريته المعروفة في أن الحضارة المصرية هي حضارة زنجية صرفة!!

هل يمكن القول إذن بأن "القيرا- قيرا" هي نفسها "الكاري - كاري" القبائل التي تقطن شمال شرق نيجيريا؟ هذا محتمل جداً. وهو يفسر في الوقت نفسه جهل أهل تشاد - وأغلبهم عرب خلص - بهذه التسمية لأن قبائل الكاري - كاري توجد في نيجيريا وليس في تشاد. يجوز!

غير أن للكاتب والشاعر الإنجليزي المعروف " روبرت قريفز " R.Graves رأياً طريفاً آخر لا بأس من إيراده هنا إذ يقول قريفز في كتابه " الأساطير اليونانية " The Greek Myths: إن قبائل الكاري (المضعفة في الإفريقية) هي نفسها قبائل " القرمنت " الليبية القديمة

Gara- mants اختصر اسمها وحذف المقطع الثاني منه (منت) وقد هاجرت إلى دواخل إفريقيا بعد حروب طويلة مع الرومان الغزاة واستقرت في نيجيريا وما حولها.

بهذا يكون " الكاري- كاري " هم " القرمنت " وهم أنفسهم "القيرا ـ قيرا" فاللفظ إذن قديم جداً، خرج.. ثم عاد!

مازقري:

قريب من " القيرا – قيرا " لفظ " مازقري " وهو أيضاً حديث العهد في الستينيات وما بعدها، استخدم تعبيراً عن اللحوم المستوردة، يوم لم يعد النتاج الوطني كافياً للمواطنين وغير المواطنين. ليس فقط اللحوم الجاهزة المجلوبة في السفن، بل الحيوانات المستوردة كذلك والغنم منها خاصة. "عندك لحم" ؟ الجواب: "مازقري بس!"

وعلى كثرة ما سألت عن منشأ الكلمة، وما بحثت في المعاجم، فإني لم أعثر على مصدر واحد يدلني عليه.. فهل تعرف أنت؟

إن لم يكن، فلا بأس من تخريج ربما حظي بالقبول.. وعلى الله الاتكال!

في ظني أن هذه الكلمة تنقسم إلى مقطعين اثنين: " ماز + قري " وهي ربما جاءتنا هي الأخرى من إفريقيا (أفليس عجيباً أن يتلازم ورود "قيرا ـ قيرا" و "مازقري" في فترة واحدة؟ أليس هذا باعثاً على التأمل.. إيه؟!)

فإن كان الأمر كذلك. فإن المقطع الأول " ماز " لا يعني شيئاً سوى "معز" حذفت العين فصارت "ماز" أو "مز" وكلمة "المعز" هذه كلمة مدهشة فعلاً، وهي ذات تاريخ طويل ربما تعرضنا له في حديث آخر. ومن العجب أمر تصريفاتها في العربية وتلونها بمختلف الصيغ، يقول "ابن منظور" المشكور:

"معز" الماعز: ذو الشعر من الغنم خلاف الضأن، وهو اسم جنس، وهي العنز. والأنثى: ماعزة، ومعزاة، والجمع: مَعْز ومَعَز ومواعز ومعاز، قال القطامي:

فصلينا بهم وسعى سوانا — إلى البقر المسيّب والمعاز

وكذلك: أمعوز، ومعزي.. قال:

أغار على معزاي لم يدر أنني — وصفراء منها عبلة الصفوات

وأمعز القوم: كثر معزهم. والأمعوز: جماعة التيوس من الظباء خاصة.. وقيل: جماعة التياتل من الأوعال.

ورجل ماعز ومَعزٌ ومستمعز: جادٌّ في أمره. ورجل ماعز ومعز: معصوب شديد الخَلْق.. وفي حديث عمر: (تمعززوا واخشوشنوا) - أي كونوا أشداء صُبُراً، من (المَعز) وهو الشدة، وإن جُعل من (العز) كانت الميم زائدة.. "إلى آخر كلامه.. فلينظر في (لسان العرب) تحت مادة (معز)!

أما وقد رأيت كيف تقلبت الصيغ والمعاني بهذه " المعز " أتستكثر بعدها أن يسقط إخواننا الأفارقة من النيجر وتشاد وغيرهما حرف العين فيها وهو دائم السقوط عند غير العرب!

المشكلة الصغيرة التي تواجهنا هي أن " المازقري " لا يختص بالماعز وحده بل هو عادة للضأن. فما الحل؟

الرأي أن ابن منظور نفسه يتحدث عن التياتل والوعول باعتبارها (أماعز) - وماذا يمنع أن ينصرف اسم الماعز إلى الضأن، أو البقر أو الإبل حتى، انصراف الخاص إلى العام - خاصة بالنسبة لمن ليست العربية لغتهم من أهل السوادين؟ وبذا يكون كل حيوان من هذه (معز) - أو بالأصح (ماز).

جائز. أليس كذلك؟

فلننتقل إلى المقطع الثاني: "قري" وهنا لا بد من جولة لغوية قصيرة.

وظني أن كلمة " قري " تعني : الأسود. ولهذا أمثلة عديدة من لغات عدة.

التركية: قرا = أسود. ومن ذلك: " قرا - قوز " وهو ما يعرف في مصر باسم " الأراجوز " - الدمى المحرّكة الممثلة الهزلية المعروفة. ومعناها الحرفي: العيون السود!

الأوردية: قلا Gala = أسود (ويسمى الباكستانيون السود في بريطانيا Gala Tines وهو تعبير منحوت)

وقد يكون النطق الأصلي "قرا" أو "كرا" ونقارن هنا جامعة "عليكرة" والأصل "علي كرا" (علي الأسمر. إن شئت).

وحتّي في الروسية نجد "كرا" =(قرا) تعني "أسود" و "الإخوة كرامازوف" في الرواية الشهيرة معناها حرفياً: الإخوة المطليون باللون الأسود / الإخوة السمر.. كما حدثني صديقنا الدكتور عماد حاتم. (بعد الثورة الشيوعية لا بد أن يقال: الإخوة القرامزة! أو الإخوة القرمزيون! والألوان تتداخل أحيانًا) وفي روسيا أيضا نوع من الخراف يسمى " كرا - كول " وهو ذو لون أسمر أو أسود ثابت طبيعيًّا.. طبعا. وله مزارع خاصة يربى فيها... وهذا قريب جدًا من "ماز-قري".

والعربية؟

هناك (القار) وهو الزفت الأسود الذي تطلى به السفن قديمًا وتعبد به الطرق حديثًا.

"قري" إذن تعني "الأسود" و "ماز-قري" تعني: "الماعز الأسود" أو "ماعز بلاد السودان" تمييزًا له عن المعيز المالطي، مثلاً، المشهورة بوفرة الحليب وقلة اللحم، والمعنى العام " ماشية السوادين " = الماشية المجلوبة المستوردة = مازقري!

هل يرضيك هذا؟

أو ترى أن "المازقري" لا يخرج عن كونه "ماعز كاري-معيز كاري"

في شمال شرق نيجيريا.. وبذا نعود إلى الفقرة السابقة من جديد؟.

سواء كان الأمر هذا أو ذاك فإنه لا يمكن حل مشكلة "المازقري" المستعصية إلا بالنتاج الوطني الممتاز!!

واو:

يجرنا حديث "القيراقيرا" و "المازقري" إلى كلمة أخرى قريبة من تلك الأصقاع التي نحسب أن هاتين المفردتين جاءتا منها.. تلك هي "الواو". وليس المعنى حرف العطف بالطبع، بل المقصود بقعة في الصحراء بها شيء من ماء وشجر قليل تدعى "واو".. مثل (واو حريرة) و (واو الناموس) وغيرهما في صحراء فزان.

هذه "الواو" ترجع في أصلها إلى المصرية القديمة وتكتب صوتيًّا WW - أو بدقة أكبر W>W - وكانت تطلق في القديم القديم على منطقة النوبة، ومنها جاءت كلمة "وأو" W'W ومعناها: البعيد القصيّ، النائي.

وقد تترجم "الواو" إلى "الواحة" وهذه أيضاً في المصرية القديمة "و ح أ ت" WH'T ويقول الباحثون المنقبون النابشون: إن أصل الكلمة يعني: الخلقين. أي قدر الماء الكبير. أي القزان.. أي الكازان - كما نعرفه في لهجتنا (أليس الأفضل أن نقول: الخزَان؟ فهذا هو أصل الكازان في الواقع - عربي انتقل فحرف فعاد إلينا محرفًا!) فكأن "الواحة" شبهت بالقدر لانخفاضها في أرض الصحراء المنبسطة يحتوي ماءً.. فهو خزَان.

ومن المصرية - يقول الباحثون أيضاً - جاءت الكلمة اليونانية "أويسيس" Oasis وتجمع بقلب حرف i إلى حرف e في الإنجليزية Oases وما خبر شركة النفط عنا ببعيد!

فأين هذا من لغتنا العربية الشريفة يا ترى؟ وهل نكتفي بربط الصلة

بين المصرية واليونانية والإنجليزية ونقف مكتوفي الأيدي متفرجين؟

كلا.. وربك!

وظننا أن كلمة " و ح ت " المصرية لم تكن تعني خزانًا كبر أو صغر. ولكنها في الأساس هي " و ح ف " العربية بإبدال الفاء تاء، وتسألني ما هو "الوحف"؟ ويجيب (اللسان):

"الوحف" من النبات والشعر ما غزر وأثت أصوله واسودّ، وقد وحف يوحف وحافة ووحوفة. والواحف كالوحف.

قال ذو الرمة:

تمادت على رغم المهاري وأبرقت   بأصفر مثل الورس في واحف جثل

والوحفاء: الحمراء من الأرض.. وقال بعضهم: السوداء.. والوحفة قارة مثل القنة غبراء وحمراء تضرب إلى السواد. وقال أبو عمرو: الوحاف ما بين الأرضين ما وصل بعضهما بعضًا.. والوحفاء من الأرض فيها حجارة سود وليست بحرّة".

هل رأيت كيف أن " الوحفة " قارة - بفتح الراء دون تشديدها - مثل القنة غبراء وحمراء تضرب إلى السواد؟ هل رأيت أن " الوحف " ما غزر من النبت واسودّ؟ هل رأيت أن " الوحفاء " من الأرض ما كان فيها حجارة سود وليست بحرة؟

هل رأيت - أخيرًا - أن هذا كله ينطبق على " الواحة "، وهي ذاتها " و ح ت " المصرية، وهي نفسها " الواو"؟

وسواء بعد ذلك أكانت نشأة "الواو" في النوبة - لغلبة السواد - أم في الصحراء الليبية لاحمرار تربة الواحة وغبرتها و نمو العشب المسود فيها متميزة عن رمال الصحراء الصفراء (مثل الورس) كما يقول ذو الرمة فإنها لا تخرج عن " الوحفة " العربية في أصلها العتيق.

يم يم:

في اللهجة الليبية يقال: عرب يَمْيَمْ، وكلمة (عرب) هنا تعني: ناس، قوم، ولا تفيد المدلول السلالي بالطبع، والمقصود منطقة في إفريقيا جنوب الصحراء. وفي مصر يسمون " نيام نيام " ويقال إنهم من أكلة لحوم البشر.. هكذا يقال!

الأصل القديم في القاموس المصري "يام يام" Yam Yam– وهي تعني بعض القبائل الإفريقية كما هو ثابت في النقوش الهيروغليفية قطعاً وهذا ما يوافق "يم يم" الليبية بالضبط. ولا تقدم المعاجم والقواميس معنى الكلمة في ما بين يدي كي نبحث عن نشأتها الأولى وما لنا إلا السؤال:

هل هذه الكلمة تضعيف ـ أي تكرار ـ لمقطع "يم" فصارت "يم يم" كما هي العادة في أسماء القبائل الإفريقية وكما رأينا في "قيرا ـ قيرا"؟

هل للكلمة "يم" أصل في المصرية القديمة يعادل كلمة " أمْ" AM والتي تعني "يأكل" ـ وصفاً لأكلة لحوم البشر كما اشتهر الأمر؟

قد يكون، وعلى هذا فإن " يم يم " = أمْ أمْ، وهذه تساوي بالضبط "هَمْ هَمْ" وهو التعبير عن الأكل والمضغ والبلع!.

و "هَمْ هَمْ" هذه قريبة الصلة بالكلمة العربية الواضحة: " التهم " يلتهم، فهو ملتهم.. وفي لغة الطفولة نقول: هَمْ.. هَمَّة وقد نكرر: هَمْ هَمْ. همَّة همَّة!

يحسن أن نقف عند هذا الحد حتى لا ينفلت الأمر المهم، ونتحول إلى الحديث بلغة (عرب يميم). ونقول كما يقول الأسلاف:

الله أعلم!!

المراجع

(1) ابن منظور، لسان العرب - إعداد وتصنيف : يوسف خياط ونديم مرعشلي. دار (لسان العرب) بيروت.

(2) أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، الجامعة الأمريكية، بيروت 1966 .

(3) إلياس أنطون إلياس، القاموس العصري - الطبعة الثالثة عشرة

(4) منير البعلبكي، المورد - طبعة 1978 م.

(5) الفيروز اباذي، القاموس المحيط. عقاقير القاموس. مستخلص بقلم جميل حسين الحرباوي، مجلة (التراث الشعبي) العدد 5 السنة 10 - بغداد 1979.

6) J.Allegro: The Sacred Mushroom and the Cross. Hodder and Stoughton. London. 1970.

7) F.Bodmer: The loom of languages, Allen and Unwin, London, 1944.

8) J. Bynon : Berber Nursery Language, Philological Seciety, London, 1969.

9) M. Cohen: Essai comparatif sur le vocabulaire et la phonetique du chomito-Semitique, Paris 1947.

10) A. Diop: The African Origion of Civilization, Lawrence Hill and Co. West port, U.S.A. 1947.

11) J.Friedrich: Extinct languages, Philosophical library, New York, 1954.

12) A. Gardiner: Egyptian Grammar, Oxford, 1979.

13) R. Graves: The Greek Myth Pelican Books, 1980.

14) Oxford Concise Dictionary, 5th Edition.

15) Riemschneider: An akkadian Grammar. Marquette University, Wiscounsin, 1976.

في اللهجة العامية الليبية

تختلف اللغات وتتباين عند شعوب العالم، وهي تنشأ عن أصل واحد ثم يتطور كل فرع منها على حدة، بحكم ظروف وعوامل كثيرة، حتّى لا يكاد المرء يلحظ شبهًا بينها عند سماعها. وإذا كان بعض علماء اللغات والألسن أرجعوها إلى عدد من المجموعات الرئيسية الأولى - مثل المجموعة السامية والآرية الهندية وغيرها - فإن بعض العلماء يقولون بأن اللغات البشرية جميعها ذات أصل واحد تفرعت بعدئذ إلى مجموعات، وانقسمت المجموعات إلى جماعات أقل فأقل، حتى باتت على ما هي عليه اليوم. وهي ستتفرع في المستقبل في اللغة الواحدة حتى تكون عدة لغات. وماحدث في اللغة الأنجلو - سكسونية سوف يحدث بالنسبة للغة الإنجليزية، إذ تنشأ، وهي بدأت بالفعل، لغة أمريكية وكندية وأسترالية.. إلى آخر النسب للبلدان والأماكن.

وتختلف اللهجات في اللغة الواحدة باختلاف نطق الحروف والكلمات حتى تغمض على غير أهل القطر رغم أنها من اللغة ذاتها، ونضرب لهذا مثلا اللغة العربية، فلهجة أهل العراق يصعب فهمها على أهل المغرب إلاّ أن يرجع الفريقان إلى العربية الفصحى ليفهم بعضهم بعضًا.

وكذلك لهجة أهل السودان وليبيا، أو موريتانيا ومصر.. وغيرها من الأقطار العربية، وقد يكون الاختلاف في تسمية الأشياء أو في الأفعال مما يعسر فهم المراد وإدراك المعنى المقصود. ومرجع هذا إلى أمرين: إما استعمال قطر لكلمة درست في قطر آخر وماتت فلا تعرف فيه وجهلها أهله، فصارت غريبة غير مفهومة - رغم صحة الكلمة في

اللغة العربية بشيء يسير من التحريف.

ونضرب لهذا مثلاً كلمتين شهيرتين في اللهجة الليبية:

أولاهما كلمة " قَعْمزْ " - التي تعني الجلوس والاقتعاد وما يشتق منهما في هذا المجال. وهي تنطق في شرق البلاد " قَمْعزْ " بتقديم الميم على العين. وفي (القاموس المحيط) للفيروزاباذي أن الكلمة هي "قَعْفَزْ"- بالفاء بعد العين ولا ميم فيها. وتعني: الجلوس بهئية معينة هي بين القعود والقفز. فهي مركبة من حرفين من كلمتي " قعد " و " قفز " أخذ الحرفان الأولان من " قعد " والحرفان الأخيران من " قفز " فتكون فعل رباعي استعمله الليبيون لمعنى معين.

وثانيتهما كلمة " بَاهي " وهي من أرق الكلمات وأطيبها ،ولها استعمالات لا تكاد تحصى، ولكن المعنى الإجمالي هو البهاء على كل حال. وكان المفروض أن يقال: "بهيّ" نسبة إلى البهاء - فصارت "باهي" بمد الباء.

وإذا كانت الكلمتان تستعملان في ليبيا أكثر من سواها فهما معروفتان في بلدان أخرى، فإن الأولى متداولة في صعيد مصر والثانية مستعملة في تونس، وهي في اليمن "ناهي" بالنون بدلاً من الباء.

أما الأمر الثاني الذي يفرق بين اللهجات في اللغة الواحدة فهو ما يدخل عليها من كلمات أجنبية عن اللغة الأم، تصبح بحكم التطوَر والاستعمال جزءاً منها تطبعها اللهجة بطابعها وتعيد صياغتها بحيث تختفي معالمها الأصلية فلا يظهر للوهلة الأولى، أنها كلمة غريبة عن اللغة التي انبثقت اللهجة عنها. وهي بذلك تختص بقطر دون آخر رغم وحدة اللغة الرئيسية. ولهذا أسباب عديدة، منها صلة أهل القطر بالبلاد الأجنبية جواراً أو استعماراً أواتصالاً تجاريًا أو نحوها.

ففي لهجة العراق مئات من الكلمات الفارسية والتركية، وكذلك في الخليج. وعند عرب المغرب ألفاظ فرنسية أو إسبانية عُرِبَتْ - أو

مُغربت - بطريقة أو بأخرى، وصارت جزءاً من اللهجة لا يكاد يُعرف أصلها - ونجد ألفاظاً كثيرة في لهجة أهل مصر مثلاً قد لا يعرف مصدرها إلاّ بالبحث والدراسة وإن كانت تبدو مصرية صميمة.

فهم يقولون في مصر مثلاً: " استبينا " - بمعنى اتفقنا على هذا الأمر. وهي - فيما نرى - من الإيطالية (Sta bene) بالمعنى ذاته.

ويقول صاحب المقهى للقادم متأخراً: "شطّبنا" - بمعنى: قفلنا، ولا نستطيع تقديم خدمة لك. والأصل من الإنجليزية: (Shut up) بالمعنى نفسه، ويقولون: "فلان مريّش"(*) - أي غني ذو مال. وهي من الإنجليزية (Rich). وفي القاهرة - عند المقطم - توجد " القرافة " وهي مدفن قديم مشهور، ولعل لها صلة بكلمة (Grave) أي قبر أو (Graveyard) = مقبرة. ويقولون: "بُقّ" - بمعنى: فم. وهي تنطق بالألف بدلاً من القاف بحسب نطق القاهريين وهي من الإيطالية: (bocca) أو الفرنسية: (bouche). ويقولون: " سجق " وهي الأمعاء المحشوة المجففة مما عرب بلفظ " النقانق " وأصلها في الإنجليزية (Sausage). ويقولون: "ورشة" وهم يعنون: المصنع الصغير، أو محل إصلاح الآليات غالباً. وقد لا يعرف أحدهم أن الأصل من الإنجليزية: (Workshop). وهكذا نجد أنفسنا - لو مضينا في عملية الاستقراء هذه - أمام عدد وفير من الكلمات الدخيلة التي صارت جزءاً من اللهجة بغير جدال.

ليست الغاية هنا دراسة مقارنة ولا تحديد مدى أخذ لغة عن أخرى، فإن هذا باب واسع قام فيه العلماء بجهد كبير مشكور. وقد بات مسلّماً به أن اللغات - رغم اختلافها - يأخذ بعضها عن بعض ويتأثر كل منها بغيره من الألسن، وصار من المسلّم به أيضًا أن اللغة العربية

(*) فلان " مريش " - في اللهجة الليبية تعني العكس تمامًا، إذ تدل على الفقر المدقع، والأصل أنه " منزوع الريش " فيما يبدو.

أعطت الكثير للغات الأخرى، خاصة في مجال العلوم والفنون والآداب والمعرفة الإنسانية، حتّى لتعد آلاف الكلمات في اللغات الأوربية الحديثة ذات أصل عربي، أو هي عربية حتّى الآن.

فلنترك مجال العلم والفلسفة والطب والكيمياء والفلك وأدوات الحرب والإدارة، فإن القواميس تعج بالكلمات العربية التي أخذها الأوربيون عنا وصارت من مفردات لغاتهم، ولنضرب بعض الأمثلة من الحياة اليومية في بلاد الإنجليز مثلاً. فإذا قال الإنجليزي: (come on lad) فهو لا يعرف أن كلمة (Lad) من العربية: "ولد" أو (chap) من "شاب". وعندما يغني البحار الأسكتلندي Good old Platy فهو لا يدرك أن كلمة (platy) ليست سوى "بلادي" العربية. وحين يخطر في ميدان لندن الشهير (Trafalgar) لا يخطر بباله أنها «الطرف الأغر»[1]. دعك من كلمات: (noble) بمعنى: نبيل. أو: (syrup)= الشراب. أو (Lenity) = لين. أو (cable) = حبل[*] إلى مئات الكلمات التي يستعملها المواطن الإنجليزي في حياته اليومية ولا يدري منشأها ويحسبها من لغته الأم، وهذا يحتاج إلى مقال آخر.. إن شاء الله.

وقد حدث في اللهجة العامية الليبية الشيء ذاته. إذ هي أخذت عدداً من الألفاظ والكلمات عن مصادر أخرى غير العربية تكونت بحكم الزمن وتطوّرت حتى باتت تُعدُّ من جملة مفرداتها. وهذا ما يلفت النظر في هذه اللهجة.

إننا لسنا في مجال الحديث عن التعريب. فقد حسمت هذه القضية أو كادت في ليبيا. وكانت الشوارع والمحلات منذ سنوات

(1) هذا هو الاسم المتداول. لكن المستشرق J.B.Trend في مقالته عن أثر العرب في إسبانيا والبرتغال Legacy of Islam – ص 25– طبعة أكسفورد 1968 م يقرر أن الصواب هو: طرف الغار. (أي: رأس الكهف أو حده الأقصى).

(*) الأولى: كابل من: كَبَل = ربط بالأغلال = حبل حديد.

قليلة تموج بآلاف الكلمات الأجنبية الصريحة التي يعلم الناس جميعًا أنها ليست عربية على الإطلاق، وكانوا مع هذا يستعملونها ببساطة متناهية كأن لا مفر منها ولا بديل. فلما تقرّر التعريب الكامل الشامل وجدوا البديل سهلاً ميسراً في متناول الجميع. وأصبح "التليفون" الهاتفَ، و "الجاراج" المستودعَ، و "البنك" المصرف، و"الميكروفون" ناقلَ الصوت أو مكبره و "الشيك" الصكَّ.. هكذا إلى مئات الكلمات والمسميات، دون عناء. وصار القوم يسخرون ممن يلفظ لفظًا أجنبيًّا رغم وجود اللفظ العربي. ويستطيع المراقب القول بأن التعريب في ليبيا نجح بقدر لم يُرَ في غيرها من البلاد العربية مما يبعث على الفخر والاعتزاز حقًّا.

كما أننا لا نعالج المفردات الأجنبية (والإيطالية بصفة خاصة) التي كانت تستعمل بين الناس واتخذوا الكلمات العربية بدلاً منها، مثل: مَرْشَبِيدي (رصيف) بينًا (قلم حبر) بْلاَصَة (مكان أو وظيفة) بَرقِزْ (تقاعد أو اعتزل العمل) سْكُولاَ (مدرسة).. إلخ. فإن هذه عُربت وانتهى أمرها.

ولا نهتم بما يتعلق بالآلة مما لا يزال يسمع حتى اليوم مثل: سْتِيرَسُو (عجلة القيادة) فْلِيتْشا (إشارة السيارة الضوئية على الجانبين) فْرِينُو (الكابح).. وغيرها فهي في طريقها إلى التعريب وإن لم تنقرض بعد.. ولا نوجه عنايتنا إلى ما كان يسمع ثم مات استعماله في الحياة اليومية،من مثل: سِينمَا (دار العرض) تْياتْرُو (مسرح) تْرِيبُونَارْ (محكمة) فَرْمَاشِيَا (صيدلية).. وهلمَّ جرًا.

ذلك لأن المفردات الأجنبية في هذه الجوانب وغيرها معروف أنها ليست عربية. وهي وإن كانت استعملت فلقصور في معرفة المقابل العربي، أو جهل، أو غلبة العادة على الناس.

حديثنا هذا ينصبّ على اللهجة العامية الليبية وليس على

اللغة العربية في ليبيا ، ومؤداه ما سبق بيانه من أن ثمة مفردات في هذه اللهجة هي في الغالب غير عربية ، استعيرت من لغات أخرى بحكم الصلة والاتصال وتبادل اللغات والألفاظ والكلمات دون أن يدرك الكثيرون أنها ليست من العربية في شيء. والغاية هي رصد هذه الألفاظ ومحاولة العودة بها إلي أصولها بقدر مبلغ العلم وتيسر السبيل ، ومعرفة منشئها الذي جاءت منه. فقد يكون في هذا الأمر فائدة للمتخصصين من علماء اللغة ودارسي اللهجات ممن يستطيعون تتبَع الأمر بنصيب أوفر من العلم وقدر أكبر من التخصص في البحث.

وهذه - فيما يلى - بعض المفردات الراسخة في العامية الليبية مما تيسر جمعه ، وأمكن شرحه ، وحاولت البحث عن جذوره وأصله ، مما يدخل في باب البحث أكثر منه في ميدان التحقيق والتقرير. فإنما هو اجتهاد.. ولكل مجتهد نصيب.

اسفِنزْ:

وتنطق أحيانا (افْسنز).

مأخوذة عن (اسفنج). إذ يقلب الليبيون حرف الجيم زايا في بعض الكلمات ، فيقولون مثلاً : (زُوزْ) بدلاً من (زوج) و(زايز) بدلاً من (جائز) ، وهكذا. ويغرق أهل المدينة القديمة بطرابلس في بعض الأحيان فيقلبون كل جيم زاياً أو هو حرف بين الجيم والزاي ، فينطقون : رازل (راجل) - زاي (جاي) - زمعة (جمعة) - إلخ.

و(السفنز)عبارة عن الرقائق في الزيت ، تلقَى فيه عجينةً لينة مدحوَّة فتتشرَّبه كالإسفنج ، تكون فطوراً معروفاً خاصة في فصل الشتاء ، وقد تفقس بيضة بين رقاقتين تزيده لذة ونفعاً. فإن كان التشبيه جاء من "الإسفنج" المعربة فإنها بالإنجليزية :(Sponge).

بيوش :

وهو معول الهدم، أو أداة الحفر، غير الفأس. يتكوّن من رأس ذي جانبين أحدهما مدبّب ينقر به الجدار أو الأرض والآخر مفلطح يغرز لينجذب به المطلوب هدمه أو حفره.

وفي الفرنسية تعني كلمة (boucharde) قادومًا خاصًّا بقطع الأشجار يعرف في الإنجليزية باسم (bush- hammer) وتطلق كلمة (Hammer) الإنجليزية على أنواع مختلفة كثيرة من القواديم والمطارق وأدوات الحفر والنقر والقطع. كما أن " البيوش " الليبية تستخدم للقطع أيضًا مثلما تستخدم في الحفر.. إذا لزم الأمر

ولاحظ الصلة بين كلمات " البيوش " (bush) و(boucharde).

بصّاص :

ومنها الفعل (يبص). والمقصود هنا: الجاسوس. وهي قريبة من الإيطالية: passare بمعنى التمرير - أي تمرير الأخبار ونقلها.. ولعل لها أصلاً عربيًا من (بص)، أي نظر وبصر. لكن ما يرجح أصلها الإيطالي أن " البصاص " لا تعني الناظر المراقب في العامية الليبية بقدر ما تدل على الوشاية، يقال: " فلان عدّي بص في فلان " أي وشي به - لدى السلطة غالباً.

بازين :

أشهر أكله ليبية، تفرد بها الليبيون دون غيرهم. وهي كالعصيدة في بعض البلاد - غير أن إدامها من الخضر واللحم وليس سمنًا أو زبدًا ونحوهما.

و " البازين " : كتلة من الدقيق المعجون المطبوخ، يُدعك في القدر ثم يكوّر حتى يتحول إلى شكل قبة تثبت وسط القصعة ويدلق فوقها الإدام

واللحم. ويقتطع الطاعم لقمة بعد أخرى من كتلة العجين المطبوخ يخلطها بالإدام حتى تلين ثم يبتلعها.

ولم أجد في القواميس نوعًا من الطعام هذا اسمه،وفي " لسان العرب " وردت مادة (بَزَل) بمعني: شق. و(بَزَم) بمعنى: الشدة: وفي مادة (بَزَنَ): شيء يتّخذ من الصُّفْر للماء وله جوف، أصله (آبزن) الفارسية،حوض من نحاس يستنقع فيه الرجل.

فهل ثمة علاقة بين هذه الكلمة والكلمة الإنجليزية basin أي الحوض؟أو لنقل:القصعة؟ أم نلتفت إلى المالطية التي يقول قاموسها إن كلمة bezzun كعكة أو قرصة مثل القَطائف؟

أم نترك هذا وذاك ونشير إلى ما تعرفه اللهجة الليبية عن (البَزُّول) وهو نهد الكاعب، فقلبت الحروف وبقي التشبيه؟ وهذا ما يقارب المالطية أيضاً حين يقول أهلها Ghamel bezzun (عمل بزون) أي: سبب انتفاخًا أو نتأ.

بَالَة:

ونحن نعرف أن "البالة" بمعنى "حزمة" دخلت القاموس العربي من الإيطالية balla والإنجليزية bale وهي تستعمل للمعنى ذاته في اللهجة العامية الليبية: " بَالَةْ تِبنْ " .. " خمس بَالاَتْ خُرْطَان (أي: عشب مجفف للعلف أو نحوه) " غير أن لكلمة " بالة " معنًى آخر في هذه اللهجة وهو: الجاروف أو ما يعبر عنه في الإنجليزية بلفظ Spade وهي من الإيطالية.

بَطْشة:

وفي رواية: " بَتْشَة " وتُجمع على " بَطشْ " أو " بَتْشْ " ، وعند العدّ يقال: "بَطْشَات" .. "خمس بطشات.. ثلاث بَطشات بَطشْتين" هكذا.

و "البطش" هي تلك الكرات المعدنية أو الزجاجية التي يلعب بها الصبيان، وتعرف في مصر باسم " البِلْية " التي نرجح أن أصلها من

كلمة billiard وفي قاموس اللغة المالطية تكتب doc'c' نطقها مما هو في لهجة الليبين، وتؤدي الغرض ذاته.

أما في قاموس الإيطالية فإن كلمة boccia (وتنطق: بُتْشَ) لعبة بأخشاب توقف وتضرب بكرة خشبية.

بَـنَّة:

لهذه الكلمة معنيان باختلاف غرب ليبيا وشرقها. فهي في الغرب تعني: الطعم. وهي في الشرق تعني: الرائحة.

ويقال في غرب البلاد: " هذا الشيء بَنْتَه باهْيَة " يعنون: " طعمه لذيذ " ويقال في غربها " بنَّة طيبة " أي: رائحة طيبة.

وفي " لسان العرب " تخصيص واضح: البنَّة هي الرائحة الطيبة. فلا حاجة لوصف البنَّة بالطيب لأنَ ذلك من معناها.

وفي المالطية benna= الطعام. و benin= شيء له طعم و bennen= صار له طعم. وهم في هذا مثل أهل طرابلس ونواحيها. فهل هناك صلة بين (البنة) و bene الإيطالية، أو bon الفرنسية.. يا ترى؟

بُوقَالَة:

وهي الجرّة الصغيرة التي يُشرب منها مباشرة. وتذكّر أحيانًا فيقال: "بُوقَالْ، وهي ليست "البرادة" ولا "الفرخية". والأصل إيطالية هي: boccale.

بَسْكِلْ:

وتضخَم السين حتَى تكاد تكون صادًا (بصْكلْ). وهي كلمة خاصة بشرق ليبيا، ولم أسمعها في غربها. والفعل منها: (يبسكل) والاسم: (تبسكيل)، والمعنَى: النظر إلى الفتاة أو المرأة بعين التأمل والتفحص مما يدخل في باب القياس والوزن. فالناظر (يزن) ما أمامه من الناحية الجمالية ليصدر حكمه، والأصل إيطالي: pescola = ميزان.

بْياصِي:

أو في نطق آخر: " بياتسي " صفة غير حميدة للفتي المستهتر المتهتك. " هذا واحد بْياصي " وتجمع على " بياصيَّة " . أو تحدد بالإضافة فيقال: " هذا ولد بياصة " أي أنه غير منضبط ولا محتشم.

و " البياصة " في الإيطالية piazza = الميدان، الذي هو في القديم قلب المدينة ومركزها حيث يتجمع اللاهون والمتشردون ويتعلمون أشياء كثيرة يعلمونها لغيرهم في الأغلب.. فتعمّ الفائدة والمنفعة.

بيجَامَة:

وقد عرّبها المرحوم محمود تيمور بلفظة " المنامة " وهي معروفة في العالم العربي كله تقريبًا باسمها الأجنبي رغم جهود تيمور المشكورة. والأصل الإيطالي معروف: pigiama.

بِيلِيكْ:

في المثل الليبي العامي: " حمار بِيلِيكْ نَتَشْ قَرْعة " كناية عن هوان الأمر وعدم أهميته. أي حمار مشاع (عمومي - مؤمم) قضم قرعاً. فلا الحمار ذو صاحب خاصّ مالك له - إذ هو مشاع - يرجع إليه للشكوى، ولا القرع ذو قيمة تذكر توجب النزاع والخصام.

وكلمة " بيليك " هنا قد تنطق أحياناً " مْبُولكْ " أو " مْبِيلْكْ " بمعنى شيوعيته. واشتقوا منها أفعالاً: " يبولك- يبيلك " .

وهو من الإيطالية Pubblica - في الإنجليزية :public.

تسْتمَالْ:

هكذا تنطق في طرابلس، وفي غيرها: (تسْتمَال). وهو أحد مكملات لباس المرأة الليبية، عصابة تربط على مقدمة الرأس، تلبسها

النسوة الكبيرات السن. أو منديل حريرى يثبت على الرأس بطريقة خاصة عند الصغيرات.

أليس هو بالإيطالية إشارة إلى (الرأس المريض) = Testa male.

تِرِمْفَيْ:

وهي " الدراجة النارية " . وتسمّى أحيانًا: " الطقطاقة " إذ هي "تطقطق " بصوتها المزعج في الشارع والأزقة. ولو أن " الطقطاقة " تعني: المدفع الرشاش كذلك - وكان هذا الاستعمال شائعًا حتى الخمسينيات.

هل خلط الليبيون بين الـ Tram way الإنجليزية والمعروفة في مصر باسم "الترام" أو "الترامواي" وبين الدراجة النارية؟ هذا جائز إذا علمنا أن " الترام " لم يعرف في ليبيا قط ولم يره أهلها.

هل يمكن أن تكون كلمة "تِرِمْفَيْ" تحريف لكلمة Triumph الانجليزية.. وكانت علامة معروفة لإحدي كبريات الشركات صانعة الدراجات في بريطانيا؟

هذا أقرب إلى الاحتمال، كما يعبر بعض الناس عن آلة التصوير - أيًا كانت - باسم " كوداك " وعن الثلاجة (أو البراد) باسم "فريجيدير" وهما علامتان مشهورتان، لكن ثمة غيرهما كثير مما لم يشتهر وإن كان يستعمل ويستفاد منه.

تِكَّامِيّة:

أو بضم التاء: (تُكَّامية). والمقصود: عقدة رداء المرأة أو عباءة الرجل أسفل الكتف الأيسر قريباً من القلب.

وهي قريب من الكلمة الإنجليزية Token . أوليست هي الإيطالية Tocca mia؟ ثم لا ننسى كلمة Toga اللاتينية التي تعني: العباءة.

تيرَة:

لعبة معروفة عند الصبيان في ليبيا. أدواتها: عصوان. إحداهما طويلة والأخرى قصيرة. وينقر في الأرض نقر مستطيل توضع فوقه العصا القصيرة المدبّبة الطرفين عرضاً. يقف صبي على بعد مناسب أمامها ،ليلتقطها حين يصيح منافسة: " تيرة! " وهو يضع العصا الطويلة في النقر ليقذف بالقصيرة إلى أبعد ما يكون. فإن التقطها الآخر استبدل مكانه به، وإلاّ حسبت المسافة بالخطوات لصالح القاذف.

وفي الإيطالية: Tirare أي: شدّ - رمَي - أطلق - قوس. و-Tir ata أي: طلقة - رمية - رشقة.

بيثَر:

هكذا تنطق في منطقة غرب طرابلس. وهي في مصراتة وما حولها (أبيتَرْ)، يقال: " كَرْمُوس بِيثَرْ " (أو: أَبِيتَرْ) - يقصد: تين يطرح مرتين في السنة، أو التين المبكّر.

والكلمة ذات أصل لاتيني: bifer = التين الذي يحمل مرتين.قلب حرف F ثاءً أو تاءً.

جينْتُو:

بمعنى: الجمع الغفير من الناس، أو الناس عموماً. يقولون: " مَامنْ جينْتُو! " أي: " ما أكثر الناس! " .

والكلمة مأخوذة عن الإيطالية: Gente وهي عبارة عن اللاتينية: Gens أفلا تكون عن العربية: أجناس؟

حُوْلي:

وهو عباءة الرجل الليبي التي تعرف عادة باسم " الجرد " غير أن (الحولي) يكون أدق صناعة وألطف نسيجاً. ولعل النسبة جاءت من

الخروف الحولي، يجز صوفه وهو لم يتم الحول (أعني العام الواحد) بعد، فيكون أنعم من صوف الكبش.

لكن قاموس الفارسية يثبت أن " الحولة " هي العباءة أو الثوب الطويل، ولك أن تختار!

خِنْزِيرْ:

وليس المراد هنا ذلك الحيوان المعروف باسم (الحلوف) عامة. بل إن الليبين يريدون بـ (الخنزير) ما يظهر في بعض مواقع جسم الإنسان من أورام سرطانية خبيثة أو غير خبيثة. ولم أدر ما الصلة بين (الحلوف) والورم السرطاني حتى لفت نظري تشابه الكلمة مع التعبير الإنجليزي عن السرطان بأنه: Cancer تحريف بسيط في النطق يتضح الشبه البين بين الاسم والمسمّى. وينطق في الفرنسية " كانسير " .

دَرِّسْ:

ولا صلة لهذه الكلمة بالدراسة والتدريس. بل الأمر يتعلق بالعربات والسيارات في هذا العصر الحديدي الجديد. يقول الليبيون: (دَرِّسْ سَيَّارْتَكْ وتَعَالَ) (هَذِي تدْرِيسَه بَاهِيَة). يقصدون: ضع (باللهجة المصرية: اركن) سيارتك.

لعل الأصل: Garage قلب الـ G إلى حرف الدال وقلب آخر الكلمة إلى حرف السين - مثلما يفعل بعض أهل جنوب مصر حين يقولون: (دردا) وهم يعنون: (جرجا).

دَلَمِنْتْ:

هكذا تنطق على ألسنة العامة. وهم يعنون: المتفجرات وتفرد فيقال: "دَلَمِنْتَه" وهي قد يقصد بها الألغام أو المادة المتفجرة التي يصاد بها السمك وتعرف أحياناً باسم " الجَلَطِينَة " .

والأصل في الإيطالية Dinamita وفي الإنجليزية Dynamite .

زَبّالْ:

" هَذَا رَاجلْ زْبَالْ " .. " هَذَا وَاحِـــدْ زْبَايْلي " ، والمراد : "هـذا رجـل مشـاكس" . أو هو : معيب القـول والسلوك . أو : باحث عن المشكلات والخصومات . فهو إنسان مخطئ . . أعاذنا الله منه !

وفي الإيطاليـــة : Sbaglio تعني الخطأ أو الغلط . وأصل الفـــعل : Sbagliare وقد اشتق الليـبيـون أفعـالاً تتفق مع لسـانهم في الماضي والمضارع والأمر . . ليس هنا محل إيرادها - طلباً للاختصار !

زَبَنْطُوطْ :

بمعنى الألعبان أو الماكـر وهي من الإيطاليـة : Sbandato وتعني في الأصل : (الخارج على قواعد ونظم الجماعة) .

زَرْدَة:

كلمة يقصد بها الوليمة يقيمها أحدهم لأصحابه في المناسبات غالباً ما تكون في الخلاء . أو هي مشتركة يدفع كلٌ سهمه ، تجمع أصحاباً وخلاناً ،وتكثر في فصل الربيع بصفة خاصة ، تجمع على (زرَادي) أو (زرْدات) . ورجح بعض الباحثين أنها اشتقت من (ازدراد الطعام) أي التهامه ، ولكن أصل الكلمة فارسي ومعناه : حفلة أو مأدبة .

زُوفرِي:

يقال للعامي العابث أو المستهتر ، ويوصف بها عادة الشابّ وليس كبير السن . ولا توصف بها الفتاة . وهي تجمع على (زُوفْرية) . ولا أظن أن لها صلة بكلمة Ouvrier الفرنسية التي تعني : العامل . بل الأرجح أنها ذات علاقة بكلمة Zouave= زواوة . قبيلة جزائرية) التي أطلقها الفرنسيون على الجنود الجزائرين المشاة أيام استعمارهم للجزائر . وصار

تعبير Faire le Zouave مصطلحًا معروفًا بمعنى: التغابي أو التماجن في اللباس والأخلاق. وهو المفهوم نفسه في اللهجة العامية الليبية، يقابله بالضبط تعبير آخر هو: "عَسْكرْ سُوسَه"

ومن الجائز أن اللفظ انتقل من الجزائر إلى ليبيا، كما يحتمل أن الليبيين أدمجو كلمتي Ouvrier وZouave في كلمة واحدة فكانت: "زوفري".

سَاقِمْ:

وهو: المغرفة. أداة يغرف بها الطعام أو المرق من إناء الطبخ ليوضع في الأطباق والصحون، والكلمة ليست عربية، ويبدو أن لها صلة بالـ Sugo الإيطالية وSacce بالإنجليزية - بمعنى الإدام، خاصة إذا علمنا أن الليبيين يسمون الإدام (السَّقُو).

سِرْبِيس:

أي: الخدمة - أيًّا كانت. وواضح أنها من الإيطالية: Servizio وبالإنجليزية: Service.

سِنَّاري:

وهو النبات المعروف: الجزر. وتنطق الكلمة هكذا في مصراتة وما حولها. وهي في غرب طرابلس: "سْفِنّارِي" وتقلب في بنغازي إلى: "سفْرانِي".

ويبين اختلاف النطق هذا عن أصلها غير العربي. ونرجح أن لها أصلاً في الكلمة اللاتينية: Synaros- التي تعني في القواميس ما يعرف في مصر باسم "الخرشوف" وهو نبات جذري لم يكن يستنبت في ليبيا، والجزر أيضا نبات جذري. فلعل أهل ليبيا أطلقوا ما ليس لديهم على ما لديهم.

سورِيْة:

يطلقها الليبيون على القميص – أيًّا كان. وتجمع على (سِوارِي).

ولا صلة بين الكلمة المتداولة وبين (سوريا) – القطر العربي في بلاد الشام.

وأقرب كلمة تؤدي المعنى هي كلمة: Shirt الإنجليزية التي تعني: القميص.

شَرّيولْ:

عربة يجرها حصان واحد في الغالب كانت تستعمل حتّى وقت قريب في نقل الناس من ضواحي طرابلس خاصة إلى مركز المدينة، وبالعكس، نظير أجر معين. وهي عبارة عن خشبة مسطحة فوق عجلتين، دون جوانب حاجزة، تسهيلاً لصعود القوم وهبوطهم،وتجمع على (شْرَاييلْ).

وهي في الفرنسية والإنجليزية chariot – قلبت التاء لاماً، فصارت "شَرّيُولْ" بدلاً من "شَرّيُوتْ".

شِفْشَة:

حيوان معروف يكثر في كثبان الرمل، يطلق رائحة خبيثة إذا أحس بخطر – يقابله في العربية: "ابن عرس". ويقول الليبيون في مجال الذم: "امشي يَا شِفْشَة!" أي: "امش يا خبيث الرائحة!". ويقابل الكلمة الليبية في الإنجليزية: "فتشت" Fitchet ولست أدري أي اللغتين أخذت عن الأخرى!

شِكْمَاجَة:

هكذا تنطق بحرف الشين، وهي في مصر بالسين. ويقصد بها: الصوان: أو ما يعرف في مصر بـ(التسريحة) أي "صوان الزينة".

وأقرب تعبير إلى الكلمة ما يقال في الفرنسية : chic image أي الصورة الأنيقة. والصلة واضحة بين هذا التعبير وصوان الزينة الذي يحتوي عادة على مرآة تظهر الصورة الأنيقة - في نظر صاحبها على الأقل!

شُوْقْ:

كثير. تسأل الليبي مثلاً: " كم عدد عيالك؟ " فيجيب: " شُوْقْ! " (أي ما أكثرهم - حتى لا تستطيع لهم عداً!) والأصل تركي

صِرْبَاصْ:

وللكلمة جملة معان: تقال عن المتزلف المتملق، ويوصف بها النمام كما ينعت بها الجاسوس أيضاً. وتقال عن الشخص القلق كثير الحركة والالتفات الذي لا يهدأ، وتنطق في هذا الحال: " ظرباظ " - كما ينطق أهل مصر حرف (الظاء) - والفعل منها: " يصرْبِصْ " و " يْظَرْبِظْ " .

والأصل إيطالي Sorpassare- بمعنى: نقل الخبر. وفي الكلمة معنى التجاوز والتعدي، أو الاجتياز من مكان إلى آخر حسًّا ومعنى.

صِلاَبَة:

أي الحجر الصلد. هكذا تنطق في مصراتة، يفرقون بينها وبين (الرشّادة) - أي الحجر أيًّا كان دون نظر لحجمه أو صلابته. وهي في بنغازي: (حِيْطَه). وتعرف أيضاً باسم: (بْلاَطَة). ويقابلها في العربية: صفَّاح .

أما في الإنجليزية فهي Slab أو Slabe ولعل لها أصلاً جليًّا من: الصلابة في العربية، بمعنى: القوة والمتانة.

صَنَّة:

كلمة متداولة في غرب ليبيا دون شرقها. في الشرق يقولون: ريحة (أي: رائحة)، وتحولت الكلمة لتعطي - إلى جانب معنى الرائحة -

معنى : العطر، وتسأل المرأة العطّار: " عِنْدكْ صَنَّة بَاهيَة؟ " وهو يجيبها دائمًا : "أي نَعَم يا حنَّة!".

وإذا كان الأصل العربي ينصرف إلى معانٍ عدة، منها : الصنان، أي رائحة الإبط أو الجسد عمومًا - فإن المقابل لمعنى العطر أو (روح العطر) في الإنجليزية هي كلمة Essence أما اللفظ الأدق الأقرب فهو Scent = عطر - طيب - رائحة.

طَاولَة:

المنضدة أو السفرة. تستعمل للطعام أو مكتبًا أو نحو هذا. وهي في مصر تسمي "الترابيزة" - كلمة تركية. ولدى المصريين أن " الطاولة " لعبة شعبية في المقاهي والنوادي.

وأصل الكلمة عند الليبين من الإيطالية: Tavola وهي في الإنجليزية Table. والطريف أن أهل مالطة يعبرون عن " الطاولة " بكلمة "المائدة" - وهي العربية الصحيحة!

طَبَرْنَة:

أو (اطْبِرْنَة) - كما تنطق في طرابلس. ويقصد بها - فيما مضى - الحانة، أو محل بيع الخمر.

وأصلها إيطالي Taverna وهي بالإنجليزية Taverne وباللاتينية Tabernae وإن كانت الأخيرتان تعنيان : الحانوت، أو المتجر - دون تخصيص للحانة.

طِرِيرِي:

وتنطق في بعض الجهات: " تريِرِي " تؤدي معنى : الإقعاء. يكون أحدهم في وضع بين الجلوس والقيام. قدماه على الأرض وعجيزته قريبة منها تلامسها أو تكاد.

والكلمة ليست عربية فهل ثمة صلة بينها وبين الكلمة الإيطالية Terra أو الفرنسية Terre بمعنى: الأرض؟

عَفْلِقْ:

يقول أحدهم: "أني متْعَفْلقْ اليُومْ" أي: "مضطرب المزاج" ويقول لك إذا أغضبته: "مَاتْعَفْلقْنيشْ!" أي: "لا تثرني!".

وتأتي الكلمة في مجال الاضطراب والانشغال والغضب والإثارة والقلق.

والأصل إيطالي Affliggere = أغم. أحزن. ضايق. مضايقة.

غبَارْ:

هذه إحدى الكلمات الدوّارة التي خرجت منا وطافت أوربا ثم عادت في صيغ مختلفة، حتى صارت تنطق هكذا في ليبيا.

والمقصود: علم الحساب، يقولون: "فْلانْ يْدِيرْ في الغْبَارْ دَمْغِي".

أي: "يحسب دون ورق (في داخل دماغه)".

وإذا كان المعنى المتداول في ليبيا هو: علم الحساب، فإن الأصل العربي الواضح هو: الجبر.

خرجت الكلمة لتتحول إلى Algebra وترجع (غبار) وقريب منها: الجفر - الشفرة.

فَالْطَة:

"يَاشِينَكْ فَالْطَة يا وْلاَدْ!"

هكذا يصيح أحد الليبيين استهجاناً أو استنكاراً لعمل أو قول: "ياله من خطأ يا قوم!" خطأ - غلط - خلل - عيب.

في الإيطالية: Fallo وفي الإنجليزية Fault لكنني أجد الكلمة العربية: "فلتة" قريبة إلى الذهن.

فدّيتْ :

قالت المرأة لزوجها، وقد أملّها بكثرة سؤاله عن غيابها - لدى الجيران أو لدى غير الجيران: شَهَادَة نّي فدّيت.. مِنْ قُولْ: وِينْ كُنْتِ غَايْبة؟!

وفي رواية: (ملّيتْ).

فكلمة " فديت " هنا تعني الضجر والتبرم. وهو ضيق الفؤاد بما هو كائن. ويسمَي داء الربو "الفدّة" وهو يسبب ضيقًا في الصدر وضيقًا في التنفس. وقد يكون هذا هو الأصل، لكن التعبير الإنجليزي: Fed up يعطي المعنى ذاته بالضبط، وإن كان مصدر الفعل - الذي تحول إلى صفة - مختلفاً.

الفُرنّاجْ:

قرية في ضواحي طرابلس. اسمها مقتبس من الكلمة الإيطالية. Fornace وبالإنجليزية Furnace وهي: الأتون أو القمين.

فُنقْلَة:

هكذا تنطق بتسكين النون والقاف. والمقصود ما نتأ فجأة في الجسم من أثر مرض ما قد يكون نتيجة إصابة بالبرد في الشفة غالباً أو داء خبيث - أبعد الله عنا كل سوء. وكثيراً ما تسمع أحدهم يدعو على صاحبه "رَوّحْ فُنْقْلة!" أي: "اذهب أصابك الله بفنقلة!" .

وفي الطب اصطلح النطاسيون على الكلمة الإنجليزية اللاتينية الأصل: Fungus وجمعها Fungi للتعبير عن المعنى ذاته الذي يقصده الليبيون، وأصل الكلمة يعني: الفطر أو الكمأ - أخذاً بالتشبيه بين الاثنين: الفطر Mushroom، ونتوء المرض. .أعني "الفنقلة" وجمعها: "الفُنْقُل" .

قَجْمَة:

يقال: " فلان قْجَايْمي " أي " فلان مرح " ، والفعل: " " يقجُم " .
ولم أجد أصلاً في العربية يؤدي المعنى، غير أن أقرب كلمة تؤدي المعنى في الذهن هي الكلمة الإنجليزية: Enjoyment ومشتقاتها: Joy (فرح- متعة) والفعل: Enjoy (يستمتع) أو Game كما في التعبير الإنجليزي Fun and Game أو Game بمعنى الصيد وما يتبعه من مرح.

قِرْطاصْ:

هكذا تنطق بحرف الصاد في آخرها. ولا يقصد هنا ما يعرف في العربية من أمر الورق، بل المراد ما يعرف عامة باسم (العلبة) - بشرط أن تكون من ورق.
يقول الليبي وهو يطلب علبة تبغ: " عَطيني قِرْطَاصْ دخَانْ بالله! "
أو يطلب لف شيء اشتراه من التاجر: " قَرْطصْلي هَا السُكَّرْ بالله! "
أي: (لف هذا السكر في ورق من فضلك).. وهكذا..
ولا علاقة قريبة بين (قرطاص) هذه و carta أو card مثلاً. بل الصلة أقرب بينها وبين cartuccia الإيطالية و cartridge الإنجليزية - التي يعرفها المصريون باسم (خرطوشة) ودخلت اللهجة الليبية حديثاً.

قِمَجَّة:

وهذه كلمة دوارة أخرى. تخصص عند الليبيين لثوب العروسة المفضض على الطراز العربي ليلة زفافها، ولا يسمّى بها ثوب آخر.
والأصل البعيد: قميص - العربية. جاءت إلى ليبيا عن طريق الإيطالية camicia- ثم تحولت إلى " قمجة " أو العكس.

قِنّان:

تطلق على القرص الصغير من الخبز، تتعمد ربة البيت ـ فيما سلف من الزمان ـ أن تصنعه صغيراً لتسكت به طفلها حين يرى الخبز ويطلب منها شيئًا وتخشى أن تكسر رغيفًا كبيراً لا يأكله فيفسد.

والكلمة فارسية تؤدي المعنى نفسه: أي رغيف الخبز الصغير. ومن أطرف ما قرأت أن مجمع اللغة العربية (عرّب) كلمة (البسكويت) بكلمة (خُشْكُنَانْ) وهي – زيادة على ثقلها – فارسية تعني: الرغيف الصغير اللطيف. ولعل تعريب أهل ليبيا البسكويت بكلمة (الخبيزة) ألطف.

قُوسْطُو:

تساوي كلمة: قَجْمة – السالفة الذكر.

يهتف الليبي جذلاً: " يَا والله قُوسْطُو! " أي: (يا لها من متعة!) تقال في الموقف الضاحك. ويوصف فلان بأنه (قُسْطُو) أي مرح الطباع. ويقولون: " حَصَّلْنَا قُوسْطُو مَا هُو قُوسْطُو! " أي: (حصلنا على متعة ما بعدها متعة!) – وهكذا.

والأصل في الإيطالية: Gusto وهو في الإنجليزية كذلك.

كَارْطَة:

وكانت هذه الكلمة تطلق – عند النسوة خاصة – على الأوراق النقدية من فئة مائة الليرة الإيطالية. تقول السيدة منهن: " شرِيتْ سُورِيَّة بْعَشرْ كِوَارِطْ " أي: (اشتريت قفطانًا بألف ليرة) ثم انقرض هذا الاستعمال بعد انتشار التعليم، وبقي استعمال واحد هو: ورق اللعب، واشتقوا منها فعلاً. يسألك أحدهم: "هَيَّا تْكَرِّطْ؟" يعني: (هل تبغي لعب الورق؟).

والأصل واضح من الإيطاليـــة: carta وفي الإنجليـــزية :card أو بالتخصيص Playing cards

ومن الطريف أن يلعب اللاعبون الورق ويستعملون كلمات إسبانية أو إيطالية أوغيرها للدلالة على أنواع الورق وأسماء اللعبات.

فالواحد: لَاصْ، في الإنجليزية: Ace

والاثنان: دُوسْ، في الإسبانية: Dos

والثلاثة: ترِيسْ، في الإسبانية: Tres

والأربعة: كْوَاتْرُو، في الإيطالية: Quttro

والخمسة: شِنْكوِي، في الإيطالية: cinque

والستة: شِيشْ، فارسية، وفي الإنجليزية Six

ماعدا السبعة فهي: سبعة!

والبنت: مُوجيرَة، في الإسبانية Mujera والإيطالية Regina = ملكة.

والولد: كَاوَانْ، في الفرنسية Cavalier= فارس.

والشائب: رَيْ، في الإيطالية Re= ملك.

واللون الأحمر المضلع: ديناري، في الإنجليـزية: Denary = دينار روماني = Dinar

واللون الأحمر كالقلب: كُبِّي، في الفرنسية coeur = قلب.

واللـون الأسـود كـالجرفـة: سْبـاطة، في الإنجليـزية Spade = مجراف. مسحاة.

واللون الأسود الثلاثي كالزهرة: بَسْطون، (لعلها، من pistol= مسدس. أو من pistol (عملة ذهبية إسبانية وأوربية مقابلة للديناري).

ومن طرق اللعب: الشكُبَة (هي أشهرها) - والسكَامْبيلْ، والبَازْقَة، والرُّونْدَة، والرُّومينُو.. إلى آخر أسماء اللعبات والمصطلحات المشهورة ذات الأصل الأجنبي.

كَاشِيكْ :

أي : الملعقة . وهي تركية . وتسمى رافعة الأتربة الآلية الحديثة "الكَاشِيكْ" أيضاً من باب التشبيه .

كاكَوِيّة :

وما ألذّها حين يختم بها مجلس الشاي ، فتوضع حباتها بعد أن تحمّص وتقشَر في الكأس الثالثة معقودة السكر ممتعة مشبعة ، وهي ما يعرف في مصر باسم "الفول السوداني" ومن العجيب أن تسمى في السودان "الفول المصري" !

وهي في الإسبانية cacahuet ولست أدري إن كان ثمة صلة بين "الكاكوية" و "الكاكاو" . ولعل الليبيين نسبوها إلى " الكاكاو " وخلطوا بين الاثنين.

كُرْفي:

بمعنى : السخرة . يقولون : " خدَّامْ كُرْفي " أي :(خدام سخرة) . وكادت الكلمة أن تنقرض ، فهي لم تعد معروفة في حياتنا الحديثة . والأصل من الفرنسية : corvée

لاَوُنْطَة :

والمقصود : العطر المعبأ في قنينات صغيرة تتطيب به النساء ، وبعض الرجال . وتوشك الكلمة على الانقراض في المدن والعواصم وتستعمل في الأرياف . وقد يخلط بين (اللاوُنطة) و(الصنَّة) ، غير أن الأولى أعم في الاستعمال ، وأخص في الدلالة على نوع معين من العطر . وهي في الإيطالية Lavanda وفي الإنجليزية Lavender

لاَبِسْ :

لعل أطفال المدارس يجدون تعبير " قلم رصاص " طويلاً وصعب النطق، فيكتفون بالتعبير المتداول : " لاَبِسْ " .

وفي تصور البعض أنه سمي كذلك لأنه " يلبس " غلافاً من الخشب. غير أن الأصل اللاتيني - والإيطالي أيضًا - Lapis معروف بمعنى : معدن الرصاص.

مَغَازَة:

كلمة عربية الأصل، درات ثم عادت محرفة. ويقصد بها في ليبيا : المتجر الكبير أو ما يسمّى حاليًا (السوبر ماركت). وهناك فرق بين (المغازة) و(الدكان) فالأولى أكبر وأكثر بضاعة، والأخير يجوز فيه الكبر والصغر.

والأصل العربي : مخزن. انتقل إلى الفرنسية : Magasin وعاد محرَفاً : "مغازة" .

مْدَرْيِسْ:

تعبير خاص في منطقة بعينها لحالة معينة. يقال في الجبل الأخضر على لسان رعاة الغنم هناك : "هَذيًا هي انْعَجَه امدَرْيِسْةَ" . أي : (هذه نعجة مدريسة) . أي أنها طعمت (الدرياس) في وقت الربيع. والدرياس كلمة ممعنة في القدم جاء ذكرها في " القانون " لابن سينا هكذا : (مَاغيطَارس) وهو يتحدث عن نبات (السلفيوم) الليبي المشهور. والأصل اللاتيني للكلمة Magidaris فصارت : "الدرياس" .

هذا حديث يطول.

مْرِيقْلَة:

تسأل الرجل الليبي: "كيف حالك؟" فيجيبك: "مْرِيقْلَة!" دلالة على حسن الحال وأنه يمضي في طريق مستقيم لا عوج فيه. فهو سعيد بهذه الاستقامة في أموره وأحوال معيشته.

واللفظة هنا مأخوذة عن الإيطالية: Regola التي تعني المسطرة التامة الاستقامة. أو من كلمة Regolare التي تعني: المنتظم أو المنضبط (أي: المضبوط). وقريب منها في الإنجليزية: Regular- أي منتظم أو عادي.

مْزَكْرَة:

عكس "مْريقلة". تستعمل عند الضيق والتبرم. فإذا قال الليبي إن الحال "مزكرة" فهو يعني بالضبط ما يعبّر عنه في اللهجة المصرية بأنها "طين" ـ أي أنها موحلة سيئة.

وفي الإيطالية يعبر عن الطين أوالوحل بكلمة Zacchera واشتق منها الليبيون أفعالاً مثل: " فلان ازَكْرتْلَه". أو: " ازُكْرتْ يا صاحبي والله!" - أي: (أوحلت).

مْفَرْشِكْ:

بمعنى: طيب الحال، هني البال، في رغد من العيش. وهي صفة، الفعل منها: "فَرشَكْ" والاسم "تفَرْشِيكْ" أو: "فَرْشَكَة".

وليس بعيداً منها الكلمة الإيطالية: Fresco بمعنى: طازج ـ طري ـ جديد. وبالإنجليزية: Fresh ومنها: Refresh أي: ينعش - يستجم. وفيها معنى الراحة والهناء.

مَقْرِسْ:

(يْمَقْرِسْ الشَاة) أي يطعمها ليسمنها. وكانت العادة - ولا تزال

في بعض المناطق - أن يشتري الرجل شاة أو خروفًا هزيلاً بثمن بخس قبل عيد الأضحى بشهور، ليسمنها، فلا يحل العيد المبارك حتى يجد أضحية سمينة تأتيه بقديد كثير!

والأصل إيطالي: Ingrassare

مكَرُونَة:

لا يساوي شهرة "البازين" في قائمة الطعام الليبية سوى ذيوع "المكرونة". وقد فاق الليبيون الإيطاليين تفننًا في اختراع طرق عجيبة لعملها، فهي تارة (بالبصلة) وأخرى بالقديد، وثالثة باللحم المفروم. أما ألذها جميعًا فهي "المبكبكة" حيث توضع في القدر مع الطبيخ، بلحمه وخضره وتوابله، لتنضج متشربة المرق، فلا يقاومها مقاوم!

والأصل الإيطالي Maccherone معروف. وهي في الإنجليزية Macarone كذلك باختلاف تهجّي الحروف. والطريف جدًا في هذا المجال أن يعبر في الإنجليزية بصفة Macaronic عن اللغة الخليط من كلمات لغة وطنية وكلمات لاتينية أو أي خليط بين لغتين!

المِنْقِيطْ:

محطة حافلات معروفة بطرابلس تقل الركاب إلى قاعدة عقبة بن نافع الجوية. وهي مكتوبة هكذا على لوحة الإعلان، وهكذا تنطق.

والأصل في الإنجليزية Main Gate - أي "البوابة الرئيسية" يعنون مدخل القاعدة يوم كان يحتلّها الأمريكيون، وكانت تسمى: "قاعدة ويلس الجوية".

مِيْدَة:

وهي حوض صغير أمام البئر يلقي فيه الدلو بمائه حين يشده صاحبه بطريقة خاصة، لينفدع بعد ذلك إلى الجابية التي تكون عادة بجانب

البئر، وهي حوض أكبر كثيراً؟

ولنا هنا أن نختار، إما القول بأن الأصل: المادة - أي التي تمد الجابية بالماء. أو أنها الحوض المتوسط بين البئر والجابية. وهنا نجد أصلاً لها في تعبير Media الإيطالي والإنجليزي في الوقت نفسه.

مينَة:

والمراد: اللغم. انتشر استعمال الكلمة في أيام الحرب العالمية الثانية وبعدها حين زرع المتحاربون من الحلفاء ودول المحور الصحراء الليبية بمئات آلاف الألغام التي أودت بحياة الكثيرين من الليبيين دون تعويض.

وهي من الإيطالية: Mina

يْدَايِشْ:

والاسم منها: " مْدايْشَة " و " دْيَاشْ " . وتعني: المغامرة والمقامرة.

و: "رَاجِل مْدَايِش بْرَاسَه" . أي: مغامر برأسه في أمر خطير قد يودي بحياته.

ولا توجد كلمة أقرب في المعنى من Dice الإنجليزية التي تعني في الأصل: زهر النرد، تلك التي يلقيها المقامرون أو اللاعبون فتنقلب على أحد جوانبها ليظهر عدد من النقط تكون في صالح اللاعب أوضده.

يدْمْدِر:

تعبير خاص يقال في موقف معيَن ليدل على نوم شخص ما في حالة الحديث عنه بغضب وعدم رضا. تقول الزوجة عن زوجها مثلاً: "يْجيني نُصْ اللّيلْ ويدَّمْدرْ" . أو تقول الحماة عن كنتها نؤوم الضحى: "السَّاعَة عَشَرة وقَاعْدَة مدَمْدرة!" أي: "لا تزال نائمة حتى الساعة العاشرة" . أوتهز أمٌ طفلها الساهر يراقب برامج الإذاعة المرئية: " امْشي ادَمَدِرْ! " تعني "اذهب ونم" .

ولا أصل لها سوى الإيطالية: Dormire أو مثيلتها الفرنسية Dor-mir أي: ينام.

يقَاجِي:

تعبير آخر عن المقامرة والمغامرة. "قَاجِيتْ عَليها وحَصَّلْتَها" أي: "غامرت (أو خاطرت) ونلت ما أريد".

والاسم: مْقَاجَاة (مقاجا). ويقال لك: "تْقَاجي؟" أي: "تراهن؟"

والأصل في الفرنسية: Gager = يراهن. يخاطر. يغامر Gager sa vie = يغامر بحياته.

وِرْوِرْ:

لفظ كاد ينقرض إلاّ في بعض الأرياف وعند كبار السن. وتستعمل كلمة "المسدس" بدلاً منه. وقد رسخت الكلمة الأخيرة وتغلبت على كلمة "الغدارة". وأصل كلمة "ورور" من الإنجليزية Revolver

يمَرْكِي:

أي: يسجل ـ وهو غالباً ما يسجل أرقامًا. وأغلب ما تستعمل الكلمة عند البقالين حين "يُمرْكُون" حساب عملائهم في سجل خاص يومًا بعد يوم ليدفعوا لهم ديونهم آخر الشهر.

والأصل: Marcare الإيطالية. وقريب منها ما في الإنجليزية: Mark بمعنى: وضع العلامة، أو الأرقام.

استدراك

نشرت هذه المقالة بمجلة (الثقافة العربية) في شهر فبراير سنة 1977م. وقد وجدت في أثناء مراجعاتي اللغوية بعد هذا التاريخ أن بعض ما ذهبت إليه من مقابلة وتخريج غير دقيق، وأن ثمة مفردات ظننتها أجنبية فإذا هي عربية - أو عروبية - في أصلها البعيد. وما يلي، شيء مما تيسرت مراجعته:

مُرَيّش:

في اللهجة المصرية (غني). وفي اللهجة الليبية: (فقير). في العربية: جاء في "لسان العرب" لابن منظور، مادة "ريش":

(تريَّش الرجل وارتاشَ: أصاب خيراً فظهر عليه أثر ذلك. وارتاش فلان: إذا حسنت حاله. الريش والرياش: الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر. وفي التنزيل العزيز: "وريشاً ولباس التقوى" وفي قرءاة "ورياشاً" وراش فلان: إذا استغنى). وكلٌ هذا يرجع إلى ريش الطائر ورياشه على أساس الكناية والتشبيه. فحين يقال "مريش" في لهجة عرب مصر بمعنى "غني" فإن المقصود: كثير الريش. وعندما يقال "مريَش" في لهجة عرب ليبيا بمعنى "فقير" فإن المقصود: منزوع الريش.. أي منتوف، أو "منتف"، الريش كماهو التعبير السائد كذلك، وبذا قد تكون: Riche (Rich) من الجذر "ريش" العربية أصلاً.

قَعْمز:

عند المقارنة باللغات العروبية نجد ما يلي:

المصرية القديمة : حمسي Himsy = جلس، قعد، استقر، أقام، سكن.

الأكادية: كماسو Kamasu = جلس، قعد على أليتيه.

الكنعـانيـة: ك م س Kms= سـقط، وقع على الأرض، وقع على عجيزته. وهذه كلها قريبة جداً من "قعمز" في المبنَى والمعنى، وقد يكون الأصل كلّه يعود إلى "قمص" العربية على كلّ حال.

قرافة:

في مصر خاصة تعني: الجبانة، المقبرة، المدفن. ولم أعثر في المعاجم العربية على أصل (قرافة) بهذا المعنى، ولعل الأصل (جرافة) بتعاقب الجيم والقاف. والجرف هو الحفر، والحفر للدفن، أي القبر. والمرجح أن grave الإنجليزية منقولة عن (جَرَف) العربية، ومنها gravery (مدفن)، فإذا أصررنا على (القرافة) بالقاف فلعل لها صلة بـ "قرف = قشر = جلف = جرف. أي حفر. أو بـ "قرف" بمعنى " وباء " و"مداناة الهلاك "، وهو ما يؤدّي إلى الموت، فالقبر.. أي القرافة - بعيد عنكم.

بيُوش:

من الفرنسية bêche (معزقة. مخرمة. حفارة).

بازين:

الطريف أنه ترد كلمة "بازين "في المصرية القديمة على هيئة "ب س ن" BSN و"ب س ن" psn (= باسين، پاسين، بازين - بعد وضع الحركات). وتترجم بمعنى: رغيف، كعك. والصواب: "عيش"، عصيدة. وهذا يدلّ على أن " البازين" عرف عند قدماء المصريين.

أما في الليبية القديمة فإن " بزن" (بازين) تعني القَبة الصغيرة، أو الشاهد، الذي عند رأس الميت في قبرة، وكان الشاهد على شكل قبَة هي في الواقع قصعة مقلوبة (الفارسية: بازن، ومنها الإنجليزية basin= حوض، طشت، مغسل).

بيجامة:

يعرّف " معجم أكسفورد" البيجامة بأنها: سراويل فضفاضة من الحرير أو القطن تربط حول الوسط يلبسها كلا الجنسين عند المسلمين، وأخذها الأوربيون لباساً لليل خاصة. وهي فارسية مكونة من مقطعين: (با) pae (py,pa) وتعني: قدم، ساق + jamah (jama) وتعني ثياب، كساء. والمعنى الإجمالي: ثوب القدم، كساء الساق.

في المقطع الأول على الأقل (باء) توجد في العروبية قديمها وحديثها. فإن "باء" (با) في المصرية القديمة تعني "قدم"، وهي كذلك في العربية،ومن هذا الجذر: بَاء، يبُوء، بوءاً - أي عاد ورجع وذهب كذلك، والأصل مشى على قدميه. وحين تقول: تبوّأ مكاناً رفيعاً، فأنت تقول: وضع قدمه في مكان رفيع. حتّى نصل إلى "البيت" فنجدها من "باء" صارت "بات" - والأصل "باء" (وضع قدمه وثبتها).

تكّامية:

كنت ظننت أنها من Toga mia (عباءتي) أو Tocca mia (عقدتي) حتى وجدت الدكتور أنيس فريحة في كتابه " ملاحم وأساطير من أوغاريت "يذكر أن"ث ك م" في الكنعانية تعني "الكتف". ويؤيّده غوردون في كتابه Ugaritic hand book ولما كانت عقدة الجرد أو الحولي تكون عادة فوق الكتف فالأرجح أن "تكامية" جاءت من "ثكمية" (نسبة إلى ثكم - في الكنعانية)، وقد يكون الجذر العربي نفسه اندثر من القواميس وبقي في اللهجة الليبية.

خِنْزِير:

ليست كما ظننت من Cancer بل العكس صحيح إذ أورد ابن منظور في (لسان العرب) تحت مادة "خنزير" أن الخنازير علة معروفة

وهي قروح صلبة تحدث في الرقبة " وهذا هو الـ cancer ولعل الفرنجة أخذوا الكلمة عن الأطباء العرب كابن سينا وأضرابه، وهو أمر وارد.

سِنّاري:

هذه كلمة عجيبة، ويمكن أن نضيف إلى ما سبق توضيحه بشأنها ما يلي:

1-وردت في معجم "بدج" للغة المصرية القديمة صفحة 588 كلمة "سنار" Sannar وترجمها بأنها تعني مادة من مواد الخضر a vegetable substance وقد يكون المقصود "السنّاري" (الجزر).

2 - يورد روبرت غريقز في قاموسه الصغير آخر كتابه عن "الأسطورة اليونانية" كلمتي "سينارا" Cinara و"كينارا" Kinara ويترجمها إلى الإنجليزية artichoke (خرشوف).

3 - ذكر الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه " التطور اللغوي التاريخي " صفحة 223 عند حديثه عن لهجة أهل تونس ما يلي:

" أما الخضراوات ففيها شيء آخر خاص بهم ومن ذلك: القنارية - لما يدعي بالفرنسية Artichaut .. وقد ذكره الخفاجي في (شفاء الغليل) وعدّه من الدخيل ولم ينص على أصله الذي جاء منه. قال الشهاب الخفاجي: القنارية هو بالمغرب نوع من الخس ومنه نوع يسمى (الخرشف) وخس الكلب والكنكر.

قال ابن المعتز:

وقد بدت فيها ثمار الكنكر كأنها جماجم من عنبر

علي أن التونسيين لا يلفظونها بالقاف بل بالكاف الشديدة على نحو ما ينطق المصريون الجيم " .

ويضيف: "ومن خضراواتهم السفنّارية ويريدون بها الجزر".

ومن رأينا أن أصل "القنّارية" و "السناري" واحد هو Kinara و cinara. ولم يعرف عرب ليبيا الخرشوف بل نقلوه حديثاً عن أهل

مصر فلم يكن له لديهم اسم إلاّ ما عرف به في مصر (خرشوف). وهو عرف عند أهل تونس فكان " القنَارية" Kinara ثم اختلف اللفظ ci-nara في تسمية " الجزر" فهو سنّاري، وسفْنّاري، وسفْراني، في ليبيا وسفرانية في تونس.

سوريّة:

يقول عثمان سعدي في مؤلّفه (عروبة الجزائر عبر التاريخ) صفحة 48 إن كلمة "أسوريث" في اللهجة الجبالية تعني: قميص - نسبة إلى سورية (بلاد الشام) مصدر القماش في العهود القديمة.

بيد أننا نجد الكلمة في اللغة المصرية القديمة (معجم بدج - صفحة 680): "سيرات" (الجذر: س ر. ت) -serat. وتترجم: نوع من القماش akind of Lenin . وقد يكون هذا هو الأصل البعيد للكلمة، فإذا أخذنا التاء في "سيرات" المصرية للتأنيث كما يرى "بدج" فإن أصل الكلمة هو "س ر" التي يترجمها "بدج" بأنها تعني " صوف" wool وهذه هي "شَعر" العربية. فإن كانت القمصان تتخذ من الصوف (الشعر) فهي إذن " شعرية" في العربية، "س ر ت" في المصرية، بتعاقب السين والشين وإسقاط العين، عربت من جديد " سوريَة " .

عَفْلِق:

قال ابن منظور في (لسان العرب) تحت مادة " عفلق" :

" العفلوق : الأحمق.

العفلقة: سوء المنطق والعمل " .

وبذا تكون الإيطالية أخذت عن العربية في affligere

قِنّان:

في اللغة المصرية القديمة (معجم بدج - صفحة 809) : ج ن ن Gnn

(= ق ن ن) : لطيف، رقيق Gentle, gracious، وفي (معجم فولكنر - صفحة 290) : ناعم Soft. فالفارسية "قِنَانْ" مأخوذة عن المصرية التي هي لغة عروبية أسبق.

مَقْرس:

جاء في (اللسان) تحت مادة "قَرَسَ" :

"القَراس والقُراسية : الضخم الشديد من الإبل وغيرها، للذكر والأنثى، بضم القاف، في ذلك سواء.. وهي في الفحول أعم" .

ولعلّ "التمقريس" مأخوذة من الجذر "قرس" أي سمّن وضخّم وجعل الحيوان يمتلئ شحماً ولحماً.

والله أعلم!

أسبوتي
العذراء الليبية المحاربة في جيش هانيبال

أكثر من ثلاثمائة سنة مرت، ولم تخمد ذكرى تلك النار اللاهبة التي أججتها "الجذوات الليبية" حول أسوار روما في أذهان الرومان، ولم تغب صورة ذلك الفارس العنيد الشديد «هانيبال» وهو يغرس سيفه في صدور أعدائه، ليشفي غلة ثأر قديم.

في سنة 219 قبل الميلاد بدأ فتى قرطاجنة الحرب البونيقية الثانية وبعد ما يزيد على ثلاثة قرون جاء الشاعر اللاتيني سيليوس إيتاليكوس، المتوفى سنة 101 بعد الميلاد، ليكتب أطول ملحمة في الأدب اللاتيني كله عن هذه الحرب باسمها "بونيقة Punica" تتألف من 12000 بيت من الشعر، ويترك لنا حديثه الطويل عن "هانيبال" وجنوده من الليبيين الشجعان، وهو يكتسح إسبانيا، ويعبر جبال البرانس وقمم الألب، وينحدر على إيطاليا من شمالها كالقدر المحتوم.

أما الكاتب فهو روماني محارب، وسياسي وأديب، عاش خمسة وسبعين عاماً مجيدة، ثم اعتزل الحياة العامة، واختار قرية بالقرب من مدينة "تورينو" الحديثة حيث كتب ملحمته، ثم أصيب بمرض عضال لم يجد سبيلاً للخلاص منه إلا بالصوم عن الطعام والشراب حتى قضى نحبه جوعاً. وكانت هذه الميتة تعتبر قمة الشجاعة وذروة الرجولة. استقى معلوماته التاريخية في الغالب من الكاتب ليفي Livy ولكن تأثره بشاعر اللاتين " فرجيل" Virgil كان بالغًا، وكان يحبه كل الحب، وبخاصة في "الإنيادة Aeneid فكان عمله مزيجًا من حقائق التاريخ والأساطير اليونانية والرومانية، والخيال الشعري.

وأما الملحمة ذاتها فقد كانت غاية الشاعر أن يجعلها مديحًا

للرومان وشجاعتهم، وثناء على قائدهم المنتصر "سكيبيو" فإذا بها تتحول ـ رغمًا عنه ـ إلى إشادة بهانيبال، وإبراز لصفاته وذكر لقيادته وتمجيد لبطولاته. وفي أثناء هذا وذاك كان حديثه عن جنوده وفرسانه، بل عن جندياته وفارساته، وأغلبهم، وأغلبهن، من أهل ليبيا وقبائلها، مما ستقرؤه بعد قليل.

وأما "هانيبال" فلا بد من حديث عنه قصير لا نبخل، نحن أهله، به عليه، وقد طال حديث أعدائه قبلنا عنه وعن حروبه وصولاته وجولاته.

هو "هانيبال بن هملكار برقا" ولد سنة 247 ق. م بعد الحرب البونيقية الأولى بين قرطاجنة وروما، وقد أرضعه أبوه كراهية الرومان، وشحن نفسه منذ طفولته بالحقد عليهم، وجعله يقسم في صباه على الانتقام منهم، فكانت حياته كلها صراعاً ضدهم في كل مكان، توفي أبوه فصار صهر أبيه - صدر بعل - قائداً عامًّا للجيش، ثم اغتيل سنة 221 ق. م فأصبح هانيبال نفسه قائداً عامًّا لجيش قرطاجنة، ولما تزد سنه عن ستة وعشرين عاماً، وبعد سنتين فقط من توليه القيادة بدأ في تحقيق خطته لإذلال روما، واستمرت حربه لها سبعة عشر عاماً أو تزيد. كانت "ساغنتوم" مدينة يونانية النشأة مستقلة جنوب نهر يسمى نهر أيبرو Ibro في إسبانيا، وكانت حليفة روما، ولكي يستفز الرومان جاءها "هانيبال" بجيش عرمرم وحاصرها ثمانية أشهر، ثم اكتسحها. وهنا أعلنت روما الحرب على قرطاجنة، وهو ما كان هانيبال يسعى إليه. فأسرع في السنة التالية يعد قرطاجنة للحرب، وترك أخاه (واسمه صدر بعل) لحمايةإسبانيا وإفريقية، وعبر جبال البرانس في حوالي تسعين ألف جندي من المشاة وعدد من الفيلة. وكانت روما أرسلت أحد فرسانها، المسمى "بوبليوس كورنيليوس سكيبيو"، لملاقاته عند نهر الرون، غير أنه وجد هانيبال قد اجتازه، فعاد هذا إلى إيطاليا بعد أن أدرك خطة هانبيال في الانحدار على إيطاليا من الشمال بجيشه وفيلته.

وفي مدى خمسة عشر يوماً عبر هانيبال جبال الألب الجبارة - وهو عمل خارق لا يزال يدرس حتى اليوم ويبعث على العجب والاستغراب، فقد كان الرومان محميي الظهر أبداً بهذه الجبال السامقة الوعرة ـ ثم انداح يكتسح المدن والدساكر. احتل أولاً مدينة تورينو (التي عاش فيها الشاعر أواخر أيامه)، ثم انتصر في معركة بحيرة تراسمين وقتل من الجيش الروماني بقيادة فلامينوس الآلاف. وفي سنة 217 ق. م، اكتسح أبوليا وكامبانيا، وقد صمد الرومان قليلاً بقيادة ماكسيموس فابيوس. وفي أغسطس من السنة ذاتها كان انتصاره في موقعة كاناي، وقتل فيها قائد الرومان آيميليوس باولوس.

لكن جيش هانيبال كان قد أنهك وتناقص، ولم يبق من الفيلة الثمانية والثلاثين ـ وهي بمثابة الدبابات في عصرنا - إلا القليل.

ليس هذا فحسب بل إن الإمداد من قرطاجنة لم يكن يبلغه، إذ عمل حساده في مجلس شيوخ المدينة، على عرقلة الإمدادات، غيرة منه وحسداً - وكان هانو (أو حنون) يقود معارضة استمرار حرب هانيبال ويقف في وجه كلّ سند له. وزاد الأمر عسراً نقض بعض القبائل الجرمانية للعهد، وعرقلتها لتقدم جيش هانيبال. وكانت انتصاراته ما بين عامي 215 ـ213 ق. م محدودة فيما عدا احتلاله لمدينة تارونتوم (تارينتو الآن). ثم بدأ يتخذ موقف الدفاع بعد أن كان في موقف الهجوم.

سنة 213 ق.م استعاد الرومان مدينتي كاسيليوم وآبري.

سنة 211 ق.م أجبر هانيبال على الذهاب إلى كابوا لفك حصار الرومان لها.

سنة 211 ق.م أيضاً سقطت سيراكوزة في صقلية بيد الرومان.

سنة 209 ق.م استعيدت تارونتوم.

وبهذا أسرع العد التنازلي في إخفاق حملة هانيبال على روما، وبدأ

الرومان في الهجوم المضاد.

من مجلس الشيوخ الروماني نال سكيبيو الإذن بمهاجمة قرطاجنة ذاتها، بعد انتصاراته في إسبانيا، وضرب هانيبال من الخلف في إفريقيا، فجاء بجيش بحري وبري لجب، واشتبك مع سيفاكس ملك المساسوليين (النوميديين الشرقيين) وهزمه. وفي سنة 203 ق.م، اضطر هانيبال للعودة إلى بلاده للدفاع عن أسوارها. وعسكر بجيشه في ما يسمي الآن سوسة.

وإذا كانت الغيرة والحسد أديا إلى منع الإمداد عنه وهو في إيطاليا، فإن الخيانة هي التي مكنت للرومان ليضربوا هانيبال وقرطاجنة ويحتلوا شمال إفريقيا كله.

كان سيفاكس ملكاً على ليبيي شرق الجزائر (المساسوليين)، وكان ينافسه ماسنيسا ملك ليبيي غربها (الماسوليين). ومع الأخير رتب سكيبيو الأمر وعقد معه حلفاً ليقاتل بني جنسه وأهله في مقابل توسيع مملكته وتكوين إمبراطوريته القصيرة العمر، وهذا ما كان.

التقى جيش هانيبال، يعاضده فيرمينا، ابن سيفاكس، وجيش الرومان بقيادة سكيبيو يساعده ماسنيسا، في مكان يسمى (زاما) - ويعرف بسيدي يوسف شرقي تونس الآن. وقتل من جيش هانيبال 20000 جندي ليبي، ولكنه هو ذاته نجا. وعقدت هدنة، وعاد هو إلى قرطاجنة ليتولي زعامة المدينة، ويحدث بعض الإصلاح الإداري فيها، لكن حساده كادوا له، واتهموه بسوء التصرف والتدبير في الحرب، ووشوا به إلى روما. فلم يجد إلا أن يغادر وطنه مهاجراً.

مضى إلى الملك أنتيكوس في مدينة أفسوس، إذ كان يقاتل الرومان، فقاد بعض جيشه وحارب أعداءه الألداء بجند من غير أهله، ولم يوفق في معركة بحرية لعدم درايته بشؤون البحر وجهله بطبيعة الجنود الغريبة عنه. فغادر أفسوس عن طريق كريت إلى أرمينيا ليحارب

الرومان هنالك أيضًا، ويقال إنه قاد معركة بحرية ضدهم وانتصر عليهم هذه المرة بأن جمع عدداً هائلاً من الثعابين، وحين التحم مع سفن العدو أخرجها من أوعيتها وألقى بها على أعدائه، فانهزموا خوفاً ونهشاً - هذه أفاعي ميدوسا الليبية تنتقم!

ويقول المؤرخون إنه بطريقة ما، ولسبب غير معلوم، كان الرومان في موقف مكّنهم من المطالبة بتسليم هانيبال إليهم. وأبى هو أن يقع في يد أعدائه، وشرب نقيع السم في قرية نائية تدعى ليبوسا في منطقة بوثيا اليونانية. ومات - بالطبع ـ وكان عمره أربعة وستين عاماً ـ سنة 183 ق.م.

مات طوعاً، كما مات الشاعر الذي كتب عنه اختياراً!

* * *

أما وقد علمت الآن خبر هانيبال فلعلك مشوق إلى معرفة خبر جيشه. هذا الجيش الذي كان يقوده ويعيش معه حياته، هو أول المتقدمين وآخر المنسحبين ـ كما يقول المؤرخون.

كانت قرطاجنة إمبراطورية فينيقية النشأة تجارية الأساس، ثم اضطرت لخوض غمار الحروب استعماراً أو دفاعًا. فكان لها وجودها العسكري في ما يحيط بها من شمال إفريقيا، وفي إسبانيا وسردينيا. لكنها لم تكن تعتمد على جيش من أهلها، بل على جنود مرتزقة من ممالك مختلفة. ويقول المؤرخ بولوبيوس ـ وهو أفضل من أرخ للحرب البونيقية ـ إنه "كان من عادة القرطاجنيين أن يستأجروا جنوداً من جنسيات مختلفة" (الكتاب الأول، فقرة 10) . ويحدد جنسيات هؤلاء الجنود:

"كان بعض هؤلاء الجنود إيبريين، وبعضهم كلتيين، وبعضهم ليغوريين، وبعضهم بالياريين" .

ويزيد التحديد دقة:

"كان هناك عدد كبير من أنصاف الإغريق أغلبهم فار من جيشه، أو عبيد"

ثم يقول:

"لكن القسم الأكبر من الجيش كان يتكون من الليبيين ".(الكتاب الأول فقرة 67). هذه، إذن، حقيقة تاريخية لا يجادل فيها أحد أن يكون عماد جيش هانيبال هم الليبيين. حقيقة يذكرها المؤرخون، من أمثال بولوبيوس وليفي من الرومان أنفسهم، ويذكرها شعراؤهم من أمثال صاحب " البونيقة" - سيليوس إيتاليكوس - ولكن أي ليبيين؟

يقول البعض إن المقصود بكلمة "ليبيا" عندالرومان هي إفريقيا - القارة، وهم يعنون الأفارقة عند حديثهم عن الليبين. لكن هذا غير صحيح على الإطلاق على الأقل بالنسبة لشاعرنا هذا. فهو في مواطن كثيرة يتحدث عن ليبيا بمعنى مختلف عن إفريقيا، التي هي عنده أكبر وأشمل، ويميز ما بين الليبيين والإفريقيين تمييزاً واضحاً بأن يجعل الأولين من ضمن الأخيرين.

ويقول البعض الآخر إن المعنى بالليبيين هم أهل شمال إفريقيا من مصر شرقًا حتى الأطلنطي. وهذا صحيح إلى حد ما. فوحدة الشمال الإفريقي، لغة وعرقًا، منذ قديم الزمان، مسلم بها ولا تحتاج إلى كثير نقاش. بيد أن شاعرنا في ملحمته يفرق بين الليبيين بهذا المعنى أيضاً، أو هو يقسمهم. فأهل المغرب الأقصى يُسمَّون في ملحمته "المور" وأهل المغرب الأوسط (الجزائر الآن تقريباً) يسمون لديه النوماديين. أما التعبير بالليبيين فالمراد منه أهل شرق تونس حالياً ثم ما يعرف باسم ليبيا حتى مصر، والدليل على هذا أسماء القبائل التي يعددها ومواطنها معروفة محدودة، مثل القرمنت والنسامونيين والكينوبيين والأسبوتيين والادرماخيداي وغيرهم. ليس هذا فقط بل هو يعدد مدنهم المعروفة - كصبراتة ولبدة وأويا - بتركيباتها الاجتماعية - العرقية. بل يدمج

معهم "المتليبين" من الإغريق والصقليين في قورينا وبرنيق وأويا. وهو حين يتحدث عن الليبيين يتحدث عن ضحاضح سرت، ومعبد آمون سيوة، والصحراء الشاسعة والشمس الحارقة، ويذكر عاداتهم في الحرب والقتال وأسلحتهم بل ومظاهر حياتهم وأشكالهم وثيابهم التي يرتدون. فالمقصود بالليبيين إذن هم أهل هذا الجزء من شمال إفريقيا المعروف الآن، اتحدوا مع بقية إخوانهم في الشمال الإفريقي لمغالبة جنس آخر هم الرومان، وانخرطوا في سلك الجيش القرطاجني ـ الذي ينتمون إلى قادته بأكثر من سبب ـ في حربه ضد العدو المشترك.

كان الليبيون عماد جيش هانيبال إذن، أبلوا أحسن البلاء في البر والبحر، وكانوا شجعاناً بواسل، حق لهانيبال أن يركن إليهم ويعتمد عليهم. وتقدم "الموسوعة البريطانية" مثلاً لهذه الشجاعة ما حدث يوم واجه هانيبال جيش الرومان بقيادة آيميليوس باولوس. كان الرومان أكثر عدداً وعدة يومها فهجموا على الجيش القرطاجني الذي كان مركزه مكوناً من الإيبيريين (الإسبان) والغاليين (الفرنسيين) وكسروا هذا الجيش وكاد يتحقق لهم النصر الكامل. تقول (الموسوعة) ما نصه: "وفي حين استسلم المشاة الإيبيريين والغاليّون في مركز جيش هانيبال أمام تقدم الجنود الرومان المتفوقين عدداً ثبت مشاة وفرسان هانيبال الليبيون على جناحي الجيش والتحموا بخط قتال الرومان. وفي حركة تطويق خلفية انقلبوا لمطاردة الفصائل المنتصرة من مؤخرتها".

ليس هذا فحسب. بل إن هانيبال نفسه كان ينعت بلقب "الليبي" في كثير من المناسبات، فنجد لوسيان الساموساتي، مثلاً، يفعل هذا في المناظرة اللطيفة التي تخيلها في مؤلفه (حوار الأموات) بين هانيبال والإسكندر الأكبر والقائد الروماني سكيبيو، وكان مينوس، ملك كريت، حكمًا. فقد اجتمع الأربعة المشاهير في الآخرة، ومضى كل قائد من القادة الثلاثة يعدد مناقبه ويفاخر بها صاحبه لينال حكم

مينوس بأنه أفضلهم جميعاً، ويشرع الإسكندر الأكبر موجهًا خطابه لهانيبال: "أنا أفضلك.. أيها الليبي"، ويقول مينوس: "فليتحدث كل منكم بدوره. ابدأ أنت أيها الليبي". وعندما يفرغ هانيبال من حديثه يعلق مينوس الكريتي بتحيز واضح لصاحبيه الأوربيين: "ليس هذا بحديث هين ما قدمه عن نفسه. وليس هو ما يتوقّعه المرء من ليبي على الإطلاق (كذا)". ويفاخر كل من الإسكندر وسكيبيو بأنهما انتصرا على الليبيين في معارك طاحنة، ثم يأتي حكم الكريتي، وكما هو متوقع بالطبع، بأن الإسكندر هو الأفضل، يليه سكيبيو وهانيبال ثالثًا معلقًا بقوله: "وهو الآخر ليس هين الشأن".

***

السؤال الآن، إذا كان للرجال نصيب في جيش هانيبال، ألم يكن للنساء الليبيات نصيب كذلك؟ والجواب: بلي والله!

هذه أسبوتي، العذراء المحاربة، مثل لذلك. قدمها الشاعر، كما يقول الأستاذ ج. د. ف، نداً لبطلة فرجيل الشهيرة (كاميلا) وأحاطها بصورة جميلة من حقائق التاريخ ممتزجة بالأساطير. وهو خلط ما بين القبائل وشخصيات الأسطورة والآلهة القديمة في حديثه عن هذه الأميرة الليبية الفارسة.

يرجع الاسم، كما هو اضح، إلى قبيلة ليبية قديمة يقول عنها هيرودوت (الكتاب الرابع - فقرة 171) إنها كانت تقطن إلى الداخل خلف قورينا بعيداً عن ساحل البحر، وإن الأسبوتيين (الأسبوستاي) يستخدمون أكثر من أية قبيلة أخرى عربات ذات أربعة جياد.

كان هذا في القرن الخامس قبل الميلاد(*) فلما جاء بليني الأكبر

(*) الواقع أن هذه القبيلة عرفت منذ القديم تحت أشكال مختلفة من رسم اسمها، وهي مذكورة منذ القرن الثالث عشر ق.م. في سجلات مرنبتاح عن الغزو الليبي العظيم، وقد قرئت: سبت، سبد، أكبت. SBT, SPD, KBT

(توفي 79) وضع القبيلة غرب النسامونيين والمكاي -فكأنهم زحفوا إلى الغرب. وهم عنده (الأسبوتاي) - ولا ضير، فاسم القبيلة يكتب بصيغ مختلفة منها : الأسبوستاي، والأسبوتاي، والهسبتاي، والأشبث، فلما جاء ابن سينا في كتابه (القانون في الطب) كتبه : البست. . وواضح أن شاعرنا اتبع في كتابة الاسم خُطى معاصره المشهور - بليني -واقتبسه اسماً للفتاة، وهذه إحدي خصائص الشاعر، أن يتخذ من الأعلام رموزاً، ويجعل من الرموز أعلاماً.

ثم مضى ليجعلها تقود جيشاً من النسوة من قبيلة المارماريداي (أو المرمريقيين) وكانت تعيش فيما يسمي حتى الآن: مرمريكا ـ قريبًا من طبرق. وجعل أخاها ـ وياللعجب ! ـ قائداً لقبيلته الغايتولي (جدالة) وهم كانوا في الجنوب الغربي من البلاد. ولم يكتف بهذا بل جعل أباها من القرمنت، ملكًا لقبائل متعددة مختلفة، ولم يكن هناك ـ فيما يبدو ـ من يحاسبه أو يعاتبه ويخطئه أو يصوبه. فأطلق لخياله الشعري العنان وهو قابع في إحدى قرى تورينو يشرق ويغرب و(يبحر ويقبل) كما شاء له الخيال !

وهو جعلها تقود جيشًا من النسوة، بعضهن مكبل بأغلال الزواج كما يقول، وأخريات لا يزلن أبكارًا. وهذه إشارة إلى جيش الأمازونات الليبيات بقيادة ملكتهن " مورينا" اللاتي تحدث عنهن ديودوروس الصقلي في (مكتبته التاريخية) بتفصيل كبير(*)، ووصف أميرتنا بأنها " العذراء المحاربة " وهذه إشارة إلى الربة "أثينا" - فهذا لقبها. وكانت أثينا ولدت من البحر الليبي، وعبدها اليونان ـ كما يقول هيرودوت ـ بهذا الاسم باعتبارها ربة الحرب والنزال وحامية عاصمتهم - مدينة أثينا ـ التي سميت باسمها. وهي ربة ليبية (لا يزال أبو التاريخ يتحدث) واسمها الأصلي "نيث"، وحرفت حينًا آخر فصارت "تانيت"

(*) راجع " نصوص ليبية " و" قراءات ليبية" للكاتب H.Tnorris; The Tu-aregs. their

وصارت مرة أخرى "تانيس" . ومعبدها كان أيضاً بمدينة سائيس في دلتا النيل حيث عاش الليبيون طويلاً، ولعل اسم " تونس" الحديث مأخوذ عن " تانيس" هذه، فقد كانت (العذراءالتاريخية) معبودة القرطاجنيين الممجدة وهم كانوا في تونس - كما تعلم بالطبع.

* * *

السؤال الآخر الذي يمكن طرحه الآن هو :ما أصل أسطورة أسبوتي؟ وماذا كان من أثرها؟

وللإجابة على الشطر الأول من هذا السؤال نشير إلى الظاهرة المعروفة في المجتمع الليبي القديم، سواء في عصور ما قبل التاريخ أو الأعصر الكلاسيكية، أعني ظاهرة " مجتمع الأم" أو "المجتمع الأمومي" فقد كان للمرأة السلطة في ذاك المجتمع، ومن هنا نرى وفرة البطلات الأسطوريات في ليبيا القديمة. المعبودة الرئيسية لدي الليبيين كانت "نيت" وقائدة الأمازونات الملكة "مورينا" ، و"ميدوسا" الغرغونة، والملكة "تن ـ حنان" الطارقية، وحتي الكاهنة "داهية " إبان الفتح الإسلامي، كلهن يشرن إلى دور المرأة / الأم. وما من ريب في أن صورة الملكة "مورينا" قائدة الأمازونات كانت مسيطرة على ذهن الشاعر إيتاليكوس حين كتب ملحمته (البونيقية) هذه. وقد ظلت ظاهرة "المجتمع الأمومي" عند الطوارق ولحظها الكتاب المسلمون حين اختلطوا بهم وأشاروا إلى قبيلة "التوشيت" Tawshit التي ينتسب أفرادها جميعًا إلى أمٍّ واحدة، وكانت تحكمهم ملكة ذات قوى خارقة للعادة أو قوة جسمانية هائلة، ولا يزال للمرأة عند الطوارق دورها المميز وسلطتها المعتبرة حتى يومنا هذا.

في كتابه(الطوارق)(*) ناقش الباحث هـ.ت. نوريس هذا الموضوع،

(*) Islamic Legacy and its Diffusion in the Sahel, Aris . and phillips, England 1965 p.11.ff

وانعطف إلى أسطورة أسبوتي هذه التي بين أيدينا، وذهب إلى أن التراث المصري حفظ لنا بقايا هذه الأسطورة في أقنعة مختلفة، أثرت في الكتاب العرب من بعد، وانتقلت إلى التراث العربي في صور من القصص الشعبية المتوارثة، بكثير من الخلط بالطبع كما هو متوقع. كان المصريون، كما يقول نوريس، ناسجي قصص جيدين، وكان لأفكارهم تأثير على الكتاب المسلمين في مصر. وقد حفظت لنا الحبكة المصرية ذكرى غارات الليبيين على وادي النيل من أيام الفراعنة، وظهرت جملة قصص، أولاها عن موقع يسمى "قمودة" غرب مصر بشكل مبهم، وكانت ملكته ساحرة حكمت شمال إفريقيا حتى حدود مصر، وكانت تشخيصًا للنظام الأمومي. لكن عملاقًا من قومها يدعي أحيانا "جالوت" وأحياناً" مازغ بن كنعان " كان منافسًا لقمودة وملكتها. ويعيش جزء من هذه الحكاية عند الطوارق في الحجَار، فهم يقولون إنّ "تن - حنان" سكنت قلعة تسمى "أبلسا" وكان بانيها نصرانيًّا يدعى "جالوت" قاوم المسلمين حتى بلغوا الحجّار، فلمّا هزموه فرّ منها إلى المدينة "تادمكت" ثم رجع منها إلى الحجّار حيث قتل في معركة ضدّ المسلمين.

هذه الحكاية المصرية - الليبية انتقلت إلى التراث العربي الإسلامي على يد المسعودي في الكتاب المنسوب إليه باسم "عجائب مصر". فقد ذكر فيه أن حاكمها يدعى "مالك" سار في حملة على الليبيين وكانت ملكتهم ساحرة تدعى "أسطى"، فأثار هؤلاء بخارًا سحريًّا واختفوا عن الأنظار أو هم تحوّلوا إلى سراب يرى ولا ينال، وكانوا يعيشون في مدينة تدعى "قمودة"، ثم كانت نهاية المدينة أن دمرت بالنيران.

وهنا جملة ملاحظات للربط بين هذه الحكايات، أولاها اسم الرجل الذي قاتل الملكة الليبية، فهو يدعى في القصة المصرية والطارقية "جالوت" ويسمى مرة في القصة المصرية "مازغ" ويسمى عند المسعودي "مالك" والاسم في الحالات الثلاث معناه "الملك" (جالوت = سليط /

السلطان. مازغ = الماسك / الممسك بمقاليد الأمر. مالك = المالك / الملك). وثانيتهما اسم الموقع الذي تكرر كثيراً "قمودة".

وهذه قرية غير بعيدة عن القيروان في تونس، وكانت أرض مواقع ومعارك بين الفاتحين المسلمين والبيزنطيين حتى فتح أسبيطلة في عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) سنة 657 م وقد تركت هزائم البيزنطيين (الروم) في هذه الأنحاء أثرها على الروائيين والشعراء المسلمين، إذ نقرأ قصصاً عن الملكات والأميرات المقاتلات (قارن: " ذات الهمة" - مثلاً). وهي قصص مبنية في جزء منها على بعض الحقيقة ومؤسسة في جزء آخر على الأساطير الشعبية الأولى، وقد دخلت هذه الحكايات في تيار التراث الشفوي لأهل المغرب، وفي السيرة الموسوعية لبني هلال التي سوف تستخدم لتفسير التغيرات الاجتماعية في حياة شعوب الشمال الإفريقي. أما الملاحظة الثالثة فتكمن في الاسم الذي أورده المسعودي: "أسطى" ومن المرجح جداً أنه تحريف أو تعريب لاسم "أسبوتي". ويؤيد هذا الرأي المقارنة البسيطة بين الملكتين.

في أسبوتي، مثلما هو الحال في أسطى، يمكن وجود ساحرة ذات دم ملكي، سيدة الوحوش القرمنتية، كاهنة معبد آمون بصنمه المقدّس المموه بالنحاس. وهي كانت من شعب اللسانيين (المصري والليبي) وكانت مقاتلة عنيدة تحسن استعمال فأسها الرهيب، ولعل إحراق مدينة " قمودة " إعادة صياغة لقصة حرق أسبوتي بعد موتها، مع بعض الملامح الأخرى المعروفة عند القصاصين القدماء أحاطوا بها المعركة الضارية حتى الموت بين "أسطى" و "مالك" في رواية المسعودي.

* * *

وبعد..

فلنعد إلى "البونيقة" ولا ندع الحديث يسرقنا، وما أكثر القضايا التي يمكن إثارتها ويضيق بنا عنها المجال.

وقد اخترت لك بعضاً من مقاطعها وأبياتها أنقله إليك في ما يلي من الصفحات. وقدمنا " العذراء المحاربة " إذ يقال: السيدات أولاً. فما بالك إذا كانت آنسة في مثل أنس أسبوتي؟ فإن لم يكن التقديم رغبة، فهو إذن من باب الرهبة.. ولنا في فأسها اللامع ألف عذر وعذر!

ومن بعدها يأتي دور الرجال الخشنين من المقاتلين الليبيين الشجعان في جيش هانيبال، وهم مقاتلون أخشن ما يكونون فعلاً!

ولأنَ النصَ بالغ القدم، تغمض لغته ورموزه وإشاراته وأسماؤه وأعلامه، فقد عمدت إلى شرح ما حسبته مستغلقًا بهوامش وتعليقات آمل أن تعينك.. إن شاء الله!

(أ) العذراء المحاربة

" أهاج أسبوتي وقوع رفيقتها، فرفعت
الجسد المكبّ وبللت بدموعها العينين
الغاربتين وقد فارقهما النور. ثم أرسلت
بكل ما في الأسى من قوة رمحها القاتل
نحو أسوار المدينة!".

" من بين الليبيين أهل النطاق الفضفاض[1] وأصحاب اللسانين[2]، جاءت

---

(1) وردت هذه العبارة في نص " ج.د. دف Duff اللاتيني هكذا Discinctos in-ter Lybias populosque وترجمها " دف" بالإنجليزية : among the loose-ly-girt Libyans بينما أورد " بيتس " في كتابه " الليبيون الشرقيون" النص اللاتيني هكذاDiscinctos inter Libyeos populos وترجمه among the loos - robeb or lightly- clad ومعناها العام : من بين الليبيين فضفاضي الأردية، أو الخفيفي الكساء، ويرى "بيتس" من الآثار المصرية أن النطاق - أو الحزام - الليبي القديم يشبه أحزمه لاعبي "البولو" وهو من الخلف أعرض من الأمام. وليس واضحاً كيف كان يربط حول الوسط ولكن يبدو من تعدد الربطات على فخذ لابسه الأيسر أن الحزام في أغلب الأحوال كان يطوى أكثر من مرة حول الوسط ثم تدفع نهايته بين الجسد وطيات الحزام، ترفع بعدها وتدس فيه (انظرThe Eastern Libyans صفحة 26) وهذا بالضبط ما يفعله الليبيون المحدثون رجالاً ونساء. والحزام، أو النطاق، يسمى في الحالتين "القشطة" إذا كان من قماش، أما إن كان من جلد (كما ورد في المصدر نفسه) فيسمى حزاماً وهو خاص بالرجل، فلا تتمنطق المرأة الليبية بحزام من الجلد بل من القماش أو الصوف أو بطرف ردائها تطويه حول وسطها.

(2) أصحاب اللسانين bilingues أي اللغتين : الليبية والمصرية.

أسـبـوتي ببـسـالة لتـحـارب روما بجنـد مـن مـرمـريقـا[3]. كـانت ابنـة هيـاربـاس القـرمنتي، وهـو كان ابن آمـون[4]. يحكـم بسلطـة نافـذة كهـوف مـيـدوسـا ابنـة فـوركـوس[5]، والمكـاي القـاطـنين بجـوار نهـر كـينوب [6]

---

(3) Marmaricis وهي منطقة ينسب إليها المرمريقيون Marmaricus الذين يقول عنهم هيرودوت إنهم يتاخمون قورينا من ناحية الشرق وينتشرون حتى آمون (سيوة) على ساحل البحر أو بالقرب منه. أما بليني الأكبر فيجعل موطنهم يمتد من باريتونيوم (طبرق) حتى سرت الكبرى، وأما ديودوروس الصقلي فهم عنده يشغلون الشريط الضيق بين مصر وقورينا ثم يهبطون إلى الساحل. ويقول يوسفوس في معرض حديثه عن قوة الرومان في كتابه (الحرب اليهودية - ص473 من طبقة لويب) إنه لم يستطع قهرهم ".. لا القورينيون أعقاب الأسبرطيين، ولا المارماريداي ذلك الجنس الممتد على طول الأقاليم المجدبة ولا السرتيون الذين يلقي اسمهم الرعب في القلوب".
راجع : نصوص ليبية للكاتب. صفحات : 89، 94، 107، 151 من الطبعة الثانية.

(4) Garamantis hiarbac hammaone hicgenitus،.... وآمـون Amon يكتب Amun و(Ammon أيضاً) هو كبير آلهة الليبيين القدماء، وكان معبده الرئيسي في واحة سيوة Amunium، كما عبد في مصر مدمجاً بالإله رع فصار آمون - رع. انظر : رحلة ويناموں والهوامش، وانظر كذلك : قراءات ليبية للكاتب.

(5) phorcynidos antra Medussae وميدوسا هي أشهر الغولات (الغرغونات Gorgons) وأبوها فوركوس هو أحد " شيوخ البحر" والداه بونتوس pontus (البحر) وغايا Gaia (الأرض) وقد ولدت له أخته كيتو ceto هذه الغولات، ومنهن ميدوسا التي كان لها دور مهم في الأسطورة اليونانية، وكانت تعيش في الصحراء الليبية، ثم جاء بيرسيوس في مغامرته المشهورة وقتلها وحمل رأسها ممتطياً الجواد المجنح بيغاسوس pegasus عابراً الصحراء، فكان الدم يتقاطر من رأسها وتنمو من كل قطرة دم حية حتى امتلأت الصحراء بالحيات.

(6) نهر كينوب Cynop وهو ما يعرف الآن بوادي كعام - ما بين زليتن والخمس، وكان نهراً جارياً، ويقول هيرودوت إن أرضه نضيرة لأخصب مناطق إنتاج القمح في العالم وإن محصولها يعادل محصول أرض بابل، وكانت مياه الأمطار والينابيع من "تلال الحسان" - جبال ترهونة - تمدّه بالمياه الدائمة فلا يجف. وكانت أنواع من الماعز الكينوبي مشهورة بطول شعرها ونعومته =

والقـورينـيين [7] من تـلهـبـهم الـشـمس اللافحـة. كـان يطيعـه النسامونيون[8] رعيته بالوارثة، والغايتولي[9] الراكبوان خيولهم دون عنان.

=وجماله تصنع منهـا أثواب فـاخـرة تسمي الكلكيوم cilcium. والمكاي Macae قبيلة كبيرة كانت تعيش عند نهر كينوب حسبما أورده هيرودوت، ولكن ديودوروس الصقلي، وهم عنده أكثر نفرا من بقية رفاقهم الليبيين، يقول: إنهم كانوا يعيشون في المناطق التي حول خليج سرت، وعندما رغب الأمير الأسبرطي دوريوس Dorius في إنشاء مستعمرة إغريقية عند نهر كينوب سنة 517 ق.م. مقتفياً أثر باتوس الذي أنشأ مستوطنة إغريقية في الجبل الأخضر، هب المكاي يدافعون عن أرضهم متحالفين مع القرطاجنيين حتى أخرجوه بعد عامين فقط من وصوله وعاد إلى بلاده خائبا.

(7) القورينيون - الأصل اللاتيني باتياداس Battiadas نسبة إلى باتوس Battus منشئ قورينا (انظر: نصوص ليبية / ص 35 وما بعدها)، وترجمت إلى الإنجليزية cyrenians والمقصود أهل ما يعرف الآن باسم برقة، أما القورينائيون cyrenaics فنسبة إلى مدينة قورينا (شحات) أو إلى المدرسة الفلسفية التي أسسها أرسبتوس القورينائي.

(8) Nasamonean كانوا يقطنون عند خليج سرت من أجدابيا فما غربها حتى بويرات الحسون تقريبا، وكانوا يرعون أغنامهم عند ساحل البحر، فإذا جاء الخريف تركوها ومضوا إلى واحة أوجلة يجمعون البلح ثم يعودون. (راجع: نصوص ليبية - في مواطن متفرقة).

(9) الغايتولي Gaetulians - Gaetuli لم يذكرهم هيرودوت في عداد القبائل الليبية، ولكن سترابو في كتابه (الجغرافيا) يقول إن أرضهم تقع بإزاء أرض القرمنت، وهي الأرض التي يؤتى منها بالحجر القرطاجني، وإن البلاد الواقعة في عمق الداخل أعلى سرت وقورينا يشغلها الليبيون: النسامونيون أولاً، ثم البسولي psylii وبعدهم بعض الغايتولي، ويصف خيولهم بأنها مدربة تدريبا ممتازاً، وأنها مطواعة يسهل ركوبها دون لجم، وهم على بساطة متناهية في أنماط حياتهم وثيابهم. وهم في جوانب معيشتهم كالعرب الرحل، وخيول كلا الفريقين وأبقارهم ذوات رقاب أطول من سواها في البلاد الأخرى، ويمارس ملوكهم تربية الخيول بشغف لا نظير له حتى أن عدد الأمهار ليبلغ كل عام مائة ألف مهر ومن الواضح أن ما عرف باسم قبيلة جديلة بعد الفتح الإسلامي ليست سوى قبيلة الغايتولي هذه

وقد بني بالحورية تريتونيس[10] ومنها رزق بالأميرة، وهي انتسبت إلى آمون[11] ومن "روضة الوحي" أخذت اسمها. كانت عذراء متوحدة، قضت بواكير سنيها تصيد في الغابات. لم تنعم يديها سلة الصوف أبداً ولم يشغلها المغزل قط، لكنها شغفت بديانا[12] حبًا، وبالأحراش وبأن تستحث بعقبها الجواد اللاهث، وتطأ - دون رحمة - الوحوش الضواري، مثلما كانت جماعة الأمازونات[13] في تراقيا تعبر جبل رودوب والأحراش السامقة على حواف جبل بانغايوس الحجرية وتنهك نهر هيروس بسرعتها، يرفضن كل خاطب من قبيلتي السيكون والبيستون[14] بدروعهم الهلالية الشكل.

---

(10) Tritonis في الأساطير اليونانية حورية تنتسب إلى تريتون Triton إله البحر، وفي الجغرافيا بحيرة في ليبيا يقول بعض الباحثين إنها ما يعرف الآن بشط الجريد في تونس ويقول الأستاذ غودتشيلد Goodchild في كتابه (بنغازي.. قصة مدينة) إنها كانت في ما يعرف بسبخة السلماني.

(11) الأصل: جوبتر Jupiter وكثيراً ما يدعو سيليوس الإله الليبي آمون باسم جوبتر، إذ من المعروف أن آمون صار يعرف بأسماء كثيرة متصلا بالإله رع في مصر، وزيوس عند اليونان، وجوبتر عند الرومان.
وروضة النبوءات prophetic grove عبارة عن حديقة أو جنة ظليلة كانت تحيط بمعبد آمون في واحة سيوة عند عين جارية عرفت باسم "ينبوع الشمس"، وفيها كانت الأسئلة تلقى على الكاهن ليجيب بنبوءة الهيكل ووحي الإله.

(12) الأصل اللاتيني Dictynna وهو أحد أسماء Diana ربة الصيد والطراد،وتعني كلمة Dictys اللاتينية: شبكة الصيد.

(13) Amazons ومعناها: المنزوعة الثدي، ويروي ديودوروس الصقلي حديثا عجبًا عن هذه الأمازونات، والنسوة المحاربات اللاتي كن يعشن في ليبيا ثم ذهبن إلى مصر ومنها غزون الشام كله حتى الأناضول وبلاد الإغريق وأنشأن ممالك ومدنًا بقيادة ملكتهن مورينا: راجع: نصوص ليبية الصفحات 149، 157، 160، 166، 167، 168 وكذلك: قراءات ليبية للكاتب.

(14) رودوب Rhodope وبنغايوس Pangaeus جبلان في تراقيا Thrace في بلاد اليونان وكذلك نهر هبروس Hebrus، والسيكون Cicones والبستون Bistones قبيلتان في البلاد ذاتها.

في ثيابها الوطنية برزت، وشعرها الطويل مشبك بهبة من حوريات الهسبريدس[15]، وثديها الأيمن عار استعداداً للمعركة، يلمع درعها على ساعدها الأيسر، وترس الأمازونات يحميها عند القتال - واستحثت عربتها المرسلة الدخان بسرعة رهيبة.

كان بعض رفيقاتها يقود عربات ثنائية الخيول، وأخريات يمتطين ظهور الجياد. وكان بعض من صحبة الأميرة قد أسلس قياده لأصفاد الزواج، لكن فاق عددهن من الجند العذاري.

وأمام صف القتال عرضت هي نفسها باعتزاز الصافنات التي انتقت من القطعان بين خصاص[16] أهل وطنها القصية. وقد اعتلت جوادها

(15) الهبة المعنية عبارة عن مشبك ذهبي كانت تتزين به "حوريات الغرب" أو الهسبريدس Hesperides اللاتي كن يرعين التفاحات الذهبية بالقرب من جبل أطلس، كما تقول الأسطورة. وكان التنين لادن Ladon يحرسها حين جاء هرقل ليأخذها من جملة أعماله الاثنى عشر المعروفة.

(16) الخصاص (جمع خص) أو الأكواخ Huts أنواع خاصة من البيوت المتنقلة عرفت عند الليبيين ويسميها اللاتين ماباليا Mapalia أو ماغاليا Magalia راجع: الليبيون الشرقيون لأوريك بيتس ص 168 - 170، ويقول أحمد صفر في كتابه "مدينة المغرب العربي في التاريخ" ص 59 أن الرعاة الليبيين كانوا يسكنون أكواخاً متنقلة عبارة عن بيوت خفيفة من الحصر أو الخصاص والشجر تحمل على عجلات أو تفك وتطوى وتحمل على الدواب. ومن بقايا "الماغاليا" ذلك النوع من الأكواخ الموجود بالجنوب التونسي والمعروف باسم (الكيب). ولا تزال كلمة (نوالة) تستعمل ببعض جهات الساحل (بالمهدية مثلاً) للدلالة على كوخ مبني بالحجارة، وسقفه من أغصان الشجر والقش ويخصص في الغالب للطبخ حسب الأساليب العتيقة، وهو يرى أن من الممكن وجود علاقة بين كلمة (نوالة) وكلمة (ماغاليا) الليبية القديمة، قد تكون تحولت إلى (مواليا) ثم (نواليا) إلى أن صارت (نوالة)، وكلمة نوالة كانت مستعملة في مصراتة أيضاً بمعنى المطبخ، أو محل طبخ الطعام. ويبدو أن هذه الكلمة التي كنا نعرفها في صبانا انقرضت الآن وبطل استعمالها بحكم تغير ظروف السكن وتطور أسلوب العيش ودخول مؤثرات جديدة في حياة الليبيين.

ودارت به في السهل دورات، غير بعيد من الرابية، ثمّ طوّحت قذائفها الصافرة في الهواء وغرستها على قمة القلعة.

قذفت بأسلحتها الأسوار مرة بعد مرة، بيد أن موبسوس[17] العجوز كان يصدّها ويرسل على عجل، من فوق الأسوار السامقة، بسهام كريتية من قوسه الرنانة، ويدفع في السماء الصافية بجراح قاتلة من الفولاذ المجنح. كان كريتيًا أبحر من كهوف الكوريتيس[18] مجلجلي النحاس. ويوم كان فتي رشيقًا كانت عادته أن يضرب أجنحة طائر الدكتي بالسهام المريشة، ويا طالما أسقط الطائر الحوام من عليائه. كان يمكنه أن يضرب عن بعد الوعل المفلت من الشباك على مدى السهل، ويوقفه مكانه، فيخرّ الحيوان تأخذه مفأجاة الضربة على غير انتظار قبل أن يكفّ القوس عن الرنين. وقد حقّ لغورتونا[19] المنافسة لسهام الشرق أن تفخر بموبسوس أكثر من فخرها بأي قواس آخر. فلما رغب

---

(17) يبدو موبسوس Mopsus هنا شخصية تقاتل أسبوتي، وهنا - مثل مواضع كثيرة أخرى - يسبغ سيليوس أسماء أسطورية على شخصيات ملحمته الخيالية، ويرى ديودوروس الصقلي في " مكتبته التاريخية " أن موبسوس كان من أهل تراقيا غزا الأمازونات الليبيات اللاتي استقر بهن الأمر في بلاد اليونان بقيادة مورينا وحدثت معركة رهيبة انتصر فيها موبسوس وحليفه سيبولوس =السكيذي وقتلت مورينا ملكة الأمازونات (راجع: نصوص ليبية - ص 167. وهنا نجد سيبولوس يضع موبسوس في مواجهة أسبوتي المتمثلة بمورينا ملكة الأمازونات الليبيات.

(18) الكوريتيس Curetes حسب الأسطورة أنصاف آلهة حموا زيوس (أو جوبتر) من أبيه كرونوس Cronos وظلوا يرقصون حول الكهف الذي كان فيه وهو لا يزال طفلاً، ويخبطون دروعهم ويجلجلون صنوجهم ليخفوا صراخه فلا يكتشف أبوه مكانه.

(19) Gortyna إحدى مدن كريت. ويدعى السهم في اللاتينية القديمة: الغورتوني Gortynian أو الدكتي Dictean نسبة إلى مدينتين في كريت، أو الكريتي Cretan كما يقال في العربية عن السيف: الهندي. نسبة للهند، والمقصود بـ" سهام الشرق " بلاد فارس.

عن قضاء حياته كلها في الصيد، بعد أن حلّ به الفقر، وساقه فقره عبر البحر، قدم ضيفًا متواضعًا مع زوجته ميروي وقاده القدر المحتوم إلى ساغنتوم البائسة المصير.

من أكتاف أبنائه الشبان تحدّرت الجعاب وسهام والدهم والفولاذ المجنح، سلاح كريت. وكان موبسوس يمطر مقاتلي الماسوليين (20) بسهام من قوسه الكودوني (21) المصنوع من القرن، وهو بين بنيه. وقد صرع كلاً من قراموس وثوروس المقدام وجيسكو الجسور هو وباخاس الشديد وليكوس الذي لم يطر شاربه بعد ولم يكن له أن يلقي سهمًا لا يخطئ مثل هذا السهم (22).

أدار عينه وسلاحه صوب وجه أسبوتي ودعا جوبتر (23)، بيد أن دعاءه لم يلق قبولاً لدى الربَ الذي هجره (24)، إذ ما أن رأت هاربي (25)، العذراء النسامونية، القوس القاتل مصوبًا حتى ألقت بنفسها في سبيل الخطر القادم من بعيد وتلقت الضربة القاضية. فقد ضرب السهم الطائر فمها المفتوح عندما صرخت، واخترقه، ورأت

(20) الماسوليون، أو الماسولي Masuleans-Masulii إحدي القبائل الليبية - النوميدية الكبيرة وبطن من بطون الغايتولي.

(21) Cydon مدينة أخرى في جزيرة كريت.

(22) هذه الأسماء التي يطلقها سيليوس على الليبيين الذين قتلهم موبسوس تنتسب بطريقة أو بأخرى إلى الأعلام في ليبيا وقرطاجنة، وهي أسماء خيالية بالطبع، فنجد قرموس Garamus متصلاً بقراماس Garamas وهو من يقول القرمنت إنه جدهم الأول، وجيسكو Gisco هو أحد قادة جيش هانيبال الكبار، أما ليوكسوس Lixus فهو اسم بحيرة كان يعرفها الليبيون، ولعلها بحيرة تشاد، وهو أيضا اسم نهر في السوس الأقصى.

(23) Jupiter ولعل المقصود آمون، إذ كثيراً ما يخلط الشاعر بين الاسمين.

(24) بمغادرته جزيرة كريت هو وأولاده وزوجته ورحيله عنها إلى ساغنتوم.

(25) Harpe ومن الممكن تعريب الاسم إلى "حربية" المنتشر في ليبيا.. فهو مطابق تمامًا

أخواتها رأس السهم نافذاً من ظهرها.

أهاج أسبوتي وقوع رفيقتها، فرفعت الجسد المكبّ وبلّلت بدموعها العينين الغاربتين وقد فارقهما النور. ثم أرسلت، بكلّ ما في الأسى من قوّة، رمحها القاتل نحو أسوار المدينة، فطار واختراق بضربة مباغتة كتف دوررولاس(26)، فيما كان يجاهد لأن يرسل الفولاذ في الهواء بإصبع رخي، فتقابل طرفا القوس وملأ السهم الفراغ الباقي الذي تركه الوتر المشدود، ثم سقط على أم رأسه يهوي من فوق أبراج السور العالية. وتناثرت إلى جانب جسده الساقط السهام من جعبته على غير انتظام.

صاح أخوه إيكاروس، الشاك السلاح مثله واقفًا بجانبه، صيحة عالية وطلب الثأر لهذه الميتة المفجعة. لكن ما أن أعدّ سلاحه على عجل للمعركة حتى طوّح هانيبال بحجر عظيم وأوقفه بكتلته الدوامة، فانحلت أطرافه وتجمّدت، وأرجعت يده الفاشلة إلى الجعبة سهمها.

فلما رأى موبسوس ابنيه الاثنين مجندلين أمسك بقوسه، في حزنه وثورته، وشدها ثلاث مرات، وثلاث مرات كانت يده تفشل، والشجن يسلبه حذقه المعهود، والندم يأكله على فراق الأرض التي أحبّ(27)، بعد فوات الأوان، وا أسفاه، فالتقط بحمية الحجر الذي صرع إيكاروس، وحين أحسّ الشيخ أن لا جدوى من ضرباته الواهنة على صدره، وعرف أنّ ذراعه لن تعينه بالموت لينهي أساه المرير، رمى بنفسه يهوي من قمة البرج الكبير، فسقط ثقيلاً وألقى بأطرافه، وهو يحتضر، على جسد ابنه.

وإذ سقط الغريب الكريتي، هكذا في حرب عنه غريبة، حرض

---

(26) Dyrolos أحد أبناء موبسوس.

(27) يعني جزيرة كريت.

ثيرون، حارس هيكل هرقل[28] وكاهن مذبحه، المقاتلين وحاول جهداً جهيداً. فتح أحد الأبواب وأرسل قوة لتباغت القرطاجنيين، وكان القتال ضارياً. لم يكن يحمل رمحاً في يده ولا خوذة على رأسه. ولكنه كان يجندل الأعداء معتمداً على منكبيه العريضين وقوته الفتية، غير ملتمس سيفاً. كان يعلو هامته جلد ليث منزوع[29]، وقد ارتفع الفم المرعب المفغور فوق قامته المديدة، وعلى درعه أيضاً حمل مائة حية ووحش ليرنا - أفعي الهيدرا تلك التي تتكاثر كلما قطعت الحيات نصفين[30].

وقد دفع جوبا وأباه ثابسوس، ومكبسا الشهير بمجد سلفه، وساكيس الموري[31] دفعهم بعيداً عن الأسوار، وطاردهم إلى الشاطئ

---

(28) هرقل، ويكتب عند اليونان Heracles وهو عند الرومان Hercules أسطورياً هو ابن زيوس، وهو معبود يوناني - روماني. كلف بالقيام بإثني عشر واجبا - أو عملاً - خطيراً منها قتل الأسد الخرافي الرهيب، وقد قتله بهراوته وارتدى جلده فصار يصور هكذا بهرواته وجلد الأسد على ظهره، وقد حول زيوس الأسد إلى مجمع نجوم ثابتة، أو برج، يعرف باسم (برج الأسد)، ومنها: قتله الحية هيدرا hydra ثعبان الماء الموجودة في بلاد ليرنا Lerna الأسطورية، وسيرد ذكر الاثنين، وقد جعل ليسيوس شخصية ثيرون Theron كاهناً لمعبد هرقل في ملحمته إشارة إلى المعركة الكبرى بين هرقل والعملاق الليبي (أنته) الذي تقول عنه الرواية إن هرقل لم يستطع التغلب عليه وقهره حتى رفعه عن أمه (الأرض)، وهناك لوحة مشهورة محفوظة في متحف اللوفر بباريس تمثل هذه المعركة. (انظر مثلاً: الليبيون الشرقيون ص 26).

(29) رمز الأسد الذي قتله هرقل.

(30) كانت الهيدرا أفعي مائية طلب من هرقل قتلها فكان كلما قطع رأسا نما لها رأسان بدلاً من رأسها المقطوعة، حتى استعان هرقل بأخته لتكوي موضع الرأس كلما قطع فلا تنمو، هكذا تروي الأسطورة وليس " كلما قطعت الحيات إلى نصفين " كما يقول سيليوس، وكان هذا من جملة " أعمال هرقل" الاثني عشر، يعرضها ثيرون مصورة على درعه.

(31) مرة أخرى نجد أسماء شخصيات معروفة يطلقها الشاعر على شخصياته الخيالية فجوبا Juba مثلاً كان أحد ملوك نوميديا، وكذلك مكبسا Micipsa في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وهو الذي تبنى يوغورتا Jugurtha وكان مكبسا ابن مسنيسا Masenissa الملك الليبي- النوميدي المشهور.

مدبرين بغير انتظام وأزبدت يده بمفردها البحر بالدماء.

لم يكفه موت إيدوس وموت كوثو المرمريقي، ولا مقتل روثوس ومقتل يوغورثا [32]، فطمح إلى عربة أسبوتي وعباءتها الساطعة التي كانت تكسوها، وترسها اللامع المجوهر، وكان فكره كله مثبتًا على العذراء المحاربة.

عندما رأته الأميرة مندفعًا بهراوته الملطخة بالدم أمالت جيادها جانبًا وتفادته بالانحراف يسارًا، لتشق السهل وتحلق كالطير على ميدان القتال المنحدر مولية إياه ظهر عربتها. وكانت العجلات، وهي تتوارى عن بصره، وسنابك خيولها الراكضة أسرع من الريح، تثير سحابة من الغبار على الميدان، تحطِّم الصفوف المقابلة ذات اليمين وذات الشمال، والعذراء ترسل عليهم ،وهم في اضطرابهم، بالرمح إثر الرمح.

هنا سقط لوكاس وثاموريس ويوروداماس ابن المشاهير [33]، فرع الأرومة الكريمة. كان سلفه - يا للمسكين! - قد جرؤ على الطمع في زواج رائع بزوجة الأثاكي أوديسيوس[34] بيد أنه أخذ بحيلة الزوجة العفيفة التي نكثت كل ليلة غزلها [35]، فقد أعلن أن أوديسيوس غرق

---

(32) Jugurtha, Rothus, Coto Marmarica, إلى جانب saces the Moor Thopsu أسماء ليبية يجعلها الشاعر ضحايا هرقل.

(33) أسماء يونانية وواضح من هذه الأسماء اليونانية تحالف الإغريق والرومان ضد هانيبال، واسم الأخير كما جاء في "الأوديسة" هو يوروماخوس.

(34) بطل ملحمة هوميروس المعروفة، وكان موطنه إثاكا Ithaca في بلاد اليونان.

(35) ظلت بنيلوبي Penelope زوجة أوديسيوس تنتظر عودته عشر سنوات كاملة، وكان الخطاب يتقاطرون على بابها للزواج منها، نظرًا لجمالها الفاتن، ولكن إخلاصها لزوجها وحبها له، وأملها في عودته من رحلته الطويلة جعلها تحتال بالقول: إنها ستجيب الخاطب إلى طلبه بمجرد أن تنهي الغزل الذي بين يديها، ثم تعمد إلى نكث ما غزلت ليلا لتبدأ من جديد. فلا تنتهي منه ولا تجبر على إجابة الخطاب. فلما عاد أديسيوس أكبر وفاءها وانتقم ممن خانوا صحبته في غيبته وصارت بينولوبي مثلا يضرب في الوفاء

في البحر لكن الأثاكي عاقب الشرثار بالموت - الموت الحقيقي وليس الموت الخرافي. وحلت الجنازة محلّ الزفاف. وهاهو آخر عقبة، يوروداماس، تقتله يد الملكة النوميدية [36]، إذ زمجرت العربة القاضية فوق عظامه المحطمة ومضت في سبيلها.

قفلت أسبوتي إلى الميدان ثانية حين رأت ثيرون منهمكًا في المعمعة فصوبت فأس قتالها البتار إلى منتصف جبينه وهي تنذر لديانا غنيمة فاخرة منه، حتى جلد أسد هرقل. ولم يتراجع ثيرون، بل انتصب واقفًا أمام الخيول، تدفعه الحماسة للغنيمة الكبرى، وأمسك برأس الأسد الأشعث الأغبر ودفع به في وجوهها المرتعبة. جرت الخيول بخوف لم تشعر به من قبل - الخوف من الفكين المفغورين المنذرين - فأربكت العربة الثقيلة وقلبتها.

حاولت أسبوتي أن تفلت من القتال، فقفز ثيرون ليمنعها وضربها بين صدغيها فلطخ العجلات البارقة والأعنة، وقد أربكتها الجياد الفزعة، برشاش الدماغ المتفجر من الجمجمة المحطمة. ثم أمسك بفأسها وحز رأسها حين تدحرجت الفتاة خارج عربتها، رغبة في أن يعلن قتله إياها. ولم تهدأ سورة هياجه بعد، فثبت رأسها على رمح رفيع ليبصرها الجميع، وأمر رجاله أن يحملوها أمام الجيش البوني [37] كله وأن يسوقوا

---

(36) المقصود أسبوتي، وهو تارة يدعوها " الأميرة " وتارة أخرى " الملكة" والنوميديون هم الليبيون الرحل nomads تمييزًا لهم عن الليبيين أهل الحضر (راجع: نصوص ليبية)، ثم صار تعبير (نوميديا) يطلق على ليبيي الجزائر أو المغرب الأوسط.

(37) punic-poenum جيش هانيبال، وقد جرت العادة على ترجمة punic بكلمة "بوني" وإن كان الأصل، دون شك، هو تعبير " فينيقي " إذ كان الرومان يرجعون أصل هانيبال والقرطاجنيين إلى فينيقيا دائمًا، ومن الممكن القول بأن لفظ punic لأهل شمال إفريقيا في مقابل phoenician لأهل المشرق يوازي ما استعمل بعد الفتح الإسلامي من لفظ Moor للشمال إفريقيين ولفظ saraceen لأهل المشرق أو" الشرقيين".

العربة إلى المدينة على عجل.

كان ثيرون قد عمي عن قضائه المحتوم وتخلى عنه فضل الأرباب فمضى يقاتل لكن الموت كان له بالمرصاد. إذ جاء هانيبال يعلو كلَّ قسمة من قسماته الغضب والوعيد، واندفع بصدر يملؤه الحنق نحو قاتل أسبوتي ونحو رأسها المحمولة عالياً، نصباً شنيعاً. وما أن برق درعه النحاسي اللامع وجلجل زرده على جسده وصلصل منذراً بالشبور حتى غشي الأعداء فجأة الفزع وسارعوا بالفرار نحو المدينة.

ومثلما يعيد المساء الأطيار في آخر الغسق على أجنحتها الخفيفة من مطمعها إلى مجاثمها المألوفة، أو يفزع تل هوميتوس الأثيني[38] أسراب النحل المنتشر فوق الأزهار بنذير مزنة ممطرة فيؤوب النحل، مثقلاً بالشهد، على عجل إلى أقراصه المفرطة الحلاوة وخلاياه من الفلين الفواح، يطير جماعة واحدة مصدراً طنيناً عميقاً واحداً خارج الخلايا .. كذلك ساق الذعر الجند الفزعين بسرعة خارقة فاندفعوا على غير بصيرة منهم.

آه.. ما أحلى نور السماء[39]!

لم يفر الناس بمثل هذا الرعب من الموت الذي سيأتي حتماً يوماً ما، ومن الحكم الذي قضي به عليهم ساعة الميلاد؟

---

(38) الأصل: cecropian hymetus وهوميتوس تل في أثينا مشهور بعسله الفاخر و Athenian تعني cecropian وسكروب cecrop كان أحد ملوك أثينا الأقدمين.

(39) وردت هذه العبارة هنا في الأصل اللاتيني: heu blandum coelil umen وترجمت إلى الإنجليزية: oh! how sweet is the light of heaven! وهي وردت مرة أخرى في الملحمة نفسها (الكتاب السابع - بيت 73) هكذا oh! how sweet to see the light of heaven! وذلك في معرض تصوير موقف هانو hanno (أو حنون) أسيراً بعد هزيمته، ويبدو أن هذا تعبير لاتيني عن ساعة الضيق والمحنة، ربما طلباً لنجدة السماء ودعوة لعونها

إنهم يلعنون تدبيرهم ويندبون خروجهم من حمى الأبواب والأسوار.

ولم يكن لثيرون أن يوقف إدبارهم، بالقوة حيناً والوعيد حيناً آخر: "اثبتوا يا رجالي – فإن النصر في معركة مجيدة آت إليّ. سوف تبعد يميني القرطاجنيين عن سور وبيوت ساغونتوم. انظروا إليّ فحسب، إن يكن الخوف العاجل يدفعكم جميعًا – ويا للأسف ـ لما أرى! فلتقفلوا الأبواب من دوني أنا وحدي".

لكن هانيبال كان مسرعًا سرعة خارقة نحو الأسوار، في حين عمّ الخوف المحصورين يرتعدون بحثًا عن النجاة وطلبًا للحياة. كانت غايته مهاجمة المدينة أولاً من خلال أبوابها مرجئًا قتل خصمه.

وحين رأى حارس معبد هرقل الجسور هذا قفز قدما وسبق عدوّه، تدفعه إلى السرعة مخاوفه، فازداد غضب القائد الصوري (40) اشتعالاً، وصاح: "أنت – يا بواب المدينة المعتبر – ستعاني المنية أولاً على يدي، وبموتك ستفتح الأسوار! "منعه الهياج من أن يصل كلامه، وشرع يدير حسامه الساطع. غير أنّ المقاتل الساغونتي كان أمامه. فهز هراوته بقوة هائلة ورمى بها هانيبال.

صلصل زرد هانيبال بصوت أجوف تحت وقع تلك الضربة المهولة، وتراجعت الهراوة الثقيلة ذات العقد في الهواء بعد أن اصطدمت بالحديد المفرغ. فلما فقد ثيرون سلاحه وخانته ضربته المخفقة أطلق ساقيه للريح فارًّا وركض حول الأسوار طالباً بسرعته النجاة. فتعقب الغالب دبر الهارب بشدة معيراً إياه، وعلا صراخ النسوة في صوت واحد وارتفعت أصواتهن وعويلهن من قمة السور السامقة، كنّ ينادين ثيرون باسمه المعروف تارة، وتارة كن يتمنين لو ملكن القوة ليفتحن له الباب في ساعة ضيقه. بيد أن أفئدتهن، وهن يحرضنه، كان يرجها الخوف من السماح لعدوهن الجبار أن يدخل معه الأسوار.

(40) نسبة إلى مدينة صور في لبنان، إشارة إلى أصله الفينيقي.

ضرب هانيبال المدبر المنهك بدرعه ووثب فوقه حين وقع وقال وهو يشير إلى أهله الذين كانوا يراقبون من الأسوار:

"فلتمض ولترح أسبوتي العاثرة بموتك العاجل!" ودفن في الوقت نفسه سيفه الماضي في حلق ضحية كانت تتحرق شوقًا لإسلام روحها[41]، ثم ساق الغالبُ، يغمره الحبور، الجياد التي أخذت من أسبوتي، جارًا إياها من أمام الأسوار ذاتها حيث سدّ بها المدبرون مدخل الباب، وانطلق بالعربة مخترقًا الصفوف المنتصرة.

أما عصبة النوميديين، وقد جنَوا أسى، فقد سارعوا إلى واجب الدفن الحزين، وأكرموا أسبوتي بحرق جسدها على كومة من الخشب، ثمَ أمسكوا بجثة الميت وداروا بها حول رمادها ثلاث مرات. وألقوه بعدها في اللهب بهراوته القاتلة وغطاء رأسه المريع. فلما احترق منه الوجه والذقن تركوا الجثة البشعة لتلتهمها النسور الإيبيرية[42]!

(الكتاب الثاني. الأبيات 56- 209)

(41) فرارا من العذاب الأليم ورغبة في الخلاص مما سيلاقيه من بلاء على يد هانيبال وجيشه قبل أن يموت.

(42) Iberia - hiperis إسبانيا.

(ب) الليبيون في جيش هانيبال

" لقد زرع هانيبال ليبيا على قمة الألب وهو ينذر بنهاية سلطان الرومان! "

.433-432/7

[من القبائل والمدن الليبية التي كانت ضمن جيش هانبيال]:

(1) .. كان أبناء برنيق البواسل في البحر حاضرين. ولم تتخلف برقة الجافة ذات الينابيع العطشى، وقد تسلح رجالها للمعركة برماح عوال أسيلة. واستنفرت قورينا كذلك للسلاح أبناء باتوس، وهم رجال خداعون، سلالة من أرومة بلوبونيزية. كان يقودهم اليرتيس الذي مدحه هاملكار منذ زمن بعيد، وكان لا يزال نشطاً في المجلس ولكنه بطيء الحركة عند القتال. ثمّ أرسلت صبراتة ولبدة الفينيقية بنيها الصيداويين، وأرسلت أويا مستوطنين صقليين ممتزجين بالإفريقيين.. ثمّ المكاي أتَوا من نهر كينوب، وقد علموا كيف ينصبون الخيام في معسكرهم بالطريقة الفينيقية - رجال شعث اللحى، كسيت ظهورهم بجلود خشنة من الماعز البري، يحملون سلاحاً من حراب معقوفة. لكن الأدورماخيداي كانوا يحملون تروساً عديدة الألوان وسيوفًا صاغها الحداد على هيئة منجل ويلبسون خلاخيل على الساق اليسرى. خشناً كان طعام هؤلاء القوم ونزراً كان قوتهم، إذ تطهو الشمس المحرقة وجبات طعامهم البائسة..

والغايتولي أيضًا من ألفوا العيش بين جماعات الوحوش ويهدئوا بكلامهم شراسة السباع الضواري تركوا مستقرّهم إلى معسكر هانيبال. رجال لا بيوت لهم، بل يحيون في العربات، عادتهم الطواف

من مكان إلى مكان وأن يحملوا معهم أرباب مساكنهم المتنقلة. من هؤلاء جاءت ألف فرقة تحث الخطى مسرعة إلى المعسكر. أفراسهم أسبق من الريح وقد دربت على أن تطيع السوط.. كان أكراس يقود الغايتولي لكن محياه لم يكن مشرقاً ولا جبينه صافيًا، فقد كان هو أخا أسبوتي التي قتلت منذ قليل.

ثم جاء المرمريقيون يجلجل صوت أسلحتهم، وهم قوم ذوو قوة سحرية تنسى الثعابين عند تعاويذهم سمومها، وعند لمستهم تسكن الأفاعي غير ذات أذى.

(الكتاب الثالث. الأبيات 249- 302)

(2).. وكان هناك القرمنت من يخشون الأفاعي الرهيبة التي تصبّ سمّها الأسود في صحاراهم الشاسعة. وتقول الأسطورة إنه عندما قتل برسيوس الغرغونة وحمل رأسها تقاطر دم الغولة المرعبة في ليبيا. ومنذ ذلك الزمان امتلأت الأرض بحيات ميدوسا..

من هنا جاء النسامونيون من البحر، ورجال لا يخشون مهاجمة السفن المحطمة على الماء وأن يستلوا غنيمتهم من الأعماق، ومن هنا جاء القاطنون عند برك بحيرة تريتونيس العميقة، حيث خرجت العذراء المحاربة، كما تروي الأسطورة، من الماء وعطرت ليبيا قبل غيرها من البلاد بزيت الزيتون الذي اكتشفته هي نفسها.

(الكتاب الثالث، الأبيات 313- 324)

(3).. في الميسرة وقف النسامونيون، جيشاً متوحشاً، استعداداً للمعركة، ومعهم المرمريقيون مديدو القامة، ومن بعدهم المور القساة، والقرمنت والمكاي، والمحاربون من الماسوليين، وحشد من الأدورماخيداي - وهم قوم يقطنون بالقرب من النيل ويمتعهم أن يعيشوا بحدّ السيف، من كانت جلودهم مسودة أبداً بشمسهم التي لا ترحم.

(الكتاب التاسع. الأبيات. 22-194)

(4).. ومن التلال التي كانت تخفيهم اندفعوا قدمًا - أوستريين، وليبيين، ورماة حجارة باليارين، وحشوداً هائلة من المكاي والقرمنت والنوميديين..

(الكتاب الخامس. الأبيات 192- 194)

(5).. ولذا اشتدَ ضغط الليبيين - وقد زاد حضور قائدهم العبوس من جهدهم والرجل يحرّض الرجل، حتى اصطدم، بشدة،كلّ صدر بصدر.

(الكتاب الخامس. الأبيات 217- 219)

(6).. وقد أمطر الليبيون، مقتعدين مكانًا عليًّا، وابلاً من النبال من كلّ صوب من استحكامهم المتنقل.

(الكتاب التاسع. الأبيات 578- 580)

(7).. ثمَ هجم الليبيون على باولوس...

... ونظر من حوله بحثاً عن هانيبال، راغباً في أن يسلم روحه. روح المحارب، إلى تلك اليد الماجدة ولم يكن له هذا، فقد غمر بوابل من النبال من كلّ جهة، من النوميديين والقرمنت، ومن الغاليين والمور والأوستريين،وهكذا مات باولوس.

(الكتاب العاشر، الأبيات 300- 304)

(8).. كان بعضهم يحدّق حيث نصبت خيمة هانيبال، وآخرون إلى الكرسي المرتفع حيث دعا جيشه ليخطب فيهم، أو إلى معسكر الأوستريين البواسل والقرمنت الغلاظ والأمونيين الشداد.

(الكتاب الثاني عشر. الأبيات 746- 749)

[من ردَ غستور (عشتار) على حنون في مجلس الشيوخ]:

(9).. انظروا إلى الكتائب الليبية! كم منهم يتنافسون في بذل جهد يفوق سني أعمارهم، ويمضون إلى الوغى على جياد عارية الظهور".

(الكتاب الثاني. الأبيات 347- 349)

[من حديث لهانيبال بعد انتصاره في ساغونتوم ومسيرته عبر الألب إلى روما]:

(10) "... فليطأ القرمنت والنوميديون قمم الألب الشامخة على صهوات خيولهم!"

(الكتاب السادس، الأبيات 703-705)

(11) " وستفاخرين، يا قرطاج، بأن تلتهب روما بجذوات النار الليبية!"

(الكتاب السادس الأبيات 712-714)

[من خطبة لهانيبال في مجلس شيوخ قرطاجنة رداً على بعض خصومه]:

(12) "... انظروا إلى مورروس! مورروس هو الذي سيوقف إقدام ليبيا ومشروعنا العظيم. هو الذي سيمنع الحرب ضدّ روما."

(الكتاب الأول، والأبيات 478-482)

[من ردّ غستور على حنون]:

(13) "... هل هذا جندي روماني يحتّل مكانه في مجلس شيوخ ليبيا وقرطاجنة؟... إن حنون يبالغ في هزائم ليبيا ولهيب حربنا الأولى مع روما ويمنعنا من احتمال الشدّة مرة أخرى دفاعًا عن الحرية."

(الكتاب الثاني، الأبيات 330-360)

[من حديث فينوس (حامية روما) أمام جوبيتر]:

(14) "... لقد زرع (هانيبال) ليبيا على قمة الألب، وهو ينذر بنهاية سلطان الرومان".

(الكتاب الثالث، الأبيات 563- 564)

[من كلام كومودوشي أكبر الحوريات الإيطالية سنًا]:

(15) ".. أترى الأرباب تحول إمبراطورية روما إلى ليبيا؟!"

(الكتاب السابع. الأبيات 432-433)

[في حصار ساغونتوم]:

(16) .. (قتل هيمبسال، أحد النسامونيين الذين يغنمون من سرت البلاعة ويقدمون على غنم السفن المحطمة).

(الكتاب الأول، الأبيات 408-410)

(17) .. وقتل أيضاً هيابراس الذي كان يعيش بجوار غياض وحي القرمنت، وكانت خوذته مشهورة بالقرن الملتوي على صدغيه. وأسفاه! لقد عذل - سدى - المعبد الذي طالما وعده بعودة آمنة وآمون لخلفه الوعد.

(الكتاب الأول، الأبيات 414-417)

[في معركة بحيرة تراسمين]:

(18) .. واتفق أن دفع سرتيكون، وهو قرطاجني، لأن يواجه الاثنين. فمن كان يجرؤ على مقابلتهما في القتال إلا من قضى عليه أرباب الظلال السفلى بالمضي إلى ظلمة الأرض؟ فأسرع منحدراً من المرتفعات، يحمل غصناً كسر من سنديانة. وفيما كان يلوح بالغصن الثقيل ذي العقد، كانت تحرقه الرغبة الباطلة في قتل الاثنين.

وصاح:

"أيها الرومان! ما من جزر أبغاتية هنا، ولا شاطئ يغدر بالبحار. لا بحر أهاجته العواصف المفاجئة، لا الحرب، ليقرر مصير المعركة. لقد انتصرتم في البحر فيما مضى، فاعلموا الآن كيف يمكن لليبي أن يقاتل على اليابسة، ولتذعنوا قوتكم لسادتكم من الرجال!".

(الكتاب الخامس، الأبيات 243-250)

(19) .. وقد فرق المقاتلين أوثروس المرمريقي الذي جاء إلى المعركة بقوة وقامة خارقتين، وكان مجرد رؤية جرمه الهائل يجعل جنود الرومان يولون الأدبار، كانت هامته الضخمة تنتصب فوق كتفيه العريضتين أعلى من كلا الجيشين، وكان فمه مختفياً خلف خصل شعثاء

نمت على جبهته المخيفة وذقن تباري شعر رأسه، وقد كست صدره غابة من الشعر الخشن فكأنه جلد حيوان بري.

لم يجرؤ أحد على مبارزته من مسافة قريبة، بل هوجم بالقذائف يرميه بها الجيش من مسافة مأمونة، كأنه وحش في سهل مفتوح. وحين هجم أخيراً بوجهه المرعب وهو يصيح من خلف الرومان الشاردين اخترق سهم كريتي سابح في الجوّ، دون صوت، عينه المنذرة وأوقفه في مكانه، فلما لجأ إلى بقية جيشه رماه فلامينيوس بسهم في ظهره فنفذ من أضلاعه المكشوفه وأظهر طرفه بارزاً من الصدر الأشعث. فأسرع يجاهد لإخراجه حيث رأى الطرف الفولاذي بارزاً، ثم وقع أخيراً، بعد أن نزف الدم الغزير، ليموت، مغطياً مساحة كبيرة من الأرض. وتوارى السهم في صدره الجريح وكان نفسه، وهو ينفثه، يحرّك التراب فيثور على السهل بجانبه مكوناً سحابة في السماء.

[في معركة كامبانيا]:

(20).. وقريباً منه سقط أدمون النساموني، قتله سهم، إذ زلقت قدمه على الدم الساخن، وكان يجاهد عبثاً ليثبت قدميه المزلزلتين على أرض صلبة، فأوقعه فرس الطاغية. وحين رام في عجلته أن يرفع أطرافه المرضوضة عن الأرض سمره فابيوس إليها بطعنة قوية من رمحه وترك الرمح في الجرح القاتل. اهتز الرمح، مثبتاً في الأرض والرجل المحتضر يتحرك، وظل حارساً في السهل للجثة التي استؤمنها.

(الكتاب السابع، الأبيات 609- 616)

[في معركة سيراكوزة البحرية]:

(21).. هز صبراتةُ رمحه السريع، محتدم الغضب، لكنه دعا أولاً الأرباب على كوثل السفينة. كان آمون، إله ليبيا الوطني، راعياً للسفينة وقد جلس هناك ينظر عبر البحر وقرناه على جبينه. فصاح صبراتة قائلاً: "يا أبتاه! يا نبي القرمنت! أعنا في ساعة الكرب، واجعل

لسلاحي سبيلاً إلى جسد روماني". وفيما كان يتكلّم هكذا انطلق الرمح مهتزاً واخترق رأس تيلون، أحد القاطنين عند البحر.

(الكتاب الرابع عشر. الأبيات 436- 443)

(22).. رفعت موجة سكيرون المرمريقي، فاخترق جسده قرن سفينة متين. فكان نصف جسده تحت الماء ونصفه الآخر فوقه، ومضى هكذا في البحر - وياله من منظر مثير للشفقة! - مثبتاً في ميتته على قرن السفينة المعدني.

(الكتاب الرابع عشر. الأبيات 480- 484)

(23).. وقد عانى ساتريكوس، حين أسره كسانثيوس، الرق على أرض ليبيا، وقدم إلى ملك الأوتولوليس مع جوائز أخرى أسبغت عليه اعترافاً بشجاعته...

وجاء ساتريكوس، مع ملكه، في جملة الغزاة الأجانب، وكان الغايتولي يرغبون رغبة كافية - كلما تطلبت المناسبة - في أن يستفيدوا من خدماته ليترجم الكلام اللاتيني.. ولكن كان ابنه هو، قتل منذ ساعات على يد عدوّ ليبي.

(الكتاب الحادي عشر. الأبيات 67-89)

[هانيبال يطلب عرافة آمون بعد انتصاره في معركة ساغنتوم]:

(24).. أمر بوستار بأن يبحر على الفور وأن يستخبر عن المستقبل قبل أن يأتي. فمنذ قديم الأزمنة آمن الناس بالحرم الذي يقعد فيه آمون ذو القرنين عالي المقام، منافساً لكهوف دلفي، يكشف الأعصر القادمة في غيضة نبوءته بين ظهراني القرمنت العطاش. ومن هناك طلب هانيبال الفأل الميمون لمغامرته، وأراد أن يعرف الأحداث قبل وقوعها، وأن يعرف تغيّر الحظوظ في القتال...

.. وفي هذه الأثناء وصل بوستار يحمل جواب هيكل آمون. جاء يغمره الفرح بعد أن عبر صحاري القرمنت، وشجع هانيبال - كما لو

أنه رأى الإله المرعد بأمّ رأسه - قائلاً: "يا ابن بعل العظيم! يا من تحمي يمينه أسوار قومه من العبودية، لقد وصلنا إلى حرم ليبيا. حملتنا أمواج سرت، التي ترش الأنجم بزبدها، صوب الأرباب، وأوشكت الأرض، الأشد قسوة من البحر، أن تبتلعنا".

كانت السهول القاحلة تمتدّ من وسط الأرض إلى حد السماء، فالطبيعة لا تبذل جهداً في أي موقع من ذلك الصقع غير المحدود، عدا ما تكومه الريح الدوامة من كثبان، مثقلة بالرمل المتجمع تدفع السحب الفارغة أمامها. أو حين تكسر الريح الجنوبية الغربية معقلها وتقفز الأرض، ثم نفخة من ريح الشمال تنثر البحر على وجه السماء، تعصف بشدة على السهل المتسع لمعركتها. وتنفخ الريحان إحداهما في وجه الأخرى لتكونا جبالاً من الرمال المتراكمة.

شققنا سبيلنا عبر هذا الخلاء بمراقبة النجوم، فإن ضوء النهار يشوش الطرق، والدبّ الأصغر الذي لا يخدع الملاح الفينيقي أبداً يهدي المرتحل وهو يمضي فوق أعماق الرمل ولا يرى من حوله سوى الخلاء. بيد أننا حين جئنا، نحن المسافرين المتعبين، إلى غياض ومستقر آمون المكسوّ بالشجر ومعبده الساطع، آمون ذي القرنين، رحب بنا أريسباس ضيوفًا وأخذنا إلى داره.

بجانب المعبد توجد أعجوبة غريبة - ينبوع ماؤه فاتر صباحًا ومساء لكنه بارد حين تشعل شمس الظهيرة السماء، والماء نفسه يفور في ظلمة الليل. ثم أرانا ذلك الشيخ الأماكن التي يملؤها الرب بحضوره والحقول التي تأتي بالغلال دونما حرث. وهكذا خاطبنا بفؤاد حبور: "اركع يا بوستار، مصلياً أمام هذه الأشجار الظليلة وهذا السقف المتسامي إلى عنان السماء. إذ من ذا الذي على ظهر البسيطة لم يسمع ببهبة آمون - بالحمامتين اللتين في حضن طيبة؟ إحداهما طارت إلى أرض قونية حيث تملأ سنديانة دودونا بنطق النبوءات، أما طائر فينوس الآخر فقد حلّق في

السماء عبر البحر الإيجي وطار على جناحين قاتمين إلى شعب ليبيا الأسمر البشرة، وأنشأ هنا موقعًا لمعبد. هنا، حيث ترى الهيكل والغياض الظليلة، تخيرت الحمامة - وما أعجب ما أروي! - قائداً من القطيع، ووقفت بين قرني رأسه الصوفي، وشرعت تتكهن لشعب مرمريقا. بعدها برزت الأشجار فجأة من الأرض، وظهرت غيضة آمون من شجر السنديان العتيق. ومثلما تبلغ الأغصان السماء الآن نمت في يومها الأول. لذا صارت غيضة مقدسة مهيبة منذ قديم الزمان، تعبد بهياكل يعلو منها الدخان"

وفيما كنا نعجب من كلماته انفتحت الأبواب فجأة بصوت رهيب، وبهر أبصارنا نور ساطع على حين غرة. أمام الهيكل وقف الكاهن بيّنا في ثوبه الأبيض كالثلج، وقد احتشد الناس بحماسة على الأبواب. وحين نطقت بالرسالة التي حملتها - ها هوذا! لقد دخل الإله بغتة صدر الكاهن. اصطفقت الأشجار بعضها ببعض، ومر صوت طنين عميق من خلال الغيضة المدوية، ثمّ تفجّر في الجّو صوت أعلى من أي صوت نعرفه: " يا رجال ليبيا! فلتزحفوا إلى روما، ولتأخذوا أهبتكم للحرب ضدّ الرومان. إني أرى عملاً محفوفًا بالخطر. أرى مارس الشرس الآن ممتطياً عربته.. أرى أفراسه الهائجة تنفث لهباً أسود على أرض إيطاليا، وأرى الدم السائل من أعنته. وأنتم - يا من تبغون معرفة مجرى المعركة والخاتمة المقدرة وتنشرون أشرعتكم بجسارة في سبيل هذه المغامرة المجيدة - تقدموا إلى أيابوجيا، سهل ملك إيتوليا. سوف تعزّون أسلافكم الفينيقيين. وسوف لن يخترق أحد من بعدكم عورات الرومان أعمق مما فعلتم، مادام العالم الروماني يرتعد تحت وقع انتصاراتكم. ولن يتحرر الرومان أبداً من الخوف ما دام لهانيبال نفس يتردد على هذه الأرض! "

هكذا كان الوحي المقبول الذي عاد به بوستار، وملأ الجيش رغبة في الالتحام على الفور.

(الكتاب الثالث، الأبيات 647-714)

[في معركة بحيرة تراسمين]:

(25).. كان على قرب واقفاً إيسالكاس، وهو من كينوب وسلاحه فأس ساطعة.. كان طموحه - يا للبائس! - أن يقاتل وينال المجد تحت ناظري ماغو، حميه. فقد كان فخوراً بعروسه القرطاجنية المقبلة يداعبه الأمل الخادع في أن يدخل بها حين تنتهي الحرب مع روما.

أدار أبيوس المرعب هياجه الثائر إلى إيسالكاس، وسدد ضربته إلى الخوذة، منتصباً بطول قامته، فيما كان الآخر يصوب فأسه الثقيلة إلى جبهته. بيد أن السيف القصيم انكسر على خوذة الكينوبي لشدة الضربة.

ولم يكن إيسالكاس أوفر حظًا، فقد أخطأ هدفه ولم يفعل سوى أن قطع حدبة الروماني. ثمّ رفع أبيوس حجراً، لاهث النفس، لم يكن أبداً بمستطيع رفعه عن الأرض لولا القوة التي أمّده بها الهياج، وحطم عدوه حين وقع على ظهره بالحجر الثقيل ودق به عظامه المتناثرة.

زمجر ماغو، الذي كان يقاتل غير بعيد، حين رأى صهره يسقط، وتحدرت دموعه من وراء خوذته، ثمّ اندفع على عجل، فقد أثار ثورته ذكرى الزيجة التي وافق عليها منذ أيام وأمله في الأحفاد. فتقدّم وتمعن في درع أبيوس وأطرافه العملاقة. وقد خفف من غيظه هنيهة ما رأى من ضوء شع من مقدّمة الخوذة الساطعة، فكان كالأسد الهاجم من تلّ أشجر يربض على السهل ويجمع أطرافه من تحته حين يرى قرني ثور مريع، رغم أن الجوع يستحثه، ويحدق السبع في العضلات المرعبة على العنق العظيم تارة، وإلى العينين المتوحشتين تحت الجبهة الشعثاء تارة أخرى، ويرقب الثور يتهيأ للقتال وهو يحفت التراب استعداداً للنزال.

هزّ أبيوس رمحه وقال: " إن كنت تحس بروابط القربى فكن عند حلفك الذي عقدت، ولتمضي إلى حيث مضى صهرك!" وطار الرمح مخترقًا الدرع والزرد النحاسي وانغرز في كتف ماغو اليمنى. ولم يجب

ماغو بل سوى رمحه، العطية الشهيرة التي أعطاه إياها أخوه العظيم، إذ أخذها هانيبال تحت أسوار ساغنتوم من دوريوس الذي غلبه وقتله وقدمها لأخيه ليحملها في المعركة تذكاراً مجيداً لمعركة شهيرة. وقد اخترق الرمح الضخم، الذي ازداد ضخامة بهياج الرامي، خوذة وهام أبيوس مسبباً جرحاً قاضياً، ووقعت يداه على الجرح عاجزتين في محاولة شدّ الرمح من مكانه.

سقط أبيوس، ذلك الاسم العلم، على السهل الأتروسكي ومعه سقط جزء كبير من فخار إيطاليا. فارتعدت بحيرة تراسمين ومنعت مياهها من أن تلمس الجسد، وأقفل فم المحتضر الدامي على الرمح وغمغم وهو يعضّ عليه..

... وفي تلك الأثناء جاء هانيبال على عجل، وقد أثار غضبه جرح أخيه، وجعل يسأل ماغو ورفاقه، وقد أذهله منظر الدماء، عن مكان الجرح في جسده وعما إذا كان الرمح ضرب في مقتل بكل ثقله. فلما سمع أخباراً خيراً مما خشي وأن خطر الموت بعيد، غطى ماغو بدرعه هو وأسرع به بعيداً عن الميدان ووضعه في المعسكر، آمناً من عاصفة المعركة. ثمّ دعا على عجل مهارة الطبيب الشافي وعون سنهالوس القديم.

كان سنهالوس قد بذّ الجميع في دهن الجراح بعصارات العقاقير. كان في مكنته أن يسحب الرمح من الجسد بالرقي وأن ينيم الثعابين بالتمسيد. ومن هنا كانت شهرته العظيمة في مدن ليبيا وشواطئ سرت المصرية. وقد تعلم سنهالوس الأول في العصور الخوالي من أبيه، آمون ذاته، معبود القرمنت، كيف يعالج ويشفي من عضتهم الوحوش الضواري أو جرحوا في المعركة جرحاً بليغاً. وحين احتضر كشف المنحة الإلهية لابنه، وهذا أورث ابنه حذق أبيه ليجعله وريثاً مجيداً. ثمّ جاء سنهالوس هذا، بالتتابع، وهو ليس أقلّ شهرة من أسلافه. وبفضل

حكمته ودرسه أضاف إلى علم آمون وله أن يشير إلى سلفه رفيق آمون القديم كلما مر بأحد تماثيله النصفية.

بيد شافية جاء بالعلاج الذي كان يستعمله أسلافه. كانت ثيابه مشدودة شداً محكماً حول حقويه، كما هي عادة النطاسيين، وبسرعة نظف الجرح من الدم ورطبه بالغسل. بيد أن ماغو قال، مشيراً إلى موت وتلف غريمه، ومواسياً أخاه بكلماته ليخفف من وطأة الحادث المؤسف المجيد: " لا تخش شيئاً يا أخي! وليس لك أن تأتي بعلاج ناجع لعنائي أكثر من كون أبيوس صريعاً، أرسلته برمحي إلى العالم السفلي.

وحتي إن فقدت حياتي فقد فعلت ما فيه الكفاية، وسأتبع عدوي مسروراً إلى أرض الظلال!"

(الكتاب الخامس، الأبيات 287- 375)

الرحلة البائسة

عندما اشترD العالم الروسي ف.س غولينشيف Golenishchev في أواخر النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجموعة من أوراق البردي من أحد باعة الآثار في القاهرة، ومضى بها إلى موسكو، كان في الواقع يحمل معه همّين، وليس همًّا واحداً فحسب! إذ اكتشف، بعد قرءاة الكتابة الهيروغليفية وفك رموزها، أن ما اشتراه يحتوي على عملين متمايزين لكنهما قريبان من بعضهما البعض. أما الأول فقد كان مجموعة من عبارات الندب والنواح تقطع نياط القلوب وتجعل المرء يذرف الدمع مدرارًا، حزناً على سوء الحال وبؤس المآل عرفت لدى العلماء باسم "مراثي أوماري" Laments of Oumari وهي، رغم شهرتها، لم تترجم كاملة وتنشر إلاّ حديثًا في سنة 1961 م. وأما المجموعة الثانية فقد نالت حظًّا أوفر من العناية والاهتمام. وأسرع العالم الروسي نفسه بترجمتها إلى الروسية ليضعها بين أيدي المتخصصين، لتنقل، بعد ذلك، إلى مختلف اللغات وعرفت باسم "رحلة وينامون" واشتهرت باسم "الرحلة البائسة" أو " رحلة الهم " بتعبير أدق!

وينامون Wenamon ، ولاحظ أن الاسم المبجل يكتب بطرق مختلفة أخرى، كان أحد كبار الكهنة في معبد آمون في الكرنك - الأقصر في صعيد مصر - في حديث مع واحة سيوة في الصحراء الليبية سوف يأتي إن صبرت معي قليلاً، كلفه رئيسه الكاهن الأكبر حرحور Herhur بالسفر إلى لبنان ليأتي بخشب الأرز حتى يبني المركب المقدس لآمون الإله. ففعل، ثم عاد ليكتب بعد ذلك قصة رحلته العجيبة ويبقيها للأجيال من بعده، ومما يؤسف له حقًّا أمران: الأول أن

ما عثر عليه في البردية تنقص فقرات في منتصفه، وهذا أمر تغلب عليه العلماء بالتخمين والاستنباط، والثاني أنها ناقصة النهاية،وترك الأمر للقارئ الأريب ليشارك العلماء جهد التفكير! لكن قصّة الرحلة تظل، مع هذا، أمتع قصص الرحلات الغريبة في ذلك الزمن البعيد السحيق، رغم أن هذا الزمن ذاته (قضمها) من كلّ جانب ولاحقها بالقضم حتى ذيلها المسكين!

ثم جاء العلماء والجهابذة كل يشمر عن ساعد الجد، ويشحذ أسلحته اللغوية والتاريخية، ويعارك زملاءه حول هذه الكلمة أو تلك، ويخاصم رفاقه في صحة الترجمة ودقة التعبير ومدلول الكلمات والألفاظ، ويدافع عن رأيه، وينافح عن فهمه للنص ومحتواه. فإذا استقر غبار معركة من المعارك ثار من جديد في موقعة أخرى حول السيد وينامون وعصره وحياته - بعد أن تفتتت عظامه، وذابت في تراب الأرض. أي أرض؟ هذه هي المشكلة!

لكن.. لماذا نبدأ نحن هنا بإثارة المشكلات منذ الآن، والقارئ العزيز لا يدري عن القصة ذاتها شيئاً؟ هل تحب أن ألخص لك الحكاية أولاً، ثم نشمر عن ساعد الجد - مثل الآخرين - ونتعارك قليلاً؟!

فليكن ـ على شرط أن تصبر معي حيث تتعثر في بعض الأسماء والمواقع - والأمل ألا تصاب بالعثرات ـ حتى نحسم الحديث ونحيط بكلّ شيء علماً.

الخلاصة إذن أن الكاهن الأكبر لآمون بالكرنك، حرحور، أرسل الكاهن وينامون لشراء خشب الأرز من لبنان لبناء قارب آمون المقدس - كما قلنا - فلما انطلق في نهر النيل وبلغ مدينة تانيس (وتانيس تسمى أيضاً سائيس Sais وهي عاصمة الليبيين في الدلتا المصرية) قدم رسائل التوصية التي يحملها إلى نسبانبدد Nesbanebded حاكم المنطقة وزوجته المبجلة تانيتامون Tanetamon، حيث قرئت الرسائل،

ثم أرسلاه على ظهر مركب يقودها الربان منجبت Mengebet وقبل أن يصل ويناموّن مدينة بيبلوس Byblos (وتعرف الآن باسم جبيل وكانت تعرف باسم Gublu في لبنان) وهي هدف رحلته، فَقَدَ ما كان يحمله من ذهب وفضة لدفع ثمن الخشب، إذ ما إن دخل مركبه ميناء مدينة دور Dor على الساحل الفلسطيني حتى سرق أحد بحارتها جرة من الذهب وأربع جرار من الفضة وكيساً من الفضة أيضاً، فظلّ ويناموّن في مدينة دور تسعة أيام يشكو لأميرها (واسمه بدر) ويحمله مسؤولية العثور على السارق الملعون. وقد رفض الأمير بدر طلب ويناموّن تعويضه عما ضاع منه محتجًا بأن السارق لم يكن من مدينته، بل هو بحار في السفينة التي جاء بها ويناموّن. حجة معقولة!

مضى ويناموّن في رحلته إلى بيبلوس مدينة الأمير ذكر بعل Zakar-Baal فأمره هذا بمغادرة بلاده " وأمضيت تسعة وعشرين يومًا في مرفئه، وقضى هو وقتاً يوفد لي كل يوم ليقول: اخرج من مرفئي!"

انتظر ويناموّن المسكين سفينة لتقله إلى وطنه. وذات مساء حصل على سفينة، وكان في سبيله إلى السفر حين وقع شاب من حاشية الأمير في غيبوبة ونطق بنبوءة عن بعثة ويناموّن. ثم جاءته دعوة للبقاء حيث هو.

وافق أمير بيبلوس على الاستماع لقضية ويناموّن" فوجدته جالسًا في عليته وظهره إلى النافذة، بينما كانت أمواج البحر السوري الكبير تتلاطم خلف رأسه." ويصف ويناموّن المنظر وصفًا حيًّا يجعلنا نراه كأننا حضرناه. سأله الأمير: " كم مضى عليك منذ قدمت من مستقر آمون حتى اليوم؟». وأجاب ويناموّن: "خمسة أشهر ويوم واحد حتّى الآن!"

سأله ذكربعل عن رسائل التوصية. وكان الجواب: مع نسبانبدد في تانيس. غضب الأمير ومضى في الاستجواب: أين السفينة التي وضعها

نسبانبدد تحت تصرف وينامون؟ أين بحارتها السوريون؟

وهذه أسئلة استفزازية، إذ من المرجح أن الأمير ذكر بعل كان يعرف أن وينامون التعس غادر السفينة التي كان يقودها منجبت عندما سرق ماله في ميناء دور. ولم يكن مع المبعوث رسائل توصية، ولا سفينة، ولاذهب ولا فضة، ولا "يحزنون". معذرة.. أظن أن "يحزنون" كانت معه!

وبدبلوماسية ماكرة حوَّل وينامون موضوع الحديث إلى مشكلة جنسية السفينة التي غادر تانيس على ظهرها. "ألم تكن سفينة مصرية؟" ومضي ليقول: إنه ليس للسفن الذاهبة إلى مصر والآيبة منها بحارة سوريون (إذ يبدو أن العلاقات السياسية والاقتصادية كانت مقطوعة بين البلدين!!) وهنا قال الأمير: إن لديه في مرفئه عشرين مركباً كانت تبحر بانتظام إلى مصر (رغم المقاطعة!) ومضى يقول: "أما عن صيدا ـ المكان الذي مررت به ـ فلا يوجد أكثر من خمسين سفينة ذات علاقة تجارية مع وركت ـ التي تأتي إلى هذا البيت؟" (وسوف نناقش هذه العبارة بعد قليل.. فصبراً أيها القارئ!)

وقال الأمير الغاضب: "أنا لست خادمك ولا خادم من أرسلك كذلك."وزعق: "ما هذه الرحلة البائسة التي أرسلوك لتقوم بها؟" أجاب وينامون بأنه ليس ثم مركب لا تتبع آمون الرب "البحر له، ولبنان له" وطلب من الأمير الإذن بمبعوث يرسله إلى تانيس ليطلب من حاكمها نسبانبدد قرضاً يدفعه حرحور - الكاهن الأكبر - عند عودة وينامون سالماً إلى مصر، ووافق الأمير وبعد بضعة أسابيع أرسل نسبانبدد شيئاً من الذهب والفضة وخمسمائة لفة من البردي، وخمسمائة جلد ثور، وخمسمائة حبل وأشياء أخرى. وأرسل الأمير ثلاثمائة رجل ليقطعوا الأشجار في جبل لبنان ويجرّوها إلى شاطئ البحر. ثمّ طلب الأمير من وينامون أن يأخذ الأخشاب ويرحل. تردّد وينامون، فقد كان البحر

هائجًا ،وكان هو خائفاً من القراصنة وفقد الأمير ذكر بعل صبره وصاح: "لا تنظر إلى أهوال البحر! أن تحسب لأهوال البحر حسابًا، فلتحسب حسابًا هو لي أنا!"

نصح الأمير الغاضب وينامون أن يحمد عقباه، فإن الرسل الذين جاءوا قبله من مصر لشراء خشب الأرز أمسك بهم سلف له، وبعد أن قضوا سبعة عشر عامًا هناك قضوا نحبهم، وقال لساقيه: "خذه وأره قبرهم حيث يرقدون" فردّ وينامون: " لا ترني إياه " !

أمره ثانية بمغادرة الميناء، فخاف من أن تمسك به سفن القراصنة في عرض البحر " رأيت إحدى عشرة سفينة قادمة من بحر الفلسطينيين وهم يقولون: اقبضوا عليه، ولا تدعوا سفينة من سفنه ترحل إلى أرض مصر"

"ثم جلست وبكيت" غمًّا وهمًّا وحسرة وكمداً.. ولا حول ولا قوة!

رثي الأمير ذكر بعل - أميربيبلوس - لحال الرجل الخائف، وأجاب الربابنة الذين طلبوا إقصاءه: " لا أقدر على أن أقبض على رسول آمون في بلادي. دعوني أبعده ولتمضوا في إثره لتقبضوا عليه".

وأخيراً رحل وينامون من بيبلوس وألقي به البحر على شواطئ جزيرة قبرص التي كانت تحكمها الأميرة (حتب Heteb). ولوحق هناك وكاد يقتل، لولا أن أخذ يتعلق بأذيال الأميرة ويطلب النجدة منها. هنا ينتهي ما عثر عليه من البردية، أما ما حدث له بعد ذلك وكيف وصل إلى مصر فهو مفقود. لكن المؤكد أنه نجا بأعجوبة أو بمجموعة أعاجيب وعاش (في ثبات ونبات) ولعله (خلف صبيانًا وبنات) وإلا فكيف كتب ما كتب لو أنه مات؟!

وهنا أيضًا يبدأ بحث العلماء، ودراسات الجهابذة النجباء، لتصديع أدمغة القراء.. النبهاء. فإلى هناك.

***

كثيرة هي البحوث والدراسات التي درات حول رحلة وينامون هذه. وقد شد الباحثين إليها كونها نموذجاً حيًّا صادقًا لأدب الرحلات القديم - إن جاز التعبير - فهي تسجيل دقيق وبسيط وواقعي إلى أبعد الحدود من إنسان أراد أن يعبر عما عاناه من شقاء في سبيل أداء مهمة كلف بها، وليس هناك جانب من جوانبها لم تتناوله الأقلام منذ نشرت أواخر القرن الماضي وحتى يومنا هذا، ومع هذا فكثيرة هي المشكلات التي أثارتها وأثارت من حولها الجدل والنقاش.

والسؤال الأول الذي أثير: متى كتبت هذه الرحلة؟ في أي عهد من العهود الغابرة سجلت على البردي وحفظت لنا؟

وقد لاح السؤال في البداية غير ذي بال. هكذا قال العلماء. فالمسألة واضحة: إنه يذكر الكاهن الأكبر، حرحور، ويذكر نسبانبدد حاكم تانيس. وكان المعروف أن هذين السيدين عاشا في آخر عصر الرمامسة في مصر، وبالتحديد في الأسرة العشرين - حسب ترتيب المؤرخ مانيتو. فهما إذن عاشا حوالي العام 1100 ق.م. وأوردوا في هذا الباب الصفحات الطوال ثم أغلقوا باب الاجتهاد.. واطمأنوا!

أخيراً، أو متأخراً جداً، جاء رجل في سنة 1977 م اسمه عمانويل فيليكوفسكي Velikovsky وأصدر كتابًا عنوانه "أقوام البحر Peoples of the Sea" تناول فيه، إلى جانب بحوث أخرى، رحلة وينامون هذه مسلطًا عليها أضواء جديدة مخالفة كل المخالفة لما سبقه من آراء.

والأستاذ فيليكوفسكي معروف مشهور، معروف باختياره موضوعات محددة من التاريخ القديم يفلسفها من جديد، ويغيِّر ما تعارف الناس عليه، ومشهور بأنه غير راضٍ - بتعبير ملطف - عن بحوث السابقين، في، وعن، قديم الزمان، وسالف العصر والأوان.

وتكفي الإشارة إلى بعض عناوين كتبه لنعرف خطة عمله وبحثه.

عوالم متصادمة Worlds in Collision

عصور مشوشة Ages in Chaos
الأرض الجياشة Earth in Upheaval
أوديب وأخناتون Odipus and Akhnaton
إلى آخره

في كتابه " أقوام البحر " ناصب فيليكوفسكي جميع من سبقه من علماء المصريات العداء الصريح وسخر من أمثال غاردنر ، وبريتشارد ، وميير ، كل السخرية ،لأنهم جميعاً لم ينتبهوا إلى أن رحلة ويناموت لم تكن حوالي 1100 ق.م. بل كانت بعد هذا العصر بكثير . كانت حوالي أواخر القرن الخامس قبل الميلاد . الفرق بين التاريخين هو ستة قرون فقط ليس غير !

بسيطة . أليس كذلك ؟ !

كيف ؟

من البردية ذاتها ، من الرحلة عينها ، من كلمات ويناموت نفسها ، بل من أول كلمة فيها .. نأخذ الدليل .

في مفتتح الرحلة يقول ويناموت مؤرخاً لها ما يلي :

"السنة الخامسة ، الشهر الرابع من فصل الصيف ، اليوم السادس عشر . اليوم الذي تأهب فيه ويناموت .. "

أية سنة هذه السنة الخامسة؟ تاريخ ماذا ؟ أو تاريخ من ؟

كانت عادة المصريين القدماء ، وكانت عادة الفرس ، ولا تزال حتّى يومنا هذا عادة اليابانيين ، أن يؤرخوا بسنة اعتلاء الفرعون ، أو الملك ، أو الإمبراطور ، العرش ثم يمضون في تاريخ السنوات طيلة مدة حكمه المديد ، أو القصير ، فإذا قضى نحبه واعتلى فرعون جديد العرش بدأوا في عد سنوات جديدة بعد نسيان أمر السابق ، وهكذا دواليك . وكان العلماء يعرفون تتابع الفراعين ومدد حكمهم فيسلسلون السنوات تبعاً لهذا التتابع . وكان اسم الفرعون ، مع رتل طويل من ألقابه السامية

يذكر في كلّ كتاب أو عقد بيع وشراء جاموسة أو شن حرب شعواء لا هوداة فيها، فيسهل التعرف والتعريف.

المشكلة هنا أن الأستاذ ويناموون لم يذكر أبداً اسم الفرعون الذي يفترض أنه عاش في عهده الميمون، وهذا أمر غريب يأتيه كاهن من كهنة آمون العظيم نرى مما كتب كيف تحلّى بالدقة الكاملة في سرد أسماء الأمراء والكهنة، بل أسماء ربابنة السفن، ثم ينسى، أو يتناسى، أن يسجل اسم الفرعون حامي الحمى والذمار!

قال الباحثون الأول تبريراً لهذا الخطأ الرهيب: كانت رحلة ويناموون في عصر ضعف فيه الفرعون جداً حتى انعدم ذكر اسمه، وهذا تبرير متهافت، إذ لم يعرف مثل هذا الأمر أبداً، فلماذا يكون عند ويناموون وحده مهما بلغ ضعف الفرعون وخوره؟

وقالوا: التأريخ بالسنة الخامسة من (عصر النهضة) الذي بدأه الكاهن الأكبر حرحور. وهذا مردود، إذ ليس من المعروف أن حرحور أعلن عصراً جديداً للنهضة ولا حقّق ازدهاراً. وسياق حديث البردي يظهر إلى أي مدي كانت الحال عسيرة في مصر، حتى إن نسبانبدد لم يستطع إرسال أكياس العدس إلا بصعوبة. ثم تلك الاستهانة التي يبديها أمراء لبنان وقراصنة البحر المتوسط بمصر وسخريتهم من حكامها توحي بأن مصر لم تكن تعيش عصر نهضة - بل تؤكد الانهيار الكامل الشامل.

وقالوا: إن التاريخ بالسنة الخامسة يرجع إلى سنوات بعد الأسرة العشرين ظلت فيها مصر بدون فرعون - أي السنة الخامسة من "اللاحكم".

ولا يصمد هذا التبرير للنقد، إذ ليس من العادة التأريخ باللاشيء.

ما المقصود إذن؟

المقصود - وبسرعة - التأريخ بالسنة الخامسة من حكم ملك فارس وكانت فارس قد احتلت مصر على يد قمبيز سنة 525 ق.م وقد

يكون هذا الملك دارا الأول (424 ـ 404 ق.م) وهذا معناه أن الرحلة كانت سنة 419 ق. م. أو أرتاشيرشيس الثاني (الذي بدأ حكمه عام 404 ق.م) ومعناه أن الرحلة جرت سنة 399 ق. م.

فعلى أي أساس بني هذا الرأي؟

على أساس عبارة غامضة وردت كثيراً في برديات معاصرة لبردية وينامون. هذه العبارة تؤرخ بسنة ما من " إعادة الميلاد Repetition of Birth وهو تعبير فارسي يقصد به جلوس ملك من ملوك فارس على عرش الطاووس. فكأنما جلوسه ـ رعاه الله ـ على العرش " إعادة ميلاد" الأمة.

وهناك برديات مشهورة منسوبة لأصحابها تورد مثل هذا التاريخ فبردية ماير Mayer مثلاً تبدأ: " السنة الأولى من إعادة الميلاد.." وبردية أبوت Abbott تبدأ: " السنة الأولى من إعادة الميلاد، الشهر الأول من الصيف.."

ولنا مثل فارسي آخر يورده و. كوليكان W.Colican في كتابه "الميديون والفرس The Medes and persians" يقول نصه: "بيرسيوليس (عاصمة فارس القديمة).. بدأها دارا وأتمها شيرشيس.. وفي أول يوم من كل عام جديد تتجدد Renewed (تولد من جديد) الملكية الأخمينية Achaemenid ويأتي الناس من كل صقع من الإمبراطورية ليقدموا فروض ولائهم".

فإذا اقتنعنا بما سبق، وهو منطقي للغاية، وقلنا إن رحلة وينامون كانت في عصر الحكم الفارسي، أمكننا القول أيضاً بأن الملك المقصود كان دارا الأول، وكيف لا وهو الملك الفارسي الوحيد - بعد قمبيز - الذي اهتم بزيارة مصر؟ وهو لم يكتف بالزيارة والاطلاع على سير الأمور وتفقد أحوال الرعية بل ازداد اهتمامه بأمر الكهنة وأمر - فيما أمر - بالنظر في تحسين أحوالهم. بل زاد فأمر ببناء هيكلين عظيمين لآمون أحدهما في واحة الخارجة والآخر في واحة سيوة. فعلا ذكره بين

المصريين - والكهنة خصوصاً - وعين الرضا عن كل عيب كليلة.

والسؤال الآن: لماذا اهتمَ دارا ببناء هيكلين لآمون، في واحة الخارجة وواحة سيوة في الصحراء الليبية؟ وما هي أسباب وآثار هذا الاهتمام؟

هنا نذكر بالرواية المشهورة عن قمبيز ابن قورش الذي غزا مصر وألحقها بالإمبراطورية الفارسية، وأنهى بذلك الأسرة السادسة والعشرين، كما أنهى استقلال مصر كذلك. فقد روي أنه طمح إلى غزو ليبيا وإلحاقها هي الأخرى بإمبراطورية فارس، وجهَز جيشاً ضخما قوامه خمسون ألف رجل، وأرسله لقتال القبائل الليبية. لكن الجيش لم يعد مطلقًا، ولم يسمع عنه خبر، فلا هو بلغ مكاناً معروفاً ولا رجع إلى حيث انطلق. قيل: إن رمال الصحراء " ابتلعته" بأكمله ولم يبق من الخمسين ألفًا ديار ولا نافخ نار. بعدها جن قمبيز (ودخل في عقله وخرج) كما يقول الليبيون، وغادر مصر تاركًا فيها واليًا أو (مرزبانا) ثم مات. وبعد مدة تولى عرش فارس دارا الأول وكان عاقلاً حكيماً كريمًا وسياسيًّا خطيراً، فلما زار مصر عمل على اجتذاب أهلها خاصتهم وعامتهم، وعمل أيضًا على اجتذاب الليبيين الذين كانوا يمثلون عنصراً مهمًّا في مصرذاتها وفي بلادهم وكان سبيله إلى هذا هو اهتمامه بالمعبود الرئيسي لدى المصريين والليبيين.. آمون. فبنى له الهياكل ورتب لكهنته وخدامه الجرايات وأسبغ عليهم العطايا والهبات، وكان من آثار هذا الاهتمام أن اعتبروا دارا أحد أفضل الحكام الذين عرفتهم مصر (رغم كونه حاكمًا أجنبيًّا) وأحد كبار واضعي النظم والقوانين بالبلاد. وكان هناك مثل سائد معروف يقول: " قمبيز مجنون، ودارا حكيم، وأما شرشيس (ابن دارا) فتاجر!".

كانت ديانة آمون ليبية النشأة، وكان مركزها الأشهر واحة سيوة، التي تدعى أحياناً "واحة آمون" ويدعى الليبيون من حولها الآمونيين. وقد عرفه اليونان منذ القديم وذكره كبار شعرائهم ومسرحييهم، وكان

هيكله (أو موحاه) منافسًا لهيكل دلفي في أثينا، وهو كان محاطًا بالتكريم والتبجيل حتى جاءه الإسكندر الأكبر - كما سيأتي حديثه بعد.

وقد غطى آمون هذا على رب الأرباب المصري القديم " رع " بتأثير تكاثر الليبيين في مصر، وبخاصة أيام الأسرة الثانية والعشرين، أسرة شيشنق في بداية الألف الأولى ق.م. وعندما ثبتت أقدامه أدمج الكهنة الإلهين آمون ورع فصار كبير الآلهة أو رب الأرباب يعرف باسم "آمون رع". وهو عرف عند اليونان باسم آمون - زيوس، وعند الرومان باسم آمون - جوبتر. وكان آمون هذا شريكًا - بل سابقاً -في الألوهية للآلهة الثلاثة الكبار: رع المصريين، وزيوس اليونان، وجوبتر الرومان.

كان "آمون رع" إذن هو رب الأرباب في أثناء الاحتلال الفارسي لمصر أو "كبيرالآلهة" المتعددة. كان - كما يسميه ويناموون نفسه - "ملك الأرباب". وقد اختطلت طقوس الديانتين المصرية والليبية واندمجت في ديانة واحدة. ولنلاحظ أن اسم رحالتنا ذاته مكون من مقطعين في الأصل "ون" و"آمون" - ومعناه تقريباً "وجود آمون" أو "أينية (كينونة) آمون" أو شيء من هذا القبيل، أدمجناه في الكتابة هنا طلبًا للتسهيل.

كانت سيوة أو آمونيا Amunia , Amonia ويكتبها اليونان أمونيا Ammonia بتشديد الميم – مركز عبادته، وكانت مستقلة يحكمها أمراء من أهلها ويسيّرون أعمالها، لكنها لم تكن منقطعة الصلة بالمركز الآخر المهم لعبادة آمون في الكرنك وفي واحة الخارجة أيضاً، وكان لكهنة آمون دوران في أيام الحكم الفارسي اتباعاً لخطة دارا الأول وتعليماته التشريعية. كانوا كهنة في المعبدين الرئيسين، وكانوا قادة جند، أو لنقل ضباطًا، للحاميات وفي الواحات بصفة خاصة. فقد أدرك الفرس تأثير الدين في القوم وحرصوا على اجتذاب الكهنة بكل سبيل، فجعلوا منهم قادة جند لهم جميع السلطات الدنيوية مع تمتعهم بالسلطات الأخروية بالطبع.

من هؤلاء الكهنة المتمتعين بالسلطتين الدينية والدنيوية، كما يرى فيليكوفسكي، نجد "الكاهن الأكبر" حرحور، قائداً للحامية وحامياً لقيادة آمون بقية الأرباب. ولا بد أن رحالتنا ويناامون كان ذا رتبة ما -أعني رتبة عسكرية -إلى جانب رتبته الكهنوتية باعتباره، كما تقول البردية "شيخ حجاب بيت آمون"-وهذا يؤدي بنا إلى تتبع الخيط في حياة ويناامون بعد عودته المظفرة من رحلته النكدة.

ماذا حلّ به؟ أين ذهب؟ ماذا فعل في حياته بعد هذه الرحلة؟

***

في سنة 1900 م. أي بعد نشر رحلة ويناامون بعام واحد - زار العالم الألماني ج. شتايندورف G.Steindorff واحة سيوة وفحص الجدار الباقي من معبد آمون الشهير،وكان لم يتهدَم قبلها ويندثر، وقرأ اسم الباني، ونقله في كتاب له بحروف لاتينية عن الهيروغيلفية، وكان الاسم: "ويناامون" وعرفه النص المكتوب بأنه: " السيد الحقيقي، زعيم البلاد الأجنبية العظيم.. ويناامون". ورأى رسماً يظهره راكعاً أمام الرب آمون.

لم يكن شتايندورف مستعداً يومها للربط ما بين ويناامون صاحب الرحلة وويناامون الذي بنى حرم آمون في سيوة، فقد كان المعتقد أن الرحلة حوالي المائة الحادية عشرة قبل الميلاد، والمعروف أنه ما من بناء وقتها كان في سيوة يرجع إلى ما قبل عهد الاحتلال الفارسي لمصر. أما الآن فإن الوضع مختلف، ومن الممكن افتراض أن ويناامون عاد من رحلته، ثم مضى إلى سيوة (واحة آمون) وكرّس نفسه لخدمة الرب الذي عانى في سبيل إرضائه كل هذا العناء، وبنى معبداً (أو لعله جزء من معبد أو ملحق له) وسجل اسمه على الجدار. إذ من الواضح أنه كان مغرماً بتسجيل اسمه وحريصاً عليه!

ويتابع فيليكوفسكي القول: من المهم أن ويناامون عرف نفسه بأنه (زعيم) أو (سيد) أو (رئيس) البلاد الأجنبية. فلو كان مواطناً أو كاهناً

عاديًا ما وصف نفسه بأنه (سيد) أو (المرجع عن) البلاد الأجنبية. ويرى أن هذه (السيادة) أو (المرجعية) تبررها رحلته إلى بلاد الأجانب وكونه أعرف من غيره بأحوالها.

وليس ثمة حاجة بالأستاذ فيليكوفسكي إلى الاعتساف في مسألة (المرجعية) هذه - رغم إمكان القبول بها - ويكفي ترجمة النص بأنه (زعيم) أو (رئيس) هذه البلاد الأجنبية التي يقصد بها هنا الواحات الليبية، ليس غير.

فما هي هذه الزعامة أو هذه الرئاسة يا ترى؟

***

إنها عادة قديمة في الآثار المصرية أن تطلق الألقاب والصفات. ولا تزال هذه العادة سارية حتى اليوم - حتى يتحوّل الاسم البسيط إلى عدة سطور طويلة مضنية. وعند الحديث عن الليبيين بصفة خاصة كان لقب معروف متداول يتضمن صفتي (الزعامة) و(الأجنبية) حتّى بالنسبة لمن عاش منهم في مصر هو وأجداده وأحفاده كذلك.

نقرأ مثلاً عن نمرود Nemret والد الفرعون الليبي شيشنق الأول: زعيم الأجانب العظيم Great Chief of the Foreigners

ويسمى شيشنق الأول نفسه: زعيم المشوش العظيم: "Great Chief of the Meshwesh"

وتسمّى سيدة من العائلة الكريمة، أعني أم نمرود جدة شيشنق: "ابنة زعيم البلاد الأجنبية العظيم" Great Chief of the Foreign Lands وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن لقب "زعيم البلاد الأجنبية" - أو رئيسها - ليس لقبًا عارضًا، بل هو لقب متوارث معروف يطلق على زعماء الليبيين بصفة خاصة، وهو ليس مجرد اتفاق بل عرف مألوف.

وقد جمع وينامون بين الزعامتين الدينية والدنيوية كما أسلفنا، فهل يمكن القول بأن رحالتنا كان كاهنا من ليبيا؟ هذا ممكن عن طريق

القرائن. ربما كان من ليبيي سيوة، ذهب إلى الكرنك - باعتباره مركز عبادة آمون رع - وقام برحلته بناء على طلب حرحور. ولعله رجع إلى موطنه، بعد أن أدّى مهمّته بنجاح، حيث استقرّ به المقام وعاش (مرابطاً) عند هيكل آمون سيوة.

ممكن.. أليس كذلك؟

***

إن كان الأمر كذلك فإننا نجد رحالتنا القديم يتحرّك في ثلاثة مراكز، بل ثلاث زوايا من مثلث مشهور في مصر، طيبة Thebes (بالأقصر) حيث الكرنك ومعبد آمون. وهناك كان الكاهن الأكبر حرحور. ثم أمونيا (سيوة) حيث معبد آمون أيضاً - وهو المعبد الأصلي - وآثار رحالتنا وجدت هناك. ومن الطريف والمهم كذلك ألاّ ننسى ما أشار إليه المؤرخون من أن الكاهن الذي استقبل الإسكندر الأكبر الذي زار معبد سيوة سنة 332 ق.م كان من أهل الجيل الثالث من حرحور الكرنك، وأنه هو الذي أعلن بنوة المقدوني لآمون العظيم ووضع بيديه قرني الكبش الملتويين على هامة الإسكندر علامة هذه النبوة الإلهية!

وهذا دليل آخر على أن رحلة وينامون كانت في أيام دارا الأول إذا حسبنا الأجيال وعدد السنوات بين دارا والإسكندر.

أما زاوية المثلث الثالثة فهي تانيس Tanis تلك التي قصد وينامون حاكمها نسبانبدد Nesbanebded في طريقه إلى لبنان، فأكرم وفادته واستقبلته حرمه المبجلة تينتامون Tentamun بالحفاوة والترحيب.

تانيس هذه تعرف أيضاً باسم سائيس Sais، وكانت المركز الثقافي والحضاري والديني لليبيين في الدلتا والقادمين إليها من الغرب، ولعبت دوراً مهمًّا جداً في تاريخ مصر الثقافي منذ القديم وحتّى مجيء الفرس. كهنتها الليبيون هم الذين حدثوا الفيلسوف اليوناني صولون بحديث أطلنتس الفردوس المفقود، وهم كانوا سدنة الربة الليبية نيث Neith

التي تحولت عند اليونان إلى أثينا Athena وأعلو من شأنها حتى جعلوها أمّاً لكبير الآلهة رع. ويلخص لنا أوجيها ريسني -Ud jeharresne في بردية مشهورة عندما صار كبير أطباء قمبيز كيف جعله يهتم بهذه المدينة: "وجعلته يعرف عظمة سائيس، عاصمة الربة العظيمة نيث، الأم التي ولدت رع.. وقد فعل جلالته هذا لأنني جعلت جلالته يعرف عظمة سائيس - فهي مدينة كل الأرباب المستوين على عروشهم خالدين فيها أبداً!"

لم يكن وينامون يتحرّك في فراغ إذن يوم كلف بجلب الأرز من لبنان لبناء مركب آمون الأقدس. وليس غريبا، إذا كان سيويًا - أعني من ليبيي سيوة - أن يجد العون من نسبانبدد حاكم تانيس (أو سائيس) في البداية، ثم ينجده بالمال والبضاعة العينية حين حلت به الأزمة وأصابه الضيق في لبنان. فقد كان كهنة تانيس من الليبيين في الغالب، وكان الكهنة حكاماً للأقاليم في عهد الفرس. فهل نسبانبدد من هؤلاء الكهنة الحكام الليبيين؟

لا يمكن الجزم بشيء بالطبع. لكن تبقى ملاحظة مهمة تتعلّق بذكر زوجة حاكم الإقليم - تينتامون. إذ يبدو من قراءة رسائل التوصية بحضورها، ثم إرسالها العون إلى الرحالة في محنته، ووضع اسمها إلى جانب اسم بعلها، يبدو أنها كانت بالغة التأثير في الحياة الزوجية والإدارية على حد سواء. وهنا ينبغي ألاّ ننسى تركيب الاسم ذاته: تنت - آمون Tent- amun مما يوضح صلتها هي الأخرى بعالم الكهنوت في عبادة الرب الليبي.. آمون.

وإذ فرغنا من هذا التقديم القصير فلأدع القارئ العزيز إلى قراءة نص الرحلة ذاته، وهو لن يجد عسراً في تتبع الأحوال واستخلاص ما يحب من نتائج. أما عسر الكلمات الغامضة وصعوبة التعرف على الأسماء الغريبة فقد بذلت الجهد لتذليلها قدر المستطاع بالهوامش والتعليقات

رحلة ويناموون

مترجمة عن Sir Alan Gardiner

في كتابه Egypt of the pharaohs

الصحفات: 306- 313

السنة الخامسة، الشهر الرابع من فصل الصيف، اليوم السادس عشر، اليوم الذي تأهّب فيه ويناموون، شيخ حجاب بيت آمون رب عروش الأرضين[1] ليجلب الخشب لقارب[2] آمون رع العظيم[3]، ملك الأرباب، الموجود على النهر والمسمى آمون ـ أسر ـ حي[4]. ويوم بلوغي تانيس، حيث يوجد نسبانبدد وتنتامون، أعطيتهما رسائل آمون رع[5]، ملك الأرباب فأمرا بقراءتها في حضرتهما وقالا: "إننا حتماً سنفعل كما قال آمون رع، ملك الأرباب".

أقمت حتى الشهر الرابع من فصل الصيف في تانيس، وقد أرسلني نسبانبدد وتنتامون مع ربان السفينة منجبت[6] ونزلت إلى البحر

---

(1) The Two Lands الأرضان (أو القطران) والمقصود صعيد مصر والدلتا - أو الوجه القبلي والوجه البحري.

(2) من طقوس عبادة آمون أن يكون له قارب مزين خاص يخرج به الكهنة في الاحتفال.

(3) الصفة للقارب.

(4) هذا اسم القارب يكتبه غاردنر هكذا: Amen- User- hé أما عند بريتشارد فيكتب: أسر - حت آمون User-het-Amon

(5) يعني رسائل الكاهن الأكبر

(6) Mengebet ويبدو أنه ليس مصريا. ولعله أحد الربابنة الفينيقيين.

السوري الكبير[7] في اليوم الأول من الشهر الأول[8] من فصل الصيف. ووصلت إلى دور Dor وهي مدينة فلسطينية[9]، وأمر أميرها (بدر)[10] أن يؤتي لي بخمسين رغيفاً وكوز من الخمر وفخذ عجل. وقد فر رجل من سفينتي بعد أن سرق وعاء من الذهب قيمته خمسة أدبن[11] وأربع جرار من الفضة قيمتها عشرون دبنًا وكيس فضة (قيمته أحد عشر دبنًا).

فمجموع ما سرقه من الذهب خمسة أدبن ومن الفضة واحد وثلاثون دبنًا. فقمت في الصباح وذهبت إلى حيث كان الأمير وقلت له: "لقد سرقت في مرفئك، وأنت أمير هذه الأرض وحاكمها. ابحث عن مالي، إذ الحق أن المال هو لآمون رع، ملك الأرباب، سيد الأرضين[12]، وهو لنسبانبدد، وهو لمولاي حرحور Her-hur ولعظماء مصر الآخرين. هو مالك، وهو مال واريت Waret، وهو مال ميكامار[13] Mekamar وهو مال ذكر بعل[14] Zakar- baal أمير بيبلوس[15]، فقال لي:

---

(7) البحر الأبيض المتوسط.

(8) هكذا عند غاردنر. وعند بريتشارد (الشهر الأول من الفصل الثالث)، وإذا كان الفصل الثالث هو فصل الصيف فالمفروض أن يكون إما (الشهر الخامس) أو (فصل الخريف). ويعترف غاردنر، على كل حال، بأن قراءة التاريخ كانت عويصة جداً.

(9) الأصلTjeker والمقصود فلسطين.

(10) bdr ويكتبها غاردنر bederوهي عند بريتشارد bedel لقيام اللام مقام الراء. والاسم واضح أنه عروبي - عربي، أو فينيقي.

(11) Deben وهي عملة مصرية قديمة.

(12) جمع أرض Lord of the lands أي سيد الأكوان.

(13) يقصد أن المال من جهة هو مال الذين أرسلوه به، وهو من جهة أخرى مال المرسل إليهم.

(14) Tjeker عند غاردنر، وهو اسم فينيقي.

(15) تعرف الآن باسم "جبيل" كانت من قبل غوبلو Gublu

"هل أنت جادٌ أم مختلق [16]؟ إذ الحق أنني لا أدري شيئًا عن هذه الحكاية التي رويت لي [17]، فلو كان لصًا ينتمي لبلادي ذاك الذي نزل إلى سفينتك وسرق مالك لعوضتك إيّاه من خزينتي إلى أن يعثر على سارقك كائناً من كان. لكن الواقع أن اللص الذي سطا عليك هو منك ينتمي إلى سفينتك. اقض بضعة أيام هنا معي حتّى أبحث عنه".

فلبثت تسعة أيام مرابطا في مرفئه ثم مضيت إليه وقلت له: "انظر.. إنك لم تعثر على مالي". (ويتبع هذا فقرة تكاد تكون محطمة تمامًا يمكن تخمين محتواها كما يلي: (يبدي وينامون رغبته في السفر مع ربان سفينة كانت في سبيلها إلى الإقلاع، غير أن الأمير يحثّه على عدم السفر مقترحًا الاستيلاء على بعض البضائع من المشبوهين حتى يمضوا للبحث عن السارق. ويفضل وينامون مواصلة رحلته، وبعد المرور بمدينة صور يغادرها عند الفجر. وسرعان ما يبلغ بيبلوس حيث أميرها ذكر بعل. وهنا يلتقي بمركب يحتوي على 30 دبناً من الفضة يأخذها قائلاً إن المال سيظل معه حتى يجد من خاطبهم من قبل السارق) [18].

---

(16) ترجمة بريتشارد: "سواء كنت مهمًا أم مشهوراً".

(17) ترجمة بريتشارد: "لا أدري هذا الاتهام الذي توجهه إلي".

(18) هذا تخمين غاردنر لخلاصة الفقرة المحطمة. أما ج. بريتشارد فقد حاول لم شتات النص بإضافات من عنده على الكلمات التي بقيت ليصوغ منها فقرة مفهومة لا تخرج في سياقها عن تخمين غاردنر، ويمكن ترجمتها كما يلي (وما بين العارضتين هو الإضافة المقترحة من بريتشارد): انظر! إنك لم تعثر على مالي. [دعني] [أمض] مع ربابنة السفينة ومع أولئك الذين يذهبون [إلي] البحر." بيد أنه قال لي: "صه..." خرجت من صورٍ عند انبلاج الفجر... ذكر بعل، أمير بيبلوس.. سفينة، وجدت ثلاثين دبنا من الفضة فيها، فاستوليت عليها. [وقلت للفلسطينيين: "لقد استوليت على] فضتكم وستظل معي [حتى] تجدوا [فضتي أو السارق] الذي سرقها حتى وإن لم تكونوا أنتم سرقتموها فسوف آخذها.. أما أنتم.. فانصرفوا" واحتفلت بانتصاري في خيمة على شاطئ البحر".

.. فانصرفوا واحتلفت[19] في خيمة على شاطئ البحر في مرفأ بيبلوس. ووجدت مخبأ لآمون الطريق[20] ووضعت فيه مقتنياته[21]. وأوفد لي أمير بيبلوس قائلاً: "اخرج من مرفئي". فأرسلت له قائلاً: "إلى أين أمضي؟.. إن تجد سفينة تحملني فلأرجع إلى مصر".

وأمضيت تسعة وعشرين يوماً في مرفئه وقضي هو وقتاً يوفد لي كل يوم ليقول: "اخرج من مرفئي".

وقد حدث أنه بينما كان يقدّم القرابين لآلهته أنَ إلهًا[22] تلبّس فتى من فتيانه وأخبله وقال له: "فلتأت بالرب ومرفده الذي يحمله فإن آمون هو الذي أرسله وهو الذي جعله يأتي". وكان المخبول في حالة خبل هذه الليلة حين وجدت سفينة مولية وجهها نحو مصر وقد وسقت أمتعتي كلها فوقها وكنت أنتظر هبوط الليل قائلاً: "حين تنزل الظلمة أضع الرب على المركب فلا تراه عين".

وجاء رئيس الميناء إليّ قائلاً: "البثْ هنا إلى غد، هكذا يقول الأمير". فقلت له: "ألست أنت الذي قضى زمنًا يأتيني كل يوم ويقول: اخرج من مرفئي والآن تقول: البث هنا هذه الليلة - حتى تدع السفينة التي وجدت ترحل، ثم تجيئني مرة أخرى لتأمرني بالذهاب؟".

فمضى وأنبأ هذا الأمير. وأرسل الأمير إلى ربان السفينة قائلاً: "البثْ حتّى الصباح هكذا يقول الأمير".

عندما جاء الصباح أرسل إليّ وأحضرني، فيما كان الرب[23] هاجعًا في الخيمة حيث كان على شاطئ البحر. وجدته جالسًا في عليته وظهره إلى النافذة، فيما كانت أمواج البحر السوري الكبير تتكسر خلف

---

(19) أي احتفل بانتصاره وأخذه ما يكاد يساوي المبلغ الذي سرق منه.

(20) Amun of the Road وثن يحمل في السفر تبركًا به.

(21) المعنى أنه وضع ما يخص الوثن في داخله.

(22) المقصود أن روحًا أو جنًا تلبس الفتى.

(23) الوثن الذي كان يحمله

رأسه [24]، وقلت له "رحمة آمون!" [25] قال لي: "كم مضى عليك منذ قدمت من مستقر آمون [26] حتَى اليوم؟" قلت له: "خمسة أشهر [27] حتَى الآن" قال لي: "فلنفرض أنك على حق. أين رسالة آمون في يدك، وأين كتاب نبي آمون الأول [28] في يدك؟"

قلت له: "أعطيتها لنسبانبدد وتنتامون".

فغضب غضباً شديداً وقال لي: "حسن. لا رسالة ولا كتاب في يدك. فأين مركب الصنوبر [29] التي أعطاكها نسبانبدد وأين بحارتها السوريون؟ ألم يسلمك إلى هذا الربان البربري [30] ليقتلك ويلقي بك في اليمّ؟ فممن، إذن، يطلب الرب [31]، وأنت أيضًا، ممن تطلب أنت كذلك؟"

هكذا قال لي، بيد أني قلت له: "أليست سفينة مصرية ببحارة مصريين تلك التي تحمل نسبانبدد؟ ليس لديه بحارة سوريون".

قال لي: "أليس ثم عشرون مركبًا في مرفئي تتعامل ونسبانبدد؟ أما

---

(24) على الشاطئ بالطبع، وليس على رأس الأمير! فالتعبير مجازي.

(25) تحية - كأنه يقول: السلام عليكم.

(26) الأقصر في صعيد مصر.

(27) يضيف بريتشادر: "ويوم واحد".

(28) الكاهن الأكبر.

(29) عند غاردنر: Ship of pine- wood وعند بريتشادر: ceder ship ومغزى كلام الأمير أن وينامون لم يأت في مركب عظيم يليق بآمون يقودها ربابنة مهرة وعلى ظهرها بحارة سوريون، دليلاً على قوة من أرسله، لكنه جاء مسافرًا عاديًا على ظهر سفينة تجارية فيما يبدو دون عزّ ولا سلطان.

(30) Barbarian عند غاردنر. وعند بريتشارد: أجنبي Foreign والكلمتان متساويتان على كل حال. ومن الغريب أن كل شعب قديم كان يدعو سواه من الشعوب (البرابرة) بمعنى (الأجانب)، والمقصود أنه دفع إلى (منجبت) للخلاص منه زيادة في السخرية.

(31) الوثن - آمون الطريق.

صيدا، المكان الآخر الذي مررت به، أفليس ثم خمسون مركبًا تتعامل و(بركة الله)[32] تكدح إلى بيته"[33].

فلزمت الصمت عند هذه اللحظة الخطيرة.

ثم مضي ليقول لي: "لأية مهمة جئت؟"

قلت له: "جئت في طلب الخشب لقارب آمون رع العظيم، ملك الأرباب. ما فعله أبوك وأبو أبيك[34] ستفعله أنت أيضًا".

---

(32) يثير هذا الاسم قضية شائكة من حيث كتابته ومدلوله، فبينما يرسمه غاردنر Warakatir يرسمه بريتشارد Werket-El أما بريستيد في كتابه (تاريخ لمصر A History of Egypt) فيرسمه berket- EL ويقول عنه لعله كان تاجراً في مدينه تانيس، وقراءة بريستيد هي القراءة الصائبة: إذ إن حرفي الواو والباء يتبادلان، وحرفي الراء واللام لهما الرمز ذاته في الهيروغليفية. وعلي هذا الأساس فإن ما فك رمزه من الهيروغليفية هكذا: و-ر-ك-ت-ر W-R-K-T-R تمكن قراءته هكذا: ب- ر-ك-ت-ل b-R-K-T-L وقد أيد الرأي عالم الأثريات المعروف إ. إرمان E.Erman في كتابه Aegyptische Literatur الصادر سنة 1923م، وأيده الأستاذ ر. آيسلر R.Eisler في العام الذي يليه في بحث له بعنوان barakhel son& co, shipping House Ta-nis وذهب هذا المذهب من قبل الأستاذ م. بوركهاردت M.Bourchhardt في كتاب نشر عام 1009م. بعنوان Die Alkananaeischen Fremdworte Und Eigennamen im Aegyptischen وتعبير بركت - ال birket-EL تعبير عروبي - فينيقي - عربي بشيء من التعديل في كل لغة ،وهو يقابل في الإنجليزية blessing of God أو God's blessing أما (ب ر ك ت) فهي (بركة) العربية، وأما (ال) فهو إله سامي قديم معروف، ولم يجد ترجمة أفضل من "بركة الله"، إذ توجد أسماء كثيرة في العربية على هذا النسق، من مثل: نعمة الله - خير الله - سعد الله - فرج الله.. إلخ.

(33) عند غاردنر Which toil to his house وعند بريستيد Which sail to his house وعند بريتشارد: Which are drawn up to his house ويفسر فيليكوفسكي "البيت" House هنا بأن المقصود هو "المؤسسة البحرية التجارية" فكأن "بركة الله" كان صاحب بيت بحري في تانيس للشحن والتفريغ وإنهاء المعاملات الجمركية مثلاً، فهو بهذا (وكالة أشغال) بحرية مزدهرة.

(34) أي جده بالطبع، ولكن في التعبير بأبي أبيه سخرية واضحة.

هكذا قلت له، فقال لي. " بالحق هم فعلوه، أنت ستدفع لي لأفعله. لقد أدى أهلي هذه المهمة بالتأكيد، ولكن بعد أن أحضر فرعون ست سفن موسوقة بالبضائع المصرية وأفرغوها في مخازنهم. أما أنت - ما الذي جئتني به" ؟

ثم أمر بإحضار سجلات آبائه وقراءتها أمامي. ووجدوا مقيداً في سجله ألف دبن من الفضة وأشياء مختلفة. وقال لي: "لو كان حاكم مصر حاكماً لبلادي وأنا عبده ما كان ليأمر بالفضة والذهب أن يحضروا حين قلت: (أد مهمة آمون). لم تكن هبة إنعام تلك التي ألفوا[35] أن يقدموا لآبائي.

وأنا كذلك لست عبدك ولا عبد من أرسلك أيضاً فأنا حين أصيح بلبنان تفتح السماء ويلقي الخشب هنا على شاطئ البحر[36] أعطني الأشرعة[37] التي جئت بها لتحمل سفنك التي ستنقل خشبك إلى مصر أعطني الحبال التي جئت بها لتشدّ أشجار الأرز التي سأقطعها لك وأعدها لك.. أعدها لك، لأشرعة سفنك، ولعلّ أعوادها[38] ثقيلة جداً، وقد تنكسر، وقد تختفي أنت في لجة اليم. مهلاً! إن آمون سيدوي صوته في السماء، وقد أجلس سيث Seth بجانبه[39] ".

بيد أنني قلت له: "باطل! ليست رحلات سخيفة هذه التي أقوم بها

(35) يعني الفراعنة السابقين.

(36) كناية عن السلطان والقوة، (افتح فمي فيمطر أرزاً).

(37) الأشرعة تصنع من القماش، ومصر هي التي تصنعها، وكذلك الحبال: فهو يسأله عنها.

(38) يعني سواري السفينة.

(39) ربة الرعد. وحديث الأمير ذكر بعل غير واضح تماماً، ولعله يعني أن وينامون لم يجئ متأهبا لمهمته، وقد تتكسر سفينته، فلا يمكن لآمون سوى أن يرعد في السماء دون أن يفعل شيئاً! ثم يعود الأمير ليعترف بفضل آمون على مصر والعالم بأسره في مجال العلم والصناعة - وقد أدى عمله وانتهى الأمر، فلا معنى لرحلة وينامون هذه " الرحلة السخيفة" كما دعاها.

الآن. ما من قارب على النهر إلاّ وهو ملك آمون، البحر له، ولبنان الذي تقول عنه (إنه لي) هو له، إنه حيث شب آمون أسر حي[40] مولى السفن كلها. الحق أنه آمون رع، ملك الأرباب، الذي قال لسيدي حرحور: (أرسله)، وهو الذي جعلني آتي وهذا الرب العظيم فانظر الآن! لقد تركت هذا الرب العظيم[41] يقضي هذه الأيام التسعة والعشرين مربوطاً في مرفئك دون أن تدري. أليس هو هنا؟ أليس هو كما كان[42]؟ وتقف أنت على لبنان مساوماً آمون مولاه! أما ما قلت عن أن الملوك السابقين[43] عملوا على إحضار الفضة والذهب، فلو أنهم ملكوا الحياة والعافية ما جاءوا بالبضائع. لقد جاءوا بالبضائع إلى آبائك عوضاً عن الحياة والعافية. لكن آمون رع، ملك الأرباب، هو مولى هذه الحياة والعافية، وكان هو سيد آبائك، لقد قضوا حياتهم يقدمون لآمون القرابين[44] وأنت أيضاً، أنت عبد آمون.

إن تقل لآمون (نعم.. سأفعل) وتقم بعمله تعش وترغد في عافية وستكون خيراً لبلدك كلها ولشعبك. لا تطمع في ما لآمون رع ملك الأرباب فالحق أن الأسد[45] يحب ماله. فلتأمر بإحضار كاتبك إليّ حتى أرسله إلى نسبانبدد وتنتامون، من عينهما آمون رع على شمال أرضه[46]، وسوف يجلبان إليك المطلوب. سأرسله إليهما قائلاً: (فليحضر المطلوب حتى أذهب إلى الجنوب)[47]. وسأعمل على أن

(40) الوثن الذي يحمله والذي خبأه، حرصاً عليه، عند شاطئ البحر، وواضح أنه أحد آلهة البحار.

(41) يقصد الوثن، آمون الطريق، أو آمون - أسر - حي.

(42) أي لم يتغير فلا يزال ربًا رغم مكوثه مخبأ عند شاطئ البحر.

(43) يعني فراعنة مصر السابقين قبل الاحتلال الفارسي.

(44) أي من عباده قبل أن تفقد مصر قوتها وسيطرتها وتأثيرها الديني في جيرانها.

(45) آمون كالأسد لا يسمح بالاعتداء على ما يخصه.

(46) قد يكون هذا التعيين من " الكاهن الأكبر" في الأقصر.

(47) حتى أرجع إلى مصر، ثم يدفع حرحور لنسبانبدد قرضه.

يؤتي لك بكل ما ينقصك كذلك " هكذا قلت له.

وضع كتابي في يد موفده، ووضع على السفينة ألواح قاعدة القارب والقيدوم والمؤخرة، والدفة، مع أربعة ألواح أخرى صقيلة، مجموعها سبعة ألواح، وأمر بأن تنقل إلى مصر(48). وآب مبعوثه الذي ذهب إلى مصر إليّ في سوريا في الشهر الأول من فصل الشتاء، وقد أرسل معه نسبانبدد وتنتامون أربع جرار وكاكمن Kakmen[49] من الذهب، وخمس جرار من الفضة وعشرة ألحفة من القماش الملكي، ومن قماش مصر العليا الفاخرة عشرة خمر[50] ومن البردي الصقيل خمسمائة لفة، ومن جلود الثيران خمسمائة، ومن الحبال خمسمائة، ومن العدس عشرين كيساً، وثلاثين سلّة من السمك، وبعث [51] لي أنا خمس قطع من قماش مصر العليا الفاخر، وخمسة خمر من قماش مصر العليا الفاخر، ومن العدس كيساً واحداً ومن السمك خمس سلال[52]. فانشرح صدر الأمير وأعدّ ثلاثمائة رجل وثلاثمائة ثور وكلف بهم رقباء ليقطعوا الأخشاب. فقطعوها وظلت ملقاة هناك خلال الشتاء[53]، وفي الشهر الثالث من الصيف جروها إلى شاطئ البحر، ومضى الأمير إليها ووقف عندها وأرسل لي ينبئني أن أقدم. فلما أحضرت إلى حضرته وقع

---

(48) قد يكون الهدف من شحن هذه الألواح التي سيركب منها " قارب آمون " إظهار حسن النية من قبل الأمير.

(49) لعلّه صرة من الذهب ، إذ ليس ثم ترجمة لهذا الكاكمن.

(50) جمع خمار.

(51) تنتامون زوجة نسبانبدد.

(52) هذا ما أمكن إرساله من خيرات مصر ، وكانت مصر مشهورة بإنتاج البقول فجاءت عشرون كيساً من العدس ، أما السمك فهو سمك مجفف دون ريب بالطريقة المصرية ، ولعله ما يعرف الآن باسم (الفسيخ) ، ومن الغريب أن يحتاج بحارة ذكر بعل في البحر الأبيض المتوسط هذا السمك اللهم إن كان سمكاً خاصاً جداً .

(53) لتجف ويسهل نقلها

ظل مروحته المصنوعة من اللوتس عليّ. فدنا مني بينامون penamun أحد سقاته[54]، قائلاً: لقد وقع عليك ظل فرعون، سيدك![55] فغضب (الأمير) منه وقال له: "دعه وشأنه". وجيء بي إلى حضرته ومضى ليقول لي: "انظر! لقد قمت بالعمل الذي قام به آبائي - لكنّك أنت ذاتك لم تفعل لي ما فعل آباؤك لآبائي، انظر! وصلت آخر (قطعة من) أخشابك وهي في مكانها. اتبع مشيئتي، وهلمّ، وضعها على السفينة. ألن يعطوك إياها[56]؟ لا تنظر إلى أهوال البحر! فإن تنظر إلى أهوال البحر انظر إلى أهوالي أنا. بالتأكيد لم أفعل بك ما فعل بمبعوثي خاعمويسي[57] Khaemwise حين قضوا سبعة عشر عاماً في هذه البلاد وماتوا في مكانهم". وقال لساقيه: "خذه ودعه يرى قبرهم حيث يرقدون".

لكنني قلت له: "لا تجعلني أراه. أما بالنسبة لخاعمويسي فإن مبعوثيه الذين أرسلهم إليك كانوا بشراً، وكان هو نفسه بشراً. لكن من أمامك ليس أحد مبعوثيه حين تقول (اذهب وانظر رفاقك)[58]. لا تفرح بأنك مستطيع أن تصنع لنفسك لوحاً حجريًّا تقول فيه (آمون رع، ملك الأرباب، أوفد إليّ رسوله آمون الطريق هو وويناموں مبعوثه البشري في طلب الخشب لقارب آمون رع العظيم، ملك الأرباب. قطعت

---

(54) اسمه يدل على أنه مصري.

(55) تعبير مهين المقصود به أن ويناموں وفرعونه حجب عنهما الضوء - فهما في الظل منسيان.

(56) لعله يقصد الرجال الذين قطعوها.

(57) يقترح فيليكوفسكي قراءة أخرى هكذا: خايم واست Khaem-Waest ويري أن المقصود قد يكون إينارو Inaro (أو: إنحرو) ملك الليبيين في مصر الذي قاد ثورة عارمة ضد فارس ما بين السنوات 465-454 ق.م في عهد الملك الفارسي أرتاشيرشيس.

(58) أي أنه مبعوث الإله آمون - رع وليس مبعوث ملك أو فرعون - إذ لم يكن في مصر ملك ولا فرعون يومها.

الخشب له ووضعته على ظهر السفن، وزودته بسفني وبحارتي. وعملت على أن يبلغوا مصر ليطلبوا لي من آمون خمسين عاما من الحياة فوق وأكثر مما قدر لي)، وقد يحدث في زمان آخر أن يأتي مبعوث من أرض مصر يعرف الكتابة ويقرأ اسمك على اللوح، وتنال ماء الغرب[59] تماما كالأرباب هنا".

قال لي: "ما قلته لي شهادة قول عظيمة".

قلت له: "أما فيما يتعلق بالأشياء الكثيرة التي قلت لي، فإن وصلت مقر نبي آمون الأول [60] ورأي عملك فسوف يجلب عليك عملك نفعاً".

وانطلقت إلى شاطئ البحر، إلى المكان الذي وضعت فيه الأخشاب ورأيت إحدي عشرة سفينة من بحر الفلسطينيين [61] وهم يقولون: "اقبضوا عليه، ولا تدعوا سفينة من سفنه ترحل إلى أرض مصر".

عندها جلست وبكيت. وجاءني كاتب الأمير وقال لي: "ماالذي يوجعك؟" قلت له: "ألا ترى الطيور المهاجرة التي تهبط مصر مرتين[62]؟ انظر إليها كيف تأتي إلى الماء البارد، فإلى متى أترك هاهنا؟ أو لست ترى أولئك القادمين ليمسكوا بي ثانية؟".

فمضى وأخبر بهذا الأمير. وشرع الأمير ينتحب بسبب الكلمات التي قيلت له إذ كانت مؤلمة. وأرسل لي كاتبه يأتيني بكوزين من الخمر وشاة. وأمر بأن تحضر إليّ (تنتني) وهي مغنية مصرية كانت معه، قائلا: "غنّي له! لا تجعلي فؤاده مهموماً!" وبعث إليّ قائلاً: "كل واشرب ولا تجعل قلبك مهموماً. ستسمع غداً كل ما سأقول".

وجاء الغد، وأمر بأن يدعى مجلسه للاجتماع، ووقف بينهم [63]

---

(59) كانت تعاليم ديانة آمون - رع أن الأرواح تذهب بعد موت أصحابها إلى الغرب من مصر في عالم الظلمات ،والصالح منها يشرب من عين الحياة هناك، فيخلد.

(60) الكاهن الأكبر حرحور.

(61) الأصل. Tjeker

(62) رأى وينامون الطيور تهاجر إلى مصر مرتين -وقد طالت غيبته وزاد حنينه.

(63) بين أعضاء المجلس.

وقال للفلسطينيين: "ما معنى رحلاتكم هذه؟" .

فقالوا له: "جئنا نطارد السفن البحرية التي ترسلها إلى مصر مع أعدائنا" . وقال لهم: "لا يمكنني أن أقبض على رسول آمون في بلادي. دعوني أرسله بعيداً ولتمضوا في إثره لتقبضوا عليه" . ثم حملني [في سفينة] وأرسلني من ثم عند ميناء البحر.

ساقتني الريح إلى أرض قبرص (64) فخرج إليّ أهل المكان ليقتلوني، بيد أني شققت طريقي من بينهم إلى حيث كانت حتيبة Hatiba، أميرة المدينة، وجدتها خارجة من أحد بيوتها لتدخل بيتها الآخر. حييتها وقلت للذين وقفوا من حولها: "أليس من بينكم من يعرف لغة مصر؟" فقال واحد منهم: " أنا أعرفها" .

قلت له: " أنبئ مولاتي: إلى حدّ (مدينة) ني NE (65)، حيث يوجد آمون كنت أسمع أن الظلم يرتكب في كل مدينة، ولكن العدل يفعل في أرض قبرص، هل يرتكب الظلم إذن كل يوم هنا؟!" .

فقالت: " ماذا تقصد بالفعل من قولك هذا؟" .

قلت لها: " إن يكن البحر ثائراً والريح تدفعني إلى أرضك، فهل تعملين على استقبالي لأُقتل، رغم كوني رسول آمون؟ انظري الآن! أما بالنسبة لي فيمكنهم طلبي إلى آخر الزمان، وأما بالنسبة لبحارة أمير بيبلوس الذين يسعون لقتلهم أفلن يجد سيدهم عشرات من بحارتك ويقتلهم هو الآخر؟" .

فأمرت باستدعاء الناس وأن يحضروا الاجتماع، وقالت لي: "أَمضِ الليلة.." .

***

وإلى هنا أدرك البردية صرف الزمان فسكتت عن مزيد من القول والبيان!

***

(64) الأصل: ألاسيا Alasiya- وبهذا الاسم كانت قبرص تعرف قديمًا.

(65) يقصد طيبة (الأقصر) وهي في التوراة مدينة نو No

من عهد سيدنا خرشف!

يتحلق السامرون حول "سفرة الشاهي" في المربوعة في إحدي ليالي الشتاء المطيرة، أو يتجاذبون أطراف الحديث عشية صيف تحت ظلال النخيل الممتدة في "السانية" بعد انحسار القيظ، ويذكر أحدهم حادثة قديمة يرويها لرفاقة، فيصيح بعضهم هاتفاً:

"وي.. يا وخي! ها الحكاية من عهد سيدنا خرشف!".

أو تراهم يذكرون الأعمار والسنين ومتى ولد فلان أوفلان، ويسخر رفيق من صاحبه: "ما أقدمك! أنت والله من أيام سيدنا خرشف!".

هذا كلّه دلالة على القدم، وفي مجال الدهور المتطاولة. فمن هو (خرشف) هذا يا ترى، ولماذا يقرنه الليبيون بلقب (سيدنا)؟ سؤال قد يبدو غريباً. فلعلّ خرشف هذا اسم مصطنع. لعله مجرّد تركيب مفتعل ليس له وجود حقيقي. لعلّ الجملة كلها تعبير ساخر لا معنى له سوى المداعبة والمزاح. قد يبدو الأمر هكذا. لكن الحقيقة أن هذه العبارة بالذات صادقة في كل حرف فيها، تعبر عن تاريخ معروف مكتوب، وتحمل في طياتها رائحة العصور السحيقة، وصورة معبود عتيق، وحكاية قد تحب أن تعرفها.

إذا أحببت فلنقسم العبارة إلى ثلاثة أقسام ونرى فيها الرأي من بعد:

من عهد - سيدنا - خرشف.

أما (العهد) فيرجع إلى حوالي الألف الأولى قبل الميلاد. كلا بل أقدم من ذلك بكثير، إلى نشأة الأسرة الأولى في تاريخ مصر القديم، منذ حوالي خمسة آلاف عام.. فقط ليس غير!

وأما (سيدنا) فهو يلقب بذلك لأن المذكور كان يعبد باعتباره إلهاً كامل السيادة.

وأما (خرشف) فهو الإله المقصود، وكان ربًا معروفًا لدى الليبيين نازلي مصر وكان هو السبب في نشأة الأسرة الثانية والعشرين. أسرة شيشنق. يكتب الدكتور مصطفي عبد العليم[1] اسم الإله هكذا: (حري - شف) ويتابعه في هذا مؤلفو مجلد (تاريخنا)[2] المجهولون للأسف الشديد. أما الرسم المتفق عليه للاسم فهو أقرب ما يكون إلى نطق الليبيين اليوم له هكذا: حر - شف Her- Shef، وليلاحظ القارئ أن الاسم مكون من مقطعين ومعناه رب (القوة والقدرة والشجاعة) حسبما تدل عليه كلمة شف shef. فإذا قسمناه إلى ثلاثة مقاطع هكذا (حر - ش - ف) صار معناه: (الذي على بحيرته)، فإن قرأناه: (حري - شا - ف) أصبح المعنى: (الذي فوق رماله). وهذا كله ممكن وجائز أيضاً، فقد كتب خرشف بهذه الصيغ كلها بحسب موقع عبادته وبحسب الصورة التي عبد بها، وقد يسرت اللغة المصرية القديمة هذه الصيغ إذ كانت لغة مقطعية تعتمد الصور والرسوم (الهيروغليفية) في التعبير. يقول الباحث المعروف والس بدج في كتابه (آلهة المصريين)[3] إن خرشف عبد في مواطن كثيرة في مصر من بينها مدينة حنن سو He-nen-Su (وتعرف الآن باسم أهناسيا) ويصور إنسانًا رأسه رأس كبش يعلوه قرنان من فوقهما الشعار الملكي بحيتي الكوبرا وزهرة اللوتس. وهو عبد باعتباره (الذي على بحيرته) رب المياه المتدفقة عند بحيرة قارون. ومن المقبول أن يعبد حسب كونه (الذي فوق رماله) غرب البحيرة وما اتصل بها من الصحراء الليبية. وهو كثيرا ما يذكر في (كتاب الأموات) ويذكر مركز عبادته في أهناسيا حيث تدور كثير من الأحداث الأسطورية متصلة بخرشف هذا ورب الأرباب أوزيريس.

---

(1) د. مصطفى عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم ص 33.

(2) تاريخنا - الكتاب الأول ص 223-224.

(3) Wallis Budge .The Gods of the Egyptians, vol.2 p 58

في كتابه (الأسطورة والخرافة المصرية) يقول الأستاذ دونالد ماكنزي[4] : كان الإله الرئيسي في أهناسيا هو خرشف الذي يحمل شبها بالإله بتاح - تانن Ptah - ta -nen أقوى من شبهه بالإله حورس. كان (الرب الأعظم) خالق ذاته، الذي رأسه في السموات بينما تستقر قدماه على الأرض، في حين كانت روحه النور الذي يفيض على العالم. كان يخرج من منخريه الريح الشمالية الباعثة الحياة في كلّ شيء (لاحظ هنا، أيها القارئ العزيز، أن الحديث عن ريح الشمال - ريح الصبا كما يسميها شعراء العرب - تلك النسمة الباردة المنعشة الرقيقة القادمة بالمطر والخير في مقابل ريح الجنوب، أو السموم، أو الخماسين، أو القبلي المرعب المخيف !)

كان خرشف إذن، مصدر الحياة الكونية. فهو باعتباره (رب الريح) يشبه المعبود الجنوبي أخنوم Khnumu الذي كان يدعى أيضاً كنيف Knef . وهذه كلمة مصرية تعني (الريح) و(النفس) و(الروح) - "هواء الحياة". ويعلق الأستاذ ماكنزي بأن التعبير نفسه يوجد في العبرية: نفش - رواح. وفي العربية: نَفَس / نَفْس - ريح / روح. والمدلولات متقاربة، وفي اللغات الأوربية نجد كلمة Spirit بمعنى روح وأصلها من اللاتينية: Spiro أتنفس.

ويري مؤلفو (تاريخنا) أن ثمة صعوبة في تمييز المعبود (حري شف) الذي يظهر دائماً في صورة الإله آمون - إله طيبة، أو الإله أخنوم Khnumu - إله الشلال. والسبب، في رأيهم، هو أن آمون يتميز فقط بالكبش المقدس الذي يمثله بقرنيه الملتويين الساقطين، أما الآلهة الأخرى التي تمثل بكبش فيظهر قرناها عادة متوازيين وبعيدين عن الرأس - كما هو الحال بالنسبة للإله خرشف.

لكن الأستاذ بدج يرى أن خرشف عبارة عن صورة من صور الإله

(4) Donald Mackenzie, Egyptian Myth and Legend,p.190-191

أخنوم تارة وهو صورة لأوزيريس،أو حتى رع، تارة أخرى. وهذا معقول جداً. فقد كان يدعى الإله العظيم لأهناسيا المدينة "ملك القطرين الذي عيناه الشمس والقمر، ومن فمه يخرج الهواء"، وهذه صفة رع الذي تحول فيما بعد إلى آمون - رع حين جاء الليبيون إلى مصر بإله سيوة آمون ومكّنوه - أو هو مكنهم - في بلاد وادي النيل.ومعروفة جداً قصة ظهور آمون على رمال الصحراء الليبية على هيئة كبش، وكان يعبد على هذه الهيئة حتى عهد الإسكندر الأكبر ومن جاء بعده.

ويضيف الأستاذ ماكنزي إلى هذه المعلومات القيمة أن خرشف كان من جملة "الآباء العظام" Great Fathers، مثله في ذلك مثل بتاح وأخنوم وبانب - توتو، الذين أدخلو في الرب الأكبر أوزيريس، الذي أدمج مع رع آمون.وقد اعتبره المؤرّخ الشهير بلوتارخ (رمز القوة والشجاعة) - وهو تصوّر يتفق مع السمعة العسكرية على الأقل لبعض ملوك الليبيين الذين عاشوا في مصر في تلك الفترة القلقة من الزمان.وهو عنده أيضاً ذلك المعبود ذو الرأس الكبشي، يلبس التاج الأبيض ذا الريش، تعلوه هالتان (الشمس والقمر) وحيتان بهالتين أخريين على رأسيهما.

والحقيقة - كما يقول المؤرّخون - أن عبادة الآلهة التي لها رأس كبش، مثل خرشف، ترجع إلى أزمان موغلة في القدم.وقد وجدت لوحة من الأسرة الأولى عليها صورة كبش يقبض بيده على صولجان، وفي أوائل الأسرة السادسة نجد الكبش إلهاً في منديس.

ويضيف الكاتبون: والظاهر أن محرابين من محاريب عبادة الكبش كان لهما علاقة بتدفق المياه.فكان خرشف في أهناسيا حيث تتدفق المياه في الفيوم، والإله أخنوم عند الشلال الأول حيث يتدفق الماء إلى مجرى نهر النيل.بل إن اسم أخنوم نفسه مشتق من كلمة معناها (عين الماء).

هذا ما ورد في (تاريخنا).وينبغي ألا ننسى أن آمون عُبد في سيوة

لوجود عين ماء مشهورة أقيم عندها معبده - هي (ينبوع الشمس) الشهير.

ولا نريد أن ندوّخ القارئ معنا بعد أن اختلط الحابل بالنابل، كما يقولون، وتداخلت الآلهة والأرباب والمعبودات الكثيرة المتنوعة وتشابكت أسماؤها وصفاتها في العصور الغابرة حسب المواطن والشعوب. فالمهمّ أن نعرف أن خرشف هذا كان ربًّا يعبد له الصولة والجولة، فلا غرابة إذن أن يدعي (سيدنا) ولا عجب. فما دخله في إنشاء الأسرة الثانية والعشرين، وما علاقته بشيشنق ياترى؟

على مدى مئات السنين كان الاحتكاك بين المصريين والليبيين متصلاً، وهو قد يكون صلة جوار وتبادل منافع طيبة حينًا وقد يكون صداماً مسلحاً حيناً آخر. ومن هنا كان امتزاج الثقافتين الليبية والمصرية في قديم الزمان. وفي حوالي المائة الثانية عشرة قبل الميلاد كان (الغزو العظيم) الذي قام به الليبيون في حلفهم المشهور مع (شعوب البحر) وقد ردت مصر الهجوم الكاسح بقيادة رمسيس الثالث كما تقول النقوش، وسكن أوار القتال مدة من الزمان كان الليبيون خلالها يتسربون إلى نهر النيل ويستقرون في الدلتا وحول بحيرة قارون على شكل جاليات تعيش بهدوء مع أهل البلاد. وبمرور السنين انتظمت أعداد كبيرة منهم في سلك الجند المصري حتى صاروا يكونون قوة عظيمة في جيش مصر. وما أن جاءت الأسرة العشرون حتى أصبح الجيش المصري مؤلفًا من الليبيين دون سواهم، كما يقول الدكتور مصطفى عبد العليم، وبهذا تمت سيطرة الليبيين على الجيش، وكانت قياداته منهم بالطبع يحمل كل رئيس حامية لقب (رئيس المشوش العظيم) أو يختصر (رئيس ما العظيم) - إذ كانت (ما) هذه تعني (المشوش) إحدى القبائل الليبية الكبرى.

في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد مرور مائتي عام فقط على

الحرب الليبية - المصرية، كان الليبيون قد ثبتوا أقدامهم عسكريًا في جيش مصر، وهم ثبتوه اقتصاديًا بامتلاك الأرض الواسعة، وثبتوه دينيًا بالانضواء تحت لواء الإله (خرشف) في مدينة أهناسيا بالذات. ومن الأسر الليبية المستقرة استطاع رجل يدعي موسن بن بويوواوا أن ينتظم في سلك كهنة (خرشف) وأصبح حلفاؤه يشغلون منصب الكاهن الأكبر له - وهذا معناه اجتماع السلطتين الدينية والدنيوية معًا في يدي أسرة بويوواوا.

في أيام الأسرة الحادية والعشرين كان أحد أحفاد بويوواوا - واسمه شيشنق - كاهن خرشف الأكبر. وحدث أن مات ابن له اسمه (نمرود) ودفنه في أبيدوس، ولكن بعض اللصوص اعتدوا على قبره، فذهب شيشنق هذا يشكو إلى الملك بتانيس، وجاء الملك بصحبة شيشنق إلى طيبة ليستمع إلى حكم آمون الذي حكم وحيه بإدانة الجناة. ولكي يرضي فرعون الكاهن الأكبر شيشنق أرسل تمثالاً على صورة ابنه ليوضع في معبد أوزيريس في أبيدوس، وهذا يوضح إلى أي مدي كانت قوة كاهن سيدنا خرشف الليبي حتى يتنازل الفرعون هذا التنازل كله ويسترضيه بهذا الشكل.

المهم أن شعور الكاهن الأكبر بقوته ونفوذه الديني والدنيوي جعله يفكر تفكيرًا جديًا في العرش الفرعوني. ولم يستطع شيشنق الأول أن يحقق حلمه، ربما لكبر سنه أو لأن الدم الملكي لم يكن يجري في عروقه. والذي حققه هو شيشنق الثاني، ابن نمرود، ابن شيشنق، وقد ورث عن جده امتيازاته كلها وصار (الفاتق الناطق) في أرض مصر. وما أن توفي بسونيس، آخر فراعنة الأسرة الحادية والعشرين، حتى استولى شينشق على العرش بقوة السلاح وقوة الكنهوت، وأسرع يزوّج ابنه أوسركون الذي صار خليفته فيما بعد، من ابنة بسوسينس ليؤكد أهليته لتولي العرش المصري، ومعروفة قصّة شيشنق هذا وما قام به من

أعمال باهرة، وقد ظلّت أسرته (الأسرة الثانية والعشرون) تحكم أكبر مملكة في العالم القديم آنذاك ما يقرب من مائتي عام،وهي فترة مجيدة في تاريخ العلاقات بين الشعوب وبين الشعبين المصري والليبي على وجه التخصيص.

والمهمّ أيضًا أن (خرشف) كان يحرك الأحداث من وراء ستار كاهنه، ويأمر وينهى من خلال ضباب البخور المتصاعد من هيكله، ويدير شؤون وادي النيل بصوت صنمه الأجوف ورأسه الكبشي يعلوه القرنان وشارات الملك المقدسة.

بيد أنه، فيما يبدو، لم يكن ليترك وحيدًا مستمتعاً بالعزة والسلطان في هدوء معبده الفاخر، فقد أبى القوم إلا أن يشركوا معه زوجة تنكد عليه حياته وتنغص معيشته.واختاروا للإله - الكبش زوجة قطة (هكذا !) وكان اسمها - إذا كان يهمّك أن تعرف - آتيت Atet. وهذا اسم سهل النطق كما نرى. لكن لها اسما ثانيًا عسير النطق والهضم هو: مر - سخنت Mer-Sekhnet . ويقول ماكنزي إنها معبودة باعتبارها" أمًّا عظيمة "Great Mother تشبه الربة هاثور Hathor وإيزيس Isis ونيث Neith العظيمات أيضًا.

كانت السيدة حرم خرشف معبودة مدللة فيما يبدو، ولعلها كانت قطيطة محبوبة من جماهير الشعب يومها، فتناسوا الاسم الأول - (آتيت) الذي يبدو وكأنه الاسم العائلي، وتجاوزا عن الاسم الثاني (مر ـ سخنت) الذي يتفق في خشونته مع اسم بعلها (خرشف) ـ ولعله الاسم الكنهوتي.واكتفوا باسم الدلع "مياو" . .Meau اسم مناسب.. أليس كذلك؟! هذا حديث قديم قديم..حديث من عهد سيدنا خرشف !

حكايات كوبسيس الليبية

" يا حزاركم على: حب الرمان.."

تبدأ الجدة حكايتها ويرتفع لغط الأولاد المتحلقين من حولها كل يرفع صوته على صاحبه:

" لا يا جدتي خرفي لنا على: السيسبان المسقي بحليب الغزلان".

" احكي لنا على: الغولة اللي تتولّد ".

"لا..لا. حكاية: الطير اللي يغني وجناحه يردّ عليه ".

"نبوا نسمعوا: سبع صبايا في قصباية ".

" بوك زغوان..أحسن !".

وتنتظر الجدة هنيهة حتى يستقر رأي الأولاد على إحدى "خرافاتها" البديعة لتنطلق تروي لهم مغامرات "محمد بن السلطان "مع" عويشة" أو "فليفلة" بنت السلطان أيضاً، وتدخلهم عالماً غريباً مليئاً بالغيلان والهوام والكلاب الجهنمية، عالماً من القوة الخارقة والحيلة الذكية والصراع بين الخير والشر والحقّ والباطل. صلال وثعابين، وبحار زاخرة ووديان موحشة، وكائنات غريبة، وحيوانات تتكلّم وتفكر وتتصرّف، ودنيا مشحونة بكل غريب وعجيب، تقدّمها الجدّة بأسلوبها الرائق الهادئ والأولاد مسحورون مشدوهون.

هذا هو عالم "الخرّاف" في ليبيا. مجموعة هائلة من القصص والحكايات ثرية غنية فاخرة لم ييسر لها الله بعد من يجمعها في كتاب ويصوغها بأسلوب ويقدمها للناس. متى؟ لست أدري ! هل ننتظر حتى ينتهي عالم الجدات الرائعات، ونترقّب حتى تضيع هذه الثروة التي لا تقدّر بثمن، ونضع يداً على يد حتى يخرج "امحمّد بن السلطان" نفسه ليكتب حكاياته هو ذاته ويسطر مغامراته ويروي أقاصيصه؟!

فلننتظر إذن كما انتظر "غودو" الذي يبدو أنه لن يأتي أبداً، ولننبش قليلاً في رمال هذه الصحراء علّها تكشف لنا عن أصول بعيدة لحكايات الجدة هذه وتظهر عن دفين تحت الكثبان. والحكاية الشعبية -هكذا اصطلح القوم على تسميتها حديثًا وكنا نعرفها باسم الخرّافة (بتشديد الراء) وهي " الخرافة" وتسمّي في بعض الأقطار العربية: الحدوتة. وهي: الأحدوثة - هذه الحكاية تاريخ، ومتعة خيال، وفائدة خلقية ،ومثل يضرب، وأسلوب في التربية والتعليم والتهذيب والتثقيف، لها غاية وهدف. وكما أنها هي ذاتها تاريخ لتفكير شعب ما وتأريخ لعاداته وتقاليده ونظام حياته ومعيشته وتسجيل للبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية ونحوهما ،فإنّ لها هي ذاتها تاريخاً قد يقدم حتى يعود إلى عصور منسية ودهور مطوية ،وأجيال بعيدة في القدم.

ولن آخذك - أيها القارئ - إلى قصة " قلقاش " الأكادية، أو " حور" المصرية، أو "قدموس" الكنعانية أو أساطير اليونان والرومان والهند والصين، وحكايات " الأنكا" و"الأزتك" في الأمريكتين، وقصص "الأزاندي" و"الهاوسا" الإفريقية. .فقد يسّر الله لتلك من كتب وبحث وفحص ونشر، وعرفت على أوسع نطاق.

سآخذك إلى خرافات " كوبسيس الليبية" فهلمّ معي إن تفضلت !

***

الزمان: القرن الأول للميلاد.

المكان: الإسكندرية - عاصمة العلم والفن والآداب العتيقة، ومكتبتها الشهيرة العامرة التي تضم مئات الآلاف من المجلدات في مختلف فروع العلم والفنون، والكاتبون يكتبون والقارئون يقرءون إلى ما شاء الله. ومن بين أكداس اللفائف والرقائق والألواح بالهيروغليفية واليونانية وغيرهما من الخطوط والألسن كانت ضميمةٌ معروفةٌ لأمناء المكتبة تحوي مجموعة من الحكايات والقصص عن الحيوانات وعجائب

المخلوقات اشتهرت باسم " حكايات كوبسيس الليبية " .

يقول الأستاذ " وايت دف " Duff في مؤلفه (تاريخ أدبي لروما في العصر الفضي) إن هذه الحكايات ظهرت في الإسكندرية في البداية ممتزجة أولاً بحكايات جاءت من الهند وسيلان، ثمّ ما لبثت أن تميزت وتفردت باسمها الخاص في القرن الأول حين انتشرت انتشاراً عظيماً .ثمّ يسرد تاريخها بعد ذاك: في القرن الثاني للميلاد - في عهد الإمبراطور الفيلسوف ماركو أوريليو - خرجت المجموعة من مكتبة الإسكندرية إلى روما لتتلقفها يد الشاعر اللاتيني وخطيب البلاط "نيكو ستراتس " فينقلها إلى لسان قومه، ويمزج بينها وبين مجموعة قصص يونانية في كتلة واحدة.

في القرن الرابع للميلاد ألف الكاتب الروماني "فلافيوس أفيانوس" قصصاً عرفت باسم "الحكايات الثنتين والأربعين" شعراً فكان العنصر الليبي غالباً عليه تماماً. وكانت هذه تدرس للتلاميذ الصغار في القرون الوسطى، وكانت موضع التقليد والمحاكاة على نطاق واسع نثرا وشعرا وراجت سوقها رواجاً عظيماً.

كانت "حكايات كوبسيس الليبية" تنافس قصص "إيسوب" ذات الشهرة في التاريخ الغربي مثل شهرة " كليلة ودمنة " في تاريخ الشرق .وهذه المجموعات القصصية الثلاث هي ما دفعت شاعرا كبيرا هو " لافونتين " في عصر النهضة الأوربية إلى تقليدها واستيحائها في تأليف قصصه الشعرية الرمزية الذائعة الصيت، والتي حاول النسج على منوالها شاعر العربية أحمد شوقي رحمه الله.

ثلاثة مصادر إذن هي التي أسهمت في بناء ما يمكن أن نعرفه باسم "الأدب الخرافي الشعبي " : إيسوب، وكليلة ودمنة،وكوبسيس الليبية. الأولى يونانية أوربية، والثانية آسيوية (هندية / فارسية / عربية)، والثالثة إفريقية ليبية.

فلماذا سميت قصص "كوبسيس الليبية" بهذا الاسم؟

الأستاذ "دف" وبعض الباحثين الآخرين يرون أن الأصل يرجع إلى معنى "كوبسيس" في اليونانية، إذ إن معناها "الجراب" أو "المخلاة" أو ما نعرفه نحن باسم " الجبيرة " (وهذه الكلمة الأخيرة برتغالية Al-giberia عادت إلى العربية بهذه الصيغة ويرى الأستاذ J . B Trend في مقالة بمجلد Legacy of Islam أنها من العربية " الجيب " ونرى أنها من " الجراب " فهذا أقرب مبنى ومعنى).

السؤال الذي يلي: ولماذا " الجراب " يا ترى؟

قالوا في الأسطورة اليونانية: إن " بيرسيوس " صاحب الجواد المجنح كان مع حبيبته " أندروميدا " في ليبيا فقابله وحش رهيب وكان لزامًا عليه أن يدافع عن حبيبته الغالية، فكان إلى جانب كوم من الحجر تمده به " أندروميدا " وهو يقذف الوحش به حتى غلبه.

ولماذا الحجر بالذات؟

لأن فريقاً من الليبيين كان يتخذه سلاحًا فتاكًا يدافع به ويهاجم، وكان الليبي يحمل سلاحه - أعني حجارته - في جراب. قال "ديودروس الصقلي" في (مكتبته التاريخية) بالنص:

"إن أسلحتهم - أي الليبيين - تلائم كلاً من طبيعة البلاد ونمط حياتهم. فلما كانوا خفيفي الأجسام يسكنون أرضاً هي عبارة عن سهل مستوٍ في جزئها الأكبر فإنهم يواجهون ما يحدق بهم من أخطار مسلحين بثلاثة رماح وحجارة في أجربة من الجلد. وهم لا يحملون سيفاً ولا خوذة ولا أي سلاح آخر، فإن غايتهم أن يتفوقوا على عدوّهم في سرعة الحركة عند الكرّ والفرّ. لذا فقد برعوا في صقل الحجارة وقذفها، وساروا بالمزايا التي وهبتهم الطبيعة إياها إلى الغاية القصوى بالدربة والعادة " .

من هنا عرفت الحكايات الليبية القديمة هذه باسم " كوبسيس" أو "الجراب" .

هذا رأي.

أما الرأي الآخر فقد أورده "كوهون" J.W. Cohoon في تقديمه للمبحث الخامس من " مباحث ديون" يذكر فيه أن بعض الباحثين ـ ولم يعينهم ـ ينسب هذه الحكايات إلى رجل ليبي يدعي "كوبسوس" Cybissus.

من الأخ كوبسوس هذا؟ متى عاش؟ متى مات؟ أين؟ كيف؟ هل كتب بالليبية أو اليونانية أو بسواهما؟..أسئلة ستظلّ دونما جواب، فإن علمها عند الله وحده..حتى الآن!

وقد يخطر لك أن تسأل: هلا قدمت لنا شيئًا من هذه الحكايات؟ حاضر..يا أخي!

لكن قبل هذا ينبغي أن أخبرك بأنني كتبت عنها لمحة قصيرة منذ خمسة عشر عامًا (مدة طويلة..أليس كذلك؟!) وكانت بين يدي بعض الإشارات التي سبق ذكرها وقطعة قصيرة واحدة (نشرت في كتاب "قراءات ليبية"..هل تذكر؟).أما اليوم فقد تيسرت اثنتان أخريان فصارت ثلاثاً.من يدري؟ لعلّنا نعثر على البقية الباقية إن ظل ثمة عمر وشيء من الهمة والحماسة!!

فلنكتف اليوم بما لدينا الآن ولنأخذها واحدة واحدة وندرسها معًا..إن شئت.

(1) النسر الجريح:

قطعة قصيرة أوردها المسرحي الكوميدي اليوناني "أرستوفان" في مسرحيته (الطيور) كما ذكرها المسرحي التراجيدي "أسخيلوس" في مقطوعة له بهذا العنوان وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد.وهذا يدلّ - قطعًا ـ على قدم "الحكايات الليبية" قدمًا لعلّه كان حتى قبل بروز الحضارة اليونانية ذاتها، وقبل إنشاء الإسكندرية بمدة مديدة،وقبل أن تختلط بقصص الهند وسيلان كما ذكر الأستاذ "دف".

القطعة ـ أو الحكاية ـ رمزية واضحة الرمز، فيها حدة وألم (لعله الألم من ظلم ذوي القربى الذي هو أشد " مضاضة على النفس من وقع الحسام المهنّد " كما يقول بيت الشعر الشهير!!) وقد حظيت هذه القطعة بحظ نشرها على أوسع نطاق حين استشهد بها كاتبا الرواية الذائعا الصيت منذ سنتين أو ثلاث وترجمت إلى عدد كبير من لغات العالم - منها العربية - عن "الفارس الخامس".

تقول القطعة:

" هاكم القصة التي تُروى في الحكايات الليبية عن نسر أصابه سهم من قوس. قال ـ حين رأى الشيء المجنح الخبيث: (ليس إذن بالآخرين.. بل بريشنا نحن نؤخذ!) "

كان من العادة ـ كما تعرف ـ أن توضع ريشة في طرف السهم، لزيادة سرعة انطلاقه ربما أو خداعاً للطائر المضروب فلا يفرّ من السهم ظنّاً منه أنه مجرد ريشة أو لسبب لا أدريه. وحين انغرس السهم في صدر النسر نظر فرأى الريشة التي خدع بها وفيها، فعلم أن إصابته كانت بسبب ريش نسر آخر، وكانت كلمته الأليمة " بريشنا نحن نؤخذ".

(2) أفعى العطش:

أورد حديثها " لوسيان الساموساتي "Lucian of Samosata (120-190م) في "محاوراته" وهي حية رهيبة مخوفة مرعبة مهلكة.. معطشة.وقد تدخل في باب الحكايات كما تلج باب التاريخ الطبيعي.

وكالعادة كان لإيراد الحكاية مغزى ومعنى،الغريب أن يكون المغزى الحنين إلى الصديق والشوق الدائم إلى رؤيته واللهفة إلى القرب منه والتعلّق به.

أورد "لوسيان" حكاية أفعى العطش بمقدمة طويلة عن جنوب الصحراء الليبية وعن أهلها - القرمنت - وعن حياتهم وعن الهوام التي تعيش في رمال الصحراء، ثمّ جاء بخبر الأفعى المرعبة. وقارن عذابها الفظيع بعذاب "تانتلوس" (وهو شخصية أسطورية يونانية أغضبت الآلهة بسرقة أسرارها فحكمت عليه بالظمأ السرمدي..يشرب ويشرب ولا يرتوي) وقدم خبراً عن قبر رجل ملدوغ بهذه الأفعى التي كانت تختبئ بجانب بيض النعام الذي يجمعه "القرمنت" مدفونة في الرمل..إلى آخر ما ذكر.

ولماذا أطيل عليك؟

فلنقرأ ما سجله "لوسيان الساموساتي" عن "الدبساد"..قال:

"جنوب ليبيا رمل عميق الغور وأرض هجير، صحراء في أغلبه، جدب تماماً، مستوي السطح، خالٍ من النبات الأخضر والعشب وأي شيء نامٍ ومن الماء ربما فيما عدا بركة راكدة خلفها المطر - بركة كدرة متعفنة لا تصلح حتى لرجل يقتله الظمأ أن يشرب منها.ولذا فإن تلك البلاد لا تسكن، إذ من ذا الذي يمكنه أن يحيا في أرض على هذه الوحشة والجدب والقحط جار عليها الجفاف الدائم؟ إن حرارة الشمس الموقدة ولهب الهواء الجهنمي المطبق وقيظ الرمال النارية لتجعل من تلك الأرض مكاناً لا يمكن بلوغه أبداً.

" القرمنت" وحدهم يعيشون بالقرب من تلك الأصقاع - جنس نحيل البدن رشيقه، يسكن الخيام ويحيا غالباً على الصيد.وقد يعبرون أحياناً ذلك الصقع في غارات للصيد عند الانقلاب الشتوي في الأعم، بعد انتظار المطر وحين تهبط الحرارة ويمكن الوطء على الرمال بشيء من العناء.وهم يصطادون الحمر الوحشية والنعام وعدداً كبيراً من القرود، وأحياناً بعض الفيلة، فإن هذه الحيوانات وحدها يمكنها أن تحتمل العطش وتطيق حدة لهب الشمس اللافح مدة طويلة.ومهما كان الأمر

فإن "القرمنت" لا يلبثون بمجرد أن ينفد ما جاءوا به معهم من مؤونة أن يقفلوا إلى وطنهم راجعين خشية أن يسخن الرمل من جديد ويصبح عبوره أمراً شديد العسر فيضيعون هم وغنائمهم كما لو أنهم وقعوا في شراك، فلا خلاص، بالتأكيد، لو أن الشمس جففت الرطوبة واشتدّت حرارتها، فسرعان ما تلهب الأرض، وتزداد أشعة الشمس حدّة إذا كان ثمة بلل، إذ إن البلل بالنسبة لها كالوقود بالنسبة للنار.

إن كلّ ما ذكرته فيما سبق، الحرارة، قلة الماء، الصحراء والجدب - سوف تبدو لك أقل وطأة مما سوف أصفه، وهو شيء يجعل المرء يبتعد كلّ البعد عن تلك الرقعة من الأرض. أصناف عديدة من الهوام هائلة الحجم لا تحصى عدداً، موحشة الشكل قاتلة السمّ تعيش هناك، بعضها يعيش مختفياً بباطن الأرض في حفر من الرمال والآخر يزحف على سطح الأرض - حناشٌ وصلالٌ وأفاعٍ قرناء ودبابير وحيات نطاطة وأفاعٍ ذات رأسين، وحيات صخر، ونوعان من العقارب إحداهما كبيرة متعددة المفاصل تزحف على الأرض والأخرى مجنحة تطير غشائية الجناح مثل الجراد، وزيز حصاد وخفافيش. ويجعل عدد تلك المخلوقات المجنحة الطيارة ذلك الجزء من ليبيا عسيراً بلوغه.

بيد أن أفظع الزواحف التي تلدها تلك الرمال جميعًا هي " الدبساد" وهي أفعي ليست كبيرة الحجم، تشبه الحية المسماة الشجاع، شديدة نهشتها، كثيف سمّها، تؤدي على الفور إلى عذاب دائم، إذ يمضي زعافها يحرق الضحية وينخرها ويشعل فيها النار فتظل تصرخ كأنها على موقد من الجمر. لكن ما يضني منها وينهك بوجه خاص ما يشير إليه اسم تلك الأفعى (إذْ إنَّ "الدباساد" تعني باللسان اليوناني: المعطشة) - فيقاسي ضحاياها عذاب العطش. والغريب في الأمر أنهم كلما ازدادوا شراباً زدات لهفتهم إلى الماء واشتدّ ظمؤهم أكثر من ذي قبل، ويصبح من المستحيل أن يروى غليل ذلك الظمأ. فلو أنك

أمددتهم بالنيل نفسه أو بنهر الدانوب كاملاً ليشربوه فلن تفعل شيئًا سوى زيادة الحريق بريِّكَ للداء - كما لوأنك تحاول إطفاء النار بصب مزيد من الزيت. ويقول النطاسيون: إن السبب في هذا يرجع إلى أن السمّ الكثيف يسهل سريانه عندما يضاف إليه الماء بالشراب ويصير أكثر سيولة بالطبع فينتشر على مساحة أكبر من الجسد.

إنني شخصيًّا لم أر إنساناً أصيب بما وصفت، وأرجو أن لا أرى أبداً بشراً يعذب بهذا السبيل.وقد سمعت عن نقش ذكر صديق لي أنه قرأه على شاهد قبر رجل قضى بهذه الطريقة. قال إنَ طريقه مرت، في سفر له من ليبيا إلى مصر، بخليج سرت العظمى وكانت الطريق الوحيدة له. وهناك على الشاطئ عند حافة الماء بالضبط وجد قبراً يعلوه حجر يكشف كيف مات صاحبه، وعلى الحجر نقشت صورة رجل يبدو مثل "تانتلوس" في التصاوير، واقفاً وسط بحيرة يغترف الماء ليشربه، كما هو واضح، وأفعى "الدبساد" ملتفة حول قدمه أشدّ ما يكون الالتفاف، وكان هناك عدد من النسوة يأتين بالماء ويصببنه فوق الرجل. وبالقرب منه بيضات من بيض النعام الذي ذكرت أن "القرمنت" كانوا يصطادونه. كان هناك أيضًا النقش الذي قد أضيفه:

> **هكذا، فيما أرى، كان عذاب تانتلوس أيضًا، لا يهدأ ظمأ السمّ المبرح ألماً أبداً، وكلما كانت الجرار التي لم تملأها بنات الدنائيد(*) مطلقًا وهنّ يجلبن الماء بعناء لا نهاية له.**

وكانت هناك أربعة أبيات أخرى عن البيض، وعن كيفية لدغ الرجل وهو يأخذه ولكنني "نسيتها".

إن القبائل المجاورة تجمع هذا البيض وتقدره تقديراً عالياً، ليس للأكل فحسب، فهم يستعملون قشوره أوعية ويتخذون منها أكوابًا (إذ لا

(*) بنات "دناوس" عوقبن على قتلهن أزواجهن ليلة عرسهن بملء جرار مثقوبة لن تمتلئ على الإطلاق.

يمكنهم عملها من الفخار نظراً لأن الأرض رملية) فإذا ما صادفتهم بيضة كبيرة قسموها إلى قسمين كل قسم منها من الكبر بحيث يصلح غطاء لرأس الرجل. وعند ذلك البيض كانت أفعى "الدبساد" تختفي مترصدة في صبر، فإن اقترب إنسان زحفت خارجة من الرمل ونهشت المسكين، ثمَ يأتي العذاب الذي ذكرته منذ قليل - شراب متصل وعطش متزايد دونما ارتواء.

إنني بالتأكيد لم أورد هذه التفاصيل لأنافس " نيكاندر" الشاعر، أو لكي أريك أنني لم أهمل التاريخ الطبيعي لزواحف ليبيا، فإن الأطباء سليقون قبولاً أكثر في هذا المجال، فهم قادرون على مقاومة هذا البلاء لمعرفتهم بهذه المسائل ولمهارتهم في هذا الباب. كلا.... فأنا أحسب أنني أشعر نحوك ـ وأرجوك باسم الصداقة ألا تستقبح المقارنة ـ كما يشعر من لدغتهم "الدبساد" نحو الشراب، إذ كلما تكرر ظهوري أمامك زاد شوقي إليك. عطش لا يروى يلهبني، وفي ظني أنني لن أرتوي أبداً بمثل هذا الشراب. كيف يمكن أن يكون الأمر إلا ذاك؟ أنى لي أن أجد ماء زلالاً سلسبيلاً؟ فاغفر لي إذن إن كانت روحي أيضاً لدغت هذه اللدغة الألذَ والباعثة العافية في كياني، فأغمس رأسي في الينبوع وأعب بملء فمي. كلَ ما أرجوه أن جداولك الدفّاقة لن تجفَ، وأن يدوم سيل حسن إصغائك الحاضر متدفقاً عليّ وأنا فاغر الفم ظمآن أبداً، فطالما ظل عطشي، عطشي لك، فما من شيء يوقف شرابي إلى أبد الآبدين. وكما قال "أفلاطون" الحكيم: "ليس ثمة مطلقاً ما يستكثر من الشيء الجميل".

(3) الغولة الحسناء:

كما أن في الحياة حسناوات جميلات هن في حقيقتهن "غولات" يأكلن كل من يقترب منهن، فقد صورت الحكاية الليبية القديمة غولة

حسناء رائعة الحسن. .أو هذا ـ على الأقل ـ ما جاء به " ديو البروسي " Dio of Prusa في مؤلفه (المحاضرات) Discourses المكون من عشرة مجلدات أورد في ثناياه هذه الحكاية.

حظيت هذه الحكاية باهتمام الباحثين والدارسين، واشتهرت في اللاتينية باسم fabula libyca (الخرافة الليبية) فكتب عنها مطولاً الألماني هـ. فون أرمن H.Von Armin في كتابه Leben und Werke der Dio Von prusa الصادر ببرلين سنة 1906 م، والفرنسي ل.فرانسوا L.François مع ترجمته النص إلى الفرنسية في مؤلفه عن " ديو"، باريس 1922 م. و باللاتينية كتب أ.سوني A.Sonny مع مقدمة عن تاريخ النص في 42 صفحة - لم أعثر عليه بعد للأسف - في كتابه:

Analecta Analecta ad Dinem chrysostonem Kiew ; 1896

وقد اشتجرت آراء الباحثين - كالعادة - حول هذه الخرافة .فبينما رأي البعض أنها قطعًا من مجموعة " كوبسيس " الليبية قال آخرون إنها واحدة من قصص كثيرة تروى عن "لاميا" (فإذا أراد القارئ أن يعرف من هي " لاميا" هذه فليعلم أنها في الأسطورة اليونانية كانت ابنة الإله بوسيدون بزواجه من الربة ليبيا ـ أو العكس !! ـ وقع زيوس - رب الأرباب - في غرامها فاستشاطت حرمه " هيرا " غضباً وقررت عقاب "لاميا" بأن جعلتها تزدرد أبناءها ـ وبذا تحولت" لاميا" التعيسة إلى آكلة أطفال مختبئة في كهف منعزل، تسرقهم وتبتعلهم.

وكانت النسوة اليونانيات يخفن أولادهن حين يسلكون سلوكًا مشيناً بآكلة الأطفال هذه: ستأتيك " لاميا " وتأكلك. تماما كما تفعل نساؤنا: (توه تجيك الغولة وتاكلك !!)

الأستاذ الألماني "هرزل" Herzil في مؤلفه "الحوار" Der Dialog يرى أن هذه الخرافة اختلقها "ديو" نفسه.

الألماني الآخر " فون آرمن" Von Armin ذهب إلى أن هذه الخرافة خصص لها "ديو" محاضرة قائمة بذاتها (هي المبحث الخامس) ولكنها لم تكن في الأصل كذلك - بل كانت خاتمة لحوار جرى بين "الاسكندر الأكبر" والفيلسوف "أديوجين الكلبي" أورده في (المبحث الرابع) وجاء أسقف مدينة " قيصرية" في "كبادوشيا" يدعى "أريتاس" Arethas أو "ديو الأريتاسي Doi of Arethas" في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي(وهو زمن متأخر نسبيًا) وجعل لها مقدمة أخلاقية من عنده وحولها إلى مبحث منفصل.

هل يودّ القارئ أن يحاط علماً بما دار بين "الإسكندر الأكبر" والفيلسوف الكلبي الساخر "أديوجين" (المبحث الرابع)

إني - والله - لأودّ نقل المبحث كله لجماله،لولا خشية الإطالة. فلنجتزئ بخلاصة وبفقرات منه تخص ما نحن فيه.

في المبحث الرابع المعنون "عن الملك" يقدم "ديو" الإسكندر الأكبر وهو يتحدث مع "أديوجين الكلبي" الذي يعرض مذهبه الساخر في عدد من المسائل أهمها معنى "الملكية" التي تعتمد على المؤهلات العقلية والشخصية وليس على القوة العسكرية. ثم يختم بتصوير روح الهوى وحب المتع والطموح التي تتحكم في حياة عامة الناس، ويتنبأ أديوجين للإسكندر قائلاً: " فإذا اطرحت أوهامك وما يشغل بالك الآن جانبًا كنت ملكًا فعلاً لا قولاً، وحكمت جميع النساء وكلّ الرجال أيضًا، كما فعل هرقل الذي تدعي أنك من ذريته " .

يردّ الإسكندر:

" النساء فعلاً ! أم تراني أفهم أنك تشير إلى الأمازونات؟"

(والأمازونات تعني: النسوة المقطوعات الأثداء.ولهن في كتاب "ديودروس الصقلي" حديث طويل خلاصته أنهن كن نسوة محاربات شديدات المراس خرجن من ليبيا واكتسحن العالم القديم من مصر حتى

آسيا الصغرى وجزر اليونان ولهن في التاريخ القديم شهرة عظيمة)(*).

يجيب أديوجين:

" كلا، إذ لم يكن من الصعب التغلب على الأمازونات. إنني أشير إلى نسوة من طراز آخر شديدات الوحشية والخطر ".

ويسأله:

"ألم تسمع بالخرافة الليبية؟"

يقول الإسكندر إنه لم يفعل. فيمضي أديوجين الكلبي يروي "الخرافة الليبية" للإسكندر بطريقة رائعة جذابة، كما يقول ديو، " رغبة منه في شرح صدره كما تفعل المربيات إذ يروين للصبي، بعد ضربه، حكاية تسرّي عنه وترضيه !!"

هكذا إذن أراد الفيلسوف الساخر أن يهدهد الملك الشاب بحكاية ترضيه، بعد أن وخزه بمختلف الكلم وأوجعه بضروب السخرية منه ومن أهوائه وطموحه الذي لا يحد - كما شاء "ديو" أن يصوّر الأمر - ثم تأتي الخرافةُ (المبحث الرابع) أو (المبحث الخامس) حسب اختلاف الباحثين، وليس هذا الاختلاف ذا بال، فإن ما يثبت أنها خرافة متداولة من " الخرافات الليبية" في القرنين الأول والثاني للميلاد أن " لوسيان الساموساتي " السابق ذكره والذي ولد عام وفاة "ديو" تقريباً (سنة 120 م) ذكر قصة مشابهة في كتابه Vera Historia مما يؤكّد انتشارها وذيوعها على كلّ حال.

***

لخرافة " الغولة الحسناء " مقدمة وعظية متحرجة هي التي جعلت بعض الدارسين يذهبون إلى أنها من وضع الأسقف "أرتياس" (في القرن العاشر الميلادي - قمة القرون المظلمة الأوربية .. تذكر !) بسبب من روحها الكنسية الإرشادية، فإن "ديو" - الكاتب الأصلي - لم يكن

(*) انظر للكاتب: "نصوص ليبية" و"قراءات ليبية" لمزيد من التفصيل.

مسيحيًا ولا متدينًا بالمعنى المفهوم، بل كان وثنيًّا من جملة الرواقيين.

يقول الكاتب في البداية - متحرجًا:

" أن يكشف المرء عن خرافة ليبية ويبدد جهده في هذا الموضوع عمل لا طائل من ورائه في الحقيقة. .فإن مثل هذه الموضوعات لا تجتذب القادرين إلى محاكاتها " .

ثمّ يتراجع قليلاً:

"ولكن يجب علينا، على كلّ حال، ألاّ نحجم نحن بسبب استخفافهم بمثل هذه المباحث " .

ويعلّل موقفه:

"إذ لعلّنا نستخلص منها قدرًا غير قليل من الفائدة لو أعطيت الخرافة، بطريقة ما، دورها الصحيح وصارت مثلاً للحقيقة والواقع .فإن المرء إذا استخدم قواه في سبيل هذه الغاية أوحى إليّ بمعالجة الفلاح لحياة النبات حين يحالفه التوفيق .فهو يبدّل أحيانًا سوق الأشجار العقيمة والبرية، عن طريق تلقيمها بأغصان مثمرة معتنى بها، وإنمائها، من نبت غير ذي نفع ولا فائدة إلى نبات نافع مفيد" .

ويضيف:

"والشيء نفسه يحدث حين تطعم أسطورة عديمة الجدوى بمغزى خلقي يهذب ويعلم، فتخلص الأسطورة من كونها مجرّد حكاية تافهة" .

الغرض إذن تعليمي تثقيفي تهذيبي كما هو واضح، ويمضي في تقديمه: "وأيضاً لعلّ من ألفوا هذه الحكايات نسجوها في المقام الأول لغرض ما مستخدمين التشبيه والمجاز ليكون لها تأثير التفسير السليم" .

كلام معقول، ويختم المقدمة:

" فلنكتف بهذا القدر من التقديم لقصيدتي - كما قال بعضهم(*)،

(*) الإشارة إلى تعبير أفلاطون في (القوانين ص722) حيث يقول : " كل ما سبق كان مقدمات لقصائدنا ، أو قوانيننا " .

ويبقى أن أتلو القصيدة ذاتها وأنشدها، أعني الخرافة التي تنبئنا بخير ما يمكننا أن نشبه به الأهواء البشرية".

وأخيراً.. يأتي حديث خرافة "الغولة الحسناء" ننقلها إلى القارئ كما هي ولندع له حرية استخلاص ما يشاء:

"كان ياما كان، هكذا تقول الحكاية، صنف من الحيوانات وحشي خطير مأواه الرئيسي في الأجزاء غير الآهلة من ليبيا، ذلك لأن تلك البلاد، وحتى أيامنا هذه، تنتج فيما يظهر كل ضروب المخلوقات من الحيات وغيرها على حدّ سواء، ومن بينها هذا الجنس الذي تتحدث عنه الحكاية، وكان حيواناً جسمه على وجه العموم عبارة عن تكوين من أطراف متباينة أشدّ التباين في أبشع صورة، وكان من عادته أن يطوف حتى يبلغ البحر المتوسط وخليج سرت بحثاً عن الطعام. وكان يصيد الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور، رغم أن هذه تصيد الغزلان وحمر الوحش والغنم، ولكن متعته القصوى كانت في اصطياد البشر. وهذا ما جعله يقترب من القرى حتى خليج سرت.

وخليج سرت هذا عبارة عن فجوة من البحر المتوسط تمتد عمقاً في اليابسة على مدى سفر ثلاثة أيام، كما يقولون، لفُلك لا يعوقه في رحلته شيء. بيد أن من أبحروا في هذا الخليج مرة وجدوا الخروج منه مستحيلاً، فإن ضخامته وتياراته وحواجزه الرملية الطويلة الممتدة إلى مدى بعيد تجعل عبور البحر شيئاً عسيراً غير ممكن. ذلك لأن بطن البحر في تلك المناطق غير نظيف، وقاعه رملي ذو مسام يأذن لماء البحر بالتسرب وبذا يكون ناعماً غير صلب ولا متماسك. وهذا، فيما أرى، يفسر وجود تلك الحواجز الرملية العظيمة والكثبان هناك، مما يذكر المرء بالوضع المشابه الموجود على اليابسة الذي خلقته الرياح، أما في البحر فقد نشأ بسبب أمواج الشاطئ، وأما البلاد المحيطة بالخليج فهي تكاد تكون الشيء ذاته ـ شريطاً موحشاً من كثبان الرمل. ومهما

يكن الأمر فإن حدث أن بحارة سفينة جانحة أتوا إلى اليابسة، أو أجبر بعض الليبيين أن يمروا هناك أو ضلّوا طريقهم، فإن تلك الحيوانات سوف تبرز لهم وتنالهم.

فلأصف لك شكل ومظهر تلك الحيوانات : الوجه وجه امرأة. . امرأة جميلة. الصدر والنهدان والعنق أيضاً على غاية من الجمال لا يمكن أن تبلغه عذراء أو عروس إنسية في ميعة الشباب، ولا يمكن لنحات أو رسام أن يأتي بشئ مثله. أما البشرة فبيضاء ناصعة البياض. ونظرات لحاظها قادرة على إثارة الهوى والشوق في نفس كل من رآها. غير أن بقية جسدها كان صلبًا قاسيًا تحميه حراشيف كحراشيف السمك، ونصفها الأسفل كله عبارة عن أفعى ينتهي برأس الأفعي ذي السمّ الزعاف. ولا تقول الحكاية ما إذا كانت هذه الحيوانات مجنحة مثل "السفنكس" ـ أم أنها تتكلم مثلها أو تصدر صوتًا ما فيما عدا صوت فحيح كفحيح التنين شديد الحدّة - ولكنها تقول إنها كانت أسرع مخلوقات الأرض، فلم يكن لأحد أن ينجو من قبضتها.

كانت هذه الكائنات تتغلب على الحيوانات الأخرى بالقوة، أما مع بني الإنسان فإنها تسلك سبيل الخداع، تبرز لهم صدورها ونهودها وتسحر ضحاياها في الوقت نفسه بتركيز نظراتها عليهم، فتملؤهم باللهفة والشوق للوصال. بعدها يقترب الرجال منها، في حين تقف ساكنة دون حراك، وقد أرخت أهدابها كما تفعل المرأة ذات الخفر. وما أن يقترب الرجل قربًا كافيًا حتى تنقض عليه بأيد كالمخالب كانت قد أخفتها وراءها من قبل. ثم تنهش الحية ضحيتها وتقتل الرجل بسمّها، وتبتلع جسده الميت ابتلاعاً.

هذه الخرافة لم تختلق من أجل الصبيان كي تحدّ من اندفاعهم وعصيانهم بل لمن كانوا أكبر طيشاً وأكثر تهورًا لعلهم - وقد سردناها في هذا السياق - يظهرون تحكمًا في عواطفهم فلا تفوق حدّ العقل ولا

تتحول إلى حيوانية تتغلب على البلهاء، عن طريق الغواية بقصد المتعة وتنتهي بهم بالإغراء والخديعة إلى أسوأ النهايات وأكثرها إيلامًا. ويجب علينا أن نضع هذه الأمور أبدا نصب أعيننا لكي تصدّنا، مثلما تردّ تلك الصور المرعبة الصبيان حين يبغون طعامًا أو لعبًا أو سواهما بطريقة غير منطقية، تصدنا كلما وقعنا في حبّ الترف أو المال أواللذة الحسية أو الشهرة أو أية متعة أخرى، حتى لا نقع في حبائلِ هذه الرغبات التي تبدو مأمونة عند اقترابنا منها فتدمّرنا تدميرًا كاملاً ونؤوب بالويلِ والثبور. والحقَ أن فهم مغزى الخرافة على هذا النحو لن يكون عسيراً بالنسبة لرجل أريب لعل لديه من الوقت مدة أطول مما ينبغي له.

ويضيفون إلى هذه الخرافة ما يلي : فقد حاول ملك من ملوك ليبيا أن يقضي على عقب هذه الكائنات، أسفاً لهلاك قومه. وقد ألفى أن كثيراً منها استقر به المقام هناك وامتلك حرجاً كثيفًا موحشًا فيما وراء خليج سرت. فحشد الملك جيشاً جراراً وبحث عن كهوفها حتى وجدها، إذ لم يكن من الصعب معرفتها بسبب الجرَّة التي كانت تتركها ذيولها الأفعوانية والرائحة النتنة الكريهة المنبعثة من الكهوف، فعمد إلى الإحاطة بها من كلّ جانب وأوقد النيران من حولها، وبعزلها عما يحيط بها هلكت مع صغارها.

أما الليبيون فقد فرّوا بأسرع ما استطاعوا من الإقليم، لا يرتاحون ليلاً ولا نهارًا حتى نزلوا – وقد حسبوا أنهم ابتعدوا بقدر كافٍ – للراحة قرب واد من الأودية. غير أن بعضًا من تلك المخلوقات كانت بعيدة تصطاد، وما أن علمت بدمار كهوفها حتى طاردت الجيش حتى الوداي، وقد وجدت فريقًا منه نائمًا والفريق الآخر منهكا من عناء الترحال، فقضت عليهم عن بكرة أبيهم. وبذا فإن إهلاك ذلك الجنس يومها لم يتم على يد الملك، وتقول الحكاية : إن هرقل، بعدئذ، وهو يطهر الأرض بأجمعها من الحيوانات المتوحشة والطغاة، جاء هذا المكان أيضاً

وأشعل فيه النار، وكانت تلك المخلوقات تفر من اللهب فيقتل هرقل ما كان يهاجمه منها بهراوته ويلاحق بسهامه ما كان يحاول الهرب.

قد تبدو هذه الخرافة مثلاً يبين أنه عندما يحاول أغلب البشر أن يطهروا الجزء غير المطروق من أرواحهم المكتظ بالحيوانات الوحشية عن طريق استئصال وإماتة فراخ الشهوات أملاً في الخلاص منها والنجاة، ولا يكملون هذا الواجب، فإنهم سرعان ما تنقلب عليهم وتهلكهم بقايا هذه الشهوات. لكن هرقل، ابن زيوس وألكميني، أدى المهمة حتى غايتها وصيّر قلبه طاهراً وطيبًا ولطيفًا. وهذا هو المقصود بتأنيسه، أعني أن يمدين الدنيا.

هل ترغبون إذن في أن أرضي الشباب منكم بأن أقدم جزءاً إضافيًّا إلى الخرافة؟ إنهم ليؤمنون بها إيمانًا كاملاً ويقتنعون بصحتها تمامًا حتى ليزعمون أن واحداً من هذه المخلوقات ظهر بعد ذلك لفريق من رسل الأغارقة كانوا في سبيلهم إلى "هيكل آمون" تحت حماية قوة من الفرسان والقواسين، رأوا ما بدا كأنه امرأة مضطجعة على كثيب من الرمل، وقد ارتدت فوق رأسها نطعًا، على عادة النسوة الليبيات، كاشفة صدرها ونهديها ملقية رأسها إلى الوراء. فافترضوا أنها إحدى بنات الهوى من قرية من القرى كانت في طريقها إلى مرافقتهم. وعليه، فإن شابين قويين اقترابا منها، مأخوذين بمظهرها، يسابق أحدهما الآخر، وما أن أمسكت تلك المخلوقة بأولهما حتى جذبته إلى حفرة في الرمل وابتلعته. أما آلاخر فقد مرق بجانبها ورأى ما حدث وصاح صياحًا عالياً ليهبَ رفاقه لمساعدته. بيد أن المخلوقة ألقت ببقية جسدها الثعباني على الفتى، وبعد أن قتلته اختفت وهي تفحَ. ويضيفون أن جثة الفتى وجدت متعفنة نتنة، وأن الليبيين الذين كانوا يرشدون القافلة لم يسمحوا لأي كان بلمس الجثة خشية أن يهلكوا أجمعين".

المراجع

1) Dio Chrysostom; Discourses (tr. J.W. Cohoon), Loeb Classical Library, vol. 1.

2) Diodorus Siculus; Historical Library (tr. C.H. Oldfather), Loeb, 1953.

3) J.W. Duff; A Literary History of Rome in the Silver Age, London, 1960.

4) Lucian of Samosata; Poetry and Prose (tr. A.M. Hermann), Loeb, 1928.

5) L. Collins & D. Lapierre; The Fifth Horseman, Granda Publishing Ltd. London 1981.

عن "الطبيب المداوي"

في الكتاب الثاني من تاريخه يقول هيرودوت :

"والمصريون أصح الناس أجساماً . بعد الليبيين" .

ويقول في "الكتاب الرابع" بالتحديد :

"والحق أنه ليس في المعروف لدينا من الشعوب من هو في مثل صحة الليبيين !"

هذه حقيقة يقرِّرها أبو التاريخ بجلاء تام بعد أن عاش مع مختلف شعوب عصره وعاين أحوالها ولاحظ بعينه الفاحصة الدقيقة أمورها العامة والخاصة وقد سجلها في مؤلفه الخالد. وهو إلى جانب إقامته المعروفة في مصر زار ليبيا أو جزءها الشرقي على الأقل، وكتب عن قبائلها وتكويناتها البشرية والطبيعية وعن الأحداث التاريخية الكبرى التي وقعت بها. وكانت ملاحظته عن صحة الليبيين التي لم يشهد لها مثيلاً مثار اهتمام كبير.

ما السبب يا ترى في هذه الصحة الوافرة والعافية التامة التي لم تعرف في غير الليبيين من الشعوب؟ ما السبب، والبلد في أغلبها لا تتمتع بخيرات بلاد أخرى قريبة وبعيدة؟

لم يكن هيرودوت وحده هو الذي لاحظ خلوَّ الليبيين من الأمراض فقد كتب غيره من الكتاب القدماء (من مثل "ديون" و"أثيناوس" وغيرهما) يشيدون بالرشاقة الفائقة التي كان يتمتع بها الليبيون، وبخفة الأجسام ونشاط الحركة والقدرة البدنية العجيبة لهؤلاء القوم، لم يكونوا مترهلين ذوي كروش منبعجة، ولا ضعافاً ذوي أجساد ذابلة هزيلة، بل كانوا وسطاً بين بين، رشاقة قدَ، وجفاف عضلات، وصحة

جسد تبعث على الإعجاب.

هل كانت قلة الطعام، وندرته أحيانًا، هي السبب؟ أم هي الشمس اللافحة تجفف الأجسام وتزيل منها الماء؟ أم الحركة الدائبة تنقلاً من مكان إلى مكان ونزوحًا من موقع إلى آخر؟ أم ثمة سرّ كامن في هذه الصحراء الغريبة؟

علم ذلك عند ربّي، ولكن الطبيعة هي هي لم تتغيّر. فلو كان للبيئة دخل فلماذا تبديل حال الصحة وحال الناس إذن؟

قد تكون عادات الطعام، ومحتوياته، وكميته، وطريقة تناوله هي الباعث على الصحة. أو لعلها منحة إلهية خاصة تعويضاً عن قسوة الطبيعة وشظف العيش، أو لعلَ القوم "صاموا فصحّوا" و"اخشوشنوا فعوفوا". الله وحده أعلم!

هيرودوت نفسه كان حائراً، وأورد حديثًا عما يمكن أن نسميه "الطب الوقائي" أو ضرب من "التطعيم" البدائي كان عادة عند الليبيين لعله-في ظنه - سبب صحتهم، قال ما نصه:

" إن من عادة الليبيين البدو الرعاة (ولا أستطيع بدقة أن أقول ما إذا كانت عادة الجميع) أن يأخذوا أولادهم عندما يبلغون الرابعة من العمر ويكووا عروق جلود رؤوسهم أو أحياناً عروق أصداغهم بدهن صوف الغنم حتى لا يصاب الأولاد بعد ذلك أبداً بالبلغم الذي ينزل من الرأس. وهم يقولون إن هذا يجعل أطفالهم أكثر صحة. "

عادة كي بعض مواقع في الرأس، وبخاصة الأصداغ، كانت شائعة عامة حتى وقت قريب جداً في المجتمع الليبي، ولعلّها كانت وسيلة العلاج الوحيدة لأمراض كثيرة وأمراض العيون بشكل خاصّ. وكانت تسمّي "الطبّاعة"، يُحمى مسمار يكبر أو يصغر حسب الطلب في النار ثم "يطبع" به الموقع المناسب من الرأس، فيحمل الموقع صديداً يعالج بالسمن أو الزيت حتى يشفى، ولكن أثره يبقي بزوال الشعر من مكانه

واستحالة نموّه بعد ذلك أبدا.

طريقة أخرى بالكي "البسيط" لأمراض العيون كانت مستخدمة أيضا، تسمي "التوسويس" - إذ يؤخذ عود صغير، من نبات الرتم غالباً، ويوضع في النار وتكوى (توسوس) به الأجفان المصابة بالرمد الحبيبي أو الربيعي أو حتى التراكوما.

وكان الكي - ولعله لا يزال - وسيلة علاج أمراض كثيرة، منها الخارجي كالدمَل ونحوه ومنها الباطني من أدواء المعدة والرئة (البوجنب) مما لا يحصى عدداً. وفي المثل الليبي السائر: "النار يا موسى دواء" - دعوة إلى الكي في كلّ شيء.

الليبيون القدماء - حسب هيرودوت - كانوا يستعملون دهن صوف الغنم (نعرفه باسم: الكعال) للكي ولم يكونوا يستخدمون المسامير أو المياسم، والغاية "منع نزول البلغم من الرأس" - الذي هو محلّ العلل الرئيسية، أو الرئيسة حسب المتحذلقين من اللغويين! - ويعلّق أبو التاريخ:

"ولست أستطيع القول بدقّة ما إذا كانت صحة الليبيين بسبب من هذه العادة. . لكنهم أصح الناس بالتأكيد".

كانت هذه عادة الليبيين القديمة في الكي، ولكن الأطفال يتألمون ويتوجعون..

فما الحلّ؟ قال هيرودوت:

"وقد وجد الليبَيون علاجاً لتوجع الأولاد من ألم الكيّ وهو أن يطّببوهم بترطيبهم ببول الماعز، وهذا ما يقوله الليبيون أنفسهم".

لم يكن البدو الليبيون الرعاة يملكون الكثير من السمن أو شيئاً من زيت الزيتون، فيما يبدو، لتخفيف الألم (هم بالطبع لم يكونوا ليعرفوا الترومايسين ولا المضادات الحيوية!) فلجأوا إلى "بول الماعز" مسكنًا ومخففًا للألم. "وهذا ما يقوله الليبيون أنفسهم". هل في

بول الماعز خواص طبية؟ هل فيه مواد قاتلة للجراثيم؟ هل يحتوي على مضادات حيوية؟

قد يكون الأمر كذلك، ومن يقرأ كتب الطبّ الشعبي - الذي اشتّدت الدعوة إليه هذه الأيام في العالم أجمع - يجد عجباً، ولماذا نبتعد؟ ألا تستخلص الآن في معامل الأدوية الحديثة أكبر الأمصال فائدة من دم الخيول والخنازير وأدمغة الضفادع وأمعاء مختلف الحيوانات البري منها والمدجن؟ أليست الطحالب المقززة مصدراً لعديد من الأدوية العجيبة، بل مصدراً للبروتينات التي لا يستغني عنها بشر؟ إنها لتقدم -في اليابان المتطورة جداً- باعتبارها "أشهى" طبق وأنفعه. فما المانع من أن" يكتشف " الليبيون القدماء خواص طبية رائعة في "بول الماعز" ويتخذوه علاجاً؟!

فلندع أبا التاريخ ونلتفت إلى غيره من الكتاب الأقدمين، نجدهم يزودوننا بمادة جيدة عن الطب الليبي القديم وعن أساليب العلاج من مختلف العلل، بعضهم يذكرها دون شرح ولا تحليل والآخر يطنب فيها ويسهب. ومن أعجب الأحاديث عن ليبيا القديمة ما اشتهرت به إحدى قبائلها من صلتها بمعالجة سمَ الأفاعي والحيات الرقطاء، أعني قبيلة "البسولي" وكانت تقطن واحات جالو وأوجلة ثم تلاشت مع الزمن حين غلبتها على هذه الواحات قبيلة "النسامون" وذابت جنوب الواحات وشرقها. . وكان هذا قبيل القرن الخامس ق.م.

اشتهر أفراد قبيلة "البسولي" بشيءغريب وهو أن لدغ العقارب ونهش الحيات لم يكن ليؤثر فيهم أبداً. ذكر هذا عدد كبير ممن اهتموا بالتاريخ الطبيعي في ليبيا وبتاريخ قبائلها وسكانها، وكانت "البسولي" تلاعب الثعابين بمختلف أنواعها وأصنافها وتلعب بها دون خوف من سمها الزعاف - كما يلاعب فقراء الهنود حية " الكوبرا " في عصرنا هذا دون وجل. ويقول "أوريك بيتس" في كتاب (الليبيون

الشرقيون) إنّ هذا الأمر ظلّ سارياً في مصر وفي الطائفة الرفاعية (أتباع أحمد الرفاعي) المعروفة بأنها لا تخشى الثعابين، كما يرى أن الثعبان كان في الأصل طوطماً تعبده قبيلة " البسولي " الليبية فكانت علاقتها به ما هو مشهور معروف.

حسن. إن بيتس لا يقدم تعليلاً علميًا للصلة الوثقى بين " البسولي" والحيات، فكون الحية طوطماً معبوداً لا يحيلها إلى مخلوق ساكن وديع لمجرّد أنه معبود القبيلة. . فهي بالطبع لم تكن لتعرف هذا الأمر ! لكن سواه من الكتاب القدماء حاول أن يفسر ويعلّل. الجغرافي "سترابو" (القرن الأول ق.م) يرى أن الصلة بين "البسولي" والثعابين كانت عبارة عن صلة تنافر Antipathy أي أن الثعابين كانت " تنفر" من لمس أفراد هذه القبيلة، وبالتالي لا تنهشهم بل تفرّ منهم وعنهم تبتعد، لسبب غير معروف لعلّه كامن في مادة تفرزها أجسادهم حين يرونها (وهذا ممكن، فنحن نعرف مثلاً أن الكلاب تعرف خوف الإنسان منها بإفراز جسده مادة معينة عند شعوره بالخوف فتهاجمه. أما من لا يخاف فلا تهاجمه الكلاب. . ببساطة لأن جسده لم يفرز تلك المادة) غير أن هذا التعليل غير كافٍ، لتخصيص فريق من البشر دون سواهم ممّا لا يتصور، ويضيف "سترابو" لتأكيد وجود هذا "التنافر" مقارنة بشعب يدعوه "التنتوريتاي" يقول إن هذا "التنافر" موجود بينه وبين التماسيح المخيفة، فلا يخشونها : "بل إنهم ليغطسون في النهر دون خوف ويعبرون فوق التماسيح، رغم أن أحداً غيرهم لا يجرؤ على هذا الفعل".

أما الكاتب اللاتيني "بليني الأكبر" (القرن الأول بعد الميلاد) فقد أورد في كتابه "التاريخ الطبيعي" خبر هذه القبيلة الليبية وثعابينها وأضاف قوله إن أهلها يعرضون الوليد بمجرد أن يوضع إلى عضة ثعبان "فإن عاش كان هذا دليلا على أنه منهم وإليهم".

وهذا الخبر يذكرنا بما كان يفعله أهل "أسبرطة" في بلاد اليونان، كانوا يضعون الوليد على قمة الجبل الباردة ليلة كاملة دون وقاء، فإن عاش نشأ قويًا متين البنيان يصلح لحياة "أسبرطة" العسكرية الخشنة، وإن مات تخلّص القوم من فرد عليل يكون عبئًا ثقيلاً، نوع من "الانتقاء الطبيعي" و"البقاء للأصلح". أليس كذلك؟

الليبيون القدماء - وبحسب ظروف البيئة المحيطة - عرضوا أولادهم لنهشة الثعبان (وليس بالضرورة أن يكون ثعبانًا كبيرًا. بل مجرّد "فرخ" صغير) لكثرة الثعابين والأفاعي والحيات في الصحراء، مما يوازي برد جبال "أسبرطة" وقرّها. فإن مات خلصت القبيلة من الفرد الضعيف الذي عجز عن مقاومة "نهيشة" صغيرة من ثعبان صغير. وإن حيي؟ إن حيي اكتسب بالطبع مناعة من سمها في مستقبل الأيام. وهذا ضرب من "المصل الواقي" والتطعيم عرفناه حديثًا جدًا ونعترف به ونستعمله. (الجدري يطعم بجراثيم الجدري، وكذلك شلل الأطفال والسعال الديكي وغيرهما من علل الفيروسات المختلفة. آخر التطوّرات في هذا المجال ما أعلنته منظمة الصحة العالمية عن مصل مضاد للفيروس المسبب لسرطان الكبد وقد بدأ إنتاجه وتوزيعه واستعماله. ضد أخطر داء عرفته البشرية).

هل عرف الليبيون الأقدمون "المصل الواقي" منذ ذلك الزمن البعيد؟ هل أدركوا - بالتجربة - أن يتبعوا قول أبي نواس "وداوني بالتي كانت هي الداء"؟!

في طفولتنا وصبانا كنا نعرف شيئًا في مجتمعنا الليبي يسمّى "التلحيس" وكانت العادة أن تؤخذ عقيرب من فراخ العقارب، وتحرق بسمها لا يزال في (شوكتها) ثم تسحق وتخلط مع الزيت والسكر أوالعسل، ثم "تلحّس" للصبي. ويقال إن من "لُحِّسَ" بهذا الشكل لا تؤثر فيه لدغات العقارب، وهذا لا شك تقليد لعله موروث عن قبيلة

"البسولي" القديمة مع شيء من التطوير والتحسين.

يضيف الكتاب أيضاً أن "البسولي" كانوا معروفين كذلك بأنهم قادرون على إبراء الملدوغ وعلاج المنهوش سواهم من الناس. وقد طبقت شهرتهم الآفاق، وتروى حادثة مشهورة عن ملكة مصر الجميلة جداً "كليوباترة" حين علمت بموت حبيبها "أنطونيو" فعمدت إلى أفعى من أفاعي "الكوبرا" ومكنتها من نفسها. قالوا: حين وصل "أكتافيو" غريم "أنطونيو" رام إنقاذها فأرسل على عجل يدعو أحد أفراد قبيلة "البسولي" الليبية لينقذ حياة "كليوباترة" الجميلة.. لكن الأوان كان قد فات و "سبق السيف العذل" والسمّ تمكن من الجسد البديع، ولم تكن الملكة - بالطبع - عرضت لعضة ثعبان من قبل ولم تطعم أو تمصّل.. فماتت مأسوفًا على شبابها ولم يُجْدِ تطبيب "البسولي" نفعاً.. وا أسفاه!!

هذا ما كان من أمر قبيلة "البسولي" والثعابين. فماذا كانت تفعل القبائل الأخرى، غير المحصّنة، حين تلدغ أو تعضّ أو تنهش بناب حية زرقاء أو أفعى قرناء أو رقطاء؟

يتكفل بخبر العلاج الشافي والترياق الوافي الفيلسوف الأشهر "أرسطو" في كتابه "تاريخ الحيوان" *Historia Animalium* وأخذ عنه كتاب آخرون. قالوا إنه كان يوجد ضرب من الحجارة بالقرب من واحة سيوة (ويعبرون أحيانًا عن المنطقة باسم "قبر باتوس" يعنون الإقليم الشرقي من ليبيا) وكان من خواص هذا الحجر أن ينجي الملدوغ وينقذه. والطريقة؟ ينقع الحجر في الماء حتى يذوب ويتحلّل، ثم يشرب النقيع فيكون ترياقاً للسمّ الزعاف.

فإن كان ما ذكر صدقاً فإن معناه أن الحجر لم يكن صلبًا جلموداً، بل لعله مادة متكلسة، أو ضرب من الطين الصلب، يتحلّل ويذوب في الماء ليشرب محلوله ـ تماماً كما تذاب أقراص "الأسبرين" (وهي تبدو

في الواقع مجرد حصا رحوي الشكل لو عجنت لكانت كتلة من الحجر الكلسي أو الجيري لا تختلف عن " حجر باتوس " شكلاً ولا محتوى تعالج عدداً كبيراً من العلل وتسكن الوجع وتهدئ الآلام).

هل أحصيت استعمالات " الأسبرين " في حياتنا اليومية؟

هل رأيت فائدته ونفعه؟ فهل كان " حجر باتوس " يا ترى ضرباً من المركبات الكيمياوية الطبيعية كأشياء كثيرة في الحياة والطبيعة، يسّر لهؤلاء الضاربين في رمال الصحراء، فاكتشفوا بالخبرة فوائده في مدافعة سمّ الأفاعي والحيات؟ هل كان "حجر باتوس" هو "أسبرين الليبيين ومضادهم الحيوي الناجع؟. . الله وحده أعلم!

في "الجبل الأخضر" كان ينمو نبات لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أشهر نبت في العالم القديم على الإطلاق، بلغت شهرته حدّ أن جاء ذكره مراراً وتكراراً في روايات المسرحيين الإغريق من مثل " أرستوفان " في مسرحيته (الطيور) والروماني "بلاوتوس" في مسرحيته (رودنس) والشاعر "كاتولوس"، وكتب عنه الحكماء "ثيوفراستوس" و"ديوسكيريدس" والجغرافيون مثل "بليني الأكبر" والمؤرخ "ديودروس" حتى بلغ "ابن سينا" فكتب عنه في "القانون" و"ابن البيطار" في مؤلفه (الجامع لمفردات الأدوية والأغدية) وسُكّتْ صورته على نقود "قورينا" وصوِّر على الفخاريات، وكان الدرهم من وزنه بألف دينار ذهبًا. ذلك هو نبات "السلفيوم".

كان " السلفيوم " - كما أجمع الكتاب - ينمو في جزء ليبيا الشرقي، وكان علاجاً لأربعين داء. . وأكثر قليلاً. فهو عند "جالينوس" يعالج نشاف الرأس ويبعث الحرارة في الجسد. ويقول "ديوس كيريدس" إنه يثير الرطوبة على الجسم وأوصى به في حالات الصلع العام وأمراض العيون ووجع الأسنان وعضة الكلب والجروح والنزلة الشعبية، وعند "بليني الأكبر" أنه مفيد لمرضى البرداء، وإخراج الجنين الميت، وعلاج

جيد لالتهاب القصبة الهوائية ورشح الدم، وتعالج به الكدمات ممزوجا مع الخمرة والزيت، ومع الشمع تعالج به أورام داء الخنازير، ويُسقطُ البواسير إذا بخّر به عدَة مَرات. وعصيره مفيد في أمراض الأعصاب، وعند النساء هو مثير للطمث إذا تصوّفن به، وبه تزال ثآليل القدم، وقطعة منه بحجم حبَة الحمص مخففة تدر البول، كما تساعد المسنين على سهولة الهضم. ويضيف "بليني" أن منقوعة يبطل مفعول سموم الأسلحة والأفاعي (قارن هنا علاج قبيلة البسولي للمنهوش)، وهو يقضي على الدمامل، ويشفي من مرض الجمرة، ومن الدوالي ومن داء الحكاك (أو الجرب) وتشققات القدم والأصابع وتورمها، وبه تعالج الجسأة الجلدية (الصدفية). . كما يستعمل للكحة وأمراض اللهاة والصفراء المزمنة والاستقساء والبحة، ويعطى لمرضى ذات الجنب (البرونكايت) وتقلص العضلات، ومرض الكزاز (التيتانوس) - كذلك ينفع "السلفيوم" في حالة التهاب اللوزتين ولنشيج الصدر (الربو) وآلام السوداء الدرنية (السلّ) والصرع وشلل اللسان - ويستعمل مغليّه مروخًا لعرق النسا وروماتزم القطن (اللمباغو).

كلّ هذه الأدواء يعالجها "السلفيوم" بتركيبات مختلفة ومع مواد متباينة كالعسل والزيت وغيرهما، مغليًا أو منقوعًا أو مذابًا أو معجونًا، أوراقه وساقه وجذوره كما يورد "بليني".

العرب عرفوا خبر "السلفيوم" الليبي (يسمّونه القوريني - نسبة إلى قورينا في الجبل الأخضر) بأسماء مختلفة منها : "أنجدان" - وهذه تعريب لكلمة "أنجتانا" Angitana اللاتينية (اسم آخر للسلفيوم)، وكذلك : ماغيطارس - وهذه تعريب لكلمة ماغيدارس Magidaris اللاتينية أيضاً. وعرفوه باسم "الحلتيت" (نحن نسميه :الحلتيتة). وكان الحلتيت صنفين : منه الميدي - ينمو في بلاد فارس، ومنه القوريني (كان ينمو في ليبيا).

هل الحلتيت هو السلفيوم فعلاً.

إننا نعرف استعمالات الحلتيت في الطب الشعبي لكن الباحثين لم يتفقوا على أن هذا هو ذاك (*). وقال الكتاب الأقدمون إن "السلفيوم" انقرض فجأة، بسبب عوامل طبيعية، أو لأنّ أهل البلاد اقتلعوه تماماً وقضوا عليه نكاية في سلطات الاحتلال الرومانية التي كانت تجمعه منهم وتأخذه غصباً قهراً. فقرر الليبيون: "عليّ وعلى أعدائي يا ربَ!" وسحقوا النبات العجيب سحقاً وانقرض تمامًا.

لكنني سمعت، ولم أتأكدَ من الخبر بنفسي، أنه لا يزال يوجد في الجبل الأخضر نبات يسميه البدو "الدرياس" له خواص "السلفيوم" ومظاهره حين يؤكل. هل يكون "الدرياس" هذا هو "الماغيدارس" محرفًا اسمه؟. . جائز، ولعل ثمَة من يهتم بالأمر ويتتبعه. . بإذن الله!

أعود بك إلى علماء العرب وحديثهم عن "السلفيوم الليبي" فقد توسع في ذكره الطبيب أبو بكر الرازي في كتابه (الحاوي) وهو يثني على السلفيوم القوريني لطيب رائحته ومنافعه الكثيرة. أما الرئيس ابن سينا فيذكر أنه يعالج به (ولتتهيأ للقائمة الطويلة):

ريح البطن، تخثر الدم في الجوف، الصلع، الثآليل، الأورام، والبثور والجراح والقروح، آلام المفاصل والأعصاب والفالج والأضراس المتآكلة، الصرع، ويزيل العلق من الحلق، ماء العين، السعال المزمن، ورم اللهاة، واليرقان والبواسير. ويستعمل كمهضم عند الإمساك وقابض عند الإسهال - كما أنه عظيم النفع من حمّى الربيع والسموم - وخاصة الرتيلاء والعقرب - وعضة الكلب والسهام المسمومة، شرباً وطلاء بالزيت.

أما على بن العباس المجوسي في كتابه (الملكي) فقد أشار إلى فائدته

(*) يعرف ابن سينا الحلتيت بأنه " صمغ الأنجدان " أي " عصير السلفيوم " وبذا يكون الحلتيت هو " الصمغ " السلفيومي وليس السلفيوم ذاته.

في حالة مرض القولنج (التهاب المخاط الغشائي للمعى الغليظ) وفي طلب الإسهال وإسقاط الأجنة الميتة.

قائمة طويلة أخرى قدّمها ابن البيطار في مؤلفة (الجامع. .) لا أريد أن أطيل على القارئ بها - أكثر مما فعلت - فليرجع إن شاء المتابعة إلى كتاب (نصوص ليبية) للكاتب ففيه تفصيل كبير من حديث "السلفيوم" وخبره العجيب.

كان الليبيون القدماء محظوظين إذن حين رزقوا بهذا النبات الرائع الذي يقول عنه "بليني" إنه "أثمن نعم الطبيعة". وكيف لا يكونون "أصح الناس أجساماً" إذن - كما قال هيرودوت- ولديهم هذا الترياق السحري المدهش؟ قل لي. . كيف؟

وقد يحقِ للقارئ أن يسأل : ماذا عن "الطبيب المداوي" في ليبيا العتيقة وقد أحطنا بطرف من أخبار الدواء؟

ولن نبخل عليه بشيء مما تفضّل به علينا الشاعر اللاتيني "إيتالكوس" وتركه لنا مسجلاً في ملحمته الكبرى "البونيقة" punica من أنباء "الطبيب الليبي القديم".

كان القائد العظيم "هانيبال" يقاتل الرومان في معركة "بحيرة ترامسين" الرهيبة، وكان أخوه "ماغو" يقاتل بجانبه، وقد تمكن "ماغو" من أن يصرع القائد الروماني "أبيوس" الذي رماه، قبل أن يسقط متخبطاً في دمائه، برمح أصابه بجرح عميق. وهنا أسرع "هانيبال" يدعو لأخيه - كما يقول الشاعر : "مهارة الطبيب الشافي وعون سنهالوس القديم".

و"سنهالوس" هذا اسم متوراث أبًا عن جد. وقد تعلّم سنهالوس الأول في العصور الخوالي من أبيه، أي من " آمون "ذاته معبود الليبيين الأشهر في سيوة، كيف يعالج ويشفي من عضتهم الوحوش الضواري أو جرحوا في المعركة جرحاً بليغاً - والكلام لا يزال للشاعر

إيتالكوس- وحين احتضر كشف المنحة الإلهية لابنه وهذا أورث ابنه حذق أبيه ليجعله وريثًا مجيداً.

هذا هو "سنهالوس الأول" أخذ المنحة الإلهية عن "آمون" وعرف كيف يعالج ويداوي. ثمَ سار الأمر في عقبه، جيلاً بعد جيل، حتى يوم معركة "ترامسين" حين دعا "هانيبال" حفيده "سنهالوس" ليعالج جرح أخيه " ماغو".

قال الشاعر :

"كان سنهالوس قد بذ الجميع في دهن الجراح بعصارات العقاقير. كان في مكنته أن يسحب الرمح من الجسد بالرَقى وأن ينيم الثعابين بالتمسيد. ومن هنا كانت شهرته العظيمة في مدن ليبيا وشواطئ سرت. . جاء سنهالوس هذا بالتتابع (عن جدَه الأكبر) وهو ليس أقل شهرة من أسلافه. وبفضل حكمته ودرسه أضاف إلى علم آمون، وله أن يشير إلى سلفه رفيق آمون القديم كلما مرّ بأحد تماثيله النصفية ".

ونحن نستطيع أن نستخلص من هذا النص أشياء مفيدة، إذ يبدو أن طبيبنا الليبي القديم كان جراحًا ماهراً، يسحب الرمح من الجسد، بعملية جراحية يستخدم فيها الرَقى (هل ذلك نوع من التخدير الكامل قبل اكتشاف البنج؟ إن تجارب أجريت حديثاً على التخدير عن طريق التنويم المغناطيسي، وقد نجح بعضها نجاحاً باهراً جعل بعض الأطباء يدعون إلى اتباعها خاصة بالنسبة لمن يعانون أمراضًا لا يحتملون معها التخدير بالبنج). وهو بذ الجميع في دهن الجراح بعصارات من العقاقير المختلفة (هل ذلك ضرب من التخدير الموضعي؟ هل تلك العصارات مستخلصات خاصة بمداواة الجراح تشبه المراهم الحديثة؟) ثم هو يستطيع تنويم الثعابين بالتمسيد (موروثة من موروثات قبيلة "البسولي" السابقة الذكر؟ أم قدرة تنويمية اكتسبها بفضل حكمته ودرسه الدؤوب حتى أضاف إلى علم آمون ذاته؟).

كان الطبيب الليبي القديم مبجلاً تبجيلا وافراً، كما نفهم من "البونيقة"، كانت تماثيل "سنهالوس الأول" النصفية تنصب هنا وهناك تقديراً للنطاسي البارع وتخليداً لذكراه، وهذا مايجعل من مهنة الطبّ شيئًا محترمًا له قيمته ومكانته.

أما "سنهالوس الحفيد" فقد جاء حين دعاه "هانيبال" بالعلاج" الذي كان يستعمله أسلافه " وهو يرتدي ثيابًا خاصة كما يقول الشاعر إيتالكوس : "كانت ثيابه مشدودة شدًا محكمًا حول حقويه - كما هي عادة النطاسيين". وكأي طبيب حاذق مدرّب " بسرعة نظف الجرح من الدم ورطبه بالغسل ". ثم استخرج الرمح من جسد " ماغو" ووضع عليه العصارات والعقاقير المناسبة، ولنا أن نتخيل بقية ما يقوم به الطبيب الماهر في مثل هذه الحالة - رغم أن "إيتالكوس" لم ينص عليه: ضمّد الجرح، وقدم للمقاتل الجريح كأسًا ممزوجة بـ"السلفيوم" العجيب. ولعله سقاه أيضاً نقيع " حجر باتوس" خوفًا من التسمّم ومن باب الحيطة على الأقل. . ثم تركه ينام في خيمته بعيداً عن ميدان المعركة "الحامية الوطيس " سعيداً بانتصاره على خصمه في انتظار خبر انتصار "هانيبال" على الرومان!

***

وبعد أيها القارئ العزيز. . فهل لا تزال "تنشدني عن الصحة" في ليبيا القديمة.

"الله يخليك" . . .

كانت على غاية ما يرام. . حفظك الله!!

من "البجع الفنان" إلى "النسر الجريح"
نظرة عابرة إلى الفنون في ليبيا القديمة

يروي الفيلسوف اليوناني الأشهر أرسطو في كتابه "حياة الحيوان" Historia Animalium حديثاً طريفاً عن الحيوانات التي اشتهرت بها ليبيا القديمة. وهو يتحدث عن ضرب من البجع يقول عنه إنه كان بالغ الجمال شديد القوة، وقد بلغ من قوته أن أسرابه كانت تقاوم الثيران وتقهرها رغم ضخامة الثيران وجبروتها.

قال أرسطو : وقد اشتهر عن هذا البجع أمر عجيب، ذلك أنه ما يكاد يشعر بدنو أجله - وكأن هناك حاسة غريزية جماعية فيه - حتّى يسرع في الغناء، يرسل لحناً جنائزيًّا حزيناً يؤثر في النفوس ويهزّها هزًّا، ويظلّ يحلّق وهو يغنّي ويغنّي حتى يبلغ البحر. فإذا بلغه ألقى بنفسه فيه دفعة واحدة. . انتحاراً جماعيًّا على صوت اللحن الشجي والغناء الذي يقطع نياط القلوب!

ويضيف أرسطو مؤكداً : "وقد شهد بعض البحارة هذا البجع على الشاطئ الليبي وهو يغني ثم يسقط في البحر ميّتاً!".

هذه الصورة عن "البجع الليبي الفنان" توحي لنا بأشياء كثيرة عن الفن في ليبيا القديمة، عن الموسيقى والغناء والمسرح والرقص وما يتبعها أو يتّصل بها من ضروب الفنون المختلفة. لقد اشتهرت ليبيا قديماً في عالم الفنون شهرة أثبتها المؤرخون والرحالون والجغرافيون وكبار الأدباء والكتّاب من اليونان خاصّة، وهم الذين كانت تربطهم بهذا البلد علاقات تاريخية تجارية وثقافية وعلمية وفلسفية وأدبية كثيرة قديمة للغاية. وكانت ليبيا تمثل جزءاً مهمًّا جدًّا من مواقع

أحداث أساطيرهم وأشعارهم وملاحمهم المعروفة يعرفها دارس الميثولوجيا اليونانية ويدرك أبعادها.

فإذا نظرنا إلى هوميروس - مثلاً - وجدنا عدداً وافراً من مغامرات بطلي ملحمتيه المعروفتين "الأوديسة" و"الإلياذة" أعني أوديسيوس وياسون-تجري في ليبيا أو على الشواطئ الليبية.

كانت المغنيات (السرينيد Serenedes) مثلاً يتعرضن لأوديسيوس يحاولن أن يغرينه بحلاوة صوتهنّ غير بعيد من الساحل الليبي - ربما عند صخرة جزيرة فروة قرب زوارة الآن - حتّى يضطر أوديسيوس إلى أن يسدّ آذان بحارته بالشمع ويربطه هؤلاء إلى سارية سفينته التي تمخر البحر، ويكاد يجن وهو يسمع تلك الأصوات الحلوة الرائعة تغويه وتغريه باللحن والغناء.

بحارة أوديسيوس أنفسهم هم الذين طعموا من شجرة اللوتس الليبية المشهورة فراحوا يغنون منتشين حتى قال بطل الملحمة في اللوتس:

"من ذاق مرة ذلك الطعم الشهيّ سلا وطنه ورغب عن الإياب إليه أبداً ولن يعرف صحبه مصيره"

وأوحت هذه الأسطورة بقصيدة لشاعر الإنجليز "تنيسون" فقال في قصيدته "أكلة اللوتس" The Lotus Eaters:

"حملوا أغصان تلك الشجرة المسحورة
وتبادلوا مثقلة بالزهر والثمار
فمن تناول منها وتذوقها حمله التيار إلى بعيد بعيد
يظلّ ينتحب ويهذي على السواحل الغريبة
وإذا تكلّم رفيقه جاء صوته خافتاً كأنه صادر من رمس
.. ودقات قلبه ترسل في أذنيه أنفاساً شجية"

هذا اللوتس الليبي نفسه كان ذا شهرة ذائعة، ليس فقط باعتباره

نباتًا عجيبًا له خصائص مخدرة - قد يكون هو الخشخاش وقد يكون ضرباً من السدر أو النبق - ولكن لكونه تصنع منه أدوات موسيقية أشهرها "الناي" (نسميه نحن : الفحيل. ويسمى في مصر "الأرغول" - وهي كلمة قريبة من " الأرغن" الأعجمية التي تعرف أيضًا باسم الأرغ اختصاراً).

وقد اشتهرت النايات المصنوعة من شجر اللوتس الليبي باعتبارها أفخر نايات العالم القديم. ويذكر الجغرافي اللاتيني بليني الأكبر في كتابه التاريخ الطبيعي Natural History من جملة مزايا اللوتس أنه يتخذ من أغصانه النايات المطربة العجيبة. ويؤيد بليني هذا القول للمؤرخ أثيناوس في مؤلفه " مائدة الفلاسفة" Deipnosophistae الذي يقول " إن أهل الإسكندرية يتخذون نايات مصنوعة من اللوتس وهو شجر ينمو في ليبيا " ليس هذا فحسب بل لقد بلغت شهرة هذا الناي حدّ أن الشعراء في مقطوعاتهم - كما يقول أثيناوس - كانوا يطلقون صفة "الليبي" على الناي فيعرف المقصود وهو الناي القادم من ليبيا. فأغنت الصفة عن الموصوف.

ويتحدث أثيناوس بإفاضة في هذا الموضوع فيذكر أن رجلاً ليبيًّا هو سيرتيس Seirites - كما يسميه - كان "أول من اكتشف فنَّ العزف على الناي"وكان "أول من أقام الشعائر الدينية لأم الأرباب كوبيلي Cybele بمصاحبة الناي".

وهذا الحكم الذي قرَّره أثيناوس مهم للغاية، إذ يربط بين العزف على الآلة الموسيقية (الناي) وعبادة " كوبيلي " أم الأرباب في الميثولوجيا اليونانية، ومعنى هذا أنها كانت معبودة ليبية الأصل. ونحن نعرف دور الموسيقى - قديمًا وحديثًا - في الطقوس الدينية والعبادة.

"تنيسون" مرة أخرى - التقط الفكرة وكتب قصيدة طويلة حلوة عن

الهيسبيريديس Hesperides سيدات الغرب Ladys of the West- يخاطب فيها "هسبير" فيقول :

" هسبير .. يا هسبير
ارع التفاح الذهبي
في غابات الهسبريدس
واعزف على المزامير
قُدَّت من شجر ليبي
أزهى أشجار اللوتس"

والهسبيريديس (سيدات الغرب) كنّ حارسات "التفاح الذهبي" الموضوع في جنائز الليثي Lethe قرب بنغازي الآن حسب التصور الأسطوري اليوناني - يغنين للأفعوان لادن Ladon الذي كان يحب أن يظل يقظاً باستمرار حتى لا يسرق التفاح الذهبي، إلى أن جاء " هرقل " وأخذه من جملة أعماله الاثني عشر.

كانت الهسبيريديس مغنيات، كما كانت السرينيد أيضًا. وهذا يعني أن الغناء كان مرتبطاً في الأذهان بليبيا والليبيات، أو بتعبير أدق : ببطلات الأسطورة القديمة في ليبيا.

فماذا عن الغناء نفسه، بعد الموسيقى - أعني الناي؟

يقول أبو التاريخ هيرودوت في أثناء حديثه عن ليبيا في ما يعرف من تاريخه "الكتاب الليبي" Liboi likoi :

"إن الغناء الطقسي - فيما أرجح - ظهر أول ما ظهر في ليبيا، فإن نساء تلك البلاد يغنين غناء مطربًا شجيًا" .

و"الغناء الطقسي" عرف عند جميع الشعوب القديمة ولا يزال حتى الآن. وهو مايعرف باسم "الترانيم" hymns أو "الأناشيد" أو"الأذكار" أو ما شئت له من الأسماء بحسب المكان والزمان، عرف في اليهودية والنصرانية والإسلام، كما عرف - بالطبع - عند الشعوب الوثنية،

وهو يكوّن جزءاً مهمًا من العبادة في أي دين كان.

إن حكم هيرودوت بظهور هذا الغناء الديني أول ما ظهر في ليبيا مهم للغاية - إذ هو يقرر أن اليونان نقلوه عن الليبيين، كما نقلوا عدداً من المعبودات والآلهة، مثل بوسيدون posiedon وأثينا Athene (نيث) وغيرهما. وهذا ينطوي على مرحلة دينية متطورة جدًا بالنسبة للشعوب القديمة، ويمكننا استخلاص نتائج عديدة مما يقوله أبو التاريخ الذي يقرر حكمه ثم يضيف أن "النسوة الليبيات يغنين غناء مطرباً شجيًّا". وهذا دليل ليس فقط على التطور الديني، بل على التطور الفني كذلك.

فالبراعة في الغناء والإبداع فيه لا يتأتى إلاّ إذا كانت هناك مراحل من النمو والتطور، بل الازدهار، أعني الدربة والخبرة والمران، وربما معرفة الأصول الفنية اللازمة للتحكم في الطبقات الصوتية ودرجات الذبذبة والنغم. وهذا مرتبط بالموسيقي التي ذكر أثيناوس أن الليبي " سيرتيس " كان أول من عزف على مزاميرها.

لقد وقف الباحثون والعلماء عند هذه الفقرة من تاريخ هيرودوت، وبحثها عدد كبير منهم بكثير من التفصيل والمقارنة والاستنتاج، فيقول روبرتسون سميث R. Smith مثلاً في كتابه "ديانة الساميين" أن هذا "الغناء الطقسي الليبي" هو ما تطور بعد ذلك وانتقل عن طريق اليونان إلى اليهود وعرف عند النصارى باسم "الأليلوياه" Alelojah- وهي كلمة تعني في الأصل: "المجد للرب"، أو: "ليمجد الرب". وليس ثمة تحليل فيلولوجي يؤدي إلى هذا المعنى، ولكن الأمر تمَّ بالاتفاق، أي بالاصطلاح، ويرجع "سميث" هذه "الأليلوياه" إلى "التهليل" العربية. هلل / يهلل / تهليلاً. فإذا كان الأمر كذلك فمعنى هذا أن (الأليلوياه) الليبية هي (التهليل) العربية، وهذه مسألة لها دلالاتها الجنسية والعرقية والثقافية المهمة.

ويرجع أوريك بيتس "الغناء الطقسي" الليبي (في كتابه : الليبيون الشرقيون) إلى ضرب من الزغاريد - أو "الولولة" : لُو لُو لُو لُو لُو.. التي صارت الآن : رُو رُو رُو رُو رُو، ولكن رأي بيتس متحامل جدًا بسبب من نظرته إلى التاريخ الليبي " غير المتعاطفة" ـ بأكثر التعابير تهذيباً .

ونحن نرى أن هذه "الأليلوياه" الليبية هي ماظلّ حتى الآن في بلادنا مما نعرفه باسم "اللاّلاّلاَ لي" ومن المعروف جداً أن "اللاَ لاَ لاَ لي" خاصية ليبية صرفة لا أعرف أنها توجد في أي قطر آخر : يالال يالالالي (بأنغام وألحان مختلفة متنوعة).

هل هناك علاقة بين "يالالالي" الليبية و"ياليل" العربية؟ هل نأخذ الأمر ببساطة ونقول إن (ياليل) العربية تعود إلى الغناء.. لليل والسهر والقمر والجو الرومانسي الجميل كما قال عدد كبير من الباحثين؟ أم أن " ياليل" ترجع إلى "لالالالي" أي : "الأليلوياه" في الأصل؟ هل هي الزغاريد (الولولة)؟ هل هي (التهليل) - هل هي "الهيلولة" (نحن حتَى الآن نقول : "هيلولة " بمعنى: فرح وغناء وطرب وزمر. [إن شاء الله حميدة نديروله.. عرس وزكار، و"هيلوله"][(*)].

أسئلة كثيرة ليس هذا موطنها. المهم أن النساء الليبيات في القديم كنّ يغنّين غناء جميلاً وأن (الأليلوياه) ترجع أصلاً إلى الليبيين، ولا ريب في أن هذا يعد مظهراً فنيًا متقدمًا جداً على الشعوب القديمة - حسبما هو مقرر.

الآلات الموسيقية :

نأتي الآن إلى الآلات الموسيقية الليبية القديمة. ماذا كانت وكيف كان يعزف عليها؟

إن مصادرنا في هذا الباب محدودة للأسف ،سوى ما ذكرناه من

(*) راجع مقالة " هللوياه " في هذه المجموعة.

حديث الناي الليبي (الذي هو دون شك ما نعرفه الآن باسم "المقرونة" - المقرونة الفردية، ثم المقرونة الزوجية) وسوى ما تزودنا به التصاوير المصرية التي تتحدث عن الليبيين وموسيقاهم.

من هذه الرسوم المصرية نعثر على أربع آلات :

أ - المضرب costanet وهو أداة ناقرة على شكل عصا تنتهي بنصف دائرة بارزة.

ب - الطبل ذو الجانبين، وكان يصنع من الفخار أوالخشب بتزاويق وزخرفات، ويوضع على جانبيه جلد مربوط حولهما، ويشدّ إلى العنق بسير أو رباط، ويضرب على جانبي الطبل باليدين كلتيهما في تناغم موسيقي، ومن الجائز أن كلّ جانب من الطبل يحدث صوتاً مختلفاً ليحدث التناغم (الهارموني) اللازم. وتشبه هذه الأداة القديمة ما نعرفه باسم "الدنقة" الآن.

ح- آلة ثالثة تشبه البوق بنهاية واسعة، ولها عدة ثقوب، ينفخ فيها وتحرك الأصابع على الثقوب لتأتي بالنغم المطلوب.

ج- الرابعة آلة تشبه " القانون " وهي أداة وترية تعرف بالـ Harp القيثارة، وكانت تستعمل في مصر كثيراً.

ويقول أوريك بيتس إن الآلات الموسيقية كانت تستعمل بصورة جماعية (كونسرت Concert) - أي تعزف في آن واحد بأنغامها المختلفة (الليبيون الشرقيون، ص 155) ويدلّ على هذا أن الرسوم المصرية تصورها مجتمعة. ومن المؤكد أن الليبيين كانوا يستخدمونها في المناسبات المختلفة أو في ساعات اللهو والاستمتاع.

هذا العزف الجماعي يشير إلى مرحلة متقدمة في فن الموسيقى، إذ إن التناغم يحتاج إلى قدر كبير من الدقة والمراس والأذن الموسيقية المدربة والإحساس المرهف، بعكس العزف الفردي المعتمد على فرد واحد يرسل أنغامه كيف شاء دون الارتباط بالعازفين الآخرين.

الرقص :

يصاحب الغناء والموسيقى عادةً الرقصُ. ذلك لأن "الإيقاع" يشد الإنسان ويهزه فيهتز، ثم يعبّر عن نشوته بالرقص. وهذه ظاهرة إنسانية عامة، بل هي ظاهرة في عدد كبير من الحيوانات أيضًا.

كان الليبيون القدماء معروفين بالرقص الجماعي، وهذه ظاهرة ملفتة للنظر أيضاً. إذ إن الرقص الجماعي يعتبر أكثر تعقيداً من الرقص الفردي ويتطلب إدراكاً عميقًا للإيقاع ومنحى الحركة في القدم والجسد.. ونحن نعتبر "الباليه" الآن أرقي درجات الرقص التعبيري - لجماعيته وتناسق حركات الراقصين والراقصات فيه.

ويتحدث هيرودوت عن رقصة ليبية مشهورة حول بحيرة تريتونيس (شط الجريد الآن) تنقسم فيها الفتيات إلى قمسين يرقصن ويتقاذفن بالحجارة، ثم تتحول الحفلة إلى رقص بالخيول تدور حول البحيرة ترتدي فيها الفتيات لباساً حربيًا، صلاةً وقربى للربة نيت (أثينا) ربة الحرب والقتال.

وتقدم لنا الآثار المصرية صورة حية لبعض أبناء قبيلة (التمحو) الليبية وهم يرقصون "رقصة الحرب" يقف فيها فريق منهم يمسك بعصي بينما يقفز فريق آخر ويرقص ليعود ويضرب العصي بعصي أخرى يمسكها. وهذه الرقصة تذكرنا برقصة " الكاسكا" المعروفة الآن، كما تذكرنا برقصة "التحطيب" المصرية. ومن الطريف فعلاً أن يقارن الباحث "أوريك بيتس" بين هذه الرقصة ورقصات الحرب عند الهنود الأمريكيين (الهنود الحمر) ثم يقرر "إن طبيعتها تثبت أنها رقصة بالغة القدم" (ص156).

لقد كان الرقص عند قدماء الليبيين وسيلة تعبيرية معروفة ليس فقط في الحرب والقتال، استعداداً أو تحمساً أو إثارة للحمية، بل في

المناسبات الدينية أيضا. فإلى جانب "رقصة البحيرة" عند قبيلة الأوسيس Auseaus والتي كانت احتفالاً سنويًا منظمًا يذكر المؤرخون "رقصة آمون" - وآمون هذا كان معبده في سيوة - تدخل الفتيات المعبد وهنّ يغنين ويرقصن باحترام لصاحب المعبد وربه. ويقدم لنا الشاعر اللاتيني سيليوس إيتاليكوس Silius Italicus وصفًا بديعًا للرقص الاحتفالي عند القرمنت عقب مقتل البطلة الليبية أسبوتي Asbyte رفيقة هانيبال في موقعة "ساغونتوم" التي خاضها هانيبال ضد الرومان(*) وكان من التقاليد السنوية المتبعة " مهرجان آمون طيبة" الذي كان يطاف بتمثاله في ليبيا بالرقص وهو المعبود المصري، وذلك لامتزاج الشعبين واختلاط الديانتين.. إلى آخره.

المهم أن "الرقص" كفنَ تعبيري كان شهيراً جداً في ليبيا القديمة، له أصوله وطقوسه وحركاته وإيقاعاته ونظمه وأساليبه.. باعتباره فنًا وعبادة.

وما من ريب في أن هذا الرقص ذاته لا يزال مستمراً حتى عصرنا الحاضر في أنماط الرقص المختلفة المتنوعة، في فزّان وغدامس، وفي "نخ" الفتيات بالجبل الغربي، وفي الأعراس والاحتفالات الشعبية. وما "الحضرة " ذاتها - وهي ذات صبغة دينية - إلاّ ضرب من ضروب الرقص الاهتزازي و "التواجد" الديني القائم على الحركة.

المسرح :

تبقى كلمة قصيرة عن المسرح والتمثيل لابد منها في هذا المجال والسؤال : هل عرف الليبيون القدماء المسرح؟ هل عرفوا التمثيل؟ هذا سؤال مهم، ولكن الإجابة عنه بالإثبات أو النفي لا تحمل في ثناياها ما يؤثر في القيمة الحضارية لشعب من الشعوب.

(*) انظر مقالة (أسبوتي) في هذه المجموعة لمزيد من التفصيل.

فإذا أردنا الإثبات قلنا : نعم عرف الليبيون التمثيل بمعناه الرمزي في العبادة والاحتفال، فالطواف بالمعبود آمون نوع من أنواع التمثيل الديني، و رقصة بحيرة تريتونيس " تمثيلية درامية متكاملة، فيها التنكر باللباس، وفيها اتخاذ الممثلين مراكزهم فوق المسرح، وفيها البداية والموضوع والخاتمة، وفيها الحركة المسرحية .. إلخ.

لكن هذا يعتبر تعسفاً لا معنى له. إذ المؤكد أن المسرح بمعناه الذي نعرفه بدأ عند اليونان أولاً ثم أخذه اللاتين، وصار جزءاً من الحضارة الغربية. ولكن يظل القول : إن ليبيا عرفت "المسرح" بمعناه الإغريقي وحتي اللاتيني كذلك.

"مسرح صبراتة" المعروف هو أكمل مسرح أثري في العالم كله - وهو أجملها أيضاً سواء بركحه أو بمقاعده أوبغرفه الجانبية وأقواسه وجميع متطلباته. بل بالضبط الدقيق جداً للصوت فيه. ولا يضاهيه إلا "مسرح لبدة" الرائع هندسة ومعماراً. ثم هناك مسرحا قورينا (شحات الآن) في الجبل الأخضر، المسرح الإغريقي والمسرح الروماني، وهذه المسارح الأربعة موجودة في ليبيا. ومن العبث - طبعاً - أن تبنى هذه المسارح الرائعة لمجرد البناء. لابدّ أن يكون فيها تمثيل ومسرحيات وممثلون وممثلات. وهذا هو واقع الحال.

إنني أتخيل هذه المسارح في أيامها وأتصور كم من المسرحيات قدمت على ركحها، كم من الممثلين لعبوا أدوارهم عليها، كم من آلاف جماهير النظارة استمعوا إليهم، وصفقوا لهم إعجاباً وتقديراً، ثم أراها صامتة الآن، صمت الآثار التي حولها.. فآسف كل الأسف لهذه الروعة التي نضيعها من بين أيدينا ،وهذا الجمال الذي نصرف عنه الأنظار عامدين أو جاهلين بقيمته الفنية العظيمة ويحسدنا الآخرون إذ نملكه ويتمنون لو كان عندهم عشر معشاره.

هذه المسارح - قطعاً - لم تكن لحفلات المصارعة والملاكمة،

فتركيبها الهندسي ومعمارها المسرحي يدل على أنها " مسارح" بالمعنى الحديث الذي نفهمه.. للتمثيل والرقص والغناء والموسيقى، فماذا كان يقدم فوقها؟ ما هو تاريخها؟ ماذا كانت وكيف كانت؟ أسئلة أرجو أن يشمر باحث شاب عن ساعد الجد ويتتبعها ويجد الإجابات عنها.

لكن الخلاصة هي : أن ليبيا كانت في القديم القديم مسرحًا للمسرح.. أعني ميدانا للتمثيل المسرحي المتقدم، وليس يهم بعدها من كان يقدم المسرحيات وبأية لغة كانت. المهم أن المسرح عرف في ليبيا ربما قبل أن يعرف في كثير جدًّا من بلدان العالم، بما في ذلك أوربا ذاتها.

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن أحد كبار المسرحيين اللاتين، وهو بالذات "ترنس" Terence يرجع إلى أصل ليبي محقق وقد لاحظ اللغويون والباحثون أثراً واضحًا مما يسمونه "التعبيرات الإفريقية" في لغته وأسلوبه.

ولا ننسى أيضاً أبوليوس الذي يرجع إلى قبيلة الغيتولي Gaetuli (جديلة العربية) وهو كاتب رواية ممتاز وكان له اهتمامه بالمسرح.

أما بلاوتوس (الذي لم يكن ليبيًّا) فقد تأثر بليبيا وكتب مسرحيته الشهيرة رودنس Rudens أو (الحبل The Rope) التي ترجمها الكاتب باسم "حسناء قورينا" وتجري أحداثها في قورينا (شحات) بالجبل الأخضر.

نجد أثر ليبيًّا أيضًا عند يوربيدس وأرستوفان وعدد آخر من مسرحيي اليونان يستعلمونها أسطورة وتاريخاً وخيالاً وحقيقة.. في "الطيور" و"الضفادع" وغيرها من الأعمال المشهورة.

ولا يمكن بالطبع رغم العجالة أن نختم هذا الحديث دون الإشارة إلى فن آخر هو فنّ القصص الرمزية أو ما يعرف باسم "الفيبل" Fables وهي القصص القصيرة ذات المغزى الأخلاقي والتي تدور على ألسنة

الحيوانات، قد تكون نثراً فنيًّا أو شعراً مثلما هو الحال في قصص "عيسوب" أو "كليلة ودمنة" ومن أقدم الحكايات المعروفة في هذا الباب تلك المسماة "قصص كوبسيس الليبية" Libyan Kybeses fables كتب عنها الأستاذ "وايت دف" بتفصيل في مؤلفه "تاريخ أدبي لروما في العصر الفضي". أما لماذا سميت باسم "كوبسيس" فذاك راجع إلى أن معنى هذه الكلمة في اليونانية هو "الجراب" أو "المخلاة"، وكان الليبيون يتخذون جرابًا - ولا يزالون ويسمى الآن : جبيرة - يحملون فيه أهم تقنياتهم أو يملؤونه حجارة تستعمل للقتال أحياناً كثيرة فنسبت القصص إليه لشهرته - أو لعل "الجراب" هو "وعاء" الحكايات كما يقال في العربية "المخلاة"، وهناك كتاب معروف بهذا الاسم يطابق الحال.

المهم أن هذه القصص ظهرت أول مرة بهذا الاسم في الإسكندرية مكتوبة نقلاً عن الليبيين وحظيت بانتشار واسع في عصر "ماركو أوريليو" - صاحب القوس المعروف في طرابلس - نقلها إلى اللاتينية شاعر بلاطه الشاعر "نيكوستراتيس". وفي القرن الرابع بعد الميلاد اعتمد عليها الأديب "فلافيوس أفيانوس" اعتماداً كبيرا في تأليف حكاياته "الاثنتين والأربعين". وذاع صيت هذه القصص حتى بلغت الشاعر الفرنسي "لافونتين" الذي قلده الشاعر العربي أحمد شوقي.. فكأن بضاعتنا ردّت إلينا!

من قصص كوبسيس الليبية أبقى الزمن ثلاثة منها أورد إحداها الكاتب "ديو"Dio والثانية ذكرها "لوسيان" Lucian (نشرتا في سلسلة لويب الكلاسيكية) والثالثة ذكرها الشاعر المسرحي اليوناني "أسخيلوس"(*).

ويدور الزمان دورته فيلتقط الأخيرة هذه الكاتبان المعاصران؛ "لاري كولنز" و"فلادمير لابيير" ويستشهدان بها في روايتهما الخيالية التي أثارت ضجة صاخبة في العالم "الفارس الخامس".

(*) راجع مقالة حكايات كوبسيس في هذه المجموعة.

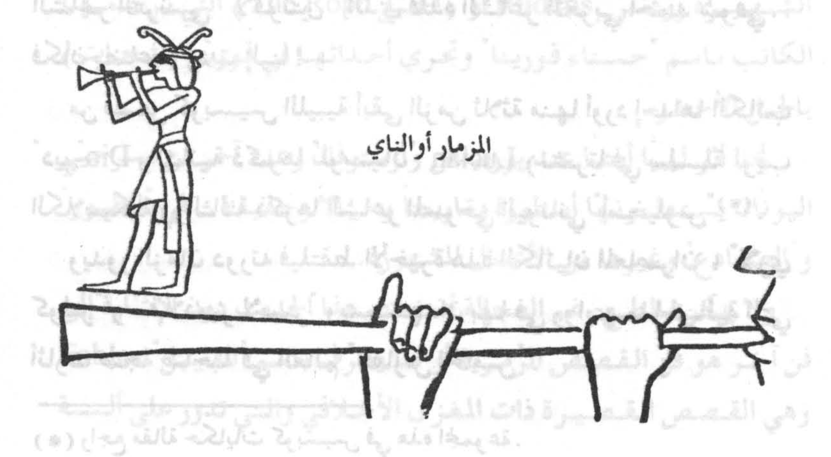
تقول الأقصوصة الليبية حسبما أورده "أسخيلوس" و"أريستوفان" وعرفت باسم (النسر الجريح):

"هاكم القصة التي تروى في الحكايات الليبية
عن نسر أصابه سهم من قوس
قال - حين رأي الشيء المجنّح الخبيث:
ليس إذن بالآخرين..
بل بريشنا نحن نؤخذ !!!".



لوحة من الاثار المصرية تمثل فرقة موسيقية ليبية والات العزف لديها.

الحظ الريشتين على رؤوس العازفين وهي علامة الليبيين.



المزمار أوالناي



طبل يعلق في العنق ويضرب عليه من جهتين



المضرب : عبارة عن أداة ناقرة تشبه العصا تنقر بها عصا أخرى.



رقصة الحرب "الليبية التي تحولت إلى " الكاسكا".

عن الدرودويزم وعبادة الموتى والصحراء الليبية

في أوائل هذا القرن العشرين برزت جماعة من الباحثين الآثاريين والتاريخيين، اهتمت اهتماماً كبيراً بدراسة نشأة الحضارات القديمة وأطوارها، في شمال أفريقيا وجزيرة إيبيريا (إسبانيا والبرتغال) وغرب أوربا، منافسة بذلك علماء المصريات وحضارات الشرق الأولى في بابل وآشور والجزيرة العربية والساحل الفينيقي. وكانت نتائج دراساتهم وبحوثهم مجموعة هائلة من الآراء والنظريات العلمية مدعمة بالحجة والوثيقة ومبرهناً عليها بالتحليل المنطقي والبحث الأنثروبولوجي، تصب في أغلبها في مجرى واحد يبين عن أن ما يعرف عادة باسم "الصحراء الليبية " كان مهد الحضارة الإنسانية الأول وموطن التطور البشري ومستقر الإنسان في عصوره المتقادمة، وتدعو إلى مزيد من التقصي والبحث في هذه الصحراء التي كانت ذات يوم جنة خضراء وارفة الظلال.

وقد نشرت الكتب والمقالات، وظهرت أسماء لمعت في دوائر العلم والمعرفة وكان لها دور كبير في دفع الكثيرين إلى مواصلة الدرس والتنقيب. أذكر من بينها عالم الإنسانيات الإيطالي سيرجي والأستاذة الأمريكية مدام ويشو والعالم الإنجليزي لويس سبنس، وقد كان هؤلاء الثلاثة متعاصرين في الزمان مختلفين في المكان، وكانت أفكارهم موحدة يسند بعضها بعضاً بحكم الاتفاق في الاتجاه والوصول إلى نتائج تكاد تكون واحدة تقريباً.

أما الأول فقد وجه عنايته - وهو عالم الأجناس - إلى النشأة الأولى لمجموعة من البشر يطلق عليهم اسم " جنس البحر الأبيض المتوسط "

وبعد جهد ضخم بدءاً من دراسة الآثار الصوانية في قارة إفريقيا وأوربا، وانتهاء بقياس محيط وعرض وطول الجماجم القديمة التي عثر عليها في الصومال وليبيا وبلاد تركب الأفيال، قرر أن نشأة هذا الجنس المتوسطي كان في ليبيا ومنه ظهرت مجموعة الأجناس الأخرى من مصريين وإغريق يسمون في القديم (Pelasgi) بل والأجناس الروسية أيضاً!

وأما الثانية فقد اهتمت بتتبع فكرة معروفة عن حضارة أطلنتس وكانت سيدة أمريكية متزوجة من بريطاني واستقرت في مدينة إشبيلية الأندلسية، وكتبت دراسة ضخمة عن تنقيباتها وفحوصها خلاصتها أن أطلنتس كانت في الأندلس وأن الليبيين هم الذين أنشأوها وعاشوا فيها عيشة راضية!

وأما الثالث فلم يكتف بما وصل إليه سيرجي أو المدام ويشو حين أوصلا الليبيين إلى أصقاع سيبيريا وبقاع إيبيريا على التوالي فقرر - بعد المقارنة والدرس الطويل وتقديم الحجة بعد الحجة بالطبع - أن الليبيين هم الذين حملوا إلى بريطانيا القديمة تلك الديانة الضبابية المعروفة حتى الآن باسم الدرويدية وأن هذه الديانة المغلفة بالسحر والأساطير لم تنشأ في بريطانيا نفسها، بل نشأت في موطنها الأول ليبيا ثم انتقلت بعدها إلى بلاد الكلت والويلز وإيرلندا عبر آلاف السنين وآلاف الرحلات وآلاف، بل لعلهم ملايين، الرجال.

هنا لابد أن نوضح للقارئ بعض الأمور المستغلقة وأن نبين له أشياء لا مفر من تبيانها لنعرف، بعد ذلك، ما يقوله الأستاذ سبنس. فما هي الدرويدية أولاً وقبل كل شيء؟

تعرف الدرويدية عادة بأنها ديانة [1] الجزر البريطانية (الجزيرة

---

(1) نستعمل هنا كلمة (ديانة) في مقابل كلمة CULTUS اللاتينة أو CULT الإنجليزية والمعنيّ بها العبادة القائمة على طقوس غامضة في الغالب. أما كلمة (دين) فهي تقابل Religion ويقصد بها الأديان الكبرى المعروفة كالإسلام والنصرانية واليهودية غير المغلفة بالشعائر السحرية

المقدسة) في الأعصر الغابرة، وكانت تقوم على نظام كهنوتي معقد تحيط بها مجموعة من الطقوس السحرية في شكل ثيوصوفي وثني تطور ونما على مر الزمان وصار له تكوينه الخاص به حتى أصبح خاصًا بقدماء البريطانيين في مختلف أصولهم العرقية، من الكلتيين والويلزيين والإيرلنديين والإنجليز. وهي ديانة عاشت على طول العصور، واختلطت، فيما بعد، بالنصرانية التي دخلت الجزر البريطانية في فترة متأخرة نسبيًا، لكن أهم ما يميز هذه الديانة ارتكازها على تقديس الأموات وعبادتهم، ومن هنا عرفت أيضاً باسم (ديانة الموتى).

هذه الديانة أو العبادة، في رأي الأستاذ سبنس لم تنبع من بريطانيا ذاتها بل نبعت من موطن آخر بعيد.

وهي أيضًا لم تكن صدى لديانات الشرق، بابل وآشور ومصر، كما يذهب البعض، وذلك لقدمها، بل سبقها في الوجود لهذه الديانات. وهي ثالثاً عبارة عن موجة ترجع أصلاً إلى مكان ما انطلقت منه غربًا في الفترة نفسها التي انطلقت فيها موجة أخرى من المصدر ذاته اتجهت شرقاً وكونت الديانة المصرية أو هي كانت بذرة الديانة المصرية المعروفة.

ومنطلق الأستاذ سبنس في هذا الرأي يرجع إلى ما لاحظة علماء التاريخ القديم من تشابه بين الدرويدية وديانة مصر القديمة، وهو ما دفع بعضهم إلى القول بوجود تأثير مصري أو هو شرقي كما يسميه - جاء عن طرق مختلفة حتى وصل إلى الجزر البريطانية واستقر فيها. ويرفض الأستاذ سبنس هذه الفكرة رفضًا باتًا ويذهب إلى أن الحضارة الأوربية غربيها وشرقيها نشأت عن مركز مشترك، ويتبع هذا أن الأفكار الدينية والصوفية التي فاضت عن ذلك النبع المشترك كانت أيضًا ذات أصل أولي وحيد. وتمامًا كما أن عبادة الأموات، التي يبدو أنها كانت النبض الديني والمحلي لهذه الحضارة المبكرة، طورت بعض الميول والمميزات الخاصة في مصر والشرق، فإن ثمة دليلاً موثوقاً به على أنها

تطورت كذلك في بريطانيا متخذة لون بيئتها الانعزالية ومنمية تراثًا دينيًا ذا فاعلية وسيطرة قادرتين على كشف سرّ عظيم لنا أكثر توافقًا كما يقول مع النفسية البريطانية الخاصة [2].

في سنة 1928 م أصدر الأستاذ لويس سبنس كتابه (أسرار بريطانيا) متضمناً خلاصة مباحثه وبسطة شاملة عن الديانة الدرويدية مع تفصيلات وتعريفات، ومناقشات دينية وأثرية ومقارنات وتوضيحات قد لا تهم القارئ العربي. ولكن هناك ما يهمه مما له علاقة بإرجاع أصول الدرويدية وديانة مصر القديمة إلى موطنها الأصلي في الصحراء الليبية.

وأجدني مدفوعًا إلى تقديم خلاصة وافية للقارئ عن محتويات الكتاب في هذا الباب، ويمكن بالطبع لمن يبغي الاستزادة من القراء أن يعود إلى الكتاب ذاته، وقد صدرت طبعة جديدة له عام 1979 م.

يقول سبنس، مقدماً نظريته، إنها ترتبط ارتباطاً وثيقًا بتلك المشكلات التي برزت حول أصل الأجناس التي سكنت الجزر البريطانية وهي المشكلات التي أثارت على مدى طويل أشدَ الجدل عنفاً والتي نجح علم الآثار الحديث في حلها على نطاق واسع. وهو يرى أن آفة ذلك النوع من التصوف أن عديداً من أقوي المدافعين عنه لم يكونوا على دراية بعلوم الآثار (الأركيولوجيا) وعلم الإنسان (الأنثروبولوجي)، وأنهم أخذوا بمصادر ذات طبيعة خادعة وإيحاء دعي في حين أهملوا نتائج العلم المبرهن عليها.

والجنس الذي جاء إلى بريطانيا من إسبانيا والذي يسميه أغلب علماء السلالات البشرية عمومًا (الجنس الإيبيري) أو (البحر المتوسطي) ربما كان الموجة الأخيرة لسلالة معروفة المعلم جيداً أصلها في شمال غرب إفريقيا، وهي التي أرسلت على مدى آلاف السنين نبضات

(2) The Mystenies of Britain. p. 20

أو دفعات متوالية في اتجاه الشرق والغرب على حدّ سواء. ونحن لا نعلم موطنها الأصلي على وجه التحديد، لكن العالم الأنثربولوجي سيرجي - ولعلّه أقدر مؤرخيها وأكثرهم خبرة- يعتقد أنه كان في إقليم الصحراء الليبية التي لم تكن دائماً عرضة لظروف الجفاف.

وما من أحد درس أصول الجنس الإيبيري، أو البحر المتوسطي، دراسة أعمق ولا أطول من سيرجي هذا، ومن دراسته المطولة للظروف المناخية والنباتية يقرر أن مهد هذا الجنس هو إفريقيا، وقد مال في بداية دراسته إلى القول بأن أصل هذا الجنس هو شرق إفريقيا. ثم تقرر لديه أن شمال إفريقيا - وليس شرقها- هو الموطن الأول له. وعلي هذا فإن حمل إيبيريي شمال أفريقيا حضارتهم إلى مصر يبدو أكثر من مرجح. إذ الواقع أن الآثار الصوانية الغربية تسبق آثار مصر في التاريخ. وهذه الحقيقة وحدها هي ذات الوزن هنا، فإن الإيبيريين كانوا عبارة عن خلف القفصيين والأزيليين حضاريًّا.

ولكي نبرر ما ذكرناه، يقول الأستاذ سبنس، فإن انحرافاً إلى دنيا علم الآثار والسلالات البشرية شيء ضروري، وهذا سوف يأخذ حقائقه ويدعم حججه من كتابات العلماء الثقات الذين اهتموا اهتماماً حديثاً بالغاً بمشكلات الآثار الأوربية وفي الشرق الأدنى. ففي أوربا يمكن القول بأن تاريخ الحضارة يبدأ بالجنس الأوريغناكي [3] أو الكروماغنون[4] الذي يبدو أنه دخل القارّة الأوربية حوالي سنة 23000 ق.م.

ويعتقد بعض العلماء أن هذا الجنس ذو أصل إفريقي والقفصيون[5]

---

(3) من العصر الحجري القديم تمثله بقايا وجدت في جبال البرنيس بشمال إسبانيا.

(4) هكذا تعود الكتاب العرب على كتابتها، والصواب : كرومانيون،وهو جنس من قبل التاريخ تميز بالقامة المديدة والرأس المستطيلة، عثر على بقاياه في كهف بهذا الاسم في إقليم Dordogne بفرنسا.

(5) نسبة إلى آثار رجال العصر الحجري عند قفصة بالجنوب التونسي.

الذين تلوهم جاءوا حوالي سنة 10000 ق. م وكانوا، بدون جدال، من أصل إفريقي. ومثلهم مثل الأوريغناكيين كان القفصيون فنانين تركوا رسوماتهم على جدران الكهوف في أجزاء إسبانيا الوسطى غير أن هذه الرسوم تقدم معالجة محافظة أكثر وضوحاً للموضوع وكانت جميعها تقريباً ذات طبيعة دينية أو سحرية. وكانت حضارة القفصيين أعلى من حضارة سابقيهم وذلك بتدجينهم الكلب واستخدام القوس.

كانت هناك إذن هجرات متوالية في العصر الحجري القديم، وقد تواصلت في الفترة الفاصلة ما بين هذا العصر والعصر الحجري الجديد وهي ما يعرف باسم الفترة الأزيلية [6]، كانت تمثل حضارات تتطور يوماً بعد يوم، أعني ألف عام بعد ألف عام، ولكل منها مميزاتها الخاصة بها. حتي إذا ما جئنا إلى العصر الحجري الجديد، أو المتأخر، حوالي سنة 2000 ق. م، وجدنا أن هذه الدفعات الجديدة كانت تصل إلى جنوب بريطانيا عن طريق البحر وهذه هي الفترة المهمة في الهجرات الكبرى إلى الجزر البريطانية، وفي هذا العصر وصل الجنس الإيبيري - أو البحر متوسطي - إلى هذه الجزر وشرع في تثبيت أقدامه هناك. وقد سمى العلماء القادمين الجدد باسم " بناة المدافن الطويلة" وكانوا في العصر المينوي - زمن الحضارة الكريتية - وكانت حيواتهم مرتبطة بعبادة الموتى، أما كون هؤلاء القوم من العصر الحجري الجديد جاءوا من أصل إفريقي - عبر إسبانيا- فأمر واضح تمام الوضوح. وهذا مايقرره الأستاذ تشيلد في كتابه (فجر المدنية الأوربية) وقد عثر في إسبانيا على عدد كبير جداً من اللقى الدينية المتصلة بديانة الموتى صنعت في أغلبها من العظام وأوثان على شكل مسطحات أو لوحات وعلى عصي الكهان.

ثم جاءت أجناس أخرى إلى بريطانيا، من إيطاليين ونورديين

---

(6) نسبة إلى Mas d'azil في جبال البرنيس الفرنسية حيث عثر على هياكل وآثار هذه الفترة من التاريخ.

(شماليين) . لكن حضارات هذه الاجناس تمازجت . وثمة أدلة كافية على أن الأفكار الدينية والصوفية للإيبيريين (الليبيين) القدماء هي التي انتصرت ، ثم سيطرت تماماً فيما بعد على أفكار القادمين الجدد من أواسط أوربا مسبغة على الدوام مظهراً إيبيريًّا (ليبيًّا) مميزاً على الفكر السحري والديني البريطاني .

وكانت بريطانيا مقدراً لها بالفعل أن تظل إيبيرية بالمعنى الديني بعد أن تلاشت ديانة (عبادة الموتى) في موطنها الأصلي .

ويحتدم الجدال حول أسبقيّة الحضارة في الشرق والغرب ويعتبر أولئك الذين ينظرون إلى الحضارة الشرقية نظرة أكثر توقيراً أن الحضارة الإيبيرية في إسبانيا انعكاس لتلك الحضارة شرقي البحر الأبيض المتوسط أو على الأقل حامل لمنافعها إلى أرض أمعن في الشمال . لكن الحقيقة العارية هي أن الآثار الصخرية ، أو الحجرية الخشنة ، في إسبانيا تظهر رسوماً أكثر مشابهة لتلك الرسوم الأقدم لحضارة قفصة التي جاءت من شمال إفريقيا . وهذا ما يجب أن يفكر فيه دعاة الحضارة الشرقية . إنها بالضبط مراكز العمارة الصخرية العظيمة في أوربا هي التي تحمل بوضوح أقرب الصلات مع بقايا معمار العصر الحجري القديم في المغرب ، وهو عصر يسبق أي شيء يقدمه حوض النيل أو منطقة الرافدين .

وهكذا يبدو بالتأكيد ، لغير المسلح بنظريّة ثالثة بديلة ، الافتراض بأن كلاًّ من الغرب والشرق أخذا فكرة (عبادة الموتى) من مصدر مشترك ، مصدر شمال إفريقي ، وأن هذه العبادة القديمة منذ العصر الحجري القديم انتشرت من مركز ما في شمال إفريقيا إلى مصر من جهة ، ثمّ إلى إسبانيا وبلاد الغال (فرنسا) فبريطانيا من جهة أخرى . وقد رأينا كيف أنها بدأت في التطور في إسبانيا في العصر الأوريغناكي المتأخر ، وأنها غزت بريطانيا من خلال التأثير الإسباني حوالي سنة

20000 ق.م، وغزت مصر حوالي الأسرة الأولى، والاعتقاد المقنع هو أن هذه الديانة العتيقة جداً نفسها هي التي جلبت إلى بريطانيا عناصر تلك العقيدة التي اتخذت فيما بعد شكل ما يسمى "الدرويدية" وهي ديانة صارت ذات مكانة وتقديس خاصين في الجزر البريطانية، وكانت فعلاً جذر - أو بداية - التصوّف السحري البريطاني. وكانت بريطانيا - كما نعرف من قيصر - تعتبر موطن الدرويدية الرسمي. فلننظر بالتدقيق ما نملك من أدلة على الأصل الشمال إفريقي (الليبي) لعبادة الموتي هذه.

يبدو أن التحنيط (عمل المومياءات) وهو حفظ الجسد البشري بعد الموت حتى يعود للحياة مرة أخرى بعودة الروح إليه، يبدو أنه نشأ في مصر من عبادة "أوزيريس"، إله الموتى والعالم السفلي. ولم يظهر "أوزيريس" في مصر قبل عصر الأسرة الأولى حوالي عام 3400 ق.م حيث وجد مركز لعبادته في أبيدوس، ومن المعروف أن ما يسمي (كتاب الأموات)- أو شذرات مبكرة منه - كانت مستعملة في مصر منذ عصر "أوزيريس" هذا.

ومن الجلي أن "كتاب الأموات" هو في شذراته الأقدم، تعبير مكتوب من طقوس أسبق كثيراً ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ سطرت في عصر الأسرات المبكر أو ما قبل عصر الأسرات. وهذا الكتاب هو في الواقع كتاب أوزيريس وعبادة أوزيريس، ويقول الدكتور بدج عن أوزيريس إن موطنه وأصله ربما كان ليبيا.

هنا نلتقط إشارة الأستاذ سبنس إلى ليبية أوزيريس،ونأخذ القارئ إلى كتاب الدكتور بدج ونرى ما الذي يقوله بالتحديد في هذا الباب.

كان الدكتور أ. والس بدج علماً من أعلام المصريات، وكان أميناً للمتحف البريطاني وأحد أقرباء الأسرة المالكة، ألف كتباً عديدة مشهورة في اللغة والديانة المصريتين، كما ترجم ونشر (كتاب

الأموات) نقلاً عن الهيروغليفية.

ومن أهم دراساته مؤلفه المعنون (آلهة المصريين) نشره في جزأين وفي الجزء الثاني نجده يناقش الأصول الأجنبية للآلهة المصرية، ويقول ما نصه:

"إن الآلهة الأجنبية التي نجحت في أن تنال هوى المصريين كانت من أصل ليبي وآسيوي. وليس ثمة دليل على أنهم استعاروا أي معبود من بلاد النوبة، ماعدا الإله (بس)، أو من البلاد الواقعة إلى الجنوب الأقصى من مصر" (7).

وهو يجعل عدداً كبيراً من الآلهة المصرية القديمة ترجع إلى أصل ليبي، ويقول:

"ليس من الممكن في الوقت الحاضر تقرير أي الآلهة كان وطنيًّا في وادي النيل وأيها كان من أصل ليبي.

ولكن ليس ثمة شك في أن عدداً من الآلهة الليبية اتبعت من قبل سكان الدلتا الغربية، في عصر ما قبل الأسرات، وأنها صارت في غاياتها ومراميها آلهة مصرية تحت حكم ملوك الأسرة الأولى. من بين هذه المعبودات يمكن ذكر "نت" أو "نيث" التي كانت بسائيس و"بست" التي كانت في بوباستس (تل البسيطة حالياً). ومن المرجح جداًّ أن أوزيريس وما يحيط به من أرباب، على اختلاف مسمياتها، كان من أصل ليبي" (8).

هذه مجرد إشارة، ولنعد إلى الأستاذ سبنس الذي يقول إن الكاتب القرطاجني سانكونياثون يخبرنا أن عبادة " الكابيري" وهي ديانة غامضة، نشأت في شمال إفريقيا وأنها قدمت، مع غيرها، إلى المصري أوزيريس.

(7) The Goods of the Egyptians,p.275

(8) المصدر نفسه. ص275

ويقول سانكو نياثون إن "الكابيري" هم مخترعو القوراب وفنون صيد السمك، والبناء، والزراعة، والكتابة، والطبّ. ليس هناك سوى شكّ يسير في أنهم كانوا الجنس المتحضر القديم الذي كان في المغرب، وهم من رأيناهم ينفذون إلى الجزر البريطانية في قواربهم المنحوتة. فلو كان "أوزيريس" أحد رسل ديانة "الكابيري" فإن هذه الديانة ما كانت سوى "عبادة الموتى" كما يزعم (سانكو نياثون). ويدعو (شيشرون) هؤلاء (الكابيري) باسم (أبناء بروسربين) ربة العالم السفلي، "عالم الأموات"(*).

إن ديانة "الكابيري" المنبثقة من شمال إفريقيا ليست بوضوح غير أثر معتم باقٍ أو ذكرى الجنس المتحضر القديم الذي عاش في تلك المنطقة، ثم اتخذ طريقه إلى إسبانيا، ثم وجد سبيله أو أرسل مذهبه، شيئًا فشيئًا، عن عبادة الموتى إلى مصر من جهة وبريطانيا من جهة أخرى. وهذه النظرية تفسر في كلمة واحدة كل الأفكار عن التأثير المصري في بريطانيا وأوجه الشبه الكثيرة بين الدرويدية والديانة المصرية القديمة والاعتقاد الشعبي في مصر وبريطانيا.

ثم لنثبت أقدامنا.

إن أوثق المصادر تقول بأن أكثر من جنس ذي أصل إفريقي غزا، أو عبر إلى أوربا في العصر الحجري القديم والجديد. والحضارة القفصية التي جاءت إلى أوربا، كما رأينا، انبثقت من شمال إفريقيا. ومع الحضارة القفصية، يقول الأستاذ " ماكالستر" ينبغي دون شك ربط تصاوير جدران (ألبيرا) و(كوزل) الإسبانية وغيرها. وصناعة الصوان القفصية هي أم صناعة الصوان الأزيلية.

(*) "الكابيري" عبادة ذات صلة بالماعز المقدس، ومن هنا جاءت اللاتينية caper، ومنها أخذت بقية اللغات الأوربية المشتقات الكثيرة، ومعنى الكابيري أصلًا: "الكبار" وهي عروبية خالصة، راجع للتفصيل: p.Rossi; vraie: Legrands histoire des Arabes.

ونحن نعرف أن الحضارة الأزيلية توجد في مرحلتها الأولى في شمال إفريقيا.

ومن الواضح أن هذه الحضارات القديمة ازدهرت في شمال إفريقيا وفي إسبانيا حوالي سنة 10000 ق.م وأكثر، حين لم تكن في مصر حضارة محددة من أي نوع مهما كان ماعدا حضارة البداري (9000 ق. م) وهي عبارة عن صدى لحضارة سابقة.

في وجه هذه الحقائق كلها فإن (المستشرقين) يصرون على أن "المدينة" ذات أصل أقدم في مصر والمشرق!

هل من المقبول القول بأن حضارة الأوريغناكيين والقفصيين والأزيليين، رغم بدائيتها، لم تسبق بشيء تبذ به مصر وأنها اندثرت تماماً دون أن تنقل تراثًا إلى الشعوب التي تلتها أو إلى الشرق؟ أليس من المرجح تماماً أن أفكارهم الثقافية والدينية، مهما كانت بدائيتها، وجدت سبيلها بالتدريج وعلى مدى العصور (حيث تطورت في ظروف أكثر ملاءمة) كما فعلت بالتأكيد في بريطانيا في زمن لاحق بطريق أصعب وأكثر خطراً؟ أم أن من المقبول القول بأن التشابه بين بداياتها في بريطانيا وفي مصر مجرد صدفه واتفاق؟!

كانت هذه النظرية القائلة بنشأة الحضارة الإنسانية الأولى في ليبيا ثم انتشارها بعد ذلك في مختلف الجهات نالت حظًا وافراً من التأييد نتيجة للبحوث المقارنة الواسعة التي قام بها العلماء. ويرى الأستاذ دونالد ماكنزي أن هجرات واسعة خرجت من ليبيا حوالي الألف العاشرة قبل الميلاد في ثلاثة اتجاهات، نحو الشرق، ونحو الجنوب، ونحو الشمال - أعني قارة أوربا.

وهو يذهب مذهب الأستاذ سبنس في الرأي، وفيما يلي نلخص للقارئ الفصل الذي كتبه ماكنزي حول هذا الموضوع يقول [9]:

---

(9) Donald Mackenzie Egyptian Myth and legend . p.30-32

في الأعصر السحيقة الغابرة، حين ذاب الغطاء الجليدي في شمال أوربا كان وادي النيل عبارة عن مستنقع تنمو فيه نباتات غابية مثلما هو الحال في الدلتا. كان المطر يسقط في موسمه ومجاري المياه تتدفق من المرتفعات وكانت السهوب التي هي الآن قفار جرداء ـ أرضاً معشبة خضراء. وكان بدائيو قبائل العصر الحجري المبكر يصطادون ويرعون هنالك، ولا تزال الأدوات الصوانية التي نحتوها وهذبوها بشكل غير متقن توجد في كهوف الجبال وعلى سطح الصحراء ومطمورة في الطين المنحدر من المرتفعات.

ثم يمضي في حديثه :

وفي وقت ما ظهر شعب أكثر تطوراً، وبعد أن مضت قرون طويلة تقاسم القوم الوادي فيما بينهم، وكان عددهم يزداد وقبائلهم تتشعب. وهكذا تكونت عدة ممالك مستقلة. وحين صارت الحكومة في النهاية مركزية بعد الانتصار صارت هذه الممالك مقاطعات تسمى (ناميس) وهذا هو الاسم اليوناني لها وأما الاسم المصري فهو (حسب)(*).

وكان لكل منها عاصمتها بآلهتها المسيطرة ونظامها الديني المحلي. وقد سبب تداخل الشعوب تداخل المعتقدات الدينية واكتسب كل إله خصائص إله آخر دون الفقدان الكامل لهويته.

وقد جاء المستوطنون الأوائل من شمال إفريقيا الذي كانت تعمره قبائل من الجنس المتوسطي. كانوا ذوي بشرة بيضاء ورؤوس مستطيلة صغيرة وأجسام نحيلة وأنوف مستقيمة وعيون سود وشعر أسود، وكانوا في شرق الدلتا هم قدماء المصريين، أما في الدلتا الغربية وعلى طول الساحل فقد عرفوا باسم الليبيين.

(*) "ح س ب" المصرية تعني: قسم / جزء / إقليم. قارن "حسب" العربية، "حزب" وكذلك "عزبة" الموجودة في اللهجة المصرية الحديثة بمعنى "مزرعة" والأصل - قطعة، جزء قسم من الأرض.

وفيما كان عددهم يتزايد ويعيشون حياة رغدة انتشر أعقاب شعوب المتوسط هذه بعيداً عن مركز نشأتهم الأولى في شمال إفريقيا. فكانت هجرتهم إلى الجنوب في النوبة حين تقابلت هذه القبائل السوّاحة في صراع ضد مجموعات من رجال الغابات (البوشمن) السمر، الذين امتزجوا بهم في النهاية. وتبع هذا تداخل مع الزنوج الأطول قامة في أزمنة بعد ذلك، وهكذا كانت نشأة شعب النوبة الذي كان أبداً ضيقاً بالنسبة لفراعين الأسرات.

هذا بالنسبة لهجرة الليبيين إلى مصر والنوبة، وأما هجرتهم إلى أوربا فهو يرى أن فائض السلالة المتوسطية كان نحو الشمال أكثر منه في الجنوب. وقد تشعبوا نحو الشرق وصبوا في فلسطين وآسيا الصغرى. وهم كانوا الفينيقيين الأوائل الذين اختلطوا بالساميين، وهم كانوا الحثيين الذين امتزجوا بالمغول والأرمينيين "ذوي الرؤوس العريضة". وبانطلاقهم إلى إيطاليا واليونان عرفهم التاريخ باسم الإيطاليين وقدماء الإغريق إلى آخره. وأسسوا مدينة عظيمة في كريت حيث تأتي الأدلة على استقرارهم منذ 10000 ق.م.

أما بالنسبة لأوربا فإننا نجد ماكنزي يتفق تماماً مع ما ذهب إليه سينس ويقول ما نصه:

"ولعل الهجرة الغربية نحو مراكش أدت إلى تداخل على فترات مع قبائل الجبال الشقر - حتى أن السلالة التي دخلت إسبانيا عبر جبل طارق قد تكون أكثر قرباً من حيث النمط الجسدي إلى الليبيين أكثر من قربها من مصر شرق الدلتا. وقد انتشر المستقرون الأول عبر أوربا الغربية وعرفوا في التاريخ باسم الإيبيريين، وقد تقابل هؤلاء أيضاً واختلطوا مع القبائل المتفرعة على طول شاطئ اليونان. وفي حركتهم نحو الشمال عن طريق وديان الأنهار في فرنسا عبر الإيبيريون إلى بريطانيا، وهم يستوعبون، فيما يبدو، في كل مكان المستوطنين الأسبق منهم الذين نجوا

من صدام الصراع، وكان هؤلاء هم أهل العصر الحجري المتأخر [10]

يتفق العلماء على أن الحضارتين القفصية والأزيلية نمت في شمال إفريقيا. أما أن هذه الحضارة بلغت المشرق، وربما رجعت على شكل هبات ثقافية في شكل ممتاز إلى أوربا الغربية في فترة لاحقة فهذا مالا ينكر لحظة واحدة، ولكن هذا كله أمر آخر وقد بالغ (المستشرقون) في أهمية هذا "الترجيع" والمهم هو أن أقدم إشارات "المدينة" تظهر في شمال إفريقيا وغرب أوربا، ولا شيء مشابه يظهر في مصر حوالي عام 9000 ق.م. بل إن هذا التاريخ نفسه تاريخ خادع ولايمكن الجدال في أن أقدم سكان مصر المتمدينين كانوا من عرق (ليبي) ويقول الأستاذ هـ. ر. هول - وهو مرجع ممتاز - في حديثه عن أقدم سكان مصر في المجلد الأول من (التاريخ القديم) الذي أصدرته جامعة كمبردج: "ومن المحتمل أنه وجدت في الدلتا حضارة ذات نمط بحر متوسطي بدائي أكثر تقدما مما هو في صعيد مصر.. وقد يكون نظام الكتابة الهيروغيلفية وما تتضمنه من ثقافة مصاحبة أكثر بحر متوسطية مما يظن " [11]

***

---

(10) المصدر السابق ص 30-31.

(11) Gambridge Ancient History, p.264 يدعم هذا الرأي كذلك الأستاذ ماكنزي Egyptian Myth and Legend.p.41 الذي يقول إن إسهام (الليبيين) سكان الدلتا في حضارة الأسرات لم يكن غير ذي شأن بل إنه لا يمكن في الواقع المبالغة فيه، لقد كانت مدينة الدلتا متطورة جدًا قبل توحيد مينا للقطرين (الوجه البحري والوجه القبلي) وكان القوم يستعملون الحروف التي تماثل حروف كريت وبحر إيجة، وكذلك الحروف التي ظهرت بعد ذلك في كاريا وإسبانيا، وقد يمكن تتبع بداياتها الأولى ربما في تلك العلامات الفجة التي نحتها الرواد من العصر الحجري المتأخر على الأحجار الفرنسية". إلى أن يقول:

"وتبين الحروف الفينيقية أن تجار البحر العظيم (المتوسط) فيما تلا من الزمان بسطوا نظام الكتابة ونشروه على أوسع نطاق. إن أبجديتنا على هذا الأساس كانت منذ زمان سحيق شمال إفريقية في أساسها".

يمضي الأستاذ لويس سبنس في عرض نظريته القائلة بأن كلاً من الديانة الدرويدية في بريطانيا والديانة المصرية القديمة - وكلاهما تشتركان في ما يعرف باسم (عبادة الموتى) - انبثقتا من مركز واحد، كان في شمال إفريقيا وفي الصحراء الليبية بالذات، وهو يستند إلى عدد كبير من الدراسات الأنثروبولوجية في أفريقيا وأوربا، وإلى جملة من المؤلفين القدماء والمحدثين على حد سواء،وكانت هذه الدراسات تجمع على أن صحراء ليبيا كانت المكان الطبيعي لتطور الإنسان الأول إذ كانت هذه الصحراء بالذات تتمتع في القديم بمناخ ملائم تماماً من حيث المطر والنبات وموافقة درجة الحرارة في حين كانت بريطانيا ترزخ تحت ملايين أطنان الثلج - مثلها مثل بقية قارة أوربا - وجبال الجليد. وكانت مصر مجرد مساحات شاسعة من البرك والمستنقعات لا تمكن الحياة فيها لكثرة الحيوانات المتوحشة والحشرات السامة قبل أن يستقر النيل في مجراه المعروف.

كتب سبنس مؤلفه ونشره سنة 1928 م وفي سنة 1980 م صدر كتاب مهم جدًا لأحد كبار علماء الحفريات هو الأستاذ مايكل هوفمان بعنوان (مصر قبل الفراعنة) وهو عبارة عن مسح شامل لجهود الباحثين للصحراء الليبية ودارسي نقوش جبالها وكهوفها. علماء من أمثال أوليفر مايرز، وهانز وينكلر، وسير روبرت مود، وويليام ماكهيو، وغيرهم.

كان هؤلاء الباحثون مختصين في ما قبل التاريخ. وقد جذبتهم تصاوير الكهوف الليبية منذ أن قام أحمد حسنين برحلته المشهورة في أواخر العشرينيات إلى جبل العوينات فتقاطروا إلى هذا الجبل وإلى منطقة الجلف الكبير بل حتّى جبال تبستي في جنوب البلاد، وجاء العالم المشهور ماكبيرتي إلى الجيل الأخضر ليدرس(هوا الفتايح) وغيره من كهوف ما قبل التاريخ.

ويقول الأستاذ هوفمان إن تصاوير الصخور تقوم إلى درجة ما مقام التسجيلات المكتوبة. ونحن لا نعرف منها التصورات الفنية المختلفة فحسب، بل قد نحصل منها على معلومات وفيرة عن اللباس والصيد والنقل والحيوانات المتوحشة والداجنة، وفي بعض الأحايين نستطيع استخلاص نتائج عن المعتقدات الدينية والتكوينات الاجتماعية لواضعي هذه التصاوير [12].

وكانت دراسة مايرز المقارنة ما بين رسوم الصحراء الليبية ورسوم ما قبل التاريخ في (أرمنت) بمصر مثيرة للغاية أثبتت اتصالاً مباشراً بين القطرين، بل أثبتت أن الصحراء كانت أسبق من وادي النيل. والمغزى الرئيسي - كما يقول هوفمان - لدراسات مايرز "أنها تزودنا بدليل مباشر عن التغير المناخي والزيادة السكانية في قسم من الصحراء الليبية كان خالياً من قبل، كما أنها تثير إمكانية أن التغير الاقتصادي، مثل الرعي وربما الزراعة، وصل الصحراء قبل وادي النيل" [13].

أما ماكهيو فقد تابع أبحاث وينكلر في جبال العوينات والجلف الكبير وخلص- يؤيده ما وجد في تشاد الشرقية من مناظر الصيد ورسومات جبال تبستي وجنوب غرب الصحراء الليبية - إلى أن فن الصخور يصور تحولاً بطيئاً من الصيد إلى رعي الماشية، ويشير إلى أن تدجين الحيوانات تطوّر تطوّراً مستقلاً على الأقل في بعض مناطق شمال إفريقيا، أكثر من كونه فيضاً من الشرق الأوسط كما اعتقد الباحثون السابقون " [14]

وفي تعليقه على جهد العلماء والمنقبين يقول هوفمان :"الآن فقط شرع الأثريون العاملون في الصحراء الواسعة في تجميع القصة الحقيقية للعلاقات الثقافية بين الأرض السوداء (مصر) والأرض الحمراء

---

(12) Egypt Before the pharaohs

(13) المصدر نفسه، ص232.

(14) المصدر نفسه، ص237

(الصحراء الليبية). ويبدو الآن كما لو أن ثورة إنتاج الطعام حدثت في الأرض الحمراء قروناً طويلة، إن لم تكن آلاف السنين، قبل أن تتسرب إلى أرض وادي النيل الخصيب، وعلى هذا فإن أسبقية التقدم انعكست وصار (البرابرة) هم موجة المستقبل". ويمضي في تعليقه: "ومن المثير للسخرية أن يبدو رعاة الصحراء الذين طالما سخر بأعقابهم كتاب النقوش المصريون القدماء، وقد جاءوا بثورة العصر الحجري الجديد إلى إفريقيا، وربما وضعوا بطريق غير مباشر أسس المدنية المصرية. إن العالم - طبقاً للنشيد البريطاني القديم - انقلب رأساً على عقب!"[15].

وليس من تعليق سوى القول بأن العالم كان رأساً على عقب، ولابد له الآن أن يستعيد وضعه الطبيعي فهذه الصحراء كانت، وتكون، وستكون!.

(15) المصدر السابق ص 239 .

مؤلفات
د . علي فهمي خشيم

- النزعة العقلية في تفكير المعتزلة :

دراسة في قضايا العقل والحرية عند أهل العدل والتوحيد

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكـــر 1966

الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشـر 1975

- الجبائيان .. أبو علي وأبو هاشم :

بحث في مواطن القوة والضعف عند المعتزلة في قمة ازدهارهم وبداية انهيارهم .

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكـــر 1968

- أحمد زروق والزروقية :

دراسة عن أحد أعلام التصوف الإسلامي في شمال إفريقيا. حياته وعصره ومذهبه وطريقته.

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكـــر 1975

الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشـــر 1980

- الكناش :

صور من ذكريات الحياة الأولى لأحمد زروق .. بقلمه . مع مقدمة وتحقيق .

الطبعة الأولى - المنشأة العامـــة للنشر 1980

- كتاب الإعانة : لأحمد زروق : تحقيق وتعليق .

الطبعة الأولى - الدار العربية للكتاب 1979

- نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطي :

ترجمة كتاب (وليام سذرن) (W Southen, Western Views of Islam in the Middle Ages)

مع التعليق عليه ، ومقدمة ، بالاشتراك مع د. صلاح الدين حسن

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكـــر 1976

- حديث الأحاديث :

مناقشة صريحة لآراء وأفكار الشيخ محمد متولي الشعراوي .

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكـــر 1978

- نصوص ليبية :

ترجمة لكتابات مشاهير المؤرخين والجغرافيين اليونان واللاتين عن ليبيا القديمة مع مقدمات وتعليقات وشروح .

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكـــر 1968

الطبعة الثانية - دار مكتبة الفكـــر 1975

- قراءات ليبية :

مقالات مركزة عن الحياة والناس والأرض والتاريخ والأسطورة في ليبيا حتى الفتح الإسلامي

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكـــر 1969

- الحاجية :

من ثلاث رحلات في البلاد الليبية. رحلات الناصري والمنالي والفاسي في ليبيا محققة ومشروحة.

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر 1974

- دفاع صبراتة Apologia :

النص الكامل لدفاع (أبوليوس المداوري) في محاكمته بمدينة صبراتة مع مقدمة تحليلية وتعليقات.

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر 1975

- الأزاهير Florides :

نماذج من كتابات وخطب (أبوليوس المداوري).

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر 1979

- تحولات الجحش الذهبي :

رواية أبوليوس المداوري الشهيرة Metamorphoses مترجمة إلى العربية مع مقدمة تحليلية.

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر 1980

الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشر 1984

الطبعة الثالثة - مركز الحضارة العربية 1998

الطبعة الرابعة - مركز الحضارة العربية 2000

- حسناء قورينا :

مسرحية (بلاوتوس) Plautus المعروفة باسم Rudens.

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر 1967

-حسان :

مسرحية (جيمس فلكر) J. flecker. Hassan

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر 1977

- الحركة والسكون :

مجموعة مقالات وبحوث نقدية في مختلف الموضوعات التي اهتم بها الكاتب..

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر 1973

- أيام الشوق للكلمة :

مقالات وبحوث ودراسات.

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر 1977

- مر السحاب :

مقالات قصيرة في السياسة والأدب والاجتماع.

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر 1984

- بحثاً عن فرعون العربي :

دراسات وبحوث في اللغة والتاريخ العربي والليبي - بنظرة جديدة للتراث الحضاري.

الطبعة الأولى - الدار العربية للكتاب 1985

الطبعة الثانية - مركز الحضارة العربية 2000

- آلهة مصر العربية (في مجلدين) :

دراسة موسعة للدين واللغة في مصر القديمة لإثبات عروبتهما ، ثلاثة أجزاء في مجلدين ..

الطبعة الأولى - نشر مشترك - الدار الجماهيرية (ليبيا) ودار الآفاق الجديدة (المغرب) 1990

- سفر العرب الأمازيغ :

بحث مفصل في عروبة اللغة الأمازيغية (البربرية) ملحق به :

- لسان العرب الأمازيغ : معجم عربي - بربري مقارن .

الطبعة الأولى - دار نـــــــون 1996

- هل في القرآن أعجمي ؟

نظرة جديدة إلى موضوع قديم . بحث يصحح ما شاع من وجود مفردات أعجمية في القرآن الكريم ، يؤصل هذه المفردات ويبين عروبيتها مع مقارنات باللغات العروبية الأخرى .

الطبعة الأولى - دار الشرق الأوسط ، بيروت 1997

- في المسألة الأمازيغية :

سلسلة "الدفاتر القومية"

الطبعة الأولى - المجلس القومي للثقافة العربية - الرباط 1996

- إينـــــارو :

رواية تاريخية مستوحاة من وحدة عرب مصر وعرب ليبيا في مقاومة الاحتلال الفارسي لوادي النيل في القرن الخامس ق.م.

الطبعة الأولى - المؤسسة العربية للنشر والإبداع . الدار البيضاء . المغرب . 1995

الطبعة الثانية - مركز الحضارة العربية 1998

- التواصل .. دون انقطاع :

دراسات في تاريخ وتراث الوطن العربي القديم .

الطبعة الأولى - الدار الجماهيرية 1998

- الكلام على مائدة الطعام :

مقالات في ما يتعلق بأسماء الأطعمة وما يتصل بها أو يدخل في تركيبها من مواد وأدوات .

الطبعة الأولى - الدار الجماهيرية 1998

- رحلة الكلمات :

مقارنات بين العربية واللغات الأوروبية لبيان الصلة الوثيقة بين العربية وهذه اللغات في أسلوب عرض مبسط .

الطبعة الأولى - دار اقرأ - مالطا / روما 1986

الطبعة الثانية - مركز الحضارة العربية 2000

- رحلة الكلمات الثانية :

الطبعة الأولى - الدار الجماهيرية 1998

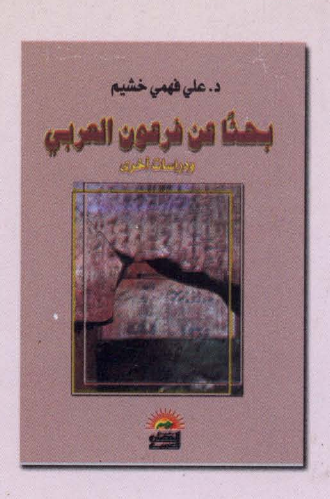
بالإنجليزية:

- Zarruq the Sufi (زروق الصوفي) :

مؤسسة (موريس الدولية) (Morris International) - لندن

المنشأة العامة - طرابلس 1974

المحتويات





تكتسب مقالات الدكتور علي فهمي خشيم أهميتها وترتدي لبوسها العصري بحيوية القضايا التي تطرحها وبفعاليتها ومساسها بواقعنا وتكويننا الحالي . إنها تضرب بعيداً في أعماق التاريخ لتعود إلينا بالكثير من ملامح شخصيتنا الحاضرة ولتجيب عن الأسئلة التي نعيشها ولتتصدى في الوقت نفسه لعمليات التفتيت والتشويه التي يتعرض لها جسم الأمة الواحدة ، وحبذا لو تعتمد هذه النظرية الموضوعية الهامة منطلقاً أساسياً لكتابة «تواريخنا» القديمة في جميع الأقطار العربية . ويحزنني أن أعترف للدكتور علي فهمي خشيم ، ولكل الغيورين على الحقيقة العلمية ، بأننا - إلى أن تتحقق الوحدة العربية وبعدها - سنظل بحاجة ماسّة إلى أمثال هذه الدراسات العلمية التي تؤكد لنا حقيقتنا الواحدة وتضاعف من شعورنا بالتلاحم . ومهما حاولنا أن ننتقص من قسوة الحدود الأساسية التي تفرق بين أجزاء الوطن الواحد وأن نستهتر بواقعنا الممزق فإنه أشد خطراً على الحقيقة العلمية مما نتصور ، وأن أفجع ما يمكن أن يتمخض عنه هذا الواقع المجزأ هو تفريخ الأوهام بأننا ننتمي إلى «أمم قديمة شتّى» وحتى تتحقق الوحدة السياسية ستلاقي هذه الأوهام من ينفخ فيها ويضخمها ويحاول إلباسها أثواب الحقيقة .

د. عماد حاتم

